وزارة الثقافة والاعلام

دائرة الاعلام/ قسم الرقابة

رقم الاجازة / ١٧٦

تاريخها : ١٩٩٥/٤/١٥

الطبعة الاولى : ١٤١٦ هجري / ١٩٩٥ ميلادي

مطبعة الحسام/ بغداد

مكتب الاثير للتنضيد الالكتروني
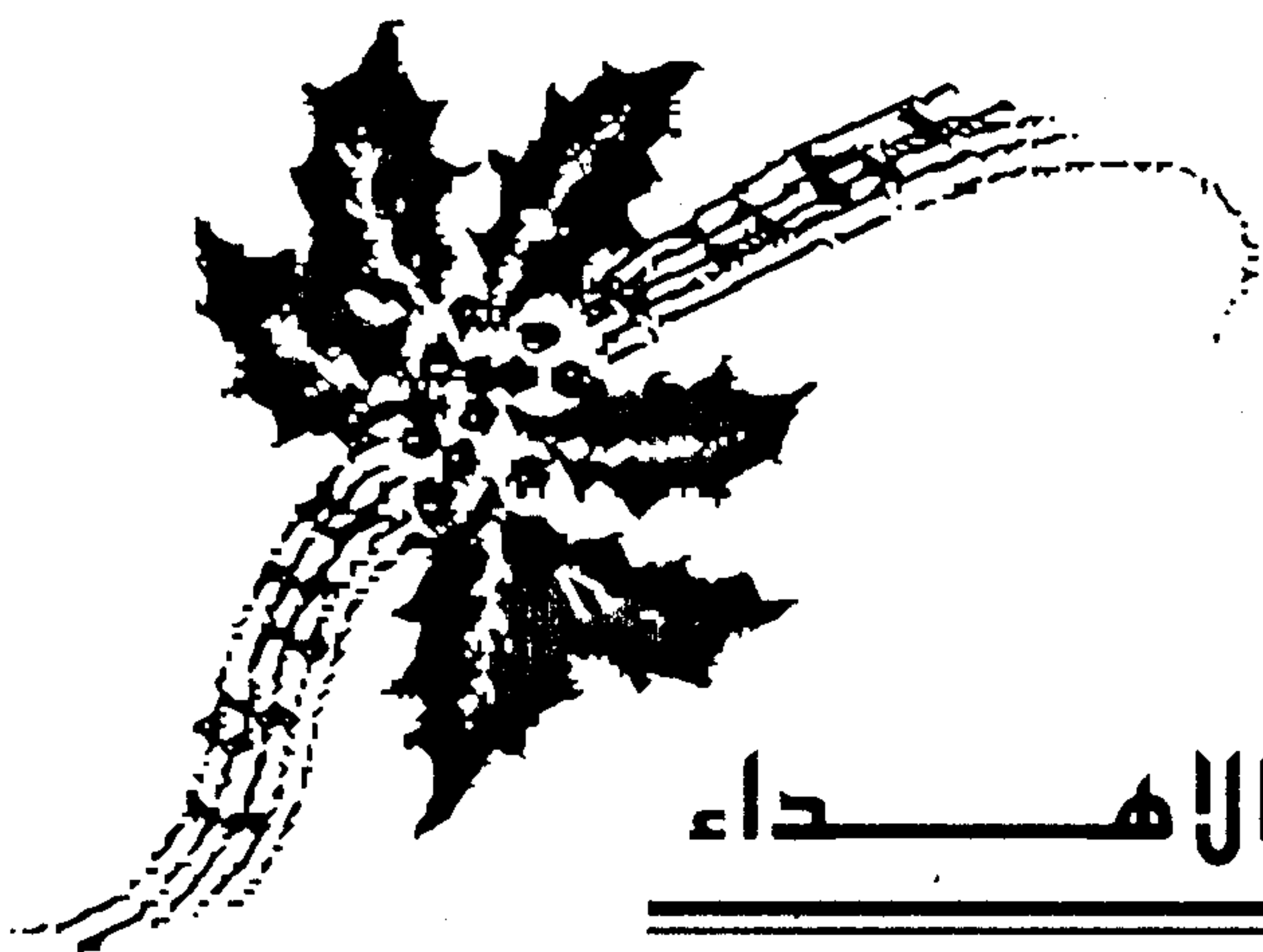
الإهــــــداء

الـــى «الذيـن قالوا لن نـؤثــرك على مـاجاءنــا مـن البينـات والذي فطرنا فأقض مـانت قاض انما تـقضي هذه الحيـواة الدنيـا . إنـا آمـنـا بـربنـا ليغفر لنا خطايانا» .

الـى «الذيـن إستـجـابـوا لـله والـرّسـول مـن بـعـد مـااصابهـم القرح» . «الذيـن قـال لهم الـنـاس ان الـنـاس قـد جـمـعـوا لـكـم فـأخشوهـم فـزادهـم ايماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل» .

ثـم الـى اخـويّ الحـبـيـبـيـن "مـصـطـفـى وعـمـر" - بـعـد إسـتـئـذان ابـويّ الـكـريـمـين - .. اقـدم بـعـض الزّاد للطريق الطويل .. عسى ان يكون نافعاً وخالصاً لوجه ربي الكريم ..

المؤلف

شكر ودعاء

بعد شكر الله - تعالى - يحق عليّ ان اشكر الايادي البيضاء التي وقفت معي في مرحلة الطبع هذه .. اولئك اخوتي النبلاء .. واخص منهم الاخ وصفي السامرائي .. الذي ضحى وبذل .. واعطى ومابخل ..

فله ولاخوتي جميعاً اطيب الود .. سائلاً المولى القدير ان يثيبهم بما قدموه سعادة الدارين ..

المؤلف

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

اللهم لك الحمد فاطر السموات والارض ، عالم الغيب والشهادة ، انت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون .

والصلاة والسلام على الهادي الى الصراط المستقيم محمد وآله وصحبه اجمعين .

اما بعد : فلقد استطاع الاسلام بعقيدته السمحة الواضحة ان يذيب كل الحواجز العرقية والطبقية وغيرها، ليدع الناس اخوة يعيشون على ارض الله ، لافضل لجنس على جنس ولا للون على لون الا بالتقوى : "ان اكرمكم عند الله اتقاكم"(١)

وسار المسلمون صفاً واحداً ، القدم بالقدم ، والكتف بالكتف ، لتحقيق خلافة الله في الارض ، ونشر النور والعدل في ارجائها .

الا ان الامة لم تلبث بعيداً حتى بدأت بوادر الانشقاق والاختلاف تظهر فيها من جديد ، ولم تكن هذه المرة للاصول العرقية او الطبقية المختلفة ، وانما للتباين الفكري الخطير الذي عدد في الامة دوائر الولاء والانحياز ، فأرتبك الصف وتعثرت خطاه .

وهذا التباين الفكري لم يستطع ان ينشر الامة ويمزقها لولا انه كان يدور حول المسائل العقيدية التي يصعب التغاضي عنها والتساهل فيها .

صحيح ان كثيراً من تلك المسائل قد نسي بطول الامد ، الا ان منها مالايزال حياً ولايزال قادراً على نفخ الروح في موات المسائل الاخرى .

لقد عالجت في بحث الماجستير واحدة من اخطر هذه المسائل الحية ، وهي مشكلة الصفات الخبرية ، وقد تبين لي حينها اننا بحاجة الى توسيع دائرة البحث لتكون دراسة موضوعية جديدة شاملة لاصول الدين والمسائل الخطيرة المتعلقة بها ، ثم المقارنة بين هذه الاصول بأعتبارها وحياً من الله - تعالى - وبين اعتبارها مزيجاً من الوحي والنتاج الفكري الانساني ثم التفريق بين المساحة التي لايمكن الخلاف فيها وهي مساحة الوحي المعصوم ، لتكون قاعدة لانطلاقتنا الفكرية الحديثة ، والمساحة القابلة للتمحيص والنقد . وهي لاشك مساحة واسعة وغنية بالآراء والخبرات المتراكمة التي لاغنى لنا عنها ابداً .

هذه دعوة واضحة لدراسة جديدة لهذا العلم وحياً وفكراً وتأريخاً ، لاستخلاص المنهج الجديد القادر على سد الثغرة ، وابعاد الاذى ، وحماية المسيرة المباركة من الارتباك ، والتفرق مرة ثانية .

---

(١) الحجرات : ١٣ .

الفصل الثالث : الاسماء والصفات .

الفصل الرابع : القضاء والقدر .

اذكر في كل فصل منهج القرآن اولاً ثم اثني بمناهج المتكلمين .

واما الباب الثالث : فخصصته لبحث النبوات ، وقسمته على فصلين :

الفصل الاول : الانبياء والرسل – عليهم الصلاة والسلام – من حيث : الايمان بهم ، ووظيفتهم ، وصفاتهم ، واسماؤهم ، ودلائل صدقهم ، واخبارهم ، في القرآن الكريم ، ثم مايميز مناهج المتكلمين من كل هذا .

الفصل الثاني : الوحي والرسالات ، تحدثت فيه عن الوحي وانواعه ، وموقف القرآن من الرسالات السابقة ، ثم ماينبغي ان يعرفه المسلم عن القرآن من القرآن ، ثم الآراء المهمة التي تميز المدارس الكلامية في كل هذا .

واما الباب الرابع : فخصصته لبحث السمعيات ، وقد قسمته على فصلين :

الفصل الاول : اليوم الآخر في القرآن الكريم ، ثم ما آثير من مسائل مهمة حول هذا الموضوع عند المتكلمين .

الفصل الثاني : العوالم الغيبية ، تحدثت فيه عن الملائكة ، والجن ومايتعلق بهم في القرآن الكريم ، ولم ار حاجة لذكر آراء المتكلمين هنا لانهم لم يأتوا بجديد في هذه المسألة لانها من الغيب البحت الذي لايعلمه الا الله ، ولاطريق للعلم به الا من جهة السمع .

وفي الخاتمة كانت الخلاصة والاستنتاجات .

هذا وقد ترجمت في الملحق بعض الاعلام التي يحتاج الى ترجمتهم مع مقدمة للتعريف بأهم الفرق .

ولقد كان كل هذا – والحمد لله – بعبارة واضحة مختصرة ، حتى اني حذفت الكثير مما جمعته خشية الاطالة ، وكلي امل ان اكون قد وفقت الى ماهدفت اليه – بعون الله ومدده – .

واخيراً فاني ارجو من القارئ الكريم ان لايبخل بنصيحة يسديها لاخيه او دعاءٍ بظهر غيب .

الباب الأول

الفصل الأول

المبحث الأول: نظرة مبدئية

المبحث الثاني: نظرة تاريخية

المبحث الثالث: صلة العقيدة بعلم الكلام

المبحث الاول
نظرة مبدئية

خلق الله الانسان ، واهبطه على هذه الارض ، لحكمة حددها هو – سبحانه – يوم ان قال لملائكته :"اني جاعل في الارض خليفة"[1] ، والخلافة انما تكون بعبادة الله وحده : "وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون"[2]

والعبادة تعني : الخضوع الكامل لرب العالمين والطاعة المطلقة لما يأمر به – سبحانه – وهذا كله لا يمكن ان يتم بل ولا يوجد اصلا الابعد ان يفهم الانسان مقدمات هذه الغاية واولياتها ، فلا بد ان يفهم الانسان المقدمات التالية :

الاولى : معرفة الله الذي خلقه لهذه الغاية ، وحين لا يعرف الانسان خالقه فلا يمكن ان يحقق الغاية من خلقه ووجوده .

الثانية : معرفة ماذا يريد الله ، فان معرفة الله المجردة لا تقود الى العبادة ، او الطاعة ، لانه لا طاعه الا ويسبقها امر . فمع جهل الانسان بالامر ، لايمكن ان نحكم عليه بالطاعة او بالعصيان .

الثالثة : معرفة ما ينتج بالنسبة له على طاعته او عصيانه ، ماذا لو اطاع ونفذ امر الله ؟ وماذا لو خالف وعصى ؟

هذه الاسئلة الثلاثة لابد ان يكون الجواب عنهاواضحا قبل البدء بأي عمل ، وقد اجابت الديانات كلها بجواب شامل مقنع ، بل وجعلت الديانات كلها مهمتها الاولى والرئيسية هي هذه .

فملئت الكتب المقدسة غير المحرفة بالحديث عن"الله"الخالق ، وشرحت اسماءه وصفاته مما يزيل اللبس والخلط ، وحددت طريق معرفة اوامر الله بالرسل الكرام المؤيدين بدليل صدقهم"المعجزة" فهؤلاء مهمتهم ايصال رسالة الله الى خلق الله ، ثم اجابت عن السؤال الاخير فحددت النتيجة بوضوح :الجنة والنعيم الابدي للطائعين ، والنار للمارقين المعتدين .

هذه الاجوبة هي التي تكون ما نسميه"العقيدة"في كل دين ، وحين نقول"العقيدة الاسلامية"فمعنى هذا اجوبة الاسلام وهو الدين الذي جاء به خاتم النبيين محمد – صلى الله عليه وسلم – على هذه الاسئلة[3]

---

(١) البقرة : ٣٠

(٢) الذاريات : ٥٦

(٣) ولذا اعتبرت اصول الدين ثلاثة : الايمان بالله ، والايمان بالرسل ، والايمان باليوم الأخر ، واكثر كتب الكلام مكرسة لهذه المسائل الثلاث ، فتراها تبدأ بالآلهيات ثم بالنبوات ثم بالسمعيات ، واغلب مايذكرون في السمعيات "اليوم الاخر" .

هذه الاجوبة الثلاثة ضمت مباحث كثيرة ، وغالبها اجوبة تفصيلية للاسئلة الثلاثة نفسها ، بمعنى ان تلك الاسئلة قابلة للتفصيل . ففي السؤال الاول من الممكن ان نفصل ونفرع فنقول : الله هو الخالق لكل شى لكن اعمالنا أنخلقها نحن ام يخلقها الله ؟ اذا اجاب الدين عن هذا السؤال فمعنى هذا تكوين مبحث رابع في "العقيدة". واذا سألنا تفريعا عن السؤال الثاني : كيف تصل رسالة الله الى رسوله ؟ فاذا اجاب الدين عن هذا السؤال بان قال : عن طريق الملائكة فمعنى هذا تكوين مبحث خامس . وحينما نفرع سؤالا آخر : ما حقيقة الرسالة التي جاء بها الرسول ؟ ويجيبنا الدين عنها بأنها "الاسلام" او "القرآن والسنة" فمعنى هذا تكوين مبحث سادس . لهذا ورد عن الرسول محمد – صلى الله عليه وسلم – انه عرف الايمان بهذه الاجوبة فقال : ان تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الاخر وتؤمن بالقدر خيره وشره"[1] وهذه السته قد تكون اكثر كلما تفرعت الأسئلة ، فيمكن ان يتفرع عن الكتاب "الايمان بانه خالد" و"الايمان بانه معجز" و"الايمان بانه محفوظ من التحريف" و"الايمان بانه الرسالة الخاتمة" وهكذا ، ولكن الحقيقة ان كل هذه التفريعات من الممكن ان تختصر بضم بعضها الى بعض حتى ترجع ثلاثة .

ومن الممكن ان يفهم الانسان الاجوبة الصحيحة المختصرة عن هذه الاسئلة الثلاثة، ثم ينطلق الى ميدان العمل ، ميدان الخلافة ، اذ ان وظيفته الاولى هي هذه ، انها – والله – مقاولة عمل ، يعرف العامل من رب العمل ، وكيف يتسلم منه التوجيه ، وما هو اجره ، وبعد هذا فلا يحسن بالعمال ان ينشغلوا بهذه ويقفوا عندها ، بل الساحة تنتظرهم .

هكذا فهم السلف عقيدتهم ، وكل سيرهم واخبارهم الجماعية والفردية تشخص بهذه الحقيقة : انهم عرفوا الله ، وعرفوا اوامره عن طريق رسوله ، وعرفوا يوم الحساب والجزاء ، فانطلقوا . فهل الذين جاؤا من بعدهم كذلك ؟ بل هل نحن كذلك ؟ لنر النظرة التاريخية .

---

(١) رواه مسلم ، صحيح مسلم بشرح النووى : ١/١٥٧ . والبخارى نحوه ، فتح الباري : ٨/ ٥١٣ . والترمذي : الجامع الصحيح : ٥/ ٨ ، وغيرهم .

المبحث الثاني
نظرة تاريخية

العقيدة الاسلامية بأركانها الثلاثة ، عقيدة هادفة ، تسعى لغايتها بشد وحزم ، ولم تكن الطريق امامها معبدة او مفروشة بالرياحين ، لقد شخصت امام خطواتها مائة مشكلة ومشكلة ، وسال الدم على جنبات الطريق ، وسخّر الشيطان حزبه لأعاقة المسير ، مشككين ومخذلين ، او مجابهين ومقاتلين ، وكانت الحرب سجالاواولى اليوم ، فهل مع كل هذا حافظت العقيدة الاسلامية على نصاعتها ؟ وهل بقيت في قلوب اتباعها كما نزلت اول مرة ؟ لابد من الجواب الواضح الصريح ، فانه اهم سؤال بعد الاسئلة الثلاثة الاولى . وللاجابة الواضحة الصريحة – ان شاء الله – سنحاول ان نتابع مسيرة هذه العقيدة على هذه الارض وفق مراحل رئيسية ، ثم نرى اين نحن الآن بين هذه المراحل ونستشف الجواب مستعينين بحقائق التاريخ :

المرحلة الاولى : مرحلة الصفاء :

ونعني بها مرحلة الوحي وما كان قريباً منها . حيث كانت العلوم الاسلامية كلها تمثل علما واحدا مصوغا بصياغة الوحي ، وارتبط بهذا توحيد مصدر التلقي عند المسلمين ، وكل سؤال طارىء فالوحي يجيب عنه ، وكل مؤامرة او مجادلة باطلة فالوحي يكشفها .

لقد تسلم الناس آنذاك الاجوبة المقنعة لبداية كل عمل : من رب العمل ؟ وكيف نأخذ التوجيه منه ؟ وماهو اجرنا ؟. فالله ربهم ، وتوجيهه عن طريق رسوله ، والاجر الجنة ، هذه عقيدة الوحي ، وهي عقيدة السلف السهلة الواضحة المقنعة ، تسلموها وانطلقوا ، انطلقوا في المشروع الكبير ، وانجزوا ما انجزوا .

سمات هذه المرحلة واضحة لا لبس فيها ولا غموض ، جيل اجير عند ربه لغاية رسمها هو – سبحانه – . فهمها الصغير والكبير ، الرجل والمرأة ، الشريف والوضيع ، لم يعانوا من اي مشكلة في جانب الاوليات والمنطلقات ، كانت تواجههم مشاكل عملية : الاستهزاء ومكر الشيطان ، وسيف المشركين ، لكنهم بعقيدتهم عرفوا دور هؤلاء جميعاً ، فلم يكترثوا بهم ، لقد قالت لهم عقيدتهم :"ولو يشاء الله لانتصر منهم ولكن ليبلو بعضكم ببعض"[1] فصبروا على الابتلاء ، حتى النفس الاخير..

المرحلة الثانية : مرحلة الخرق :

نعني بهذه المرحلة تلك التي اعقبت الفتوحات الاسلامية الكبرى ، حيث انتهت

---

(١) محمد : ٤ .

قعقعة السلاح او كادت ، في العراق والشام وغيرها . ولكن على رماد تلك المعركة ، قامت معركة اخرى معركة الفكر التي اقحم المسلمون فيها من غير استعداد كاف ، ذلك ان الاسلام بفتوحاته هذه قد صدم واصطدم بدوائر حضارية كبيرة وعريقة ، وما كان من السهل على اولئك الاميين بالرغم مما اوتوه من نور الوحي ان يفهموا طبيعة تلك الفلسفات التي قامت عليها تلك الحضارات ، فضلا عن كشف عوارها وازاحتها عن الطريق .

لقد استطاع الاسلام ببساطته وشموليته وواقعيته ان يزيح آثار تلك الفلسفات عن عقول الجماهير الكبيرة في هذه البلاد ، ودخل الناس في دين الله افواجا ، الا ان الساسة واهل الرأي والنفوذ فيهم الذين آلمهم سقوط مجدهم وزوال سلطانهم ، ما تركوا الساحة ابدا ،وانما كما يقال هربوا من الباب فدخلوا من الشباك ، لقد انهزموا في المعركةوربما دخلوا في الاسلام ايضاً لكن ليبدءوا مع الاسلام معركة اخرى ، والمعركة هذه كانت خطيرة وواسعة ، استخدم فيها اولئك الغدر والخيانة مع الكيد الفكري المنظم ، فلقد استطاعوا قتل الخليفة الثاني ، عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – وربما كانوا ايضا السبب في مقتل عثمان – رضي الله عنه – ثم في الفتنة الكبرى : فتنة علي ومعاوية وعائشة وطلحة والزبير –رضي الله عنهم – وفي الجانب الاخر استطاعوا فعلا ان يحدثوا خرقا كبيراً في نمط التفكير عند المسلمين ، اخرجوهم به من دائرة العمل الى دائرة الجدل ، ومن ميدان التكليف الى ميدان الغيب .

انني فعلا لا اميل الى ان نلقي دائما بأسباب اخفاقاتنا الى ما وراء الحدود ، الى العدو الحاسد الحاقد ، غير اننا هنا نرى الامر واضحا جليا ، هؤلاء الذين كانوا يحملون ثقافات عريقة ورثوها عن آبائهم واجدادهم ، هل كان من السهولة ان يتناسوها جملة واحدة ؟! كان من الطبيعي ان يثيروا – ولو بحسن نية – جملة من التساؤلات ، ويريدون الاجابة عليها ، ولنأخذ بعض الامثلة وسيتبين من خلالها مدى تأثير هذه التساؤلات على ما حدث للامة بعد مرحلة الصفاء :

أ – من عقائد بلاد فارس المعروفة عقيدة"الثنوية"وهي القول بقديمين مؤثرين في الوجود : احدهما مسؤول عن الخير وهوالنور ، والثاني عن الشر وهو الظلام ، هذه العقيدة لم تزل بالفتوحات الاسلامية ، والدليل على انها لازالت تحتفظ ولو ببعض كيانها هو ما نقرأه عن علمائنا من اهتمام بمناقشة هذه العقيدة وردها حتى بعد الفتوحات بقرون ، وانظر مثلا الى الباقلاني – رحمه الله – كيف عقد بابا خاصا في كتابه"التمهيد "للرد على هؤلاء ،وقد ذكر لهم شبها كثيرة وانشغل كثيرا بردها [1] والباقلاني توفي سنة (٤٠٣) للهجرة فليتأمل .

ان الاسلام حينما جاء ليهزم هذه العقيدة الشركية بعقيدته التوحيدية ، فانه سيشخص امام الفاتحين سؤال صعب : اذا كان ماثمة الا اله واحد ، فمن خالق هذا

---

(١) الباقلاني : التمهيد ٧٨ – ٨٧ . وانظرترجمته في الملحق .

الشر الذي نراه ونلمسه ؟ الله ام غيره ؟ اذا كان الله فهذا نقص ، واذا كان غيره ، عدتم الى الثنوية .

هذا السؤال وجه الى المسلمين ، ولم يكن لهم جواب موحد ، فاختلفوا ، لقد جاؤا الى القرآن فوجدوا القرآن يقول :"الله خالق كل شئ" [١] ويقول :"ما اصابك من حسنة فمن الله وما اصابك من سيئة فمن نفسك" [٢] فالسيئة أهي من الله لان الله خالق كل شئ ؟ ام هي من نفسك ؟! تباينت الاجوبة وكان هذا التباين بداية الخطر ، فكل مانسمعه من فرق ظهرت في تلك الحقبة كالقدرية والجبرية وغيرهما كانت لهذا التباين .

والدليل على ان هذا السؤال طرح عقيب الفتوحات مباشرة ، وانه بتأثير اولئك ما رواه مسلم في صحيحه عن يحيى بن يعمر : قال :"كان اول من قال في القدر بالبصرة معبد الجهني . فانطلقت انا وحميد بن عبد الرحمن الحميري حاجين او معتمرين ، فقلنا : لو لقينا احدا من اصحاب رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فسألناه عما يقول هؤلاء في القدر . فوفق لنا عبد الله بن عمربن الخطاب داخلا المسجد ، فاكتنفته انا وصاحبي احدنا عن يمينه والاخر عن شماله ، فظننت ان صاحبي سيكل الكلام الي ، فقلت ابا عبد الرحمن : انه ظهر قبلنا اناس يقرؤن القرآن ويتقفرون العلم ، وذكر من شأنهم ، وانهم يزعمون ان لاقدر وان الامر أنف ، قال : فاذا لقيت اولئك فاخبرهم اني بريئ منهم وانهم براء مني ، والذي يحلف به عبد الله بن عمر : لو ان لاحدهم مثل أحد ذهبا فانفقه ماقبل الله منه حتى يؤمن بالقدر" [٣]

ب – من عقائد اهل الشام النصارى عقيدة التثليث ، والقول بالوهية عيسى – عليه السلام –وكان على الاسلام ان يبطل هذا الشرك بعقيدة التوحيد فالله خالق عيسى ومن سواه ، ومع ان جمهوراهل الشام قبلوا عقيدة التوحيد هذه لكنه من الطبيعي ان يبقى فيهم من يأبى الا العناد والمكابرة ، وانه سيعمل لرد هذه العقيدة الغازية بما يستطيع ، انه يستطيع ان يقول : عيسى كلمة الله ، فهل كلام الله مخلوق ؟ لقد روى بعض المؤرخين مايثبت هذا ، فقد رووا عن يوحنى الدمشقي انه كان يلقن بعض المسيحيين ليجادلوا المسلمين ، فيقول :"اذا سألك المسلم : ماتقول في المسيح ؟ فقل انه كلمة الله . ثم ليسأل النصراني المسلم : بم سمي المسيح في القرآن ؟ وليرفض ان يتكلم بشئ حتى يجيب المسلم ، فأنه سيضطر الى ان يقول :"انما المسيح عيسى بن مريم رسول الله وكلمته القاها الى مريم وروح منه" [٤] فليسأله عن كلمة الله وروحه أمخلوقة هي ام غير مخلوقة ؟" [٥] .

---

(١) الزمر :٦٢ .
(٢) النساء : ٧٩ .
(٣) صحيح مسلم بشرح النووي : ١/ ١٥٠-١٥٦ .
(٤) النساء : ١٧١
(٥) ابو زهرة ، المذاهب الاسلامية : ٢٦٠ . ونقل النص عن كتاب تراث الاسلام .

ان هذا السؤال صحت به الرواية ام لا وارد ، وربما يكون هذا السؤال قد واجه الفتح الاسلامي من البداية ، وانه هو الذي فرق الامة الى فرق اخرى وبشطريه ، اما الشطر الاول : فالسؤال عن كلام الله ، امخلوق هو ام لا ؟ لقد صدر جوابان ضدّان لهذا السؤال ، قال المعتزلة : كلام الله مخلوق وعيسى مخلوق ، وقال اهل السنة : كلام الله صفة له ، وصفات الله قديمة بقدمه - تعالى - واما عيسى : فأنه مخلوق . وانه كان بكلمة الله ، ولا يعقل انه هو الكلمة .

واما الشطر الثاني فمع اتفاق المسلمين على الاجابه عنه بتأويله على معنى الاضافةالاختصاصية ، لا الوصفية ، بمعنى ان عيسى روح الله ، اي : الروح المخلوقة لله ، كما قال عن ادم - عليه السلام - :"فاذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين"[1] ، فآدم ليس الها باتفاق ، وكذلك عيسى اذ هو روح الله كما تقول : خلق الله ، وبيت الله وناقة الله ، واضافة بعض مخلوقات الله الى الله تعني نوعا من التشريف او نحوه ، غير ان هذا الاتفاق لم يحل دون الانشقاق حيث اصبح القول بوجود اضافة على معنى الاختصاص والتشريف هو المتكأ العريض للمدرسة العقلية في تأويل كثير من "الصفات الخبرية" فقول الله - تعالى -"تجري بأعيننا"[2] ، قال المؤولون من الممكن ان تكون العيون التي فجرها الله في الارض واضافها الى نفسه للاختصاص ، يقول البغدادي : "وقوله في سفينة نوح :"تجري باعيننا" ، اراد بها العيون التي جرت بها السفينة من الماء لانه قال : "ففتحنا ابواب السماء بماء منهمر وفجرنا الارض عيونا فالتقى الماء على امر قد قدر"[3] وانظر الى الجويني كيف يصوغ المسألة :"ثم لابعد في تكريم بعض العباد بالتخصيص بالذكر ، ونظائر ذلك في كتاب الله كثيرة ، فانه - عز اسمه - اضاف الكعبة الى نفسه ... واضاف روح عيسى - عليه السلام - الى نفسه ، والاضافه تنقسم الى اضافة صفة ، واضافة ملك واضافة تشريف[4] ثم يقول : "ومما يجب الاعتناء به معارضة الحشوية بآيات يوافقون على تأويلها ، حتى اذا سلكوا مسلك التأويل ، عورضوا بذلك السبيل فيما فيه التنازع[5] فذاك الاتفاق اذاً لم يحل دون هذا الاختلاف بل جعل مقدمة له ، وسلاحا في المعركة .

اننا نخلص من هذين المثالين الى تشخيص دقيق لهذه المرحلة . انها مرحلة الارتباك والاضطراب ، مرحلة نشوء الفرق المتباينة المتناحرة .

لقد تميزت هذه المرحلة بمحاولة الوقوف امام التشكيك الخارجي او الغزو

---

(١) الحجر : ٢٩ .

(٢) القمر: ١٥ .

(٣) البغدادي : اصول الدين : ١١٠ . والاية ، القمر : ١١-١٢ .

(٤) الجويني : الارشاد ١٥٦ .

(٥) المصدر السابق : ١٦٠ .

الفكري ، وكانت فيه الحرب سجالا ، الا انها اغنت العقل الاسلامي بتجربة هائلة ونتاج فكري كبير ، لكن هذا صحبته رعشة داخلية اتخذت في الاغلب طابع ردود الافعال العنيفة ، والفتاوى المتشنجة التي يصدرها كل فريق بحق الفريق الاخر. وربما صاحب هذه الفتاوى اضطهاد سياسي وكبت لحرية التعبير عن الرأى ، كما هو الحال ايام سطوة المعتزلة وفتنة الامام احمد – رحمه الله – .

المرحلة الثالثة : مرحلة الاستقرار :

ونعني بها تلك المرحلة التي هدأت فيها الاطراف المتصارعة، لطول الامد اولا ، ولتعرض الامة لخطر الاعدام الجماعي على يد فكي الكماشة الظالمة الغاشمة ، حيث كانت الهجمة الشرقية التترية التي لاتبقي ولاتذر والمتزامنة مع الهجمة الغربية الصليبية ، لقد كانت اياما سوداء ، ذبح فيها العلم وانتهكت فيها الاعراض وأهين المسجد الاقصى، وسقطت بغداد وسال نهرها بالدم والمداد ، ان هذه المحنة اماتت ردود الافعال الداخلية واتجهت الانظار لدفع الخطر الخارجي ، وكانوا بحاجة الى منهج وسطي ينصب الجسور بين المذاهب المتصارعة ، ويدفع الجميع نحو الجبهة .

لقد فتش صلاح الدين الايوبي عن هذا المنهج القادر على اقناع الجميع واماتة روح الحساسية في نفوس المختلفين ، فوقع اختياره على المذهب الاشعري ، وتقبل الناس هذا الاختيار ، وعم الوفاق – الا ماشاء الله – فاصبحت الامة تقريباً على مذهب اعتقادي واحد ، يقول المقريزي – رحمه الله – :"فلما ملك السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن ايوب ديار مصر ، كان هو وقاضيه صدر الدين عبدالملك بن عيسى بن برباس المازني على هذا المذهب ، قد نشأ عليه منذ كانا في خدمة السلطان الملك العادل نورالدين محمد بن زنكي بدمشق ، وحفظ صلاح الدين في صباه عقيدة الفها له قطب الدين ابو المعالي سعود بن محمد بن مسعود النيسابوري فصار يحفظها صغار اولاده، فلذلك عقدوا الخناصر وشدوا البنان على مذهب الاشعري ، وحملوا في ايام دولتهم كافة الناس على التزامه"ويقول ايضا :"هذا هو السبب في اشتهار مذهب الاشعري وانتشاره في امصار الاسلام بحيث نسي غيره من المذاهب وجهل حتى لم يبق اليوم مذهب يخالفه الا ان يكون مذهب الحنابلة" [1].

والمذهب الاشعري لم يستطع ان يحقق هذا بقوة السلطان فحسب اذ لو كان الامر كذلك لزال بزوال السلطان ، غير ان طبيعة هذا المذهب قادرة في الاغلب على قتل روح الحساسية، انه مذهب توفيق وسطي ، ولذا استطاع ان يضم في داخله اتجاهات متجاورة متآخية مع مابينها من خلاف منهجي، فقد ضم جمعا كبيرا من المفسرين والمحدثين والاصوليين والفقهاء واللغويين وغيرهم ، فصار هذا المذهب بواقعه يضم

---

(١) المقريزي : الخطط : ٢/٣٥٨-٣٥٩.

اتجاهات مختلفة . فمثلا لو نظرت الى تيار امام الحرمين الجويني ثم وريثه الحق الغزالي ثم الرازي لوجدت ان هؤلا الثلاثة - عليهم رحمة الله - يمثلون التيار الاشعري العقلي او الفلسفي ، ولو اتجهت الى الخطابي والبيهقي والنووي وابن حجر - رحمهم الله - لرأيتهم يمثلون التيار الاشعري الحديثي ، الذي شاع عذه الاهتمام بالسنة والحديث اكثر من الاتجاه الاول ، هذان التياران مع الخلاف المنهجي بينهما بقيا متآخيين يعضد احدهما الاخر . وهذا ماتحتاجه الامة دائما : التعددية التخصصية القائمة على اساس الحب وحسن الظن !! وفي رأيي ان هذا هو الذي حشد الطاقات لبناء الامة الاسلامية من جديد، وللوقوف بوجه التحديات حتى كل هذا كله بفتح عظيم وصلاة في المسجد الاقصى .

صحيح ان هذه المرحلة لم تخل من خلاف وصراع لاسيما بعد ظهور ابن تيمية - رحمه الله - لكن ابن تيمية وغيره ما استطاعوا ان يحدثوا تيارا كبيرا يواجه السيل القوى . فبقيت هذه المرحلة تمثل الاستقرار من حيث العموم او الاغلب .

والصحيح ايضا ان هذا الاستقرار والوفاق لايعني بالضرورة ان المنهج الاشعري هو الحق في كل تفصيلاته . وانما يعني شيئا واحدا مهما هو ان المنهج هذا لديه القدرة على التوفيق والمصالحة لما يحويه من مرونة وسعة صدر وقدرة على تحمل الرأي المخالف او التعددية المذهبية .

المرحلة الرابعة : مرحلة السبات :

لقد زال خطر التتار وانهزم الصليبيون ، وعاد الامن الى المسلمين بعد مرحلة من الاستقرار الفكري . ولم ير المسلمون هذه المرة من اعدائهم المهزومين ما رأوه سابقا من فارس والروم ، فلم يطرح المنهزمون اسئلة كتلك ، فاستسلمت الامة لنوع من الخدر الفكري ، ولم تعد طروحات العلماء سوى ترديد لاقوال اسلافهم ، انها مرحلة سبات فكري حقيقية ، لكن الجانب العملي كان متيقظا ، فقد انطلقت جيوش العثمانيين الى قلب اوربا فاتحة مبشرة بدين الله . ودخلت اقوام كثيرة في دين الاسلام ، كأهل البوسنة والهرسك وغيرها .

لكن هذا التيقظ العسكري مالبث هو الاخر ان انحسر مده وبدأت فيه سنة من النوم تحولت بمرور الزمن الى نوم عميق .

بعد هذا كله اصبحت الامة تعيش سباتا حقيقيا في كل الميادين : الفكرية والعسكرية، والاقتصادية ، واستمر هذا الوضع حتى سقوط الخلافة الاسلامية ، وسيطرة الاستعمار - اليهودي الصليبي - على مقدرات المسلمين . هذه السيطرة التي لم تكن في الجانب العسكري فحسب بل وفي الجانب العلمي والفكري والاقتصادي ، وشاعت في الامة بعد هذا مفاهيم غريبة عن الاسلام ، اسئلة لم يسمع بها المسلمون من قبل، اسئلة تتناول كل شئ : العقيدة ، والاقتصاد ، والمرأة ، والاخلاق .... الخ وراحت الامة مغمضة

العينين تسير خلف اعدائها ، والى اين ؟ لاتدري ، فأسفرت المرأة المسلمة ، وانتشرت مصارف الربا، وشتم ابناء المسلمين الله ورسوله !!!. وضاع كل شئ !!! حتى اذن الله بمرحلة اخرى فلنر ماهي :

المرحلة الخامسة : مرحلة الصحوة المباركة :

قبل ان تسقط الامة في الهاوية استيقظت ، فهال اعداءها استيقاظها ، استيقظت ووجدت نفسها مخترقة اختراقا اعتقاديا وفكريا خطيرا ، فبدأت عملية التطهير والصراع الفكري داخل الجسد الاسلامي ، وانبرى في مشرقها ومغربها علماء ومفكرون كبار ، استنفروا طاقاتهم كلها لرد الغزو الفكري ، وساهمت هذه الجهود فعلا في ايقاف الانحدار ، بل ورد الفكر الغازي، وانتشرت في الامة مظاهر الصحوة الاسلامية المباركة . فبرز الحجاب والنقاب بعد السفور ، وملئت المساجد بالشباب بعد خلوها منهم زمنا طويلا، وانتشر الكتاب الاسلامي ولقى رواجا لامثيل له . هذا كله حق لايناقش فيه احد. لكن ماذا بعد هذا ؟!.

ان الحماس الاسلامي لرد الشيوعية الشرقية والمادية الغربية ساهم في توحيد الجهد الاسلامي ، لكن الفكر الاسلامي بصورة عامة كان في هذه المرحلة فكرا سلبيا بمعنى انه اقتصر في الغالب على الدفاع عن النفس ، لدفع الخطر ، وبعد ان دفع الخطر او كاد، كان لابد من بناء الفكر الداخلي الايجابي من جديد ، وهي عملية شاقة شاقة ، لقد صحونا بعد نوم طويل ، صحونا وفي مكاتبنا الاف الكتب التي تحمل فلسفات الاجيال الماضية ونظرياتهم المتضاربة والمصبوغة كل واحدة منها بالمرحلة التي عاشتها. فمن اين نبدأ ؟ وماهي موادنا الاولية في البناء ؟ ان هذه الاسئلة اول ما تنقدح في الذهن تنقدح حول الاساس الذي ينبغي ان يقوم عليه البناء ، "العقيدة" فكيف نصوغ عقيدة هذا الجيل؟ عقيدة الصحوة المباركة ؟.

ان منا من ذهب يقلب اوراق الماضي فعثر على "ابن تيمية" صاحب المؤلفات الاعتقادية الكثيرة . ان هذه الكثرة مع مايتميز به اسلوب ابن تيمية من قوة وجزالة ووضوح وواقعية مع استشهاده الكثير بنصوص الكتاب والسنة ، كل هذا ساعد على ان يكون ماكتبه ابن تيمية في مضمار العقيدة مرشحا لان يمثل اساس البناء العقيدي لجيل الصحوة ، في نظر الكثير من الناس .

لكن الصراحة التي في كتب ابن تيمية واسلوبه المتشدد في النقد والرد ، وتجريحه برجالات يعدون محط ثقة الجمهور الاسلامي، ولّد هذا ارباكا جديدا وصراعا مريرا .

واتجه البعض الى ماوجدوه عند "الغزالي" الرأس المقابل لابن تيمية – عليهما الرحمة – فوجدوا ضالتهم ، انها عقيدة تتسم بالوضوح والصراحة وفيها من اثر التربية الروحية الشفافة التي تجذب الاخرين اليها . ولكن نقد ابن تيمية له وتشخيصه لبعض

الهفوات سيما تلك المتعلقة بالجانب الفلسفي ، ومايظهر من قلة بضاعته في الحديث[1] .
ثم في طبيعته الهادئة التي قد لاتتناسب مع متطلبات الجيل الثائر ، كل هذا ولد ايضا ارباكا وزاد من حدة الصراع .

ان هذين النموذجين ليس وحدهما في الساحة ، فالساحة تعج بعشرات النماذج والطروحات المتباينة ، فالوضع جد خطير مالم يهئ الله لهذه الامة سبيل رشد يقيها هذه الازمة ، التي ساعد على تعقيدها العدو المتربص ايضا وعملاؤه في المنطقة الاسلامية . ان كبت الحريات ، واستخدام وسائل الاعلام الموجهة ، التي تسمح لهذا التيار ولاتسمح لذاك ، وقد ينعكس الامر، كل هذا ولّدزعزعة في الثقة ، وتبادلا في التهم ، وضبابية في الرؤية والتقييم .

واذ نسأل بعد هذا ما الحل ؟ فمن الممكن ان يكون الجواب بالنقاط التالية :

١- الدعوة التى تبسيط المسائل الاعتقادية ، فلايطرح على الناس الا الاصول المتفق عليها الواضحة ، ووقاية الناس بصورة عامة من التفصيل والتفريع ، فان الانسان لو ردد هذين السطرين لاغير فانه بالاجماع مسلم ، ولو لم يخض في اي تفصيل اخر : "آمنت بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الاخر والقدر خيره وشره ، وآمنت بكل ماجاء في القرآن انه الحق وماجاء في السنة الصحيحة كذلك ، وتبرأت من كل مايخالف ذلك"فلو قال شخص هذا ومات فانه يموت على الايمان ، فلماذا نقحم الناس في مسائل لايقدرون على فهمها وقد نكون سببا في فتنتهم ؟!

٢- لا بأس ، بل يجب ان نعد المتخصصين الاكفاء في جانب العقيدة الذين يستطيعون ان يقرأوا مصادرنا الصحيحة في العقيدة ، ويقرأوا التاريخ ، ويستخلصوا منه التجارب والدروس ويفرقوا بين الوحي الالهي المعصوم وبين الفكر الانساني القابل للزلل والخطأ .

٣- ان ندعوا الى دراسة قرآنية بحتة ، لان القرآن حوى وبالتفصيل مسائل العقيدة المهمة كلها - كما سترى - وان لغته فيها كانت لغة سهلة ، لاتحتاج في الغالب الى التفسير ، وهذه من منّه - تعالى - ورحمته ، فأي عربي يقرأ ايات الايمان بالله او برسوله او باليوم الاخر فانه يفهم المقصود منها اوضح بكثير من المسائل الاخرى كالوضوء واحكام الحج .

٤- ان نشجع روح السماحة وحسن الظن في نفوس الباحثين ، وان المخطئ منهم له اجر . ومن كان له اجر على خطئه من الله فكيف يجوز لي ان ارتب عليه عقوبة وقطيعة ؟ ، وقد صح عن النبي - صلى الله عليه وسلم - انه قال : "اذا حكم الحاكم

---

(١) ومما يؤيد - ربما - قلة بضاعته في الحديث "الاحياء" بعد تخريج العراقي لاحاديثه ، فالغزالي يستشهد بعدد هائل من الاحاديث التي لا اصل لها، فضلا عن الضعيفة منها . انظر الاحياء بتخريج العراقي .

فاجتهد ثم اصاب فله اجران واذا حكم فاجتهد ثم اخطأ فله اجر" [1] ، ولم يفرق الرسول - صلى الله عليه وسلم - بين المجتهدين في المسائل الاعتقادية او المسائل الفقهية ، بل انظر في هذا الحديث الذي ساقه ابن تيمية للاستشهاد به في هذه القضية ، يقول ابن تيمية : "وكنت دائماً اذكر الحديث الذي في الصحيحين في الرجل الذي قال : "اذا انا مت فاحرقوني ، ثم اسحقوني ، ثم ذروني في اليم ، فوالله لئن قدر الله على ليعذبني عذابا ماعذبه احدا من العالمين ، ففعلوا به ذلك ، فقال الله له : ماحملك على مافعلت ؟ قال : خشيتك فغفر له "فهذا رجل شك في قدرة الله في اعادته اذا ذرى بل اعتقد انه لايعاد ، وهذا كفر باتفاق المسلمين ، لكن كان جاهلا لايعلم ذلك ، وكان مؤمنا يخاف الله ان يعاقبه ، فغفر له بذلك . والمتأول من اهل الاجتهاد الحريص على متابعة الرسول - صلى الله عليه وسلم - اولى بالمغفرة من هذا [2] !!!.

٥- ان ننبه الناس على خطورة الوضع الذي نعيشه ، والتآمر العالمي الذي يهدد مستقبل الاسلام على هذه الارض ، لكيلا نصاب بخدر الامن الكاذب ، فان الانسان حينما يأمن اكثر فانه ينشغل بما لاينبغي ان ينشغل به ، ان لفت انظار الناس الى الخطر الحقيقي الذي يتهدد دينهم ووجودهم يساعدنا في اماتة روح الحساسية بين المسلمين بحيث نستطيع بعدها ان نتحاور في اي مسألة ولانخشى ردة الفعل المتشنجة ، تماما كما حدث ايام صلاح الدين ، وما اشبه ايامنا بتلك ، وما احوجنا الى صلاح الدين الجديد !!.

---

(١) رواه البخاري ، صحيح البخاري : ٢٦٨/٤.

(٢) ابن تيمية : مجموع الفتاوى : ٢٣١/٣. والحديث رواه البخاري بألفاظ متقاربة ، فتح الباري : ٤٦٦/١٣ ، ورواه مسلم : وهذا نص روايته : "عن ابي هريرة أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : قال رجل لم يعمل حسنة قط لاهله : اذا مات فحرقوه، ثم اذروا نصفه في البر ونصفه في البحر ، فوالله لئن قدر الله عليه ليعذبنه عذابا لايعذبه احداً من العالمين ، فلما مات الرجل فعلوا ماامرهم ، فامر الله البر فجمع مافيه ، وامر البحر فجمع مافيه ثم قال : لم فعلت هذا ؟ قال : من خشيتك يارب وانت اعلم ، فغفر الله له" صحيح مسلم بشرح النووي : ٧٠/١٧-٧١.

المبحث الثالث
صلة العقيدة بعلم الكلام

العقيدة أهي علم الكلام نفسه ؟ ام هي غيره ؟ ام لاهي هو ولاهي غيره ؟

الاجابة على هذا السؤال ، واهميتها لاتحتاج الى دليل ، فلنر اولا اقوال العلماء في حقيقة الصلة بين علم العقيدة وعلم الكلام ، ونستطيع ان نجملها في ثلاثة اقوال :

القول الاول : علم العقيدة هو علم الكلام نفسه . يقول التفتازاني - رحمه الله - : "الكلام هو العلم بالعقائد الدينية عن الادلة اليقينية" [(١)] ، ويوضح هذا اكثر فيقول : "فان مبنى علم الشرع والاحكام واساس قواعد عقائد الاسلام ، هو علم التوحيد والصفات ، الموسوم بالكلام ، المنجي عن غياهب الشكوك وظلمات الاوهام" [(٢)] .

القول الثاني : علم العقيدة هو غير علم الكلام ، بل هو مخالف له ، ويكفي ان نعلم ان السيوطي - رحمه الله - الف كتاب خاصا لهذا الغرض اسماه "صون المنطق والكلام عن فن المنطق والكلام" نقل فيه مئات الاقوال التي تعضد هذا الاتجاه عن كثير من علماء الامة ، فلقد نقل مثلا قول سفيان الثوري - رحمه الله - وقد سئل عن علم الكلام ، فقال : "دع الباطل اين انت من الحق ؟ اتبع السنة ودع الباطل" [(٣)] . وينقل طاش كبرى زادة عن ابي يوسف - عليهما الرحمة - انه قال :"لاتجوز الصلاة خلف المتكلم وان تكلم بحق فهو مبتدع " [(٤)] . وعن الامام الشافعي - رحمه الله - انه قال : "لو يعلم الناس مافي علم الكلام من الاهواء لفروا منه فرارهم من الاسد" وقال ايضا : "حكمي في اهل الكلام ان يضربوا بالجريد والنعال ويطاف بهم في العشائر والقبائل ، ويقال : هذا جزاء من ترك الكتاب والسنة واقبل على الكلام" [(٥)] .

القول الثالث : ان العقيدة لاهي علم الكلام ولاهي غيره، وعلى هذا القول الجمهور الغفير من العلماء ، فعلم الكلام عند هؤلاء مرتبط بالعقيدة لحراستها ورد الشبه عنها ، وهذا معناه ان علم الكلام موضوعه : علوم العقيدة ولكنه اضاف اليها ماتندفع به شبه

---

(١) التفتازاني ، شرح المقاصد : ١٦٣/١.

(٢) التفتازاني ، شرح العقائد النسفية : ٥-٦.

(٣) السيوطي ، صون المنطق والكلام عن فن المنطق والكلام : ٥٧.

(٤) طاش كبرى زادة ، مفتاح السعادة : ١٣٧/٢.

(٥) المصدر السابق : ١٣٨/٢ ، وانظر : شرح العقيدة الطحاوية لابن ابي العز : ١٧/١-١٨.

المشككين والضالين ، وهذه الاضافة قابلة للنقد لانها ليست من الوحي ، اما الوحي فلا ، وهذه نماذج من اقوال العلماء :

يقول الغزالي – رحمه الله – : "وانما المقصود منه حفظ عقيدة اهل السنة وحراستها من تشويش اهل البدعة "[1] .

ويقول ابن خلدون – رحمه الله – :"هو علم يتضمن الحجاج عن العقائد الايمانية بالادلة العقلية والرد على المبتدعة المنحرفين في الاعتقادات عن مذهب السلف واهل السنة" [2] .

ويقول عضد الدين الايجي – رحمه الله – :"الكلام علم يقتدر معه على اثبات العقائد الدينية بايراد الحجج ودفع الشبه" [3] .

ويقول طاش كبرى زاده – رحمه الله – : "وبالجملة يشترط في الكلام ان يكون القصد فيه تأييد الشرع بالعقل وان تكون العقيدة مما وردت في الكتاب و السنة" [4] .

والذي يظهر – والله اعلم – ان القول الثالث هو الاولى بالقبول للامور التالية :

١– ان واقع كتب الكلام يشهد بهذا ، فكتب الكلام تحوي الكثير من اصول الدين والمسائل الاعتقادية المنصوص عليها في الكتاب والسنة ، وتحوي كذلك عشرات المباحث الفلسفية والمنطقية واللغوية مما هي معرضة للصواب والخطأ .

٢– ان هذا القول من الممكن ان نجمع فيه القولين الاخرين ، فنقول : ان التفتازاني عرف الكلام بأشرف خصائصه وهي مسائل العقيدة المنصوص عليها حيث هو يتضمنها ومهمته الدفاع عنها ، وما كان يقصد ابدا عصمة علم الكلام كما هو الحال في العقيدة التي هي اصول هذا الدين ، ونقول ايضا : ان السيوطي ونحوه ماقصدوا الكلام الذي هو العقيدة الحقة قطعا ولكنهم قصدوا الشطر الاخر فاطلقوا العام وارادوا به الخاص ، او ارادوا به كلام المعتزلة فهم اول من عرف بالكلام ، ولنلاحظ النقطة التالية :

٣– ان كثيرا ممن ورد عنهم ذم الكلام قد مدحوه او الفوا فيه ، وبرروا مواقفهم هذه بنحو ماورد في النقطة الثانية ، فهذا مثلا الامام احمد يؤلف كتابا في الرد على الزنادقة والجهمية ، بل لنستمع الى من كشف حقيقة الموقف أكثر :

ورد عن الامام ابي حنيفة – رحمه الله – ذمه للكلام حتى قال :"اني رأيت ممن تنحل الكلام وتجادل فيه قوماً ليس سيماؤهم سيماء المتقدمين ، ولا منهاجهم منهاج الصالحين ، رأيتهم قاسية قلوبهم ، غليظة افئدتهم" [5] ، ولكنه بعد هذا يقول : "اذا قالوا

---

(١) الغزالي : المنقذ من الضلال : ٦٦.

(٢) ابن خلدون ، المقدمة :٥٠٧.

(٣) الايجي ، المواقف : ٧. وانظر نحو هذا في : كشف الظنون : ١٥٠٣/٢.

(٤) طاش كبرى زادة : مفتاح السعادة : ١٣٢/٢ .

(٥) الغزالي : قواعد العقائد : ٩٩–١٠٠.

أليس يسعك ماوسع اصحاب النبي – صلى الله عليه وسلم – ؟ فقل : بلى يسعني ماوسعهم لوكنت بمنزلتهم ، وليس بحضرتي مثل الذي كان بحضرتهم ، وقد ابتلينا بمن يطعن علينا ويستحل الدماء منا ، فلا يسعنا ان لانعلم من المخطئ منا والمصيب وان نذب عن انفسنا وحرمنا" [1] .

ويقول ابو سعيد الدارمي – رحمه الله – : "وقد كان من مضى من السلف يكرهون الخوض في هذا وما اشبهه وقد كانوا رزقوا العافية منهم، وابتلينا بهم عند دروس الاسلام وذهاب العلماء ، فلم نجد بدا من ان نرد ما أتوا به من الباطل بالحق" [2] .

ويقول ابن تيمية – رحمه الله – : "والسلف لم يذموا جنس الكلام فان كل ادمي يتكلم ، ولا ذموا الاستدلال والنظر والجدل الذي امر الله به رسوله ، والاستدلال بما بينه الله ورسوله ، بل ولاذموا كلاما هو حق ، بل ذموا الكلام الباطل وهو المخالف للكتاب والسنة ، وهو المخالف للعقل ايضا ، وهو الباطل ، فالكلام الذي ذمه السلف هو الكلام الباطل وهو المخالف للشرع والعقل" [3] .

وخلاصة كلام هؤلاء الائمة انهم من الممكن ان يتكلموا بما لم يتكلم به السلف ، وان هذا الكلام منه ما هو حق ومنه ما هو باطل ، وهذا داخل في القول الثالث الظاهر ، والله اعلم .

---

(١) ابو حنيفة ، العالم والمتعلم : ٣٤ ، وقد الف كتابا مختصراً في هذا وهو "الفقه الاكبر".

(٢) ابوسعيد الدارمي ، الرد على الجهمية : ٢٥٩.

(٣) ابن تيمية : الفرقان بين الحق والباطل ، المطبوع ضمن مجموعة الرسائل الكبرى : ١/١١٠.

الفصل الثالث

المبحث الاول: سمات عامة في مناهج المتكلمين

المبحث الثاني: الآثار التي ترتبت على مناهج المتكلمين

المبحث الأول
سمات عامة لمنهج القرآن في عرض العقيدة

لاريب في ان المنهج القرآني لايجارى ولايبارى ، ولانريد هنا ان نفصل هذه الحقيقة ، غير اننا سنشير بأصابعنا من بعيد الى السمات الواضحة التي امتاز بها القرآن الكريم :

السمة الاولى : ان العقيدة التي جاء بها القرآن عقيدة عملية ، ونقصد : ان القرآن جاء بعقيدة متناسبة مع واقع الانسان من حيث قدرته العقلية والروحية والنفسية ، ومن حيث الوظيفة التي كلف بها هذا الانسان ، فمسائل العقيدة كلها في القرآن دافعة للانسان لتحقيق الغاية التي من اجلها خلقه الله – تبارك وتعالى – ومن اجلها انزله على هذه الارض .

وليس في القرآن مايذهب بالانسان بعيداً عن ميدان التكليف ، نعم قد يتحدث القرآن عن الغيب لكن لايتحدث الا بالمقدار الذي يثمر عملاً صالحاً وسلوكاً حسناً ، فهو لايتحدث عن الغيب حديثاً فلسفياً نظرياً ، ولنأخذ بعض الامثلة من الغيب القرآني :

١– في باب الاسماء والصفات لاتجد اسماً لله – تعالى – اخبرنا الله به الا وله تأثير عملي في سلوك الانسان : فالعاصي الذي يقرأ : الله هو الرحمن الرحيم الغفور الودود ، لاشك انه يتيقن ان معصيته لن تحول بينه وبين الخير ابداً ، فليستغفر وليتب ولاييأس ولايقنط ، واذا قرأ المكابر المعاند : ان الله هو القوي الجبار ، القهار ، الشديد العقاب ونحو هذا فان هيبة هذه الاسماء تحطم كبرياءه في داخله ، وتقوده الى الميدان الصحيح ، واذا قرأ الجاهل الغافل : ان الله هو العليم ، السميع ، البصير ، لاريب انه يؤوب لرشده ، فهذه الاسماء كلها واضحة المعنى بينة التأثير .

ولكن ماذا لو حدثنا الله عن العلم اهو هو ؟ ام هو غيره ؟ ام لاهو هو ولاهو غيره ؟! ان القرآن يستطيع ان يجيبنا عن هذه الاسئلة ، ولكن لماذا يجيبنا ؟! بل لماذا نسأل ؟! فاذ لافائدة عملية فان القرآن يسكت .

ربما يقول قائل كيف بالصفات الخبرية ، التي اختلف فيها المتكلمون ، وكانت سبباً في صراعهم وشقاقهم ؟ والحقيقة ان الصفات الخبرية ليست هي التي فرقت المتكلمين بدليل :

اولاً : ان اخطر المسائل الخلافية واولها لم يكن في الصفات الخبرية ، بل في الصفات البينة الواضحة ، لقد اختلفوا في صفة "الكلام" وصفة "الارادة" ثم في باقي

الصفات ومن وجوه كثيرة ، فمرة اختلفوا في معانيها وحقائقها ، ومرة في زيادتها على الذات او عدم زيادتها ، ومرة في عددها وهكذا .

ثانياً : ان الصفات الخبرية نزلت في قوم اجناس واشتات ، فيهم العلماء وفيهم الاميون ، فيهم المؤمنون المصدقون ، وفيهم الكافرون المنافقون ، وفيهم اهل البادية واهل الحضر ، وكل هؤلاء مع من جاء بعدهم ماشعروا بان هنالك صفات في القرآن تؤدي الى الفتنة والشقاق ، فماذا يعني هذا ؟

ان الصفات الخبرية اصلاً لم ترد تسميتها بهذا الاسم ، وماصاغها القرآن صياغة تقرير لصفات الله العلية ، وانما في الغالب يأتي النص لقضية بعيدة كل البعد عن الصفات ، واذا بالمتكلمين ينسون تلك القضية التي جاء النص لاجلها ويتعلقون بطرف من النص ، استطيع ان اجزم ان السلف ماخطر ببالهم هذا اصلاً ، وهي فعلاً لاتخطر على بال اي انسان يعيش الواقع ، ولنسأل : لو ان انساناً جاء من الصحراء او جاء من ناطحات السحاب وهو يقرأ هذا النص :

"فذرهم حتى يلاقوا يومهم الذي فيه يصعقون . يوم لايغني عنهم كيدهم شيئاً ولاهم ينصرون . وان للذين ظلموا عذاباً دون ذلك ولكن اكثرهم لايعلمون . واصبر لحكم ربك فانك بأعيننا وسبح بحمد ربك حين تقوم . ومن الليل فسبحه وادبار النجوم"[1] .

فماذا سيفهم منه بالله عليك ؟! هل سيفهم منه مافهم ابن خزيمة – رحمه الله – اذ يقول في هذه الآيات ونحوها : "فواجب على كل مؤمن ان يثبت لخالقه وبارئه ماأثبت الخالق الباري لنفسه من "العين" وغير مؤمن من ينفي عن الله ـ تبارك وتعالى ـ ماقد ثبته في محكم تنزيله"[2] ، وهذا الحكم الخطير يقرره ابن خزيمة بعد ان يقول : "نحن نقول لربنا الخالق عينان يبصر بهما"[3] والله يشهد اني قرأت القرآن كله وما استطعت من السنة فلم اجد نصاً واحداً يثبت لله "العينين" ، أفبعد هذا يقال ان آيات الصفات الخبرية هي التي فرقت المتكلمين ؟!

٢– في باب "النبوات" حدثنا القرآن عن كل مامن شأنه ان يدفع بالانسان الى الاداء الافضل في وظيفته ، ولنأخذ بعض الامثلة :

اولاً : يذكر القرآن كثيراً تأييد الله لانبيائه ورسله بالمعجزات القاطعة بصدقهم ، فيذكر مثلاً "قلنا يانار كوني برداً وسلاماً على ابراهيم"[4] . و "فألقى موسى عصاه فاذا

(١) الطور : ٤٥ – ٤٩

(٢) ابن خزيمة : التوحيد واثبات صفات الرب : ٣٠ .

(٣) المصدر السابق : ٣٥ .

(٤) الانبياء : ٦٩ .

هي تلقف مايأفكون" [١] و "وأحيي الموتى بأذن الله" [٢] و "ان كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله ان كنتم صادقين" [٣]

ثانياً : يذكر القرآن كثيراً من صفات هؤلاء الصفوة ، فتره يقول : "ان ابراهيم لاواه حليم" [٤] ، و "وانك لعلى خلق عظيم" [٥]

ثالثاً : يذكر القرآن الدفاع عن الرسل والرد على خصومهم وتهديدهم بالجزاء العادل ، واقرأ مثلاً : "قد نعلم انه ليحزنك الذي يقولون فانهم لايكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون" [٦] ، و "حتى اذا جاءوك يجادلونك يقول الذين كفروا ان هذا الا اساطير الاولين ، وهم ينهون عنه وينأون عنه وان يهلكون الا انفسهم ومايشعرون . ولو ترى اذ وقفوا على النار فقالوا يا ليتنا نرد ولانكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين" [٧]

رابعاً : يفصل القرآن كثيراً في القصص النبوى ، ولايذكر رسولاً الا ويذكر جهاده مع قومه ، وصبره عليهم ، ونتائج الصراع ، كل هذا بتكرار وتأكيد وتنويع حتى يخيل اليك ان القرآن كله كتاب قصص وتاريخ ، وما هو كذلك .

خامساً : يبين القرآن حق الرسول على امته في الحب والاتباع والادب ، ويكفي ان نعرض هذا النموذج : " يا ايها الذين آمنوا لاترفعوا اصواتكم فوق صوت النبي ولاتجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض ان تحبط اعمالكم وانتنم لاتشعرون . ان الذين يغضون اصواتهم عند رسول الله اولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى لهم مغفرة واجر عظيم" [٨]

هذه ابرز النقاط التي اكدها القرآن في موضوع "النبوات" في حين لم يرد في القرآن ذكر لاوصاف الانبياء الخلقية ، او لحالتهم الاجتماعية ، او للغاتهم ، او طريقة اكلهم او شربهم ، او اعمارهم ، ونحو هذا ، فلماذا ؟ بل لماذا يفصل لنا القرآن قصة موسى مع فرعون تفصيلاً دقيقاً ولايحدثنا ولامرة واحدة عن طريقة موسى في العبادة ، الصلاة ، الصوم ، الحج ، الزكاة ؟ بله التفصيل في اكله وشربه .

---

(١) الشعراء : ٤٥ .
(٢) آل عمران : ٤٩ .
(٣) البقرة : ٢٣ .
(٤) التوبة : ١١٤ .
(٥) القلم . .
(٦) الانعام ٣٣ .
(٧) الانعام : ٢٥ – ٢٧ .
(٨) الحجرات : ٢ – ٣ .

ان الذي يدرك ان القرآن هادف في كل حرف فيه ، وانه جاء لغاية كبيرة ، وانه يدفع المؤمنين به الى تحقيقها ، لايستغرب من هذا ، فكل ماقصه القرآن علينا من احوال الانبياء – عليهم الصلاة والسلام – انه يريد ان يقول لنا : انكم ورثتهم وان المهمة التي كلف بها الانبياء ، لم تمت بموتهم ، وانكم بعدُ محتاجون الى ذلك المعين الثر من مسيرتهم وتجربتهم ، فماذا انتم فاعلون ؟

٣– في باب "السمعيات" اليوم الآخر والعوالم الغيبية كالملائكة والجن ، ترى القرآن لايحدثك الا بما فيه نفعك ودفعك الى العمل . فغالب حديثه عن اليوم الآخر ترهيب وترغيب وانذار بالحساب ، وهكذا ، ويعرض كل هذا بوصف واسلوب يكاد يخلع القلوب هيبة ورعباً ، او لذة وانساً ، ويحدثك عن الملائكة لاعن عددهم او معيشتهم او اكلهم وشربهم ونومهم وتناسلهم ، لا ، وانما لامور تتعلق بك انت يا انسان ، انهم يراقبونك ، يحصون عليك كل كبيرة وصغيرة ، وهم يستغفرون لك ، وهم على استعداد لنصرك على اعداء الله ... الخ . وحدثك عن الجن ، عن شعب لايختلف كثيراً عن الشعب الآدمي من حيث الغرائز والقدرة على الخير والشر ، انه ينقل لك تجاربهم واحوالهم المتعلقة بك ، وكرّس السهم الاكبر للحديث عن الذين يزّينون لك الباطل ، ويحاولون اغواءك كما ازلّوا ابوينا من قبل : آدم وحواء . وكل هذا فيه من التحذير والنصح ماهو بطريق العبارة او الاشارة ، وكل هذا ليستقيم الانسان على الجّادة الصحيحة الموصلة الى الغاية النبيلة "سعادة الدارين" [١] .

السمة الثانية : وهي متعلقة بالاولى ومرتبطة بها ، وخلاصتها : ان العقيدة القرآنية عقيدة عامة ، تناسب جميع المكلفين ، لانها جاءت لهم جميعا "تبارك الذي نزّل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا" [٢] . وعلى هذا نرى كيف استطاعت عقيدة القرآن ان تقنع مختلف المستويات الفكرية والاجتماعية وغيرها ، ودفعت بالجميع الى الغاية العظيمة .

انك تستطيع ان تقدم عقيدة القرآن الى الطفل الصغير كما تستطيع ان تقدمها الى الفيلسوف الكبير ، وتستطيع ان تقدمها للمرأة في مطبخها ، كما تقدمها للقائد في سوح الوغى ، وتستطيع ان تقدمها لمن يعيش في القرن الحجري او لمن يعيش في عالم الذرة والطاقة الشمسية .

وادراك السبب سهل ويسير، فان من يهدف الى شئ صادقاً فانه يسعى اليه ، والقرآن هدف الى ان يكون للناس كل الناس ، فأتخذ المنهج الكفيل بتحقيق هذه الغاية ،

---

(١) وقد بحث هذا مفصلاً في الباب الرابع من هذا البحث .

(٢) الفرقان : ١ .

واتبع الاسلوب القادر على اقناع الناس جميعاً ، وسيأتينا شئ من هذا الاسلوب في السمة الخامسة – ان شاء الله – .

السمة الثالثة : الشمولية ، ونقصد بها : ان القرآن لم يترك زاوية من زوايا العقيدة التي يحتاجها الانسان الا وبيّنها – وسيأتينا هذا مفصلاً ان شاء الله في المباحث القادمة – ولكننا هنا نحاول الاجابة على بعض الشبه التي قد تثار في هذا المجال :

الشبهة الاولى : قد يقول قائل : فما تقولون في السنة النبوية المطهرة ؟ اليست جاءت بأحكام اعتقادية كثيرة ؟ والصحيح ان السنة مع كونها من الله ايضاً لان الله قال عن نبيه : "وما ينطق عن الهوى ان هو الا وحي يوحى" [1] . الا ان الذي يبدو ان الله لم يمنح السنة مهمة تأصيل العقيدة وبيان مايحتاجه الناس منها ، ان هذه مهمة القرآن الذي تكفل الله بحفظه ، وكأن الله – تعالى – اراد اولاً ان تقترن مباحث العقيدة بأسلوب القرآن المعجز لتكون اكثر اقناعاً وقبولاً ، ثم اراد الله ان يحفظ كل جوانب العقيدة بما يحفظ به قرآنه ، لكي لاتضيع الثوابت التي يلتقي عليها المسلمون ، فلو ان الله ترك المهمة هذه للسنة فان الجدل سيطول حول صحة بعض الاحاديث وضعفها ، وشروط الآخذ بها ، ونحو هذا ، ولهذا فيصح ان نجزم بان القرآن ماترك اصلاً من اصول العقيدة ومسائلها المهمة الا وبيّنه والبحوث القادمة ستبين هذا بالاحصاء والارقام – ان شاء الله – .

نعم جاءت مسائل كثيرة من العقيدة في السنة المطهرة ولكن غالباً لايعدو ان يكون تأكيداً لما جاء في القرآن او توسيعاً لبعض المعاني التي جاءت فيه ، وربما يكون هناك ذكر لقضايا متعلقة بالعقيدة لكنها ليست من اصولها او من مسائلها المهمة ، بحيث ان المسلم لو جهلها اصلاً لما خدشت عقيدته .

الشبهة الثانية : قد يقول آخر : فما تقولون في كتب العقيدة التي تبلغ بحجمها اضعاف اضعاف حجم القرآن الكريم ، فهل هذ الزيادات لاصحة لها ؟ او على الاقل لاحاجة لنا بها ؟ والصحيح اننا نقصد بالعقيدة مايحتاجه المسلم من اصول دينه ، ويقيناً ان القرآن لم يدع المسلم يحتاج الى غيره في تأصيل اصول الدين ، اما ماجاء في كتب العقيدة فمن الممكن تصنيفه الى الآتي :

١– صنف اهتم بالترتيب والتبويب ، فجعل مثلاً مبحث الاسماء والصفات على حدة ، وكذلك مبحث النبوات والسمعيات ... الخ وربما يشرع بالتقسيم فيقول مثلاً : التوحيد ضربان : ربوبية والوهية ، او ثلاثة او خمسة ، وهي كلها في الغالب احصاء لما موجود في القرآن وصياغة جديدة ، وهذا لاشك نافع ومفيد من حيث الهدف الذي وضع له ، وهو حصر مسائل العقيدة وتسهيل النظر فيها بعيداً عن المسائل الاخرى ، فاذا كان

(١) النجم : ٣ – ٤ .

الهدف هذا فلاضير ، اما اذا فهم ان الهدف ارساء اصول جديدة في العقيدة او مفاهيم جديدة فلا ، ولذا يصح ان نقطع بانه لو مات انسان وهو لم يقرأ هذه الكتب جملة وتفصيلاً ، ولم يعرف اقسام التوحيد ولاانواع الصفات فانه لايضره ، ولن يحاسبه الله عليه ، بل لقد مازحت احد اصدقائي حين قال : ان الاستاذ فلان لايفهم في العقيدة لاني سألته عن اقسام التوحيد فلم يجب ، فقلت له : صدّقني يا اخي لو ان الله بعث لنا ابا بكر الصديق – رضي الله عنه – وسألناه هذا السؤال ، لما اجاب ، بل ربما استغرب واستنكر !! .

٢- صنف جاء لاثبات العقائد القرآنية بأدلة تستطيع ان تقنع بعض الطوائف والمذاهب ، كالفلاسفة والمدارس العقلية الكلامية ، وهذا هو غاية الكلام الاسلامي كما يصوره غير واحد من رجالاته ، يقول مثلاً عضد الدين الايجي – رحمه الله – : "الكلام علم يقتدر معه على اثبات العقائد الدينية بأيراد الحجج ودفع الشبه" (١) ، فأيراد الحجج ودفع الشبه غير العقيدة ، والعقيدة دينية ، ومعنى هذا ان مهمة علم الكلام : اثبات عقيدة القرآن بالادلة التي تقنع فئات معينة من الناس ، وهذا معناه : ان علم الكلام ليس هو العقيدة ، وانما هو خادم لها ، وهو انتاج بشري مرحلي ، خاضع للنقد والتعديل والتصويب ، فليس هو العقيدة التي يحتاجها الناس وسيحاسبهم الله عليها .

٣- صنف حشر في مسائل العقيدة وهو ليس منها اصلاً ، وخذ مثلاً كيف تبحث في كتب العقيدة مسائل : الامامة والموقف من حروب الصحابة (٢) ، بل مسائل الامر بالمعروف والنهي عن المنكر (٣) ، واخرى عن بر الوالدين وصلة الارحام (٤) .

فهذه كلها ماجاءت لاثبات عقيدة جديدة ولايقول مؤلفوها بهذا ابداً ، كيف والقرآن يقول : "اليوم اكملت لكم دينكم واتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام دينا" (٥)

وقبل ان ننتقل الى السمة الاخرى ، نتساءل ماالذي يحتاجه الانسان من العقيدة ولم يأت له ذكر في القرآن الكريم ؟ ان الانسان يحتاج اولاً الى ان يعرف خالقه وخالق هذا الكون الكبير معرفة تميز الخالق عن المخلوق ، ثم بعد هذا يحتاج ان يعرف ماذا يريد الخالق منه ، لماذا خلقه ؟ فاذا استطاع ان يعرف هذا ، فانه يحتاج ان يعرف ماينبني على التزامه بما يريده ربه منه ، ماذا لو اطاع ، وماذا لو عصى ؟ هل يحتاج الانسان

---

(١) الايجي . المواقف : ٧ .
(٢) كتب الكلام بصورة عامة ، كالاعتقاد للبيهقي والارشاد للجويني ، انظر الفهارس .
(٣) المعتزلة عدوا الامر بالمعروف والنهي عن المنكر من الاصول الخمسة ، انظر شرح الاصول الخمسة.
(٤) ابن تيمية ، العقيدة الواسطية ، مع الشرح : ١٨٢ .
(٥) المائدة : ٣ .

غير هذا ؟ فأي واحدة من هذه لم يفصلها القرآن ؟ لقد وسع القرآن الاجابة عن هذه الاسئلة توسعة خاطبت العقل والوجدان ، وحركت الانسان من داخله ، لتحقيق الغاية ، ولنجاته من الخسران والهلاك ، بحيث لو صدق الانسان مع نفسه فان القرآن كافيه .

السمة الرابعة : ارتباط عقيدة القرآن بغيرها من تفاصيل هذا الدين الحنيف ، لقد تبين لنا قبلُ ان عقيدة القرآن عقيدة هادفة ، بمعنى ان لها غاية ، وغايتها سعادة الانسان في الدارين بالتزام امر الله ، واعلان خلافته في ارضه ، وكل هذا لايحصل بمجرد الاعتقاد ، وانما لابد من التطبيق والعمل الميداني ، واذا كانت العقيدة غايتها هذا العمل الميداني فلايمكن ان تنفصل عنه ، ولذا لم يخلُ جانب من جوانب التكليف العملي من الاقتران والارتباط بمسائل العقيدة الدافعة الى الامتثال الكامل والاداء الافضل ، ولنأخذ الآن بعض الجوانب التشريعية التكليفية وارتباطها بالعقيدة .

الجانب الاول : العبادة ، والمقصود بها الامور التعبدية البحتة كالصلاة ونحوها ، والا فكل الاسلام عبادة : جهاده وسياسيته واقتصاده ... الخ ، والامور التعبدية جاءت مقترنة بكل جوانب العقيدة ، ولنقرأ هذه الآيات :

"الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السموات والارض ربنا ماخلقت هذا باطلاً سبحانك فقنا عذاب النار . ربنا انك من تدخل النار فقد اخزيته وما للظالمين من انصار . ربنا اننا سمعنا منادياً ينادي للايمان ان آمنوا بربكم فآمنا ربنا فأغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيئاتنا وتوفنا مع الابرار . ربنا وآتنا ماوعدتنا على رسلك ولاتخزنا يوم القيامة انك لاتخلف الميعاد "(١) .

"رجال لاتلهيهم تجارة ولابيع عن ذكر الله واقام الصلاة وايتاء الزكاة يخافون يوماً تنقلب فيه القلوب والابصار"(٢) .

الجانب الثاني : الجهاد : "يا ايها الذين آمنوا هل ادلكم على تجارة تنجيكم من عذاب اليم . تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وانفسكم ذلكم خير لكم ان كنتم تعلمون . يغفر لكم ذنوبكم ويدخلكم جنات تجري من تحتها الانهار ومساكن طيبة في جنات عدن ذلك الفوز العظيم"(٣) . و "ان الله اشترى من المؤمنين انفسهم واموالهم بان لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيَقتلون ويُقتلون وعداً عليه حقاً في التوراة والانجيل والقرآن ومن اوفى بعهده من الله"(٤)

---

(١) آل عمران : ١٩١ – ١٩٤ .
(٢) النور : ٣٧ .
(٣) الصف : ١٠ –١٢ .
(٤) التوبة : ١١١ .

الجانب الثالث : الولاء والبراء : "انما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون . ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا فان حزب الله هم الغالبون . يا ايها الذين آمنوا لاتتخذوا الذين اتخذوا دينكم هزواً ولعباً من الذين اوتوا الكتاب من قبلكم والكفار اولياء واتقوا الله ان كنتم مؤمنين . واذا ناديتم الى الصلاة اتخذوها هزواً ولعباً ذلك بانهم قوم لايعقلون"[1] .

الجانب الرابع : الاخلاق : "وان الساعة لآتية فاصفح الصفح الجميل ، ان ربك هو الخلاق العليم . ولقد آتيناك سبعاً من المثاني والقرآن العظيم . لا تمدن عينيك الى مامتعنا به ازواجاً منهم ولاتحزن عليهم ، واخفض جناحك للمؤمنين . وقل اني انا النذير المبين"[2] . و "قل انما حرم ربي الفواحش ماظهر منها ومابطن والاثم والبغي بغير الحق وان تشركوا بالله مالم ينزل به سلطانا وان تقولوا على الله مالاتعلمون . ولكل امة اجل فاذا جاء اجلهم لايستأخرون ساعة ولايستقدمون . يا بني آدم اما يأتينكم رسل منكم يقصون عليكم آياتي فمن اتقى واصلح فلا خوف عليهم ولاهم يحزنون . والذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها اولئك اصحاب النار هم فيها خالدون"[3]

الجانب الخامس : السياسة والحكم : "يا داود انا جعلناك خليفة في الارض فاحكم بين الناس بالحق ولاتتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله ان الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب"[4] . و "فلاتخشوا الناس واخشون ولاتشتروا بآياتي ثمناً قليلاً ومن لم يحكم بما انزل الله فأولئك هم الكافرون"[5]

الجانب السادس : الاقتصاد : "ويل للمطففين الذين اذا اكتالوا على الناس يستوفون . واذا كالوهم او وزنوهم يخسرون . الا يظن أولئك انهم مبعوثون ليوم عظيم . يوم يقوم الناس لرب العالمين"[6] . و "الذين يأكلون الربا لايقومون الا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس . ذلك بأنهم قالوا انما البيع مثل الربا واحل الله البيع وحرم الربا فمن جاءه موعظة من ربه فانتهى فله ماسلف وامره الى الله ومن عاد فأولئك اصحاب النار هم فيها خالدون"[7] .

---

(١) المائدة : ٥٥ — ٥٨ .

(٢) الحجر ٨٥ — ٨٩ .

(٣) الاعراف : ٣٣ — ٣٦ .

(٤) ص . ٢٦ .

(٥) المائدة : ٤٤ .

(٦) المطففين : ١ — ٦ .

(٧) البقرة : ٢٧٥ .

الجانب السابع : الاحوال الشخصية : "واذا طلقتم النساء فبلغن اجلهن فلا تعضلوهن ان ينكحن ازواجهن اذا تراضوا بينهم بالمعروف ذلك يوعظ به من كان منكم يؤمن بالله واليوم الآخر ذلكم ازكى لكم واطهر والله يعلم وانتم لا تعلمون . والوالدات يرضعن اولادهنّ حولين كاملين لمن اراد ان يتم الرضاعة وعلى المولود له رزقهن وكسوتهن بالمعروف لا تكلف نفس الا وسعها لا تضارّ والدة بولدها ولا مولود له بولده وعلى الوارث مثل ذلك فان ارادا فصالا عن تراض منهما وتشاور فلا جناح عليهما وان اردتم ان تسترضعوا اولادكم فلا جناح عليهما وان اردتم ان تسترضعوا اولادكم فلا جناح عليكم اذا سلّمتم ما آتيتم بالمعروف واتقوا الله واعلموا ان الله بما تعملون بصير" [1] . و "قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها وتشتكي الى الله والله يسمع تحاوركما ان الله سميع بصير" [2] .

الجانب الثامن : العقوبات والحدود : "الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر" [3] . و "السارق والسارقة فاقطعوا ايديهما جزاء بما كسبا نكالا من الله والله عزيز حكيم . فمن تاب من بعد ظلمه واصلح فان الله يتوب عليه ان الله غفور رحيم . الم تعلم ان الله له ملك السموات والارض يعذب من يشاء ويغفر لمن يشاء والله على كل شئ قدير" [4] .

الم تر الى كل هذه الجوانب كيف ربطت بالعقيدة ربطاً وثيقاً ، بل كثير من هذه الجوانب اقترن بأصول الدين كلها : الالهيّات والنبوات واليوم الآخر كما في الجانب الاول والثاني ، وهذا ما يؤكد ان العقيدة القرآنية ليست عقيدة نظرية مجردة ، وانما هي ميدانية عملية .

السمة الخامسة : الاسلوب المقنع الاخّاذ الذي لا يملك الواقف عليه الا ان يعلن استسلامه وعجزه عن مضاهاة هذا القول او مباراته ، وهذه هي معجزة القرآن بصورة عامة ، ومباحث العقيدة هي المقصودة اولاً فلا غرو ان تأتي متفردة في هذا المضمار ، لان الذي يقتنع بها فان ما بعدها تابع لها ، ولانها تحتاج الى تنوع في الاساليب لتنوع الناس الذين يراد منهم الدخول في هذا الدين ومن بوابته الوحيدة "العقيدة" . وقد نستطيع هنا ن نشير باصبعنا من بعيد الى اهم معالم هذه السمة :

---

(١) البقرة : ٢٣٢ - ٢٣٣ .

(٢) المجادلة : ١ .

(٣) النور : ٢ .

(٤) المائدة : ٣٨ - ٤٠ .

المعلم الاول : الجمع بين منطق العقل ومنطق العاطفة ، فحيث ان الانسان ليس عقلاً محضاً ، وانما يشترك فيه لصنع القرار الى جانب العقل قوة اخرى وهي العاطفة ، بل ان اكثر الناس يتأثرون عاطفياً اكثر من تأثرهم العقلي ، مع ان قلة منهم قد يترجح عندها منطق العقل على منطق العاطفة ، ولكن لما كانت عقيدة القرآن عقيدة عامة لجميع الناس فلا يمكن الا ان تدخل الى هؤلاء الناس من كلا المدخلين : العقل والعاطفة . ولنأخذ مثلاً قوله تعالى : "ام خلقوا من غير شئ ام هم الخالقون" [1] ، انها محاجّة عقلية مع اسلوبها الاخّاذ ، لكنّ جانب العقل فيها غالب ، ولا يملك اهل العقل امام هذا المنطق الا التسليم او البهت كما بهت ذاك الطاغية بمحاجّة ابراهيم - عليه السلام - : "فان الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب" [2] . وانظر ايضاً الى المحاجة العقلية لاثبات المعاد في قوله تعالى : "وضرب لنا مثلاً ونسي خلقه قال من يحيي العظام وهي رميم . قل يحييها الذي انشأها اولَ مرة وهو بكل خلق عليم . الذي جعل لكم من الشجر الاخضر ناراً فاذا انتم منه توقدون . أوليس الذي خلق السموات والارض بقادر على ان يخلق مثلهم بلى وهو الخلاق العليم" [3] .

ثم بعد هذا ضع يدك على قلبك وأقرأ : "فلولا اذا بلغت الحلقوم . وانتم حينئذ تنظرون . ونحن اقرب اليه منكم ولكن لاتبصرون . فلولا ان كنتم غير مدينين . ترجعونها ان كنتم صادقين . فاما ان كان من المقربين . فروح وريحان وجنة نعيم . واما ان كان من اصحاب اليمين . فسلام لك من اصحاب اليمين . واما ان كان من المكذبين الضالين . فنزل من حميم . وتصلية جحيم . ان هذا لهو حق اليقين . فسبح باسم ربك العظيم" [4] . سبحان ربي العظيم . واقرأ : "ويل يومئذ للمكذبين الذين يكذبون بيوم الدين . ومايكذب به الا كل معتد اثيم . اذا تتلى عليه آياتنا قال اساطير الاولين . كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون . كلا انهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون . ثم انهم لصالوا الجحيم . ثم يقال هذا الذي كنتم به تكذبون . كلا ان كتاب الابرار لفي عليين . وما ادراك ما عليون . كتاب مرقوم . يشهده المقربون . ان الابرار لفي نعيم . على الارائك ينظرون . تعرف في وجوههم نضرة النعيم . يسقون من رحيق مختوم . ختامه مسك وفي ذلك فليتنافس المتنافسون" [5] .

---

(١) الطور : ٣٥ .
(٢) البقرة : ٢٥٨ .
(٣) يس : ٧٨ - ٨١ .
(٤) الواقعة : ٨٣ - ٩٦ .
(٥) المطففين : ١٠ - ٢٦ .

ان الانسان بحاجة الى من يحرك وجدانه من داخله بعيداً عن الصخب والضجيج . اذ الانسان ربما يقدر على المكابرة والمخادعة ، لكنه هل يقدر ان يخدع نفسه ؟ فلماذا لانتحدث معَه من داخل نفسه ؟ اذكر هنا للطرفة موقفاً حكاه لي الشيخ محمود غريب امام وخطيب جامع البنية ببغداد سابقاً ، قال : جائني رجل فقال يا شيخ ، فرعون في الجنة ام في النار ؟ فقلت له في النار طبعاً . فقال : مادليلك ؟ قلت له قول الله تعالى : "يقدم قومه يوم القيامة فأوردهم النار وبئس الورد المورود" [1] . قال : هذا ليس دليلاً ، لانه يمكن ان يوصلهم الى النار ثم يرجع هو الى الجنة !!! هنا ادرك الشيخ الخلل ، فقال له : هل انت جازم يا اخي بان فرعون في الجنة ؟ قال : نعم . قلت : فأرفع يديك يا اخي وقل : اللهم احشرني مع فرعون .. !!! فبهت الرجل .

المعلم الثاني : الجمع بين الجزالة والبساطة ، فنصوص القرآن وبالاخص نصوص العقيدة مع كونها على اتم وجوه البلاغة وارقى اساليبها واجزلها الا انها جاءت مفهومة للخواص والعوام ، سهلة المأخذ ، قريبة المعنى ، حتى انك في جميع نصوص العقيدة - الا ماشاء الله - قد لاتحتاج الى كتب التفسير ، وقد جربت بنفسي فكل مأتيت به في الفصول القادمة من حشد هائل للآيات الكريمة لم احتج فيه الى تفسير المفسرين - الا ماشاء الله - لاني وجدتها مفسرة اكثر من التفسير ، بل ربما لايزيدها التفسير الا تعقيداً ، وهذا طبعاً بخلاف المسائل الاخرى التي ربما تحتاج الى الراسخين في العلم ، سيما تلك التي يخاطب بها القرآن نمطاً خاصاً من الناس كآيات الحكم والقانون او الجهاد والمعاهدات الدولية ، ونحو هذا ، اما العقيدة فالعقيدة لكل الناس ولذا جاءت واضحة لكل الناس .

وقد تسأل هنا : اذا كان الامر كذلك فما سر اختلاف المتكلمين في آيات العقيدة ؟ اقول لك : - والله لم يأت الاشكال من الآيات نفسها ، وانما لاسباب اخرى لاعلاقة لها بمقصود النص ابداً ، ولنشر الى بعض هذه الاسباب :

السبب الاول : قد يأتي النص القرآني واضح المعنى ، لكن العقل البشري يريد ان يصل من خلال النص الى الغيب الذي لايعلمه الا الله ، فيحدث الارتباك والخلاف ، فمثلاً : لو قرأ انسان هذه الجملة : "وهو بكل شئ عليم" فهل في هذا النص من اشكال ؟ لا ، انه واضح كالشمس . لكن الفلاسفة قالوا : ان الله لاعلم له بالجزئيات لان تعدد المعلومات وتجددها يؤدي الى قيام الحوادث بالله - تعالى - وهو محال [2] ، وقال

---

(١) هود : ٩٨ .

(٢) مسألة علم الله بالجزئيات من مسائل الفلسفة المعقدة ، وقد ناقشها الغزالي في تهافت الفلاسفة وعقد لها مبحثاً مستقلاً ورد ادعاءات الفلاسفة ، تهافت الفلاسفة .

المعتزلة : هذا العلم ليس صفة زائدة على الذات وانما الله يعلم بذاته ، لان زيادة الصفة على الذات قول بتعدد القدماء ، وقال الاشاعرة : صفة العلم ليست هي الله وليست غيره ، بل هي معنى قائم به ، فبالله من اين جاء الغموض والاشكال ؟

السبب الثاني : قد يأتي النص القرآني واضح المقصود لايختلف عليه اثنان . ولكن النص فيه كلمة تستخدم في اللغة اكثر من استخدام ، وقد يكون واحد من استخداماتها له علاقة بالغيب الذي لايعلمه الا الله [1] . فترى البعض يترك المعنى الظاهر المقصود من النص ويتجه الى هذه الكلمة بالذات ويحاول ان يصوغ منها فلسفة خاصة ، وخذ مثلاً في قوله – تعالى – : "اذا اوحينا الى امك مايوحى ، ان اقذفيه في التابوت ، فاقذفيه في اليمّ فليلقه اليمّ بالساحل يأخذه عدو لي وعدو له والقيت عليك محبة مني ولتصنع على عيني . اذ تمشي اختك فتقول هل ادلكم على من يكفله" [2] .

انها آيات واضحات ، والمقصود منها واضح ، ولكن وردت كلمة "عين" مضافة الى الله ، والعين هنا تحتمل وجوهاً عدة فهي في القاموس : الباصرة ، وفي السياق هنا هي كناية عن العناية والرعاية ، فأي العينين هو المقصود ؟ ثم ان العين جاءت مفردة ، اهي مفردة على ظاهرها ؟ ام هو افراد قصد به المثنى ؟ ام افراد قصد به الجمع ؟ وكل هذا محتمل في اصل اللغة . ثم الذي يؤول العين بالعناية والرعاية اهو كافر ام مؤمن ... الخ [3] .

انظر ان الذي يريد ان يسترسل هكذا فانه لن يعدم نقطة البداية في كل نص . فاني استطيع ان اثير مشكلة في اي نص مهما كان وضوحه ، ففي قوله – تعالى – "مثل الجنة التي وعد المتقون فيها انهار من ماء غير آسن وانهار من لبن لم يتغير طعمه وانهار

---

(١) والغموض بسبب ارتباط النص بعالم الغيب لامناص منه ، لان الانسان لايدرك الا مايقع تحت حواسه ، ولكن اي ضير اذا فهم الانسان المقصود من النص . خذ هذا المثل : قوله – تعالى – "طلعها كأنه رؤوس الشياطين" فأدراك ذلك الطلع على حقيقته متعذر ، لانه مجهول ، وشبهه القرآن بمجهول آخر ، فنحن لانعرف الطلع ولا رؤوس الشياطين ، لكن هذا لايضر ، فان القرآن لم يهدف الى ان يعلمنا حقيقة نباتات النار لنجري عليها دراسة في كليات الزراعة ، ولاتحدث عن رؤوس الشياطين لكي نميز بينها وبين رؤوس البقر كي لاتشتبه علينا !! ان هدف القرآن ومقصوده واضح ، انه يريد ان يلقي في نفس الانسان حالة من الاشمئزاز والخوف من دخول النار ، وكل هذا ليدفع الانسان بعيداً عن مسببات دخول النار ، فهل هذا ليس واضحاً ؟ انه واضح بمقصوده وهذا يكفي ، وان كان غامضاً بجانبه الغيبي .

(٢) طه : ٣٨ – ٤٠ .

(٣) انظر كلام ابن خزيمة المتقدم في ص : ٣٠ .

من خمر لذة للشاربين . وانهار من عسل مصفى"[1] . اهذه الآية واضحة ام لا ؟ اقرأ هذه الاسئلة :

١- اللبن هنا حقيقي ام مجازي ؟ بمعنى : اخارج من ضرع الحيوان ام لا واذا كان خارجاً من ضرع الحيوان فما هو ؟ وان كان لا ، فهل يصح ان نسميه لبناً ؟

٢- الخمر هنا حقيقة ام مجاز ؟ اذا كان حقيقة فلابد ان يكون مسكراً فهل اهل الجنة يسكرون ؟ واذا كان ليس بمسكر فهل يجوز ان نسمي غير المسكر خمراً . كيف ، وهل سميت الخمرة الا لانها تخامر العقول وتحجبها ؟

٣- عسل مصفى ، مصفى من اي شئ ؟ ماهي الشوائب التي كانت معه فصفاه الله منها ؟ اهي شمع النحل ؟ وهل في الجنة نحل ؟ طيب ، لماذا لم يذكره القرآن ؟ واذا كان ليس فيه شوائب فكيف يصفه الله بأنه "مصفى" ؟ .

واخيراً فهل خلافنا في الاجابة عن هذه الاسئلة سهل وهيّن ؟ كيف وهو خلاف في العقيدة ؟!! اليست مسائل اليوم الآخر من مسائل العقيدة ؟

ماالفرق بين هذا النمط من التفكير والنمط الاول ؟ لافرق في الحقيقة . لكن ذلك ألفناه لكثرته ، وهذا استغربناه لندرته ، لكن الا يمكن ان تفرغ علينا الايام من جعبتها اكثر من هذا ، الايام حبالى وما يعلم بأجنتها الا الله !!!

السبب الثالث : قد يأتي الاشكال بسبب سوء التصرف في النصوص ، وهذه بعض الامثلة :

١- قد تأتي كلمة في القرآن تحتمل اكثر من معنى فتحدث اشكالاً بنفسها ولكن القرآن يفسر بعضه بعضاً ، فينبغي - والحالة هذه - ان نختار من المعاني المحتملة مايتناسب مع بقية النصوص . فمثلاً قوله - تعالى - لرسوله محمد - صلى الله عليه وسلم - : "وانك لتهدي الى صراط مستقيم"[2] . فهل الرسول - صلى الله عليه وسلم - يهدي ؟ وما معنى الهداية هنا ؟ قد نختلف ، لكن حينما نقرأ : "انك لاتهدي من احببت ولكن الله يهدي من يشاء"[3] . نعلم عندها ان هناك هداية ثابتة لرسول الله ، وهداية منفيه عنه ، والهداية المنفية عنه ثابتة لله وحده ، فأي الهدايتين اليق بالله ، وايهما اليق برسوله ؟ ليس صعباً ان نفهم الجواب . فالله هو الهادي بمعنى انه مقلب القلوب - سبحانه وتعالى - وهذا لايملكه الا الله ، ومحمد الهادي بمعنى انه الدليل المبلّغ البشير النذير ، وهذا هو مايتناسب معه - عليه الصلاة والسلام - .

---

(١) محمد : ١٥ .

(٢) الشورى : ٥٢ .

(٣) القصص : ٥٦ .

٢- قد تكون المسألة معكوسة ، فهناك جمعنا بين النصوص ففهمنا الجواب ، ولكن قد يكون الاشكال بسبب الجمع بين نصوص ينبغي ان تفرق !! ورجائي ان تصبر عليّ قليلاً لافصح عما اريد . قد يأتي نص تشريعي وآخر خبري او قدري ، فحين نجمع بين النصين يحدث الاشكال : فالنص التشريعي مثلاً : "ولكم في القصاص حياة يا اولي الالباب"[1] : نقتص من القاتل ، فالانسان قد يقتل الانسان بمعنى انه يعدمه حياته ، او يميته : "ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم خالداً فيها"[2] . والنص الخبري القدري : "وما كان لنفس ان تموت الا بأذن الله كتاباً مؤجلاً"[3] . بل ان القرآن يقول : "فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم"[4] . من يريد ان يثير هنا مشكلة بجمع هذه النصوص يستطيع ، ولكن المسلم يعلم انه مطالب مع القدر بالتصديق ومع الشرع بالتنفيذ ، فهناك قدر ، وهناك شرع ، والقدر لايبطل الشرع ، وهذا معلوم من الدين بالضرورة ، والخلط بين ميدان القدر وميدان التكليف خطأ وخطر .

مازلت اذكر يوم ان جاءني احدهم بكتيب يقول فيه مؤلفه : ان الذين يدعون الى جمع المسلمين ووحدتهم هؤلاء مخطئون وربما مبتدعون وضالون - لا اذكر بالضبط - لماذا ؟ لانهم يريدون ان يكذب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - الذي صح عنه قوله : "وتفترق امتي على ثلاث وسبعين فرقة"[5] ، لقد استغربت كثيراً من هذا النمط من التفكير ، وقلت لصاحبي لا اريد ان اناقشك في الحديث ومعناه ، لنسلم انه على المعنى الذي اراده المؤلف ، فهل هذا الحديث من نصوص التشريع والتكليف ام هو نص من نصوص الخبر والقدر ؟ لم يحر جواباً . قلت : أيحاسبنا الله يوم القيامة ويقول : لماذا لم تتفرقوا ؟!! ام يقول لنا : لماذا تفرقتم وقد نهيتكم عن التفرق بقولي الواضح المبين : "ولاتفرقوا"[6] .

ولنأخذ مثالاً آخر مما ينبغي التفريق فيه من النصوص بصورة عامة ، هذا نص يقول لك : "ولاتجادلوا اهل الكتاب الا بالتي هي احسن"[7] ، وهذا نص آخر : "قاتلوا

---

(١) البقرة : ١٧٩ .

(٢) النساء : ٩٣ .

(٣) آل عمران : ١٤٥ .

(٤) الانفال : ١٧ .

(٥) رواه ابو داود ، السنن : ٤/ ١٩٧ .

(٦) آل عمران : ١٠٣ .

(٧) العنكبوت : ٤٦ .

الذين لايؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولايحرمون ماحرّم الله ورسوله ولايدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون" [1] .

ان هذين النصين لايمكن فهم المراد منهما الا بعد ان نفهم اختلاف كل دائرة نزل فيها النص عن الدائرة الاخرى . فالدعوة الى الله دائرة كبيرة لها مايناسبها من الاحكام ، حتى قال الله عن فرعون "فقولا له قولاً لينا" [2] . فاللين والمجادلة بالتي هي احسن سلاح الدعوة ، بينما القوة والغلظة سلاح الجهاد ، فدائرة الدعوة شئ ، ودائرة الجهاد شئ آخر ، والخلط بينهما خطأ وخطر ايضاً .

لقد توسعت في هذه الامثلة لاني ارى ان الكثير من اسباب النزاع ، لاسيما ذلك المستند الى النصوص سببه الجمع فيما ينبغي تفريقه ، او التفريق فيما ينبغي جمعه .

وبعد كل هذا فربما استطعنا ان نضع اصابعنا على ابرز السمات في المنهج القرآني ، بقي علينا قبل ان ننتقل الى خصائص مناهج المتكلمين ان نشير الى آثار المنهج القرآني على ارض الواقع .

---

(١) التوبة : ٢٩ .

(٢) طه : ٤٤ .

المبحث الثاني
آثار المنهج القرآني

ان مقدار النجاح او الفشل لايقاس الا بمقدار ماحققه الانسان من اهداف مرسومة له مسبقاً ، والمنهج القرآني جاء لغاية واضحة مكشوفة . انها ان يكون الدين كله لله ، وان تعلن خلافة الله في الارض ، وان تكون الرحمة للعالمين "وما ارسلناك الا رحمة للعالمين" (١) . وقد وضع القرآن منهجه الشامل لتحقيق هذه الغاية ، وكان هذا المنهج يبتدئ بجانب العقيدة ، والعقيدة اوكل اليها مهمة بناء التصورات الاولى التي يحتاجها المسلم لاداء وظيفته ، واوكل اليها ايضاً مهمة الدفع بأتجاه التطبيق ، والصبر على لاواء الطريق ، وقد حققت العقيدة القرآنية ماهدفت اليه ، فأجمالاً قامت امة من الصفر تحمل الرحمة والعدل والعلم للعالمين ، وانطلقت راياتها الفاتحة في غضون سنوات لتخرج الناس من عبادة الاوثان الى عبادة الله وحده ، ومن جور الاديان الى عدل الاسلام ، وبني المجتمع الذي كان خيالاً يراود مخيلات الفلاسفة والمصلحين ، وتفصيلاً لنضع ايدينا على النقاط الآتية :

ا - **في مجال السلوك الفردي** ، وجدنا هذا الانسان المطبوع على الانانية والطمع وحب السلامة والخلود ، رأيناه انساناً يبذل ماعنده لاخيه ، ويبذل روحه لدينه ، حتى قال القرآن "ويؤثرون على انفسهم ولو كان بهم خصاصة" (٢) ، وحتى اصبح بذل النفس لايحمل طابع الواجب التكليفي المجرد ، وانما ارتقت به لغة القرآن الى الحب ، فالمسلم يحب ان يبذل روحه وهكذا ينبغي ان يكون : "قل ان كان آباؤكم وابناؤكم واخوانكم وازواجكم وعشيرتكم واموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها احب اليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا حتى يأتي الله بأمره والله لايهدي القوم الفاسقين" (٣) ، ولذا انقلب هذا الانسان من انسان يقاتل من اجل ناقة او جمل ، الى انسان يقدم كل شئ وينتظر الشهادة بشوق كبير ، فاذا سال دمه استبشر ونادى : فزت ورب الكعبة .

اننا نعزو هذا الانقلاب الهائل في النفس البشرية الى العقيدة التي جاء بها القرآن

---

(١) الانبياء : ١٠٧ .

(٢) الحشر : ٩

(٣) التوبة : ٢٤ .

والتي غيّر فيها التصورات والمفاهيم . ان القرآن لم يلغ الغريزة وانما دفعها بأتجاه البناء ، ماذا نتصور الانسان الذي يحب ذاته ؟ ، هل جائته العقيدة القرآنية لتقول له : الغ هذه الطبيعة ؟ لا . وانما قالت له ان كنت تحب ذاتك فقدمها ، لتضمن ذاتك السعيدة السعادة الابدية ، وان كنت تحب مالك ، فقدمه ليكون لك اضعافاً مضاعفة ، وكلما كنت انانياً اكثر كلما ينبغي عليك ان تبذل وتضحي اكثر !! نعم فالتاجر الذي يحب الربح اكثر من غيره يتعب اكثر ويبذل اكثر ولكن ليربح اكثر ، هذا التصور الجديد الذي بنته العقيدة هو الذي فعل الافاعيل ، اسمع الى عقيدة القرآن كيف تصوغ هذه الحقيقة : "ان الله اشترى من المؤمنين انفسهم واموالهم بان لهم الجنة"[1] ، اذاً هي عملية بيع وشراء وربح ، واذا كنت متردداً في الاقدام على هذه الصفقة ، فان عقيدتك لن تترك لك مجالاً للتردد ، انها تقول لك : "كل نفس ذائقة الموت"[2] بمعنى انك تقدم الثمن طائعاً او مكرهاً ، انت تموت حتماً وستخسر مالك بموتك ، فماذا تريد ؟ اتريد ان تخسر نفسك ومالك مجاناً دون عوض ؟ ام تريد ان تشتري بهما الجنة والسعادة الابدية ؟ انت بين هذين الخيارين ، فماذا انت فاعل ؟!

واذا كان الامر كذلك فهل من حاجة الى ان نفصل القول في تأثير العقيدة على السلوك اليومي للانسان ، في اكله وشربه ، وسوقه ومزرعته ، بين اهل بيته والآخرين ، لقد بنت العقيدة القرآنية انساناً جديداً لايحتاج الى رقابة فرقيبه من داخله ، ولايحتاج الى القضاة فدستوره بين جوانحه ، وهذا يكفي .

٣- في مجال البناء الجماعي وتكوين الحضارة المثالية :

لاداعي ان نقدم بين يدي هذه النقطة فهي لاتحتاج الى مقدمات ، فقط ان نعلم ان رجلاً بلغ عمره الاربعين سنة ، ولم يعمل اي شئ ، ثم بدأ يدعو الى عقيدة جديدة بعد الاربعين ، لكن الناس رفضوا هذه العقيدة وآذوا هذا الرجل كثيراً هو والقلة الذين آمنوا معه ، حتى لما جاوز عمره الخمسين خرج فاراً بدينه وطارده الناس لكنه استطاع ان ينجو ، ثم لما بلغ الستين او يزيد قليلاً حسم المعركة مع جميع اعدائه لصالحه ، فأسلم العرب وانهزم اليهود ، وبسط نفوذه على الجزيرة العربية ولم يكتف بهذا بل اخذ يهدد استقرار الروم في شمال جزيرته ، ثم واصل المسيرة خلفاؤه من بعده فحطموا طواغيت الارض ، فهدموا عرش كسرى ، وكسروا شوكة قيصر !!! فقط ان نعلم هذه الحقيقة فهذا يكفي .

---

(١) التوبة : ١١١ .

(٢) آل عمران : ١٨٥ .

فاذا علمت ان هذه السرعة في الانجاز لم تكن محصورة في الجانب العسكري وانما هو انقلاب سريع في السياسة والقانون والاقتصاد والاخلاق ... الخ وكل هذا سار بموازنة فريدة عجيبة ، فماذا تقول ؟ لولا انه خبر مسلّم بصحته عند خلق الله كافة ، لقلنا انه من قصص الماضين واساطير الاولين ، لكنه الحق الذي بهر العقول وحيّر التاريخ ، فكيف استطاع القرآن ان يحقق كل هذا ؟! لننظر في النقاط الآتية :

أ- ليس المجتمع الا مجموع افراد ، فاذا تبين لنا آنفاً كيف استطاعت عقيدة القرآن ان تحدث الانقلاب الهائل داخل النفس البشرية . فما الذي يعوقها بعدُ ان تحدث هذا الانقلاب في المجتمع كله ؟! ان جيشاً مكوناً من افراد صاغتهم عقيدة القرآن عقيدة البيع والشراء او صفقة الجنة لايمكن ان ينهزم ابداً . اينهزم التاجر من الربح الكبير ؟!! ولذا في كل معارك الاسلام الاولى لم نسمع بان الدولة الاسلامية احتاجت الى وضع "التجانيد" لاستدعاء المواليد ولاقامة السيطرات لتتبع المتخلفين والهاربين !!!

ب- لقد جاءت عقيدة القرآن لتقول للانسان ان الارض ارضك والسماء سماؤك ، وكل مافيها لك ، ليس فيها مجهول يخيفك ، ليس فيها ممنوع عليك - الا ماشاء الله - واسمع معي الى هذا البيان : "هو الذي خلق لكم مافي الارض جميعاً"[1] ، و "الله الذي خلق السموات والارض وانزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم وسخر لكم الفلك لتجري في البحر بأمره وسخر لكم الانهار . وسخر لكم الشمس والقمر دائبين وسخر لكم الليل والنهار"[2] ، و "الم تروا ان الله سخر لكم مافي السموات ومافي الارض"[3] .

ان هذه العقيدة التي تبصّر الانسان بحقيقة هذا الكون ، وانه مخلوق مسخّر له ، فهو سيده ، والمتصرف فيه ، بأذن خالقه - تبارك وتعالى -[4] لابد ان هذه العقيدة ستفجر الطاقات وتفتق المواهب ، ثم ان هذا التفجير منضبط بحدود الدستور الالهي ، فالانسان ليس هو المالك الحقيقي وانما هو مستخلف فيه مؤتمن عليه ، وسيأتي يوم يحاسب فيه هذا الانسان على الصغيرة والكبيرة .

فالحضارة الاسلامية قامت على الاستغلال الاقوى والامثل للطاقات المخزونة في هذا الكون مع الدستور الذي ينظم هذا الاستغلال ويدفع به نحو الهدف الكبير[5] .

---

(١) البقرة : ٢٩ .

(٢) ابراهيم : ٣٢ - ٣٣ .

(٣) لقمان : ٢٠ .

(٤) انظر العقيدة والفطرة ، صابر طعيمة : ٧٥ .

(٥) الاستخلاف والتركيب الاجتماعي في الاسلام : ٣٦

لو اردت ان تجري مقارنة بين هذه العقيدة والعقائد الاخرى في هذه النقطة بالذات لرأيت العجب ، تصور ان عقيدة تقول لأصحابها : ان الهكم بقرة او نار او شمس او قمر او تمر او حجر ، ماقيمة هذه العقيدة امام العقيدة التي تقول للانسان انت سيد هذا الكون ، وان هذه الآلهة المزيفة انت سيدها وهي مسخرة لخدمتك !!

ثم تصور عقيدة على نقيض تلك ، عقيدة تقول للانسان : انت سيد الكون ، اما الاله فهو اما وهم لاحقيقة له ، وهذه فلسفة الشرق الآن ، واما انه موجود ولكن لادخل له في خلقه ، فلاشريعة له ولادستور ، الانسان هو الذي يستغل الكون وهو الذي يضع لنفسه قانون الاستغلال !! ماذا ينتج عن عقيدة الغرب هذه ؟ نعم استغلال كبير لطاقات الكون ، لكن مع الظلم والانانية والطبقية والاستغلال البشع لطاقات الفقراء والطبقات الكادحة ، لماذا لم تستطع الحضارة الغربية ان تنتج مجتمعاً يسوده التعاون والايثار ؟ لماذا لم يستطع الساكنون في ناطحات السحاب ، ان يحققوا قدراً من الرأفة والحب والايثار كما حققه ساكنوا الصحراء ايام المد الاسلامي الاول ؟

وبين هذه وتلك توجد عقائد كثيرة لكنها عوراء او عرجاء ، فهذا غاية ماعنده ان يحقق حلم شعب الله المختار في استعباد بقية الاجناس البشرية ، وذاك غاية ماعنده ان يترهب في صومعة او دير تاركاً الزواج والحياة !!

جـ- لقد مر معنا ان من ابرز سمات هذه العقيدة انها عقيدة عملية ، دفعت الانسان في ميادين العمل ، في عالم الشهادة ، ولم تمنحه من الغيب الا بمقدار ماينتفع به عملياً ، فليس في كل جوانب العقيدة جانب نظري بحت ، وهذا بطبعه ادى الى التنافس في العمل ، والمسارعة فيه ، والابتعاد عن الجانب النظري الفلسفي ، هذا الابتعاد كان له السبب الاكبر في حفظ الطاقات العقلية ودفعها بأتجاه الميدان العملي ، ولنقارن الآن بين حالتين :

الحالة الاولى : حالة العقول المنفتحة في الجيل الاسلامي الاول ، كيف دفعت بها العقيدة القرآنية الى دراسة الارض وموازين القوى ، ثم التخطيط لبناء الامة ورفع راية الحق واخيراً النجاح في التنفيذ ، فكانت عقول الخلفاء الراشدين والقادة العسكريين والتجار واصحاب الخبرات والقدرات كلها مشغولة بالهدف ، مشحونة للتنفيذ .

الحالة الثانية : حالة العقول الكبيرة التي جاءت بعد ، لكنها ابتعدت عن الواقع وسبحت في فضاء الغيب ، فأنتجت ثروة هائلة في ميادين الكلام والفلسفة . لكن الجياع لاتشبعهم الفلسفة ، والظلم لاترفعه الاقلام ، والجيوش الغازية لايردها جدل المتكلمين . لقد كنت اسأل نفسي كثيراً بحسرة واسى ، ماذا لو ان هؤلاء المعتزلة مثلاً اشغلوا عقولهم في عالم الشهادة وميدان الواقع ؟ ماذا لو ان هذه الطاقات والاوقات صرفت في

ميادين العلم العملي والابداع الصناعي ؟ ان العقول التي صنعت الكهرباء واكتشفت خصائص النفط وانتجت البنادق والقنابل ليست اذكى من عقول ائمتنا الكبار ، فهل اقول انه خطأ المنهج ؟ من الممكن ، لكن الحقيقة دائماً ان الامة لما تتعرض لغزو فكري سينبري بعض المخلصين له ، وبقدر مايحققون من نجاح بقدر مايصبح هذا الميدان ميدان الشهوة والشهرة فيتنافس المتنافسون ويتدافعون بالاكتاف ، لكن قد يكون ذك الخطر زال اصلاً او انه من الممكن ان يزول ببعض يسير من هذا الجهد ، فما كان ينبغي ان توظف العقول كلها لرد شبهة اثارها فيلسوف او مكابر !!

لقد طرحت امام الجيل الاول شبهات كثيرة لاسيما من اهل الكتاب وبعض المنافقين . لكن التربية على اسس العقيدة القرآنية ماكانت تدع مجالاً للاخلال بالموازنة او لحدوث الارتباك المؤذي للصف الاسلامي .

٣- **ولا يغوتنا ان نذكر الاثر الكبير** الذي نجم عن توحيد مصدر التلقي لدى الامة ، لاسيما في مبادئها الاولى ومنطلقاتها الرئيسية ، فلما كان المسلمون لايأخذون عقيدتهم الا من مصدر واحد وهو كتاب الله ، منحهم هذا وحدة في الجانب الاهم من ميادينهم الفكرية وغيرها ، وان عدم السماح للعقل البشري ان يجتهد ليضع اصول العقيدة بل حتى ولا السنة النبوية كما مرّ ، حيث كانت الاصول الاعتقادية واضحة مفصلة في القرآن . القرآن المعجز الخالد المحفوظ . ان هذا كان له الدور الاكبر في صيانة الجدار الاسلامي من التشققات الخطيرة التي قد تودي به . وان كل خلاف هين مالم يكن خلافاً في الثوابت والاصول . ولذا كانت عقيدة القرآن صمام الامان لحفظ الامة المسلمة ، وان هذه الامة مااضطربت افكارها وتباينت تصوراتها الا بعد ان سمح للعقل ان يجتهد في مسائل العقيدة ، والعقول لاتلتقي الا على الضروريات ، ومسائل العقيدة ليست كلها ضروريات ، بل ان منها ماهو متصل بالجانب الغيبي البحت الذي لامجال للعقل فيه الابدليل من الوحي . فلما اختلفت العقول في نتاجها تعددت مصادر التلقي ، فتلقت الامة عقائد مصبوغة بصبغة العقول التي انتجتها فحدث ماحدث والله المستعان .

وفي ختام هذا المبحث نود ان نجيب عن تساؤل قد ينقدح في الذهن ، وهو انه اذا كان مقياس النجاح او الفشل لاي مشروع انما يكون بمقدار ماحققه من اهداف مع مراعاة عنصر الزمن ، فهل العقيدة القرآنية قد حققت اهدافها بصورة صحيحة وكاملة ؟ كيف ، والارض لازالت تدين بأديان باطلة ، ودساتير ومناهج من وضع البشر ، ولازال الظلم يرخي ذيوله على المجتمعات الانسانية برمتها ؟

هذا السؤال في غاية الاهمية . والجواب عنه قد ينفعنا لكشف طبيعة هذا الدين ومنهجه في تحقيق اهدافه على هذه الارض . وللجواب نقول : ان الاسلام يتحرك على هذه الارض بجانبين : الاول : وهو المعصوم من الخطأ والمبرأ من الزلل ، ونعني به الوحي الالهي ، عقيدة وشريعة . والجانب الثاني : وهو المعرض للخطأ والزلل ، ونعني به الجهد البشري الذي كلف بحمل هذه الرسالة والوصول بها الى غايتها ، وهذا الجانب هو اساس الابتلاء ، وفي ميدانه يفوز الفائزون او يسقط الساقطون . فحينما يعي البشر المكلفون بهذا الواجب طبيعة وظيفتهم ويصدقون معها ويتحركون بها في المسار الصحيح فان الجانب الاول مؤمن الثغرات فلن تنتكس المسيرة بسبب نقص او خلل في الجانب الاول ابداً ، وهذا ماحدث في الجيل الاول فكلما تحرك الصف الى الامام وجد عقيدته معه لاتضيق ذرعاً بتقدمه وتوسعه ، فتحقق ماتحقق ، وحينما يتسرب الخلل الى الجند المكلفين بحمل الرسالة تتعوّق المسيرة ، ويحدث الاخفاق .

والخلاصة فاننا نقر بوجود اخفاق عريض في مجال تحقيق الاهداف ، الا ان هذا الاخفاق ماكان سببه الجانب الاعتقادي ، وانما سببه الجهد البشري المناط به حمل هذه الامانة .

الفصل الثاني

المبحث الأول : سمات عامة لمنهج القرآن في عرض العقيدة

المبحث الثاني: آثار المنهج القرآني

المبحث الاول
سمات عامة في مناهج المتكلمين

قبل ان نبحث في السمات العامة لمناهج المتكلمين بودي ان اذكر بعض الملاحظات التي ربما اراها نافعة في هذا المجال .

الملاحظة الاولى : اننا حين نتحدث عن المتكلمين لانقصد اولئك الذين اشتهروا بهذا الاسم فقط ، وانما نعني من تكلم فيما سكت عنه السلف من مسائل العقيدة ، سواء كانوا عقليين كالمعتزلة ، ام ظاهريين كأبن حزم وابن تيمية ، ام وسطيين جمعوا بين العقل والنص كالاشاعرة ، فهؤلاء كلهم خاضوا فيما لم يخض فيه السلف ، وقد مر معنا قول كثير من السلف في اهل الكلام وانهم يقصدون بهذا اللقب حتى اهل الحق ، وليس ادل على هذا من كلام ابي يوسف – رحمه الله – : "لاتجوز الصلاة خلف المتكلم وان تكلم بحق فهو مبتدع" [1] ، ولما الف الحارث المحاسيبي كتاباً في الرد على المبتدعة كتب اليه الامام احمد – رحمهما الله – : "ويحك الست تحكي بدعتهم اولاً وترد عليهم" [2]

الملاحظة الثانية : ينبغي ان نقدر تلك الضرورة التي دعت علماءنا للخوض فيما لم يخض فيه السلف ، هذه الضرورة التي ادركها حتى الذين شددوا النكير على المتكلمين ، فهذا الامام احمد بعد ان انكر على المحاسيبي رده على المبتدعة ، نراه هو نفسه يؤلف كتاباً يرد فيه على المبتدعة "الرد على الزنادقة والجهمية" لكن الضرورة ينبغي اولاً ان تقدر بقدرها ، فلا تنشغل الامة كلها في مسائل نظرية فلسفية تاركة واجباتها الاساسية ، وثانياً ان عصر الضرورة عندما ينتهي فعلينا ان نرجع الى الاصل ونتشبث به ، اما الاسترسال معه على طول الخط ، فهذا قد يبعدنا عن عقيدة الوحي الصافية اولاً ، وقد يجعلنا نغفل ضرورات العصر ، وكم هو مؤسف انه لما غزينا بأفكار مادية الحادية جديدة في عقر دارنا ماكان علماؤنا على اهبة الاستعداد لردها لانهم في الغالب يعيشون في غير عصرهم . وارجو ان لايفهم من كلامي هذا اني ادعو الى احراق كتب الكلام القديمة والقائها في البحر ، لا ، وانما المقصود ان تنشغل الامة بضرورات العصر وميادينه الواسعة ولابأس بقيام ذوي الاختصاص بحفظ هذه الثروة الهائلة المباركة .

الملاحظة الثالثة : اننا حينما نتحدث عن السمات العامة لمناهج المتكلمين بعد ان تحدثنا عن سمات المنهاج القرآني فان هذا لايخلو من غمط لمكانة المتكلمين ولجهدهم

---

(١) طاش كبرى زاده : مفتاح السعادة : ٢/ ١٣٧ .

(٢) المصدر السابق : ٢/ ١٣٨ .

الكبير في هذا المجال ، لان النتاج العقلي مهما بلغ من الشأو والرفعة فانه لايرتفع الى مستوى المقارنة مع الوحي ، ولهذا فالذي يبرز في هذا المبحث من نقص او خلل في مناهج المتكلمين فسببه هذه المقارنة .

هذا وحينما نريد ان نبرز السمات العامة في مناهج المتكلمين فلا يفوتنا ان نتذكر ان كثيراً منها قد مر معنا عند الحديث عن سمات المنهج القرآني وذلك في معرض المقارنة ، ولذا سنختصر قدر المستطاع ولنبدأ :

السمة الاولى : التأكيد على الجوانب النظرية في العقيدة على حساب الجوانب العملية ، وهذه سمة تكاد تكون سائدة في مناهج المتكلمين اجمعين ، ولنضرب بعض الامثلة :

١- في مبحث الآلهيات ، دار اغلب الحديث عند المتكلمين حول مواضيع "القضاء والقدر" و "علاقة الذات بالصفات" و "الصفات الخبرية" ونحو هذا ، وهذا كله لاعلاقة له بميادين التكليف والعمل ، والحقيقة اننا حينما نقول انها سمة عامة فلا نبالغ ، فاذا كانت جل مباحث المعتزلة في "العدل الالهي" و "علاقة الذات بالصفات" ويتابعهم الاشاعرة من حيث الاهتمام بالمسائل عينها ولو من وجهة نظر اخرى ، فأنتجوا "نظرية الكسب" و "الكلام النفسي" ، فان اهل الظاهر اوغلوا في مسائل اخرى اشد عمقاً في الغيبية وابرز مثال على ذلك "الصفات الخبرية" التي كرّسوا كثيراً من جهودهم وطاقاتهم والفوا فيها الكثير من المصنفات ، ويكفي ان نقرأ كتاب "التوحيد واثبات صفات الرب" لابن خزيمة ، او "الرد على المريسي" للدارمي ، او "الرسالة التدمرية" لابن تيمية ، او "الصواعق المرسلة" لابن القيم ، وغير ذلك .

لكن هناك مسائل في الآلهيات متعلقة بالجانب العملي ، اهملت اهمالاً عجيباً ، فمثلاً في الاتجاه العقلي "المعتزلي" ، والوسطي "الاشاعرة" ، لم اجدهم يعيرون اهتماماً لافراد الله في العبودية والخضوع والطاعة او افراده في التشريع ، في التحليل والتحريم ، في حين ان هذه هي التي يحتاجها الناس يومياً ، والحق ان المدرسة الظاهرية اولت هذه المسألة اهتماماً كبيراً وشددت فيه ، لكن هناك جوانب اخرى في الآلهيات مهمة جداً لم تعط الاهتمام المناسب ، فمثلاً اسماء الله - تعالى - الحسنى ، ومعانيها واثرها في تربية الروح وتزكية النفس ، لم تلق الاهتمام المناسب في حين تغلبت "الصفات الخبرية" واخذت حصة الاسد ، لمكان النزاع فيها ، بل ربما يأتي النص وفيه جانبان احدهما عملي والآخر غيبي نظري ، فيهمل الجانب العملي ، ويكثر الكلام في الجانب الآخر . وهاك هذا المثال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : "ينزل ربنا - تبارك

وتعالى – كل ليلة الى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر يقول : من يدعوني فأستجيب له ، من يسألني فأعطيه ، من يستغفرني فأغفر له" [1] ، فهذا الحديث فيه جانبان : الاول غيبي خبري ، يكفي فيه التصديق ، والثاني عملي لايغني فيه الا التطبيق ، لكن المتكلمين تعاملوا مع هذا الحديث بأهمال الجانب العملي تماماً – الا ماشاء الله – وتعلقوا بالجانب النظري المجرد مع ان المقصود من النص هو الجانب العملي : هو ان يستيقظ المسلم في الثلث الاخير من الليل ويناجي ربه ، ويكفي ان تعلم ان هناك اكثر من كتاب خصص لبحث صفة النزول مثل : "شرح حديث النزول" لابن تيمية و "كتاب النزول" للحافظ علي بن عمر الدارقطني [2] هذا بالاضافة الى مئات الصفحات المتناثرة في كتب الاسماء والصفات !! وماذا بحث في كل هذا ؟ انظر مثلاً قول ابن تيمية : "انه لايزال فوق العرش ولايخلو العرش منه مع دنوّه ونزوله الى السماء الدنيا ولايكون العرش فوقه" [3] ثم يقول : "وفي الجملة فالقائلون بأنه يخلو منه العرش طائفة قليلة من اهل الحديث" [4] !!!

٢– في مبحث "اليومِ الآخر" ، وصف القرآن اليوم الآخر بصورة تكاد تجعلك رأي العين مع مشاهد ذلك اليوم الرهيب ، وكلما قرأت آية عذاب استعذت بالله وعقدت التوبة الى الله ، وكلما قرأت آيات الجنة والسلسبيل كلما هزك الشوق ودفعك الى المزيد من الطاعة والضراعة ، غير ان مباحث اليوم الآخر عند المتكلمين لاتجد فيها هذه الروح . وهذه بعض مسائل المعاد التي بحثها المتكلمون : أعذاب القبر على الروح والجسم ام على الروح فقط ؟ وروح الميت ألها صلة بقبره ام لا ؟ والميزان أحقيقة ام مجاز ؟ وأيجب على الله ان ينفذ ماوعد به العصاة ام يجوز له ان يعفو عنهم ؟ واين مصير اولاد الكفار ؟ وهذه الاسئلة بالطبع اياً كان جوابها فلايترتب عليه عمل ، فلماذا هذا الهدر للطلقات والاوقات ؟ !!

هذه الامثلة التي قدمناها لاتعني اطلاقاً ان المتكلمين لم يهتموا بالجانب العملي مطلقاً – حاشا لله – ولكن هناك تغليب واضح للجانب النظري ، او هناك خلل في الموازنة ، ربما نجد تبريره سهلا بعد .

---

(١) البخاري ، فتح الباري : ٣/ ٢٩ .

(٢) طبع هذا الكتاب مع كتاب ثان للمؤلف وهو "كتاب الصفات" ، انظر قائمة المصادر .

(٣) ابن تيمية ، شرح حديث النزول : ٥٨ .

(٤) المصدر السابق : ٥٨ .

السمة الثانية : قصر المباحث الاعتقادية على طائفة معينة من الناس ، وهذا عكس المنهج القرآني تماماً ، فقد مرت معنا سمته المهمة وهي كون عقيدته عقيدة الامة كلها ، وتهم الانسان ايا كان وفي اي زمان او مكان ، والحق ان منهج المتكلمين لم يقصد هذا ، ولكن طبيعة المسائل الكلامية ، مع الصياغة المعقدة لها ، والمصطلحات الفلسفية ، كل هذا جعل كتب العقيدة لايمكن ان يفهمها كل الناس ، بل تصعب - والله - على ذوي الاختصاص فماذا يفهم الناس من الجوهر والعرض والهيولي ، وكيف يقتنعون ان الله ينزل الى السماء الدنيا حقيقة ولكنه يبقى فوق العرش !! وكيف يجمعون بين عقيدة انه لايحدث في الكون شئ لايريده الله ، وعقيدة حرية الارادة والاختيار عند الانسان ، ان الناس لايفهمون هذا ابداً ، والمتكلمون ايضاً لايحرصون على تفهيم هذا للناس ولذلك بقيت الفجوة قائمة بين المتكلمين وجمهور المسلمين .

السمة الثالثة : النقص "عدم الشمولية" والنقص طبيعة بشرية فالكمال لله وحده ، والقرآن شامل كامل لانه كلامُ الله ، اما غير القرآن فلايمكن ان يستوعب كل شئ ، ولنأخذ هذه الامثلة :

أ- حينما تقرأ هذ العنوان على كتاب معين "اصول الدين" فانت تجزم بانه لاتوجد مسألة متعلقة بأصول الدين الا وتجدها في هذا الكتاب لاسيما اذا كانت من المسائل المهمة ، لكن كتاب "اصول الدين" لعبد القاهر البغدادي وهو من ائمة الاشاعرة الكبار ، تتصفحه من البداية الى النهاية فلاتجد فيه المباحث الآتية :

مبحث وجوب افراد الله في حق التشريع والحكم .

مبحث وجوب افراد الله في العبادة والطاعة

مبحث اعجاز القرآن الكريم ، الا في اقل من صفحة واحدة وغالبها رد على النظام والقدرية .

مبحث صفات الانبياء ومايجب على الامة تجاههم .

مبحث صفات الجنة والنار ومايتعلق بهما .

هذه المباحث يخلو منها كتاب "اصول الدين" فاين يجدها الباحث ؟

ب-وهذا كتاب آخر طبع تحت عنوان "عقائد السلف" ويحتوي على مجموعة من رسائل الائمة الكبار في العقيدة ، وبحجم لابأس به ولكنه والله خلا من اغلب العقائد اصولها وفروعها ولم يتناول الا مسألة خلق القرآن والصفات الخبرية ومشكلة القدر ورؤية الله في الجنة ، فهل هذه هي عقائد السلف ؟!

جـ- وهذا كتاب "العقيدة الواسطية" لابن تيمية - رحمه الله - والذي يقول في مقدمته : "اما بعد فهذا اعتقاد الفرقة الناجية المنصورة الى قيام الساعة ، اهل السنة والجماعة"[1] لم ينس ابن تيمية في هذه الرسالة المختصرة ان يذكر مسألة الصحابة ومسألة صلة الارحام وبر الوالدين ، لكنه نسي ان يحدثنا عن توحيد الالوهية وعن النبوة ومايتعلق بها الا عرضاً ، ولم يتطرق بكلمة واحدة عن اعجاز القرآن بينما جاء غالبه مركزاً في موضوع الصفات الخبرية التي يكفي ان تقول في مجموعها : آمنت بما جاء عن الله ، وبما جاء عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - على مراد رسول الله" ، هذا هو رأيه بالذات[2] ، فوا عجبي !!!

د- وهذا كتاب "الاعتقاد" للبيهقي - رحمه الله - فقد خلا - الا ماشاء الله - من ذكر لمعنى العبودية وافراد الله بها ، وصفات الرسل وواجب الامة تجاههم ، وكثير من مباحث اليوم الآخر .

واما كتب المعتزلة فمع قلة مابين ايدينا منها الا انها خلت من كثير من المسائل الاعتقادية المهمة كأفراد الله في العبادة وحقه في التشريع وكثير من صفات الانبياء ومايتعلق بهم واغلب السمعيات ، ويكفي ان تنظر في كتاب شرح الاصول الخمسة للقاضي عبد الجبار والانتصار للخياط .

واما ابن حزم فلم اجد له كتاباً التزم فيه بذكر العقيدة الاسلامية وتفصيلها والذي بين يدي هو كتاب "الفصل" لكن هذا الكتاب لم يشترط فيه ابن حزم ان يسرد لنا مسائل الاعتقاد . بخلاف الكتب التي اشرنا اليها سابقاً .

السمة الرابعة : الزيادة ونقصد بها ان هناك الكثير من المباحث الاعتقادية او المرتبطة - على الاصح - بمسائل العقيدة في كتب المتكلمين لاوجود لها في الوحي ، والمتكلمون يقرون هذه الزيادات ، ويرون انها اضيفت للضرورة والحاجة ، يقول التفتازاني - رحمه الله - : "ثم لما نقلت الفلسفة الى العربية وخاض فيها الاسلاميون حاولوا الرد على الفلاسفة فيما خالفوا فيه الشريعة فخلطوا بالكلام كثيرا من الفلسفة ليتحققوا مقاصدها فيتمكنوا من ابطالها وهلم جراً الى ان ادرجوا فيه معظم الطبيعيات والالهيات وخاضوا في الرياضيات"[3] ، ويشرح استاذنا الدكتور محمد رمضان هذه الحاجة الى الزيادة فيقول : "ثم لما جاء من يليهم من العلماء ورأوا ان هذه المبادئ التي يتوقف عليها

---

(١) ابن تيمية ، العقيدة الواسطية بالشرح : ١٥ - ١٦ .

(٢) ابن تيمية . مجموع الفتاوي : ٤/ ٢ . وقد ذكر نسبته الى الامام الشافعي - رحمه الله - .

(٣) التفتازاني ، شرح العقائد النسفية : ١٧ .

اثبات العقائد كالموجود واقسامه وكالجوهر والعرض واحكامهما هي من وسائل العلم الالهي عند الفلاسفة وتحاشوا ان يحتاج علم العقائد الى علوم الفلاسفة عمموا موضوعه فبحثوا عن احوال الموجودات الخارجية مطلقاً ليكون لهم علم شرعي بأزاء العلم الالهي" [1].

وقد اتخذت هذه الزيادات طابعين اثنين :

الاول : تضخيم ماكان له اصل في الوحي ، وابرازه اكبر من صورته الحقيقية واعطاؤه مساحة واسعة من خارطة العقيدة الاسلامية ، ولنأخذ مثالين ، الاول من المدرسة الظاهرية والثاني من العقلية .

المثال الاول : ركز كثير من اصحاب الظاهر على حديث "الجارية" فلاتكاد تجد كتاباً من كتبهم الا وفيه شرح وتفصيل لهذا الحديث ، وتأكيد على بعض رواياته التي قد تنفعهم في صراعهم مع المدرسة العقلية ، وحديث الجارية خلاصته : ان رجلاً كانت له جارية فضربها ثم جاء الى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال : "افلا اعتقها ؟ قال : ائتني بها ، فأتيته بها ، فقال لها : اين الله ؟ قالت : في السماء ، قال : من انا ؟ قالت : انت رسول الله . قال : اعتقها فانها مؤمنة" [2] . وفي بعض طرق الحديث "فأشارت الى السماء" وفي رواية اخرى انه - علية الصلاة والسلام - قال لها : "اتشهدين الا اله الا الله ؟ قالت : نعم" [3] .

تعامل اهل الظاهر مع هذا الحديث وكأنه اصل الدين وركنه الركين لاسيما روايته الاولى ، ولنأخذ نموذجين : الاول من المتقدمين وهو : ابن منده - رحمه الله - فقد عقد في كتابه "الايمان" باباً خاصاً تحت عنوان "باب ذكر مايدل على ان المقر بالتوحيد اشارة الى السماء ، بأن الله في السماء دون الارض ... يسمى مؤمناً" [4] ، ثم ساق حديث "الجارية". والثاني من المعاصرين وهو الشيخ ناصر الدين الالباني ، ففي نقاشه مع الشيخ محمد سعيد رمضان البوطي ، قال الالباني : " نحن نسألك بسؤال الرسول - صلى الله عليه وسلم - للجارية ، اين الله ؟ فان اجبت بالجواب الذي نؤمن به وجعله الرسول - صلى الله عليه وسلم - دليل ايمان الجارية .... فقد اصبت الحق ، وان انت

---

(١) الاستاذ محمد رمضان عبد الله ، الباقلاني وآراؤه الكلامية : ٣١ .

(٢) مسلم ، الصحيح بشرح النووي : ٥/ ٢٤ .

(٣) لمعرفة هذه الروايات وغيرها ، انظر سنن ابي داوود : ٣/ ٢٢٧ . والتوحيد واثبات صفات الرب ، لابن خزيمة : ٨١ - ٨٢ . والسنن الكبرى للبيهقي : ١٠/ ٥٧ .

(٤) ابن مندة ، كتاب الايمان : ١/ ٢٣٠ ، وانظر نحو هذا : الرد على المريسي لابي سعيد الدارمي : ٢٧١ .

انكرت توجيه هذا السؤال الذي سنّه لنا رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ... فقد خالفت الكتاب والسنة واجماع الامة" [١] .

فأنظر كيف اصبح هذا الحديث وعلى الرواية الاولى فقط باباً للايمان ودليلاً عليه ، فمن عرف الجواب الصحيح فهو مؤمن والا – يا لطيف – !!!

لكن لنسأل : هل الرسول – صلى الله عليه وسلم – امتحن ايمان احد به غير الجارية ؟ فكيف اثبت اذاً ايمان الآخرين ؟!!

ثم هل ورد عن الصحابة الكرام انهم وجهوا هذا السؤال للناس كما وجهه الشيخ الالباني لخصمه ؟!

ثم هل يصح فعلاً قولها : "في السماء" دليلاً على الايمان ؟ كيف ، والمشركون واهل الكتاب وغيرهم المعروف عنهم انهم يقولون : ان الله في السماء ؟

ثم لماذا اغفال الروايات الاخرى للحديث ؟

واخيراً فهل يصح ان يكون مثل هذا الحديث فيصلاً بين الايمان والكفر وهو حديث احادي وله اكثر من رواية ؟!

المثال الثاني : ولننظر الى الطرف المقابل لنقف معهم على مثال واحد وهو قوله – تعالى – : "ليس كمثله شئ" [٢] ، فقد توسعوا في هذه الآية حتى اولوا او انكروا على اساسها كثيراً من النصوص الصحيحة ، فالمعتزلة والاشاعرة اوّلوا كل "الصفات الخبرية" على اساس هذه الآية : فترى القاضي عبد الجبار يقول : "على انه ثبت بالقرآن والاجماع انه ليس كمثله شئ" ولايقول احد منا : انا نقول هذا القول على جهة المجاز ، فيجب ان نتأول ماذكر من الآى ..." ثم اخذ بتأويل عشرات الآيات التي فيها ذكر الاستواء والعلو واليد ونحوها [٣] ، بل ان الاشاعرة ذهبوا الى افتراض صفات لاتخطر بالبال ونفوها ، ومن هذا مثلاً ماجاء في كتاب "اصول الدين" للبغدادي فبعد ان نفى "الصفات الخبرية" اتجه لينفي صفات لم يأت بها نص فتراه يقول : "المسألة الثامنة من هذا الاصل في احالة وصف الله – تعالى – بالالوان والطعوم والروائح" ثم "المسألة التاسعة من هذا الاصل في احالة الآفات والسرور والغم عليه" [٤] ويضيف الاسفرائيني – رحمه الله – : "وان تعلم ان الحركة والسكون والذهاب والمجئ والكون في المكان والاجتماع والافتراق والقرب والبعد من طريق المسافة والاتصال والانفصال ، ... كلها

---

(١) الالباني ، مختصر العلو : ٦٥ – ٦٦ .

(٢) الشورى : ١١ .

(٣) القاضي عبد الجبار ، المختصر في اصول الدين ، المطبوع ضمن رسائل العدل والتوحيد : ٢١٦ – ٢٢٠ .

(٤) البغدادي . اصول الدين : ٧٨ و ٧٩ .

لاتجوز عليه – تعالى – [1] ويقول التفتازاني : "انه لايتصف بشئ من الكيفيات المحسوسة بالحواس الظاهرة والباطنة مثل الصورة واللون والطعم والرائحة واللذة والالم والفرح والغم والغضب ونحو ذلك" [2] .

ولقد امتد هذا التوسع ليؤثر في من لم يعرف بأتجاهه العقلي ، فهذا مثلاً ابن حزم يعقد باباً يسميه : "الكلام في التوحيد ونفي التشبيه" [3] لايختلف في كل الباب عن المدرسة العقلية ، وهذه لقطة من كلامه : "فالباري – تعالى – غير متحرك ولاساكن" [4] .

واما ابن الجوزي – رحمه الله – فيؤلف كتاباً مستقلاً مستنداً الى تلك الآية ، اسماه "دفع شبه التشبيه بأكف التنزيه" أوّل فيه ابن الجوزي كثيراً من الآيات واكثر من ستين حديثاً .

والذين توسعوا في ذلك لم ينجوا من الخلاف ، فلقد انكر المعتزلة رؤية الله في الآخرة مع ورود الاحاديث الصحيحة بها وخالفهم الآخرون ، انظر ماذا يقول القاضي عبد الجبار : "ومما يتعلقون به اخبار مروية عن النبي – صلى الله عليه وآله – واكثرها يتضمن الخبر والتشبيه ، فيجب القطع على انه – صلى الله عليه وسلم – لم يقله ، وان قال فانه قاله حكاية عن قوم ، والراوي حذف الحكاية ونقل الخبر . ومن جملتها وهو اشف مايتعلقون به ، مايروى عن النبي – صلى الله عليه وسلم – انه قال : "سترون ربكم يوم القيامة كما ترون القمر ليلة البدر [5] ولنا في الجواب عن هذا طرق ثلاثة : احدها : هو ان هذا الخبر يتضمن الجبر والتشبيه ، لانا لانرى القمر الا مدوراً عالياً منوراً ، ومعلوم انه لايجوز ان يرى القديم – تعالى – على هذا الحد ، فيجب ان نقطع على انه كذب على النبي – صلى الله عليه وسلم – وانه لم يقله ، وان قاله فانه قاله حكاية عن قوم كما ذكرنا" [6] .

---

(١) الاسفرائيني ، التبصير في الدين : ١٦٠ .

(٢) التفتازاني ، شرح المقاصد : ٤/ ٥٢ .

(٣) ابن حزم ، الفصل : ٢/ ١١٧ .

(٤) المصدر السابق : ٢/ ١١٩ .

(٥) احاديث الرؤية السعيدة – متعنا الله بها – جاءت بروايات كثيرة ومتعددة ، ونكتفي هنا بذكر رواية البخاري – رحمه الله – : "عن ابي سعيد الخدري – رضي الله عنه : ان اناساً في زمن النبي – صلى الله عليه وسلم – قالوا : يا رسول الله ، هل نرى ربنا يوم القيامة ؟ قال النبي – صلى الله عليه وسلم – : نعم ، هل تضارون في رؤية الشمس بالظهيرة ، ضوء ليس فيه سحاب ؟ قالوا : لا . قال : وهل تضارون في رؤية القمر ليلة البدر ، ضوء ليس فيه سحاب ؟ قالوا : لا . قال النبي – صلى الله عليه وسلم – : ماتضارون في رؤية الله – عز وجل – يوم القيامة الا كما تضارون في رؤية احدهما . فتح الباري : ٨/ ٢٤٩ . فماذا يقول رسول الله – صلى الله عليه وسلم – بعد ليقنع المعتزلة !!!

(٦) القاضي عبد الجبار ، شرح الاصول الخمسة : ٢٦٨ .

وهذا التوسع في النفي الذي استند الى الآية ، هو الذي جعل اهل الظاهر يعتبرون هذه الآية من المتشابه !!! يقول الامام احمد : "ووجد - اي جهم بن صفوان - ثلاث آيات من المتشابه ، قوله : "ليس كمثله شئ" ... فبنى اصل كلامه على هذه الآيات ، وتأول القرآن على غير تأويله"[1] .

فانظر كيف اصبحت الآية الواضحة التي يفهمها الصغير والكبير من المتشابه !! وذاك بسبب انها اتخذت من قبل خصومه اداة لانكار كثير من النصوص او تأويلها ، بل والاسترسال في نفي مالا يخطر على بال ، وهنا نتساءل ماوجه الحاجة الى كل هذا ؟ فالانسان فور اعتقاده بوجود الاله الخالق لهذا الكون فانه ينزهه عن الشبيه والمثيل والا لماذا هو اله ؟ فاذا جاءت آية تؤكد هذا المفهوم ، وآمن الانسان بها فلايشترط بعدُ ان نوغل في الغيب اكثر من هذا ، ولا ان نتوسع في التفصيل لان هذه الآية لاتنتهي تفصيلاتها الا بأنتهاء جميع المخلوقات جواهر واعراض ، فهل نحن مطالبون بان نقول : ان الله ليس شجراً ولاحجراً ولاماء ولاتراباً ولاناراً ولابرودة ولاحرارة ... الخ هذا تكلف يقتل الوقت ويبدد الجهد فيكفي فيه الاجمال وهذه هي طريقة القرآن .

الطابع الثاني : زيادات ليس لها اصل في عقيدة الوحي :

مرّ معنا قبل قليل قول بعض المتكلمين في الاقرار بالزيادة والتوسعة الكبيرة التي طرأت على علوم العقيدة ، وكانت هذه على مايقول المتكلمون للحاجة والضرورة ، وهذا في الحقيقة شمل المدرسة العقلية والنصية ومن بينهما على السواء فقد خاضوا جميعاً في مباحث جديدة لاوجود لها في عقيدة الوحي ، وامامك بعض النماذج :

من فهرست شرح الاصول الخمسة للقاضي عبد الجبار المعتزلي ننقل هذه العناوين :

"الربط بين الكلام في ان النظر اول الواجبات وبين وجوب النظر"

"الرد على القول بان النظر في وجوب النظر اول الواجبات"

"ليس العلم بالله اول الواجبات"

"ليس الخوف الذي يحصل بترك النظر اول الواجبات"

"ان معرفة الله لاتكون الا بالعقل"

"اثبات حدوث الاعراض"

"ان الاجسام لاتخلو عن الاكوان"

"فصل حول القائلين بالنفس والعقل والعلة واصحاب النجوم"

"فصل في التفضيل"

---

(١) احمد بن حنبل : الرد على الزنادقة والجهمية ، المطبوع ضمن مجموعة "عقائد السلف" : ٦٦ .

"فصل في الاسعار" [1]

هذه الفصول التي زادها المعتزلة في اصول الدين وغيرها كثير ، بل انهم زادوا اصولاً بأكملها ، والا فما معنى ان يجعلوا اصول الدين خمسة وهي : "التوحيد ، والعدل والوعد والوعيد والمنزلة بين المنزلتين والامر بالمعروف والنهي عن المنكر" [2] . اني لاعجب كيف سمحوا لانفسهم ان يكون الامر بالمعروف والنهي عن المنكر من اصول الدين ، ولايكون من اصول الدين : الايمان بالرسول والرسالة ؟ !! ثم لماذا الامر بالمعروف والنهي عن المنكر دون بقية الواجبات الشرعية : الصلاة ، الجهاد ، امهات الاخلاق ... ؟

لقد تعجبت كثيراً حينما قرأت في كتاب معاصر تبريراً لهذا : "ان الامر بالمعروف والنهي عن المنكر واجب اسلامي يؤمن به سائر المسلمين ، ولكن تأكيد المعتزلة عليه وارتفاعهم به الى ان جعلوه مبدأ من مبادئهم الخمسة ، يشير الى مدى اهتمامهم بالعنصر العملي السلوكي ، حيث ان هذا المبدأ من شأنه ان يضمن اطراد العمل بالشريعة من قبل المسلمين لما يحقق من تنبيه وتذكير وتبصير للمسلمين بعضهم بعضاً عند السقوط في مخالفة الشرع وتعطيل العمل به" [3] ، واذا كان الامر كذلك فهل يصحح لنا الكاتب ان كل قضية نريد ان نلفت اهتمام المسلمين لها ان نجعلها اصلاً من الاصول ؟!

ان الذي يطمئن اليه القلب ان الموازنة في مسائل العقيدة ، وبين هذه المسائل وغيرها ينبغي ان يستند الى موازنة الوحي وان لايترك هذا للعقل لانه يؤدي الى خلاف وارباك .

وبعد ان اخذنا هذا النموذج من المعتزلة لنبدأ مع نموذج من الاشاعرة ، ولننظر في هذه المقتطفات من فهرست المواقف للايجي :

"المرصد الرابع في اثبات العلوم الضرورية وانها تنقسم الى الوجدانيات والحسيات والبديهيات ، والناس فيها فرق اربع"

"ان العلم بدلالة الدليل يغاير العلم بالمدلول"

"في تعريف الوجود ، وفي انه مشترك ، وفي انه زائد على الماهية او نفسها او جزؤها"

"تمايز المعدومات"

"شيئية المعدوم"

"رأي افلاطون في وجود مجرد ازلي "عالم المثل"

"تقسيم الماهية الى بسيطة ومركبة وفي تقسيم الاجزاء للماهية المركبة ، وفي ان الماهيات مجعولة ام لا" .

---

(١) شرح الاصول الخمسة : الفهرست .

(٢) المصدر السابق : ١٢٣ .

(٣) علي الشابي وابو لبابة حسن وعبد المجيد النجار ، المعتزلة بين الفكر والعمل : ٤٦ .

"البسيط لايكون قابلاً وفاعلاً عند الحكماء"
"القوة الجسمانية لاتفيد اثراً غير متناه عند الحكماء"
"لايبقى العرض زمانين عند الاشعرى"
"لايقوم العرض بمحلين"
"الضوء شرط وجود اللون او رؤيته"
"هل يتكيف الهواء بالضوء"
"الصوت موجود في الخارج وفي صدى الصوت وفي الحروف"
"الخلاف في حصول السكون بين حركتين مستقيمتين"
"في كسوف الشمس ومحو القمر وفي المجرة وفي ان الارض كرّية وان الماء كرى"

هذه امثلة يسيرة من فهرست الكتاب ، لاغير ، ولو علمت كم اخذت هذ المباحث من حجم الكتاب لاستغربت ويكفي ان نعلم ان المبحث الاول في العقيدة وهو "الالهيات" قد بدأ في صفحة /٢٢٦ . والكتاب كله يتكون من "٤٣٠" صفحة ، ومعنى هذا ان اكثر من نصف الكتاب الاول لاعلاقة له بمسائل العقيدة – الا ماشاء الله – واما نصفه الثاني ففيه الكثير من المباحث الجديدة !! .

واما في المدرسة النصيّة الظاهرية ، فلنأخذ منها ابن تيمية – رحمه الله – ومع كتابه "الصفدية" فقط ومن خلال الفهرست لاغير :

"الدور نوعان : الدور القبلي السبقي ، والدور المعي الاقتراني"
"التسلسل الممكن والتسلسل الممتنع"
"قول الفيلسوف : يلزم من دوام ذاته دوام التأثير"
"مقالة المتكلم : انه اوجد بعد ان لم يكن موجوداً ، والرد عليه"
"مقالة الرازي في السر المكتوم والرد عليه"
"نقد كلام ارسطو في كتاب مابعد الطبيعة"
"رد ابن تيمية على قول ابي الهذيل العلاف بفناء حركات اهل الجنة"
"كلام ابن ملكا عن رأي ارسطو وشيعته في بدء الخلق"

وهذا من فهرست لكتاب واحد ، فما بالك بكتاب كرس للرد على المناطقة "كتاب الرد على المنطقيين" .

ان حاجة علماء الكلام لهذه المباحث الجديدة او الزائدة لاستعمالها في اثبات العقائد الاسلامية او للرد عليها او لأي شئ آخر جعل كتب العقيدة تتضخم وتتمطط وتتعقد بالوقت نفسه حتى صعب فهمها على اولي العلم فضلاً عن اولي الجهل .

وتجدر الاشارة هنا الى ان هناك مسائل زائدة وليس هي من هذا القبيل الذي

تقدم ، وبالمثال قد يتضح المقصود ، وهذه بعض الامثلة :

اطلق المتكلمون اسم "الصانع" على الله – تعالى – وهذا الاسم لم يرد في القرآن ولافي السنة – على قدر علمي – ، يقول ابن تيمية : "وكذلك اهل الفلسفة والطبع والنجوم ، الذين يجعلون ان بعض المخلوقات مبدعة لبعض الامور ، هم مع الاقرار بالصانع يجعلون هذه الفاعلات مصنوعة مخلوقة ، لايقولون انها غنية عن الخالق مشاركة له في الخلق ، فأما من انكر الصانع فذاك جاحد معطل للصانع" [1] ويقول ايضاً : "فالدال على حدوث الجسم هو الدال على حدوث العالم واثبات الصانع – تعالى – فاذا بطل ذلك بطل الدليل الدال على اثبات الصانع ، فصار العلم بأثبات الصانع وتصديق الرسول موقوفاً على اثبات الصفات والافعال" [2]

اما ورود هذا الاسم عند غير ابن تيمية فهو شائع ، يقول البغدادي "المسألة الثانية عشرة من هذا الاصل في بيان غنى الصانع من خلقه" و "المسألة الثالثة عشرة من هذا الاصل في ان الصانع صانع لانواع الحوادث كلها" [3]

ولكن ابن تيمية جعل من اصوله في الصفات ان لايصف الله الا بما وصف به نفسه ، فلا يتجاوز القرآن والحديث ، غير انه هنا يخرج عن اصله هذا ، بل ويخرج عنه في اسم ثان مخترع ويبرر هذا الاختراع فيقول : "وفي الدعاء الذي علمه الامام احمد لبعض اصحابه ، يادليل الحيارى دلني على طريق الصادقين واجعلني من عبادك الصالحين ، ولهذا كان عامة اهل السنة من اصحابنا وغيرهم على ان الله يسمى دليلاً ، ومنع ابن عقيل وكثير من اصحاب الاشعرى ان يسمى دليلاً" [4] ثم اخذ يسهب في الرد على المعترضين ولكن من غير دليل .

واضاف المتكلمون الى اسمائه – تعالى – اسم "القديم" و "واجب الوجود" وعرفت هذه الاسماء عند الجميع فترى ابن خزيمة وهو المعروف بتمسكه بظواهر نصوص الصفات ، يقول : "الله القديم لم يزل والخلق محدث مربوب" [5] وان وجه ربنا القديم لم يزل بالباقي الذي لايزال" [6] . وابن تيمية ايضاً يقول : "فهذه البراهين وامثالها كل منها

---

(١) ابن تيمية ، مجموع الفتاوي : ٣/ ٩٨ و ٩٩ .

(٢) ابن تيمية ، درء تعارض العقل والنقل : ٥/ ٢٨٧ .

(٣) البغدادي ، اصول الدين : ٨٢ و ٨٣ .

(٤) ابن تيميه ، مجموع الفتاوى : ٥ / ٢٦

(٥) ابن خزيمة ، التوحيد واثبات صفات الرب : ٢٠ .

(٦) المصدر السابق ، ص ١٦ .

يوجب العلم بوجود الرب – سبحانه وتعالى – الغني القديم الواجب بنفسه" [1] ويقول : "وحينئذ فلايلزم من سلب الحياة والعلم والقدرة والكلام عن واجب الوجود ان يكون موصوفاً بما يقابل ذلك" [2] .

واذا كان هذا عند اصحاب الظاهر فمابالك بالمعتزلة والاشاعرة ، ان هذه الاسماء اصبحت مستعملة عندهم اكثر بكثير من غالب اسماء الله الحسنى ، ولانحتاج لضرب الامثلة .

ولم ار من اعترض على هذا الا ابن حزم ، اسمع اليه وهو يقول : "ومما احدثه اهل الاسلام في اسماء الله – عز وجل – القديم ، وهذا لايجوز البتة ، لانه لم يصح به نص" [3] .

لكن المتكلمين يردون على ابن حزم فيقولون بان الاجماع يصح لاثبات الاسماء والصفات من غير النص ، يقول شارح الجوهرة : "او الثابتة بالاجماع كالصانع والموجود والواجب والقديم" [4] .

السمة الخامسة : الفصل بين مسائل العقيدة ومسائل الشريعة ، ولاداعي ان نطيل في شرح هذه السمة اذ هي ظاهرة بينة ، فقد مرّ معنا في سمات المنهج القرآني كيف ربط القرآن بين العقيدة والشريعة ، فلاتكاد تجد مسألة تعبدية او سياسية او اقتصادية او اجتماعية ... الخ الا وهي مرتبطة بالايمان بالله ورسوله واليوم الآخر ، هذا الربط لانجده في كتب المتكلمين اطلاقاً ، الا انه قد يأتي بعض المتكلمين فيهتم بمسألة شرعية معينة ولفرط اهتمامه بها يذكرها ضمن كتب العقيدة ، كما في مسألة "الامانة" و "حروب الصحابة فيما بينهم" و "المفاضلة بين الصحابة" و "الامر بالمعروف والنهي عن المنكر" و "مخالفة اصحاب الجحيم" و "البدع المستحدثة" ونحو هذا كثير ، غير ان اسلوب المتكلمين هنا يختلف ايضاً عن اسلوب القرآن ، فبينما يربط القرآن ربطاً حقيقياً بين هذه المسائل ، نرى المتكلمين لايزيدون على ضم مباحث مستقلة من هذه المسائل الى كتب العقيدة ويجعلونها في مصنف واحد مثلاً ، فالفصل قائم داخل المصنّف نفسه .

وبعدُ فقد يطرح سؤال بهذا الصدد : هل كان على المتكلمين ان يمزجوا بين مسائل العقيدة والشريعة ؟ فيقدمون الايمان واركانه مع مباحث الربا والمعاهدات وقانون الاحوال

(١) ابن تيمية : درء تعارض العقل والنقل : ٣/ ٢٦٧ .

(٢) المصدر السابق : ٣/ ٩٠ ، وانظر المصدر نفسه : ٣/ ٣٦ .

(٣) ابن حزم ، الفصل : ٢/ ١٥١ .

(٤) شرح جوهرة التوحيد : ١٤٨ .

الشخصية ؟ !! الصحيح ان هذا ليس بصحيح ، اذ التقسيم وتوزيع دوائر الاختصاص ضرورة حضارية ، لكن ينبغي ان يلاحظ ان هذا التقسيم الذي شغل كل العلوم الاسلامية ليس مهمته هي مهمة القرآن في كل شئ ، اي لايمكن ان يكون هذا بديلاً عن منهج القرآن ، يوضح هذا لو ان شخصاً سمع منادي الجهاد فلم يلب كسلاً وحباً للسلامة ، او سمع الآذان ولم يقم للصلاة ، فماذا نفعل انسمعه القرآن ام نسمعه جملاً من اقوال المتكلمين والفقهاء ؟ اننا نسمعه القرآن ليهزّه من داخله ويدفعه الى التنفيذ . فاذا تقدم للتنفيذ واراد ان يعلم شروط الوضوء واركان الصلاة وفقه الجهاد فآنذاك ينفع اهل الاختصاص .

مما تقدم نعلم ان الفصل هذا بين العلوم الاسلامية ضرورة ملحة ، لكن ينبغي تقدير الضرورة ، وعدم الخلط بين الوسائل والغايات .

السمة السادسة : الاسلوب الصعب ، الذي يعد ظاهرة بارزة في اغلب كتب المتكلمين ، مما ابعد هذه الكتب عن عامة الناس ، وقد يكون لهذه الصعوبة اسبابها المقنعة ، فمثلاً : اذا كان هدف علم الكلام هو حراسة العقيدة من شبهات المشككين ، فلابد من ان يحتوي هذا على تلك الشبهات ، وهذه متعددة المصادر فمنها فلسفية ومنها مجوسية او ثنوية ومنها يهودية او نصرانية ، ومنها فرق باطنية منحرفة ، وهذه كلها لها اساليبها الخاصة ، ومصطلحاتها ، وقد يرتبط كل هذا بعلوم اخرى كعلم الفلك مثلاً ، ولغة العلوم هذه لايفهمها كل الناس ، ولذا كلما كان المتكلم اقرب الى الرد الخارجي كلما كان اسلوبه اصعب واعقد ، وكلما انشغل بالداخل كان اسلوبه اسهل لانه لايضطر الى استخدام اللغة البعيدة ، ونستطيع ان نضرب مثلاً من الحالة الاولى : حجة الاسلام الغزالي ، الذي تصدى للغزو الخارجي ، ونستطيع ان نضرب مثلاً من الحالة الثانية : ابن تيمية – رحمه الله – الذي انشغل بالمناقشات الداخلية في اغلب بحوثه ، وقد نلمس الفرق واضحاً عند المتكلم نفسه ، فالغزالي مثلاً في كتابه "تهافت الفلاسفة" ليس هو الغزالي في كتابه "الجام العوام" او "الاقتصاد في الاعتقاد" فالاول لايكاد يفهم الا من قبل الراسخين في العلم والفلسفة ، بينما يستطيع اي قارئ ان يفهم الكتابين الاخيرين ، وكذلك بالنسبة لابن تيمية فهو في كتابه "العقيدة الواسطية" التي الفها لاهل واسط ، هو غير ابن تيمية في كتابه "الرد على المنطقيين" . وسنعرض هنا نماذج من الاسلوب المعقد الذي امتازت به المدارس الكلامية على اختلاف مناهجها .

فمن المعتزلة ، لنقرأ هذا المقطع : "اعلم – علمك الله الخير – ان الكلام في فناء الشئ : هل هو غيره او ليس بغيره ، او هل يحل فيه او يحل في غيره ؟ من غامض الكلام

ولطيفه ، وقد اختلف الناس فيه اختلافاً شديداً ، فزعم قوم : انه ليس للشئ فناء غيره ، وان الله اذا اراد ان يفني شيئا ابطله لابان يحدث شيئاً سواه ، وزعم قوم ان الله – جل ذكره – اذا اراد ان يفني شيئاً احدث له فناء وان ذلك الفناء قائم بالله – تعالى – وزعم قوم انه اذا اراد الله ان يفني شيئاً احدث له معنى يحل فيه فيفنى في الحال الثانية من حلول ذلك المعنى فيه ، واذا فني سمي ذلك المعنى فناء ، وزعم قوم ان فناء الشئ يقوم في غيره . وزعم قوم ان الله يحدث للجسم في كل وقت بقاء يكون ذلك الجسم به باقياً ، فاذا اراد الله ان يفني ذلك الجسم لم يحدث له بقاء ففني الجسم ، ... ومن بعد فان صح ماحكاه صاحب الكتاب عن معمر : من انه محال ان يفني الله جميع خلقه حتي يبقى وحده ، فقد شاركه في هذا القول كثير من الامة : وهم الذين يزعمون ان الله – عز وجل – اذا اخبر انه يفعل شيئاً ، فقول القائل بعد ذلك الخبر : ان الله يقدر ان لايفعله ، محال ، وقد اخبرنا الله انه يبقي الجنة والنار ومافيهما" [1]

ومن الاشعرية نأخذ هذا المقطع : "ولنختم هذا البحث بفائدتين تنفعانك فيما بعد : الاولى : الفلك الموافق المركز : مامركزه مركز العالم ، وهو مركز الارض ، ويكون له سطحان محيطان به من داخل وخارج ، هما محدبه ومقعره ، والخارج المركز : فلك محيط بالارض ليس مركزه مركزها : بل يقع الى جانب منها ، ويكون في ثخن فلك آخر ، ويسمى المائل ، وينقسم الى قسمين ويسميان بالمتمين ، وهما آخذان من غلظ بقدر خروج مركزه عن مركز العالم ويتدرج الى دقة حتى ينتهي بنقطة مماسة للخارج ، من احدهما لمحدبه ، ومن الآخر لمقعره ، متبادلين في الغلظ والدقة" [2] .. ونكتفي من الفائدة الاولى بهذا ، واما الثانية فعسى ان يشرحها لنا المؤلف – رحمه الله – في العالم الآخر !!!

ومن ابن حزم الظاهري نأخذ هذا المقطع : "ويقال وبالله التوفيق لمن قال "هي حق عند من هي عنده حق وهي باطل عند من هي عنده باطل : ان الشئ لايكون حقاً بأعتقاد من اعتقد انه حق ، كما انه لايبطل بأعتقاد من اعتقد انه باطل ، وانما يكون الشئ حقاً بكونه موجوداً ثابتاً ، سواء اعتقد انه حق او اعتقد انه باطل ، ولوكان غير هذا لكان الشئ معدوماً موجوداً في حال واحدة في ذاته ، وهذا عين المحال ، واذا اقروا بأن الاشياء حق عند من هي عنده حق" فمن جملة تلك الاشياء التي تعتقد انها حق عند من يعتقد ان الاشياء حق بطلان قول من قال : ان الحقائق باطل ، وهم قد اقروا ان الاشياء حق عند من هي عنده حق وبطلان قولهم من جملة تلك الاشياء" [3] .

(١) ابو الحسين الخياط ، الانتصار : ٢٢ – ٢٣ .

(٢) الايجي ، المواقف : ٢٠٧ – ٢٠٨ .

(٣) ابن حزم ، الفصل : ١/ ٩ .

ومن ابن تيمية نختار هذا المقطع : "الوجه الثالث : ان يقال : لانسلم ان في الموصوفات ماهو علة فاعلة لصفته اصلاً ، بل هو محل لصفاته القائمة به ، والموصوف ان كان هو رب العالمين ، فلافاعل لصفاته ، كما لافاعل لذاته ، وان كان مخلوقاً فالفاعل لذاته هو الفاعل لصافته ، اما كون ذاته علة فاعلة لصفاته فهذا باطل قطعاً ومما يتبين بطلانه ان الكلام في صفاته اللازمة ، وتلك لاتفارقه ، ولايتصور ان يكون فاعلاً الا بعد وجودها ، فيمتنع كونه هو الموجد لها . واما صفاته المقومة : فتلك عندهم هي المقومة لذاته ، ليست ذاته السابقة لها وهي كالعلة ، فجعلوا بعض صافته اللازمة علة لذاته وهي الصفات المقومة وبعضها معلولة وهي اللازمة غير المقومة ، والقسمان خطأ" [1] .

نلاحظ من هذ النماذج صعوبة واضحة لكنها لاتأتي الا من رد على الخصوم الخارجيين الذين يحتاجون الى مخاطبتهم بلغتهم ، كما هو عند المعتزلة وابن حزم ، او للحاجة الى علوم كانت في تلك الحقب من التاريخ ولاشك ان لكل علم لغته الخاصة . وهذا مارأيناه في مقطع الاشاعرة ، واما ابن تيمية فرده على المنطقيين يتطلب هذا الاسلوب ايضاً . وفي غير هذه من الممكن ان نجد كلاماً سهلاً مفهوماً ، لكن يبقى الاسلوب الاصعب هو السمة السائدة .

---

(١) ابن تيمية : الرد على المنطقيين : ٤٠٦ .

المبحث الثاني
الآثار التي ترتبت على مناهج المتكلمين

ذكرنا فيما مضى : ان مقدار النجاح او الفشل في اي مشروع لايقاس الا بمقدار ماحققه من اهداف مرسومة له مسبقاً ، فاذا اردنا مقياس النجاح الذي حققه المتكلمون فاننا اولاً ينبغي علينا النظر في الهدف الذي رسمه المتكلمون لانفسهم ، ولاحظنا في مامر انهم يكادون يتفقون على ان الغاية حراسة العقيدة الاسلامية من شبه المشككين والطاعنين ، فعلى هذا نستطيع ان نسجل الملاحظتين الآتيتين :

الاولى : ان الناظر في تاريخ الامة والمراحل التي مرت بها هذه العقيدة يجد حقاً ان المتكلمين قد استطاعوا ان يحققوا نجاحاً كبيراً في صد الغزو الخارجي ، نعم فكلما هبت اعاصير الافكار الغازية نراها ترجع خائبة مدحورة ، ولاحظ اين آثار التشكيك الثنوي او التثليثي ، واين آثار الفلسفات اليونانية ، والفلسفات الهندية الشرقية ، ثم اين تلك الهجمة الكبيرة الهجمة الالحادية التي جاءتنا من الشرق ؟ كلها بادت ، ولاشك انها لم تبد من فراغ ، وعلى اقل تقدير فلقد كان للمتكلمين السهم الوافر في ابادتها ونسيانها .

اما الافكار الباطنية المنحرفة فلقد استطاع المتكلمون محاصرتها وتقليم اظافرها ، صحيح انها مازالت باقية ، ولازلنا نسمع بالدروز والنصيرية واليزيدية والكاكائية[1] وغيرها ، الا انه في الحقيقة بقاء اشبه بالموت ، اذ ان افكارهم حوصرت ولايجرؤ احد منهم على الدعوة لها ، وباختصار فان انكماشهم هو الذي حافظ على تعاليم ديانتهم الباطنة ، ولو انهم ظهروا وقابلوا الحجة بالحجة فانهم سينتهون .

الثانية : اننا لو نظرنا الى الصعيد الداخلي ، ونظرنا في اهداف المتكلمين الداخلية ، فاننا نرى اخفاقاً كبيراً في تحقيق هذه الاهداف ، فهناك من المتكلمين من يرى : ان العصمة للأئمة ثابة وواجبة ، فهو يجعل من اهدافه رد اي شبهة تشكك بهذا الاصل ، وهناك من يرى : ان العصمة للانبياء فقط ، وان التعدي بها الى غير الانبياء خطأ وخطر ، وهذا يجعل من اهدافه مقاومة الفكرة المضادة ، فلو اردنا تقييم منهج المتكلمين هؤلاء او اولئك فاننا نرى عند الفريقين اخفاقاً كبيراً فلم يستطع احدهما ان يحقق نصراً حاسماً على ارض الواقع الا في حدود ضيقة !! وكذلك لو اخذنا مثالاً آخر من المتكلمين من يرى تأويل "الصفات الخبرية" ضرورة عقيدية وان من اخذ بظواهر

(١) انظر ، التوحيد والفرق المعاصرة لكمال الدين الطائي : ١٦٩ و ١٧٤ و ٢١٥ و ١٨٠ .

النصوص فيها فانه على خطأ وخطر ، وآخرون يرون العكس ، وكل واحد منهما يحاول تحسين ماعنده وتهديم رأي المقابل ، وعلى ارض الواقع ليس هنالك نجاح حاسم لاحد الفريقين .

نستخلص من كلا الملاحظتين ان المتكلمين اقدر على مواجهة التحدي الخارجي من مواجهتهم للمشاكل والخلافات الداخلية ، نعم هنالك نجاحات داخلية مرحلية ناسبتها ظروف معينة كالنجاح الكبير الذي حققه متكلموا اهل السنة على المعتزلة حتى ادخلوهم في قمع السمسمة [1] ، لكنه ينبغي ان نعلم حتى هؤلاء المعتزلة فانهم لم يبادوا بالمرة ابداً فلازال هنالك من يدعو لافكارهم بقوة ومثال على هذا ، الكتاب الذي صدر بعنوان "الحق الدامغ" لمؤلفه الشيخ احمد بن حمد الخليلي المفتي العام لسلطنة عمان ، والذي ذكر فيه اهم مسائل المعتزلة ودافع عنها بشدة ، وهاك نبذة من هذه المسائل : المسألة الاولى : "رؤية الله" وقد بحثها المؤلف في نحو ٧٦ صفحة وقد ختم البحث هذا بقوله : " بعد هذا العرض لموضوع رؤية الله – تعالى – في الدنيا والآخرة واستعراض ادلة النافين والمثبتين ومايتوجه اليها من اعتراض ومايعقبه من جواب لااظنك ايها القارئ الكريم تشك في ان نفاتها لم يأخذوا الا بالاقوى والاسلم والاحزم" [2] . ثم يبحث مسألة "خلق القرآن " بنحو ٨٣ صفحة ، ويختم البحث بقوله : "لست بمرتاب اخي القارئ انك بعد اطلاعك على محتوى هذا المبحث من اخذ ورد ، واجتذاب ودفع ، في مسألة خلق القرآن ، تدرك ان الصواب والسلامة في اعتقاد انه كسائر الموجودات ، غير الله – عز وجل – كائن بعد ان لم يكن ، وماكان كذلك فهو مخلوق قطعاً ، كما تدرك ان القول بقدمه يفتح الباب على مصراعيه لمن يقول بجواز تعدد القدماء" [3] وبعد هذا يطرح مسألة "خلود اهل الكبائر في النار" وهكذا .. !!

ثم لاشك ان كثيراً من افكار المعتزلة قد تسربت في مذاهب اخرى واحتفظ بها كآراء لازالت قائمة وان لم تكن تحت لافتة "المعتزلة" .

وبعد هذا فلابد ان نشير الى النتائج الجانبية الخطيرة التي افرزتها مناهج المتكلمين ولم تكن مقصودة لهم ، ومن اهمها :

---

(١) امتدح ابن تيمية – رحمه الله – الاشاعرة ، ووصفهم بانهم ادخلوا المعتزلة في قمع السمسمة !! يقول ابن تيمية : "فصار طائفة ينسبون الى السنة والحديث يذكرون في مثالب ابي الحسن اشياء هي من افتراء المعتزلة وغيرهم عليه لان الاشعري بين من تناقض اقوال المعتزلة وفسادها مالم يبينه غيره حتى جعلهم في قمع السمسمة" . ابن تيمية ، شرح حديث النزول : ١٦٧ .

(٢) احمد الخليلي ، الحق الدامغ : ٩٥ .

(٣) المصدر السابق : ١٨٠ .

١- التفرق الخطير الذي حصل بين المتكلمين ، ثم تفرق الامة على اثرهم ، فان المسائل الكلامية كلما كثرت كلما زاد من احتمال حدوث الشقاق والتفرق ، فاذا كان المتكلمون قد بحثوا مئات المسائل الفرعية المعقدة التي لم يستطع واحد من المختلفين حسمها لصالحه فمعنى هذا اننا في كل مسألة مستجدة قد نرى نزاعاً وخلافاً . وهذا ماوقع فعلاً ، ويكفي قراءة اي كتاب من كتب الفرق ، فمن قرأ "مقالات الاسلاميين" او "الفرق بين الفرق" يجد هذه الظاهرة ظاهرة .

٢- شاعت عند المتكلمين ، ثم عند الامة من بعدهم ، اساليب زادت الطين بلة ، فلقد استخدم كل فريق منهم كلمات لاتناسب مقام العلم والحوار الموضوعي العلمي ، ولنأخذ بعضاً من هذه النماذج :

فمن المعتزلة ، نرى الخياط يخيط ثوباً من الشتائم ويلبسه خصمه العنيد "ابن الراوندي" فيقول : "فهذا مذهبك وهو قولك ، ومن اجله نفتك المعتزلة وطردتك عن مجالسها وباعدتك عن انفسها حتى حملك الغيظ عليها على ان صرت تنبح كالكلب بأزائها وتكذب على اشياخها ، وماضررت بذلك غير نفسك ، لان حجج الله واضحة لايقدح فيها طعن الملحدين ولاكيد الزنادقة المشركين ... ومامثل ابن الراوندي في ثلبه المعتزلة وادعائه عليهم وتكذبه وتنقصه لهم الا كما قال الاخطل :

ماضر تغلب وائل اهجوتهـــا ام بلت حيث تناطح البحران
يوماً اذا خطرت عليك قرومهم تركتك بين كلاكل وجران" [1]

ومن الاشاعرة ، وهم المعروفون باللين والتوفيقية ، لكن الانسان طبعه النقص ، ولقد اخترنا علماً من الاشاعرة معروفاً بالورع والتربية الروحية والمجاهدة اكثر من غيره وهو الامام الغزالي - رحمه الله - ، يناقش الغزالي قوماً اعترضوا عليه في بعض اجتهاداته لانها تخالف اجتهادات السابقين ، ومعنى هذا ان هؤلاء من القريبين منه وممن ينسبون الى مذهبه نفسه ، فكيف حاججهم الغزالي ؟ !! : "اما بعد : فاني رأيتك ايها الاخ المشفق ، والصديق المتعصب ، موغر الصدر ، منقسم الفكر لما قرع سمعك من طعن طائفة من الحسدة على بعض كتبنا المصنفة في اسرار معاملات الدين ، وزعم ان فيها مايخالف مذهب الاصحاب المتقدمين والمشايخ المتكلمين ، وان العدول عن مذهب الاشعري ولو في قيد شبركفر ... اياك ان تشتغل بخصامهم وتطمع في افحامهم ، فتطمع في غير مطمع ، وتصوت في غير مسمع ، اما سمعت ماقيل :

كل العداوة قد ترجى سلامتها الا عداوة من عاداك عن حسد

(١) ابو الحسين الخياط ، الانتصار : ١٢٣ .

... واعلم ان حقيقة الكفر والايمان وحدهما ، والحق والضلال وسرهما ، لاينجلي للقلوب المدنسة بطلب الجاه والمال وحبهما ... واني تتجلى اسرار الملكوت لقوم الههم هواهم ومعبودهم سلاطينهم ، وقبلتهم دراهمهم ودنانيرهم ، وشريعتهم رعونتهم" ثم يقول "فخاطب نفسك وصاحبك ، وطالبه بحد الكفر ، فان زعم ان حد الكفر مايخالف مذهب الاشعري ، او مذهب المعتزلي ، او مذهب الحنبلي ، او غيرهم فاعلم انه غر بليد ، قد قيده التقليد ، فهو اعمى من العميان ، فلا تضيع بأصلاحه الزمان" [1]

واما ابن حزم – غفر الله لنا وله – فهو فارس هذا الميدان ، يخبرنا هو انه الف كتاباً لطيفاً !! اسماه : "النصائح المنجية من الفضايح المخزية والقبايح المردية من اقوال اهل البدع من الفرق الاربع المعتزلة والمرجئية والخوارج والشيع" [2] هذا اسم الكتاب فما الذي فيه ؟ الله اعلم ، غير اني اجده يرد على امامين من ائمة الاشاعرة فيقول : "والعجب من هذا كله تصريح الباقلاني وابن فورك في كتبهما في الاصول وغيرها بان علم الله – تعالى – واقع مع علمنا تحت حد واحد وهذه حماقة ممزوجة بهوس ، ... وهذه غاية السخافة" [3] ثم يرد على القائلين بان الله لايقدر على الظلم والكذب والمحال رداً عنيفاً فيقول : "وهذه سفسطة تامة ، وحماقة ظاهرة ، وجهل قوي ، لايرضى به لنفسه الا سخيف العقل ، ضعيف الدين" [4] ويرد على الجبائي رئيس المعتزلة فيقول : "وقرأت في مسائل لابي هاشم عبد السلام ابن ابي علي محمد بن عبد الوهاب الجبائي رئيس المعتزلة وابن رئيسهم كلاماً له يردد فيه كثيراً دون حياء ولارقبة : يجب على الله ان يفعل كذا ، كانه المجنون يخبر عن نفسه ، او عن رجل من عرض الناس ، فليت شعري اما كان له عقل او حس .." [5]

اما ابن تيمية فهو يشارك ابن حزم في اسلوبه لكن ليس بالكثرة التي يتمتع بها ابن حزم !! ولنأخذ هذا المقطع من ابن تيمية في الرد على المعتزلة والاشاعرة : "ومن رزقه الله معرفة ماجاءت به الرسل ، وبصراً نافذاً ، وعرف حقيقة مأخذ هؤلاء ، علم قطعاً انهم يلحدون في اسمائه وآياته ، وانهم كذبوا بالرسل وبالكتاب وبما ارسل به رسله ، ولهذا كانوا يقولون : ان البدع مشتقة من الكفر ، وآيلة اليه ، ويقولون : ان المعتزلة مخانيث الفلاسفة ، والاشعرية مخانيث المعتزلة ، وكان يحيى بن عمار يقول : المعتزلة

---

(١) الغزالي ، فيصل التفرقة ، المطبوع ضمن مجموعة "القصور العوالي" : ١٤٤ – ١٤٦ .
(٢) ابن حزم ، الفصل : ٢/ ١١٦ .
(٣) ابن حزم ، الفصل : ٢/ ١٣٦ .
(٤) المصدر السابق : ٢/ ١٩١ .
(٥) المصدر السابق : ٣/ ١٠٢ – ١٠٣ .

الجهمية الذكور ، والاشعرية الجهمية الاناث ، ومرادهم الاشعرية الذين ينفون الصفات الخبرية ، واما من قال منهم بكتاب "الابانة" [1] الذي صنفه الاشعري في آخر عمره ولم يظهر مقالة تناقض ذلك ، فهذا يعد من اهل السنة ، لكن مجرد الانتساب الى الاشعري بدعة" [2]

٣- ومن الآثار الجانبية التي من الممكن الاستفادة منها ، هي ماأحدثه علم الكلام من توسيع كبير لدائرة المعارف الاسلامية ، فقد درسوا في المباحث الكلامية ، فلسفات الامم المجاورة وعلومهم ، ودرسوا لغاتهم ، واختلافاتهم ، وتعرفوا على مقومات حضاراتهم ، ثم ان المتكلمين ربطوا كثيراً من العلوم الحياتية النافعة بعلم الكلام ، كعلم الفيزياء والفلك . ومن قرأ كتاب "المواقف" للايجي وحده يتيقن هذا حقيقة ، فقد بحث الايجي في الافلاك وفي الضوء والصوت والحرارة والذوق والحركة والصحة والمرض والكيفيات النفسانية والنوم وغير هذا كثير [3] . وهذا كله ساعد في تنمية الملكة الاسلامية واستنفار طاقاتها الكامنة .

---

(١) يساورني شك كبير في صحة نسبة كتاب "الابانة" المطبوع الآن الى الامام الاشعري ، لاسباب كثيرة ، لعل من ابرزها تكفير الامام ابي حنيفة الذي ورد في "الابانة" : ٣١ ، ولو صح هذا لشاع ، لكن الحنفية في الاغلب على وفاق مع الاشعرية والاشعري ان لم يكونوا من اتباعه !! هذا بالاضافة الى قرائن اخرى لايتسع لها المجال - والله اعلم - ، والذي جرأني على هذا القول ، ان الكتاب الذي بين يدي ، طبع من غير تحقيق !! .

(٢) ابن تيمية ، مجموع الفتاوى : ٦/ ٣٥٩ .

(٣) النصف الاول من كتاب "المواقف" ملئ بهذه المباحث .

الباب الثاني

الإلهيات

الفصل الأول: اثبات وجود الله

الفصل الثاني: التوحيد

الفصل الثالث: الإسماء والصفات

الفصل الرابع: القدر

الفصل الاول

المبحث الاول: اثبات وجود الله في القرآن الكريم

المبحث الثاني: اثبات وجود الله عند المتكلمين

المبحث الاول
اثبات وجود الله في القرآن الكريم

ان قارئ القرآن لايجد فيه مناقشة صريحة لمنكري الخالق ويمكن تعليل هذا بامور اهمها:

١- ان الايمان بوجود خالق لهذا الكون قضية ضرورية ، لامساغ للعقل في انكارها ، فهي ليست قضية نظرية تحتاج الى دليل وبرهان ، ذلك لان دلالة الاثر على المؤثر يدركها العقل بداهة ، والعقل لايمكن له ان يتصور اثرا من غير مؤثر ، اي اثر ولو كان اثرا تافها فكيف بهذا الكون العظيم ؟ ! ولذلك لم يناقش القرآن هذه القضية ، حتي حينما اورد انكار فرعون لرب العالمين يوم ان قال : "وما رب العالمين" (١) . و "ماعلمت لكم من اله غيري" (٢) . و "ياهامان ابن لي صرحا لعلي ابلغ الاسباب . اسباب السموات فاطلع الى اله موسى واني لاظنه كاذبا" (٣) . فكان موسى – عليه السلام – لايعير اهتماما لهذه الانكارات وتعامل معه على اساس انه مؤمن بوجود الخالق فتراه يقول له مثلا : "قال لقد علمت ماانزل هؤلاء الا رب السموات والارض بصائر واني لاظنك يافرعون مثبورا" (٤). وقد عزا القرآن هذا الانكار الى التكبر والعناد فقال : "ثم ارسلنا موسى واخاه هارون بآياتنا وسلطان مبين . الى فرعون وملئه فاستكبروا وكانوا قوما عالين . فقالوا أنؤمن لبشرين مثلنا وقومهما لنا عابدون (٥) . واوضح اكثر فقال : "وجحدوا بها واستيقنتها انفسم ظلما وعلوا" (٦) .

٢- ان البيئة التي نزل بها القرآن الكريم لم تكن بيئة فلسفية وانما كانت وثنية في الغالب كتابية في بعض القرى او بعض الاشخاص والكتابيون لاينكرون الخالق ، واما الوثنيون فمع عبادتهم للاوثان الا انهم كانوا يؤمنون بالخالق – سبحانه – وسجل القرآن هذا لهم في اكثر من موضع فقال : "ولئن سألتهم من خلق السموات والارض ليقولن الله" (٧) . و "واذا غشيهم موج كالظلل دعوا الله مخلصين له الدين" (٨) . ولهذا لم يحتج

---

(١) الشعراء : ٢٣.

(٢) القصص : ٣٨.

(٣) غافر : ٣٦-٣٧

(٤) الاسراء : ١٢

(٥) المؤمنون : ٤٥-٤٦.

(٦) النمل : ١٤.

(٧) لقمان : ٢٥ .

(٨) لقمان : ٣٢ .

القرآن ان يفتح هذا الموضوع مع هؤلاء الناس ، بل حتى خارج هذه البيئة لم يعرف هنالك منكر للخالق ، يقول الشهرستاني - رحمه الله - ، : "اما تعطيل العالم عن الصانع العليم القادر الحكيم فلست اراها مقالة لأحد ولااعرف عليها صاحب مقالة الا مانقل عن شرذمة قليلة من الدهرية ... ولست ارى صاحب هذه المقالة ممن ينكر الصانع بل هو معترف بالصانع ... فماعدت هذه المسألة من النظريات التي يقام عليها برهان" [١] .

ومع خلو القرآن من مناقشة صريحة لمنكري الخالق الا انه تضمن ادلة كثيرة لاثبات الخالق غير انها في الغالب جاءت لإثبات مسائل اخرى كالوحدانية والنبوة والبعث ، ويمكن استخلاص هذه الادلة وتصنيفها على النحو التالي :

١- **دليل الخلق** ، وهو المسمى بدليل الاختراع والعناية [٢] وخلاصة هذا الدليل : ان هذا الخلق بكل مافيه شاهد على وجود خالقه العلي القدير - سبحانه وتعالى - . وتفصيله ان نقول : الاختراع معناه : تكوين الاشياء وايجادها بعد العدم ، والعناية : هي مافي هذا الكون من تنظيم دقيق وتناسق عجيب ومظاهر الرعاية لهذا الانسان الذي سخّر له الله مافي السموات ومافي الارض واسبغ عليه نعمه ظاهرة وباطنة ، ولانريد ان نطيل في تفصيل هذا الدليل وانما نريد ان نتنور بهذه الآيات فلنتدبر معا "ام خلقوا من غير شيء ام هم الخالقون ام خلقوا السموات والارض" [٣] . "والهكم اله واحد لااله الا هو الرحمن الرحيم . ان في خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس ومانزل الله من السماء من ماء فاحيا به الارض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والارض لآيات لقوم يعقلون" [٤] . "ومن آياته ان خلقكم من تراب ثم اذا انتم بشر تنتشرون . ومن آياته ان خلق لكم من انفسكم ازواجا لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودة ورحمة ان في ذلك لآيات لقوم يتفكرون . ومن آياته خلق السموات والارض واختلاف السنتكم والوانكم ان في ذلك لآيات للعالمين ومن آياته منامكم بالليل والنهار وابتغاؤكم من فضله ان في ذلك لآيات لقوم يسمعون . ومن آياته يريكم البرق خوفا وطمعا وينزل من السماء ماء فيحيى به الارض بعد موتها ان في ذلك لآيات لقوم يعقلون" [٥] . "الم نجعل الارض مهادا والجبال اوتادا وخلقناكم ازواجا وجعلنا نومكم سباتا وجعلنا الليل لباسا وجعلنا النهار معاشا وبنينا

---

(١) الشهرستاني : نهاية الاقدام : ١٢٣-١٢٤.

(٢) انظر اصول الدين الاسلامي ، د. رشدي عليان ، و د. قحطان الدوري : ٨٤ . والعقيدة الاسلامية واسسها ، عبدالرحمن حسن حبنكة : ١٤٩ . وقصة الايمان : نديم الجسر: ٢٤٢-٢٧٦ .

(٣) الطور : ٣٥-٣٦ .

(٤) البقرة : ١٦٣-١٦٤ .

(٥) الروم : ٢٠-٢٤ .

فوقكم سبعا شدادا وجعلنا سراجا وهاجا وانزلنا من المعصرات ماء ثجاجا لنخرج به حبا ونباتا وجنات الفافا" [١] .

٢- دليل الفطرة [٢] : والمقصود به التنبيه الى الدليل الكامن في داخل الانسان الذي يصرخ فيه من داخله بالحقيقة الكبيرة التي لاريب فيها ولاشك .. وقد تحدث القرآن الكريم عن هذا الدليل من خلال النقاط التالية :

أ- تبيين معنى الفطرة وذلك في مثل قوله تعالى : "فاقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التي فطر الناس عليها لاتبديل لخلق الله ذلك الدين القيم" [٣] . وقوله : "واذ اخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم واشهدهم على انفسهم الست بربكم قالوا بلى شهدنا ان تقولوا يوم القيامة انا كنا عن هذا غافلين . او تقولوا انما اشرك آباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم .." [٤] . فالاعتراف بربوبية الله وحده فطرة في الكيان البشري ، فطرة اودعها الخالق في هذه الكينونة وشهدت بها على نفسها بحكم وجودها ذاته وحكم ماتستشعره في اعماقها من هذه الحقيقة ، اما الرسالات فتذكير وتحذير لمن ينحرفون عن فطرتهم الاولى فيحتاجون الى التذكير والتحذير ، ان التوحيد ميثاق معقود بين فطرة البشر وخالق البشر منذ كينونتهم الاولى [٥] .

ب - تحريك هذه الحقيقة الكامنة في داخل الانسان من خلال دعوة الانسان للنظر في نفسه كما في قوله - تعالى - : "وفي الارض ايات للموقنين . وفي انفسكم افلا تبصرون" [٦] . ثم بسؤاله سؤالا انكاريا يدفعه الى كشف هذه الحقيقة كما في قوله تعالى : "افي الله شك فاطر السموات والارض" [٧] . ثم الانذار الشديد كما في قوله : "فان اعرضوا فقل انذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود" [٨] .

جـ - فاذا اصر الانسان على عناده فلابد من تعقب خطواته على هذه الارض ففي لحظة ضعف بشري ينسى الانسان عناده لينكشف الحق الابلج في داخل نفسه ومن ثم

---

(١) النبأ : ٦-١٦ .

(٢) انظر دلائل التوحيد للقاسمي : ٢٣ . والعقيدة والفطرة في الاسلام : لصابر طعيمة .

(٣) الروم : ٣٠ .

(٤) الاعراف : ١٧١-١٧٢ .

(٥) سيد قطب ، في ظلال القرآن : ٣/١٣٩١ .

(٦) الذاريات : ٢٠-٢١ .

(٧) ابراهيم : ١٠ .

(٨) فصلت : ١٣ ، وقد روى اهل السير ان عتبة بن ربيعة كلم النبي - صلى الله عليه وسلم - فيما جاء به من خلاف قومه ، فتلا عليه " حم ... فصلت" الى هذه الاية ، فامسك عتبة على فم النبي - صلى الله عليه وسلم - وناشده الرحم ان يكف ، ولم يخرج الى اهله واحتبس عنهم . ابن كثير ، السيرة النبوية : ١-٢٤٧ .

الاحتجاج عليه به .. وانظر هذا الذي قال : "وما رب العالمين" وقال : "ماعلمت لكم من اله غيري" هو نفسه الذي قال لحظة الغرق " امنت بالذي آمنت به بنو اسرائيل وانا من المسلمين"[١] . بل لقد اعترف في لحظة ضعف قبل هذه سجلها عليه القرآن بقوله : "ولما وقع عليهم الرجز قالوا ياموسى ادع لنا ربك بما عهد عندك لئن كشفت عنا الرجز لنؤمنن لك ولنرسلن معك بني اسرائيل . فلما كشفنا عنهم الرجز الى اجل هم بالغوه اذا هم ينكثون"[٢] .

وقد سجل القرآن مثل هذا عن المشركين الذين نزل في بيئتهم حيث قال : "واذا غشيهم موج كالظلل دعوا الله مخلصين له الدين"[٣] . و "اذا مسكم الضر في البحر ضل من تدعون الا اياه"[٤] .

لقد لخص القرآن هذا الدليل بقوله : "أمن يجيب المضطر اذا دعاه ويكشف السوء"[٥] .

٣- دليل الاعجاز : الانسان عاجز – لاريب – عن ان يخلق كخلق الله بل كاضعف خلق الله "ان الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له"[٦] . فالكون كله معجزة شاهدة بوجود الخالق – سبحانه – ولكن الانسان قد يغفل عن هذه الحقيقة ، وقد يتغافل عنها عنادا واستكبارا ، فيحتاج الى منبه جديد لغفلته وبرهان اكيد لكبح عناده وتكبره ، ومن هنا كانت المعجزة الثانية او الاعجاز الآخر المتمثل في قدرة الله على خرق قانون الكون ونظامه فيبقى الانسان مبهوتا عاجزا امام قدرة الله ، وهذا المبحث وان كنا سنتناوله – ان شاء الله – في باب النبوة باعتباره جاء لاثبات صدق النبي الرسول ، الا انا سنمر هنا عليه سريعا لان دليل اثبات الرسول هو دليل اثبات المرسل ومن باب اولى . ولنكتف بهذين المثالين فقط :

أ – في مناقشة موسى – عليه السلام – لفرعون يجمع القرآن بين الاعجاز من النوع الاول والثاني فلنقرأ : "قال فرعون ومارب العالمين . قال رب السموات والارض ومابينهما ان كنتم موقنين . قال لمن حوله الا تستمعون . قال ربكم ورب ابائكم الاولين . قال ان رسولكم الذي ارسل اليكم لمجنون . قال رب المشرق والمغرب ومابينهما ان كنتم تعقلون . قال لئن اتخذت الها غيري لاجعلنك من المسجونين . قال او لو جئتك بشيء

---

(١) يونس : ٩١ .

(٢) الاعراف : ١٣٥-١٣٦ .

(٣) لقمان : ٣٢ .

(٤) الاسراء : ٦٧ .

(٥) النمل : ٦٢ .

(٦) الحج : ٧٣ .

مبين . قال فأت به ان كنت من الصادقين . فالقى عصاه فاذا هي ثعبان مبين ونزع يده فاذا هي بيضاء للناظرين" [1] . فالربط هنا قائم بين دليل الاعجاز الاول – الخلق – ودليل الاعجاز الثاني – خرق العادة – وكذلك الربط قائم في الاعجاز الثاني بين اثبات ربوبية الله وحده ، واثبات صدق موسى – عليه السلام – في دعواه انه رسول من عند الله ...

ب – يوم ان تحدى القرآن العرب وتحدى الانس والجن على ان يأتوا بمثله فقال : "قل لئن اجتمعت الانس والجن على ان يأتوا بمثل هذا القرآن لايأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا" [2] . وسكت العرب فأسكت سكوتهم الانس والجن ووقفوا مبهورين حتى قال قائلهم : "اشهد ان هذا لايقدر عليه بشر" والذي لايقدر عليه البشر فمن الذي يقدر عليه ؟ صحيح ان هذا التحدي جاء لاثبات صدق الرسول – صلى الله عليه وسلم – الا ان التصديق بالرسول فرع التصديق بالمرسل .

هذا وقد قدمنا ان اغلب ادلة القرآن في اثبات وجود الله لم تأت لهذا الغرض وانما جاءت لاثبات مسائل اخرى كالوحدانية والنبوة والبعث فليتفطن .

---

(١) الشعراء : ٢٣-٣٣ .

(٢) الاسراء : ٨٨ .

المبحث الثاني
اثبات وجود الله عند المتكلمين

استدل المتكلمون بأدلة كثيرة على وجوده – تبارك وتعالى – منها ماهو تكرار لادلة القرآن ولو بألفاظ اخرى ، ومنها ادلة مستقلة اثارت بعض الجدل وسنعرض – ان شاء الله – ابرز هذه الادلة مع ماعلق بها باختصار شديد :

ا - دليل الحدوث : وهو من اشهر ادلة المتكلمين وخلاصته : ان العالم حادث ، وان كل حادث لابد له من محدث ، فالعالم اذاً لابد له من محدث ، وهذا الدليل بهذه الخلاصة نستطيع ان نقول عنه انه دليل القرآن الاول دليل الخلق : "ام خلقوا من غير شيء ام هم الخالقون" [1] الا ان عبارات المتكلمين اختلفت في صياغة هذا الدليل اولا ، والاخطر هو اختلافهم في الاستدلال على صحة المقدمة الاولى "العالم حادث" . ولنأخذ هذه النماذج من اقوال المتكلمين :

يقول النظام وهو من ائمة المعتزلة : "وجدت الحرّ مضادا للبرد ووجدت الضدين لايجتمعان في موضع واحد من ذات انفسهما ، فعلمت بوجودي لهما مجتمعين ان لهما جامعا جمعهما وقاهرا قهرهما على خلاف شأنهما ، وماجرى عليه القهر والمنع ضعيف ، وضعفه ونفوذ تدبير قاهره فيه دليل على حدوثه وعلى ان محدثا احدثه ومخترعا اخترعه" [2] . ويفصل القاضي عبدالجبار اكثر فيبين حدوث الاعراض بقوله : "واما حدوثها فالذي يدل عليه هو ماقد ثبت انه يجوز عليها العدم والبطلان والقديم لايجوز عليه العدم والبطلان ... اما الدليل على ان الاعراض يجوز عليها العدم فهو ماثبت ان المجتمع اذا افترق بطل اجتماعه وان المحترك اذا سكن بطلت حركته وفي ذلك ما نريده" [3] ، ثم يستدل على حدوث الاجسام بقوله : "ان الاجسام لم تنفك من الحوادث ولم تتقدمها ومالم يخل من المحدث يتقدمه يجب ان يكون محدثا مثله" ثم يطيل الشرح في هذا الاستدلال ويبين ان له اربع دعاوى احدها ان في الاجسام معاني هي الاجتماع والافتراق والحركة والسكون . والثانية ان هذه المعاني محدثة . والثالثة ان الجسم لم ينفك عنا ولم يتقدمها . والرابعة انها اذا لم ينفك عنها ولم يتقدمها وجب حدوثه مثلها" [4] .

ويقول الامام ابو الحسن الاشعري – رحمه الله – : "من قصد الى برية لم يجد

---

(١) الطور : ٣٥ .

(٢) ابو الحسين الخياط ، الانتصار : ٤٠ .

(٣) القاضي عبدالجبار ، شرح الاصول الخمسة : ٩٣ .

(٤) القاضي عبدالجبار ، شرح الاصول الخمسة : ٩٥ .

فيها قصرا مبنيا فانتظر ان يتحول الطين الى حالة الآجر وينتضد بعضه على بعض بغير صانع ولابانٍ كان جاهلا ، واذا كان تحول النطفة علقة ثم مضغة ثم لحما ودما وعظما اعظم في الاعجوبة كان اولى ان يدل على صانع صنع النطفة ونقلها من حال الى حال" [١] . ثم يأتي امام الحرمين الجويني – رحمه الله – فيضع استدلالا طويلا على حدوث العالم يبدأه بقوله : "العالم جواهر واعراض ، فالجوهر هو المتحيز وكل ذي حجم متحيز ، والعرض هو المعنى القائم بالجوهر كالالوان والطعوم والروائح والحياة والموت ... والجسم في اصطلاح الموحدين : المتألف فاذا تألف جوهران كان جسما .. ثم حدث الجواهر يبنى على اصول : منها اثبات الاعراض ومنها اثبات حدثها ومنها اثبات استحالة تعرى الجوهر عن الاعراض ، ومنها استحالة حوادث لاول لها فاذا ثبتت هذه الاصول ترتب عليها ان الجواهر لاتسبق الحوادث ومالايسبق الحادث حادث" [٢] .

ويقول الامام ابن حزم – رحمه الله – : "ان كل شخص في العالم وكل عرض في شخص وكل زمان فكل ذلك متناه ذو أوّل ، نشاهد ذلك حسا وعيانا لان تناهي الشخص ظاهر بمساحته بأول جرمه وآخره ، وايضا بزمان وجوده ، وتناهي العرض المحمول ظاهر بيّن بتناهي الشخص الحامل له وتناهي الزمان موجود باستئناف مايأتي منه بعد الماضي ... اذ كل زمان فنهايته الآن وهو حدّ الزمانين ، فهو نهاية الماضي ومابعده ابتداء للمستقبل ... والعالم كله انما هو أشخاصه ومكانه وازمانها ومحمولاتها ليس العالم كله شيئا غير ماذكرنا ، واشخاصه ومكانه وازمانها ومحمولاتها ذوات اوائل كما ذكرنا فالعالم كله متناه ذو أوّل .. فصح بالضرورة ان للعالم اولا اذ كل اجزائه لها اول وليس هو شيئا غير اجزائه" [٣] .

ويقول ابن تيمية – رحمه الله – : "اما ثبوت الموجود المحدث الفقير فيما نشاهده من كون بعض الموجودات يوجد بعد عدمه ويعدم بعد وجوده من الحيوانات والنباتات والمعدن ومابين السماء و الارض من السحاب والمطر والرعد والبرق وغير ذلك ومانشاهده من حركات الكواكب وحدوث الليل بعد النهار والنهار بعد الليل فهذا كله فيه من حدوث موجود بعد عدمه ومعدوم بعد وجوده ماهو مشهود لبني آدم يرونه بأبصارهم ، ثم اذا شهدوا ذلك فنقول : معلوم ان المحدثات لابد لها من محدث" [٤] .

من قراءة هذه النماذج يتبين ان اصل هذا الاستدلال استدلال قرآني ، غير ان صياغة المتكلمين له قد اختلفت وان كان هدفها واحدا ، وهذا الاختلاف نستطيع ان نسجل عليه الملاحظتين الآتيتين :

---

(١) ابو الحسن الاشعري : اللمع : ١٨-١٩ .

(٢) الجويني ، الارشاد : ١٧-١٨ .

(٣) ابن حزم ، الفصل : ١/١٤-١٥ .

(٤) ابن تيمية ، درء تعارض العقل والنقل : ٣/٢٦٥ .

الاولى : ان الاختلاف في صياغة هذا الدليل قد جرى ضمن المدرسة الواحدة باستخدام مصطلحات جديدة والدخول في تفاريع متعددة مما جعل الدليل هذا ينتقل من الاسلوب السهل البسيط الى الاسلوب الصعب المعقد ، ومن كونه صالحا لاقناع الخواص والعوام الى كونه قاصرا على الفلاسفة ونحوهم .. نلحظ هذا بجلاء في المدرستين الاعتزالية والاشعرية فصياغة القاضي عبدالجبار تختلف – من هذه الزاوية – عن صياغة سلفه النظام – عليهما رحمة الله – ، وصياغة الجويني تختلف ايضا – من هذه الزاوية – عن صياغة امامه الاشعري – عليهما رحمة الله – .

الثانية : مع اتفاق المتكلمين – كما قرأنا – على جوهر الدليل فان هذا لم يحل من نشوب معركة كلامية خطيرة ، فلقد اثار حفيظة ابن تيمية – رحمه الله – استخدام المتكلمين لبعض المصطلحات ، ودخولهم في بعض المباحث المرتبطة بهذا الدليل – عندهم – لقد رد ابن تيمية بعنف وقوة على خصومه هؤلاء من خلال عشرات بل مئات الصفحات . ولايسعني الآن ان اسرد كل رده المسهب لكني اكتفي بذكر بعض عباراته التي تعبر عن خلاصة رأيه في هذا المقام : "الطريق التي سلكوها في حدوث العالم واثبات الصانع تناقض حدوث العالم واثبات الصانع ، ولايصح القول بحدوث العالم و اثبات الصانع الا بابطالها لاباثباتها فكان ماعتمدوا عليه وجعلوه اصولا للدين ودليلا عليه هو في نفسه باطل شرعا وعقلا ، وهو مناقض للدين ومناف له – !!! – ولهذا كان السلف والائمة يعيبون كلامهم هذا ويذمونه ويقولون : من طلب العلم بالكلام تزندق"[1] .

ويقول في موضع آخر حاكيا اصل دليلهم ثم يرد عليه : قالوا : "لانه لايعرف الا بالنظر والاستدلال المفضي الى العلم باثبات الصانع ، قالوا : ولاطريق الى ذلك الا باثبات حدوث العالم ، ثم قالوا : ولاطريق الى ذلك الا باثبات حدوث الاجسام ، قالوا : ولادليل على ذلك الا الاستدلال بالاعراض او ببعض الاعراض كالحركة والسكون او الاجتماع او الافتراق وهي الاكوان فان الجسم لايخلو منها وهي حادثة ومالايخلو عن الحوادث فهو حادث .... وهذه الطريقة هي اساس الكلام الذي اشتهر ذم السلف والائمة له"[2] .

ولكن لماذا اتخذ ابن تيمية – رحمه الله – هذا الموقف مع ان الظاهر اتفاقه معهم في جوهر الدليل وحقيقته ؟ ! ابن تيمية لايدعك تحتار ابدا وانما يكشف عن حقيقة دفعته الى هذا الموقف وهي ان هذه الصيغ قد اتخذت متكأ لنفي الصفات او تأويلها ، فالاستدلال على حدوث الجواهر بحدّها وتركيبها او بملازمتها للاعراض الحادثة قاد المتكلمين الى نفي الصفات التي ظاهرها الحد والتركيب كالاستواء والوجه واليدين .. الخ والى نفي الافعال الاختيارية القائمة بالله كالنزول والمجيء .. الخ . وهذا يخالف مذهب ابن تيمية في هذه الصفات . ولننظر اليه وهو يكشف حقيقة الخلاف : "وهؤلاء الذين

---

(١) ابن تيمية ، مجموع الفتاوي: ٦/٢٤٣.

(٢) ابن تيمية ، الصفدية : ١/٢٧٤ .

يقولون : لاتقوم به الامور الاختيارية عمدتهم انه لو قامت به الحوادث لم يخل منها ، ومالم يخل من الحوادث فهو حادث" [1] ثم يقول : "وهذه الطريقة هي اساس الكلام الذي اشتهر ذم السلف والائمة له ولاجلها قالوا : بان القرآن مخلوق وان الله لايرى في الاخرة وانه ليس فوق العرش وانكروا الصفات" [2]

ولايهمنا هنا ان ندخل هذا المعترك وانما يهمنا ان نأخذ الدرس والعبرة من انه كلما تعقد الكلام وطال كلما كثر فيه المقال والجدال . ولو قارنا بين هذه الصيغ وصيغة القرآن الاولى لبدا لنا الفرق شاسعا من حيث النتائج داخل النفس وخارجها . فالذي يقرأ هذه الصيغ لايمكن ان يجد في نفسه مايجده حينما يقرأ : "ام خلقوا من غير شيء ام هم الخالقون " التي قال فيها جبير بن مطعم : "لما سمعتها احسست بفؤادي قد تصدع" [3] . صحيح اننا قد نضطر الى هذه الصيغ وهذه المصطلحات ولكن ينبغي ان نقدر الضرورات بقدرها - والله اعلم - .

٢- **دليل الوجوب** : وهو - في رأيي - متصل بالدليل الاول ومكمل له ، حيث ان الدليل الاول خلص الى نتيجة وهي : ان العالم لابد له من محدث . فدليل الحدوث لم يدلنا في الحقيقة على وجود الله وانما على وجود المحدِث فكيف نعرف ان المحدث انما هو الله ؟ وهذه وظيفة الدليل الثاني او الشطر الثاني ، وخلاصته ان محدث العالم اما ان يكون واجبا او مستحيلا او ممكنا ، فان كان مستحيلا ففاقد الشيء لايعطيه ، وان كان ممكنا فالممكن يحتاج الى من يوجده لان العالم حينما اثبتنا حدوثه في الدليل الاول اثبتنا انه ممكن فاذا قلنا ان موجد العالم هو ممكن فهو اذاً العالم نفسه ، او - افتراضا - انه مثله فيحتاج الى محدث اخر وهذا لامحالة انه صائر الى ثلاثة احتمالات اما ان يكون كل من الممكنين متوقف وجوده على وجود الاخر فكل واحد منهما محدَث من الثاني ومحدث له وهذا باطل للزوم تقدم الشيء على نفسه ، واما ان يستند الممكن في وجوده الى ممَكن والممكن الى ممكن وهكذا الى مالانهاية وهذا باطل لان كل هذه السلسلة من الممكنات تحتاج الى مرجّح رجح وجودها على عدمها لان معنى الممكِن كثر ام قل هو مايستوى فيه الوجود والعدم وهذا معناه انه لابد ان يكون مسبوقا بالعدم ثم وجد فيحتاج الى مرجّح فلو ظل الخصم يحيل الى ممكنات خيالية لبقينا نطالبه بالمرجّح الاول [4] . فلم يبق الا اسناد الممكنات الى واجب الوجود الذي لايفتقر في وجوده الى مرجح لانه محدِث وليس محدَثا .

---

(١) ابن تيمية ، مجموع الفتاوى : ٦/٢٣٨ .

(٢) ابن تيمية ، الصفدية : ١/٢٧٤ .

(٣) ابن تيمية ، مجموع الفتاوي : ٢/١١ .

(٤) وهذا مايسميه اهل الكلام "التسلسل" والذي قبله يسمونه "الدور" وكلاهما باطل . وقد توسع المتكلمون في الاستدلال على بطلانهما ، انظر مثلا : المواقف للايجي : ٨٩-٩١ .

ولقد عرف المتكلمون هذا الدليل واستدلوا به على اختلاف مذاهبهم ونكتفي بذكر بعض النماذج :

يقول القاضي عبد الجبار – رحمه الله – : "فأما الثاني وهو الكلام في ان فاعلها ليس الا الله – تعالى – فلايخلو إما ان تكون قد احدثت نفسها او احدثها غيرها ، لايجوز ان تكون قد احدثت نفسها لان من حق القادر على الشيء ان يكون متقدما على فعله فلو كان الجسم هو الذي احدث نفسه لزم ان يكون قادرا وهو معدوم ... وان احدثها غيرها فلايخلو اما ان تكون من فعل امثالنا من القادرين بالقدرة لانه لو كان كذلك لصح منا ايضا فعل الجسم وهذا يوجب ان يصح من الواحد منا ان يخلق لنفسه ماشاء من الاموال والبنين والمعلوم خلافه .. فان قيل : لم لايجوز ان يكون الجسم قد حدث بالطبع ؟ قلنا : لان الطبع غير معقول . ثم انا نقول لهم : وماتعنون بالطبع ؟ اتريدون به الفاعل المختار ام تريدون به معنى موجبا ؟ فاذا اردتم به الفاعل المختار فهو الذي نقوله ، وان اردتم به المعنى الموجب فلايخلو : اما ان يكون معدوما او موجودا . لايجوز ان يكون معدوما لان المعدوم لاحظ له في الايجاب واذا كان موجودا فلايخلو : اما ان يكون قديما او محدثا لايجوز ان يكون محدثا لانه يحتاج الى طبع اخر والكلام في ذلك الطبع كالكلام فيه فيتسلسل لما لايتناهى وذلك محال ، ولايجوز ان يكون قديما لانه لوكان كذلك للزم قدم العالم لان حق المعلول ان لايتراخى عن العلة" [١] .

ويقول الامام الغزالي – رحمه الله – : "ندعي ان السبب الذي اثبتناه لوجود العالم قديم فانه لو كان حادثا لافتقر الى سبب آخر وكذلك السبب الآخر ويتسلسل اما الى غير نهاية وهو محال . واما ان ينتهي الى قديم لامحالة يقف عنده وهو الذي نطلبه ونسميه صانع العالم" [٢] .

ويقول ابن تيمية – رحمه الله – : "قد علم بضرورة العقل انه لابد من موجود قديم غني عمن سواه ، اذ نحن نشاهد حدوث المحدثات كالحيوان والمعدن والنبات ، والحادث ممكن ليس بواجب ولاممتنع وقد علم بالاضطرار ان المحدَث لابد له من محدث والممكن لابد له من موجد ... واذا كان من المعلوم بالضرورة ان في الوجود ماهو قديم واجب بنفسه وماهو محدث ممكن يقبل الوجود والعدم فمعلوم ان هذا موجود وهذا موجود ولايلزم من اتفاقهما في مسمى الوجود ان يكون وجود مثل وجود هذا" [٣] ويقول ايضا : "اما كون الموجود ينقسم الى واجب وهو الواجب بنفسه ، والى ممكن وموجود بغيره ، وان الموجود بغيره لابد له من موجود بنفسه فهذا كله حق وهي قضايا صادقة" [٤] .

وللامانة فان ابن تيمية كما وافق المتكلمين على جوهر دليل الحدوث ثم اثار مشكلة

(١) القاضي عبدالجبار ، شرح الاصول الخمسة : ١١٩–١٢٠ .
(٢) الغزالي ، الاقتصاد : ٢٦ .
(٣) ابن تيمية ، مجموع الفتاوى : ٣/٩–١٠ .
(٤) ابن تيمية ، درء تعارض العقل والنقل : ٣/٣٣٦ .

حوله فانه هنا عمل العمل نفسه . فمع كلامه المتقدم انفا والذي يدل بوضوح على ان ابن تيمية قد وافق المتكلمين بدليل "الوجوب" الا انه لم يهدأ حتى اثار غبارا بوجه المتكلمين هؤلاء فتراه يقول : "ان مايذكره النظار من الادلة القياسية التي يسمونها "براهين" على اثبات الصانع – سبحانه وتعالى – لايدل شيء منها على عينه وانما يدل على امر مطلق كلي لايمنع تصوره من وقوع الشركة فيه . فانا اذا قلنا : هذا محدث وكل محدث فلابد له من محدث، او : ممكن والممكن لابد له من واجب ، انما يدل على محدث مطلق او واجب مطلق ولو عين بانه قديم ازلي عالم بكل شيء وغير ذلك ، فكل هذا انما يدل فيه القياس على امر مطلق كلي لايمنع تصوره من وقوع الشركة فيه ... وهذا بخلاف مايذكره الله في كتابه من الآيات ... فانه يدل على المعيّن كالشمس التي هي آية النهار"[1] .

وهنا لانريد ان نعقب ولكن من حقنا ان نسأل شيخ الاسلام – رحمه الله – : اذا كانت هذه الادلة باطلة فلماذا استدللت بها وصغتها وبمصطلحات المتكلمين انفسهم وفي اكثر من موضع ؟ !

وقبل الانتهاء من هذا الدليل يمكن الاشارة الى ان هذا الدليل ايضا قد جاء به القرآن بعبارة سهلة موجزة ولو لاحظنا الآية التي استشهدنا بها اكثر من مرة : "ام خلقوا من غير شيء ام هم الخالقون ام خلقوا السموات والارض" ؟ ! الانسان لايمكن ان يكون خالقا ، لماذا ؟ لانه مخلوق فهو مفتقر بخلقه الى خالق فكيف يكون المخلوق خالقا ؟ ! واذا ثبت ان العالم كله محدث مخلوق ، وانه ليس شيء من المخلوق يصح ان يكون خالقا ، تعين وجود خالق ليس بمخلوق وهو ماسماه المتكلمون "واجب الوجود" .

واذا انتهيت من بيان هذين الدليلين "الحدوث" و "الوجوب" ، فلااري حاجة بعد الى ذكر ادلة المتكلمين الاخرى لان هذين الدليلين هما خلاصة ادلتهم وماعداهما فلايخلو من تكرار لهما بالفاظ اخرى او استدلال على مقدماتهما كما في مباحث "قدم العالم" و "الرد على الطبائعيين" .

الا ان الذي تجدر الاشارة اليه هو ان المتكلمين المتأخرين وعموم الخائضين في هذه المسألة وحتى من غير المسلمين قد جنحوا بوضوح الى ادلة القرآن الكريم كما في : "قصة الايمان" لنديم الجسر و "دلائل التوحيد" لجمال الدين القاسمي و "رسائل النور" لسعيد النورسي[2] و "العقيدة والفطرة في الاسلام" لصابر طعيمة وكذلك "الله يتجلى في

---

(١) ابن تيمية ، الرد على المنطقيين : ٣٤٤–٣٤٥ .

(٢) يقول استاذنا الدكتور محسن عبدالحميد : "لقد اوجد النورسي في تركيا علم كلام قرآني بمعنى هذه الكلمة ، فكان ذلك سببا مهما في نجاحه العظيم في المحافظة على العقائد الاسلامية السليمة" . النورسي الرائد الاسلامي الكبير: ٥٧ .

الفصل الثاني

المبحث الأول: التوحيد في القرآن الكريم

المبحث الثاني: التوحيد عند المتكلمين

اعتاد كثير من المتكلمين ادراج "التوحيد" او "الوحدانية" في مباحث الصفات ، غير اني افردتها ببحث مستقل لاهميتها اولا ، ولحاجتنا الى التفصيل فيها ثانيا ولاشتمالها على مباحث لاعلاقة لها بالصفات ثالثا – وكما سيأتي :

المبحث الاول
التوحيد في القرآن الكريم

قلنا في المبحث السابق : ان قارئ القرآن لايجد فيه مناقشة صريحة لمنكري الخالق ، ولعلنا هذا بكون هذه المسألة لاتحتاج الى كثير نظر ، فدلالة الاثر على المؤثر دلالة عقلية ضرورية . ثم ان البيئة التي نزل فيها القرآن لم تكن تعاني من هذه المشكلة ، غير ان المسألة الخطيرة التي عالجها القرآن هي مسألة الشرك .

لقد جاء القرآن والجزيرة العربية تعج بآلهة كثيرة يصنعها الانسان بيده من الطين والحجر ، يسجد لها ويحلف بها ، ويستنصرها ، ولم يكن مايناطح هذه السفاهات الا ديانات محرّفة في الجزيرة وخارجها قد يكون فيها من السفاهات مالايقل عن عبّاد الحجر !!

صحيح ان المشركين كانوا يوحّدون الله من حيث انه هو الخالق الذي لاشريك له في الخلق "ولئن سألتهم من خلق السموات والارض ليقولن الله" [1] ... وصحيح انهم لايرون في الاصنام الا وسائط تقربهم من الخالق العظيم : "مانعبدهم الا ليقربونا الى الله زلفى" [2] . الا ان الاسلام تعامل مع هذا كله على انه شرك وظلم عظيم "ان الشرك لظلم عظيم" [3] . وسخّر الاسلام جل طاقته للقضاء على هذا الظلم العظيم وانتشال الناس الى نقاء التوحيد وصفائه ... فمامنهج القرآن في كل هذه المعركة ؟ لاريب ان الذي يتصفح القرآن فانه يجزم ان اهم مسألة اهتم بها القرآن هي هذه المسألة – غير اننا – في الحقيقة – لانستطيع ان نجد في القرآن تقسيما او تبويبا لتفصيلات هذه المسألة – كما حدث هذا للمتكلمين – وسنرى ان شاء الله – فللقرآن منهجه المتميز والذي لانستطيع الاحاطة به هنا ، غير اننا سنحاول ان نشير اليه ومن خلال النقاط التالية :

ا – **الاهتمام الكبير بهذه المسألة** فلانظير لها ابدا في جميع المسائل التي عالجها القرآن ، فقد حشد لها القرآن مايصعب حصره ، حيث انك لاتكاد تجد سورة منه

---

(١) الزمر : ٣٨ .

(٢) الزمر : ٣ .

(٣) لقمان : ١٣ .

الا وفيها تأكيد على وحدانية الله ومحاربة للشرك [١] ، وقد يساعدنا ان نذكر بعض الاحصاءات التقريبية :

وصف الله نفسه بالوحدانية ومايقربها اشتقاقا بنحو : "٢٩" آية .

وصف الله نفسه بانه لااله الا هو ومايقرب من هذا اللفظ بنحو : "١٧٦" اية .

ذكر القرآن الشرك ومايقربه اشتقاقا بنحو : "٦٢" اية .

ولكن الحقيقة الاكبر ان الآيات التي تناولت هذه القضية بالالفاظ المختلفة والصيغ المتنوعة هي اضعاف هذه الارقام !! فمثلا مادة "عبد" في القرآن والتي سخّرت في الغالب للتنديد بعبادة غير الله ، والتأكيد على حق الله وحده في العبادة ، قد تكررت في القرآن بنحو "٢٧٢" آية ، وهنالك غير هذه الصيغ كثير ، وقد يكفي القول بأن القرآن ذكر الرسل – عليهم الصلاة والسلام – وكرر ذكرهم كثيرا ومع كل مرة لايسأم القرآن ان يذكر ان وظيفة الرسل الاولى ونقطة البداية في دعوتهم هي هذه المسألة ، ولنأخذ هذه الامثلة :

أ – نوح – عليه الصلاة والسلام – ابتدأ القرآن قصته بقوله : "لقد ارسلنا نوحا *الى قومه فقال ياقوم اعبدوا الله مالكم من اله غيره* [٢] . *ثم قال عنه : " ولقد ارسلنا نوحا* الى قومه اني لكم نذير مبين . ان لاتعبدوا الا الله " [٣] . ويتكرر هذا النداء من نوح – عليه السلام – في سورة "المؤمنون" [٤] و "الشعراء" [٥] و "نوح" [٦] .

ب – هود – عليه الصلاة والسلام – ابتدأ القرآن قصته بقوله "والى عاد اخاهم هودا قال ياقوم اعبدوا الله مالكم من اله غيره" [٧] . وتكرر النداء نفسه في سورة "هود" [٨] و "المؤمنون" [٩] وقريبا منه في سورة "الشعراء" [١٠] و "الاحقاف" [١١] .

جـ – صالح – عليه الصلاة والسلام – ابتدأ القرآن قصته بقوله : "والى ثمود

---

(١) انظر عقيدة التوحيد في القرآن الكريم" لمحمد ملكاوي ، وهي رسالة ماجستير مخصصة لهذه المسألة .

(٢) الاعراف : ٥٩ .

(٣) هود : ٢٥-٢٦ .

(٤) المؤمنون : ٢٢

(٥) الشعراء : ١٠٨ .

(٦) نوح ٣ .

(٧) الاعراف : ٦٥ .

(٨) هود : ٥٠ .

(٩) المؤمنون : ٣٢ .

(١٠) الشعراء : ١٢٦ .

(١١) الاحقاف : ٢١ .

اخاهم صالحا قال ياقوم اعبدوا الله مالكم من اله غيره" [١] وكرر هذه البداية نفسها في سورة "هود" [٢] .

د – ابراهيم – عليه الصلاة والسلام – بدأ مع ابيه بقوله : "اتتخذ اصناما الهة اني اراك وقومك في ضلال مبين" [٣] . ثم كرر الدعوة باسلوب آخر : "يا ابت لم تعبد مالايسمع ولايبصر ولايغني عنك شيئا" [٤] ثم يوجه سؤالا استنكاريا لابيه وقومه : "اذ قال لابيه وقومه ماهذه التماثيل التي انتم لها عاكفون ؟ !" [٥] .

ولنقرأ اخيرا عنه هذه اللقطة الرائعة : "اذ قال لابيه وقومه ماتعبدون . قالوا نعبد اصناما فنظل لها عاكفين . قال هل يسمعونكم اذ تدعون . او ينفعونكم او يضرون . قالوا بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون. قال افرأيتم ماكنتم تعبدون . انتم وآباؤكم الاقدمون . فانهم عدو لي الا رب العالمين . الذي خلقني فهو يهدين" [٦] .

هـ – يوسف – عليه الصلاة والسلام – ونختار من قصته تلك الوقفة التي وقفها بين جدران السجن وقضبانه : "واتبعت ملة آبائي ابراهيم واسحق ويعقوب ماكان لنا ان نشرك بالله من شيء ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس ولكن اكثر الناس لايشكرون . يا صاحبي السجن ءارباب متفرقون خير ام الله الواحد القهار . ماتعبدون من دونه الا اسماء سميتموها انتم وآباؤكم ماانزل الله بها من سلطان ان الحكم الا لله امر الا تعبدوا الا اياه" [٧] .

و – شعيب – عليه الصلاة والسلام – : "والى مدين اخاهم شعيبا قال ياقوم اعبدوا الله مالكم من اله غيره" [٨] . وتكرر هذا النداء نفسه في سورة "هود" [٩] .

ان هذه الامثلة تؤكد لنا ان القضية الاولى التي اهتم بها رسل الله – عليهم الصلاة والسلام – هي قضية التوحيد ، مع اختلافهم زمانا ومكانا وقوما وبيئة .

٢- **التفصيل الشامل لكل جوانب التوحيد و مسائله** ، فلم يترك القرآن اي جانب من جوانب التوحيد الا وبينه ، واقام الدليل عليه ، والعلماء لهم في تفصيل انواع هذه

---

(١) الاعراف : ٧٣ .

(٢) هود : ٦١ .

(٣) الانعام : ٧٤ .

(٤) مريم : ٤٢ .

(٥) الانبياء : ٥٢

(٦) الشعراء : ٧٠-٧٨ .

(٧) يوسف : ٣٨-٤٠ .

(٨) الاعراف : ٨٥ .

(٩) هود : ٨٤ .

المسائل مسالك كثيرة - سنمر عليها ان شاء الله بعد - غير ان المتصفح في القرآن يجد ان هنالك خمسة جوانب مهمة يمكن ان تضم جميع مسائل التوحيد ، وهي كما يأتي :

الجانب الاول : افراد الله في الخلق ، بمعنى ان الله وحده هو الذي خلق كل هذا العالم . واختصر القرآن هذا الجانب بقوله : "الله خالق كل شيء" (١) . ثم فصل القول في انواع الخلق هذه ، ونكتفي هنا ببيان بعض الامثلة :

أ - الله خالق الانسان : "هو الذي خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن اليها" (٢) "ومن آياته ان خلقكم من تراب ثم اذا انتم بشر تنتشرون" (٣) .

ب - الله خالق السموات والارض : خلق الله السموات والارض بالحق" (٤) .

جـ - الله خالق الانعام : "الذي خلق الازواج كلها وجعل لكم من الفلك والانعام ماتركبون" (٥) "والانعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون" (٦) .

د - الله خالق الغيث والزرع : "وانزلنا من المعصرات ماء ثجاجا . لنخرج به حبا ونباتا . وجنات الفافا" (٧) . "انا صببنا الماء صبا . ثم شققنا الارض شقا . فانبتنا فيها حبا . وعنبا وقضبا . وزيتونا ونخلا . وحدائق غلبا . وفاكهة وابا . متاعا لكم ولانعامكم" (٨)

هـ - الله خالق النعم جميعا : "ومابكم من نعمة فمن الله" (٩) .

و - الله وحده يجيب الدعاء : "أمن يجيب المضطر اذا دعاه ويكشف السوء ؟ ويجعلكم خلفاء الارض أإله مع الله ؟! قليلا ماتذكرون" (١٠) .

الجانب الثاني : افراده - تبارك وتعالى - في الملك ، بمعنى ان الله هو المالك الحقيقي لخلقه ، وهذا الجانب مبني على الجانب الاول فطالما ان الله هو الخالق اذاً هو المالك ، ولايصح ملك غيره . ولنتدبر هذه الآيات :

"لله ملك السموات والارض ومافيهن وهو على كل شيء قدير" (١١) .

---

(١) الزمر : ٦٢ .
(٢) الاعراف : ١٨٩ .
(٣) الروم : ٢٠ .
(٤) الجاثية : ٢٢ .
(٥) الزخرف : ١٢ .
(٦) النحل : ٥ .
(٧) النبأ : ١٤-١٦ .
(٨) عبس : ٢٥-٣٢ .
(٩) النحل : ٥٣ .
(١٠) النمل ٦٢
(١١) المائدة : ١٢٠ .

"ولم يكن له شريك في الملك" [1] .

"أم لهم ملك السموات والارض ومابينهما فليرتقوا في الاسباب" [2] .

"يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل وسخر الشمس والقمر كل يجري لاجل مسمى ذلكم الله ربكم له الملك والذين تدعون من دونه مايملكون من قطمير" [3] .

واما مايملكه غير الله في الظاهر فهو اولاً لايخرج عن ملك الله لانه "لله مافي السموات والارض" فالمالك هذا مملوك لله ، ثم ان هذا الملك تسخير وتخويل "وسخر لكم مافي السموات ومافي الارض جميعا منه" [4] . "وتركتم ماخولناكم وراء ظهوركم" [5] . واما المعاندون فسيعلمون هذه الحقيقة يوم يقول الله "لمن الملك اليوم لله الواحد القهار" [6].

الجانب الثالث : افراد الله في الحكم والتشريع والامر والنهي لانه هو المالك الخالق ، فهذا الجانب قائم على الجانبين الاولين ، فلايحق لاحد - غير الله - ان يحكم خلق الله . ولنتدبر هذه الآيات :

"وان احكم بينهم بما انزل الله ولاتتبع اهواءهم" [7] .

"ومن لم يحكم بما انزل الله فاولئك هم الكافرون" [8] .

"وانزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه" [9] .

"انا انزلنا اليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما اراك الله" [10] .

"ان الحكم الا لله امر الا تعبدوا الا اياه" [11] .

---

(١) الفرقان : ٢ .

(٢) ص : ١٠ .

(٣) فاطر : ١٣ .

(٤) الجاثية : ١٣ .

(٥) الانعام : ٩٤ .

(٦) غافر : ١٦ .

(٧) المائدة : ٤٩ .

(٨) المائدة : ٤٤ .

(٩) البقرة : ٢١٣ .

(١٠)النساء : ١٠٥ .

(١١)يوسف : ٤٠ . يعلق صاحب الظلال على هذه الآية بقوله :
"وهنا يضرب يوسف - عليه السلام - ضربته الاخيرة الحاسمة ، فيبين لمن ينبغي ان يكون السلطان ! لمن ينبغي ان يكون الحكم ! لمن ينبغي ان تكون الطاعة ! ... إنّ الحكم لايكون الا لله ، فهو مقصور عليه - سبحانه - بحكم الوهيته ، اذ الحاكمية من خصائص الالوهية ، فمن ادعى الحق فيها فقد نازع الله - سبحانه - اولى خصائص الوهيته ، سواء ادعى هذا الحق فرد ، او طبقة او حزب او هيئة او امة او الناس جميعا في صورة منظمة عالمية" . في ظلال القرآن : ١٩٩٠/٤.

"ذلكم حكم الله يحكم بينكم والله عليم حكيم" [١] .

"ومن احسن من الله حكما لقوم يوقنون" [٢] .

"ما لهم من دونه من ولي ولايشرك في حكمه احداً" [٣] .

وقد يكفي ان نعلم ان كلمة "الحكم" وماشتق منها قد تكررت في القرآن بنحو "٩٠" مرة . واما ماجاء بالالفاظ الاخرى فكثير جدا ونكتفي بهذه النماذج :

"ام لهم شركاء شرعوا لهم من الدين مالم يأذن به الله" [٤] .

"انما النسيء زيادة في الكفر يضل به الذين كفروا يحلونه عاما ويحرمونه عاما ليواطئوا عدة ماحرم الله فيحلوا ماحرّم الله زين لهم سوء اعمالهم والله لايهدي القوم الكافرين" [٥] .

"قاتلوا الذين لايؤمنون بالله ولاباليوم الآخر ولايحرمون ماحرّم الله ورسوله ولايدينون دين الحق" [٦] .

وهكذا يتبين ان الحكم الحق هو حكم الله ، وان القرآن لايعترف بأي حكم غير حكم الله ، واما ماasند فيه الحكم الى غير الله فهو على معنى المنّفذ لحكم الله كما في قوله : "وان احكم بينهم بما انزل الله" [٧] .

الجانب الرابع : افراد الله – تبارك وتعالى – بالعبادة ، والمقصود الامتثال الكامل لحكم الله وامره ، وهذا الجانب هو ثمرة الجانب الذي قبله ، فلما كان الله هو الحاكم المشرع المحلل المحرم ، وانه لايجوز ان يمنح هذا الحق لغير الله ، كان من الطبيعي ان تكون الطاعة لله وحده ، والحقيقة ان هذا الجانب هو الجانب العملي للتوحيد ، ولهذا ركز القرآن عليه ايما تركيز وقد مرّ معنا ان مادة "عبد" وماشتق منها والتي سخّرت في الغالب للتنديد بعبادة غير الله ، والتأكيد على حق الله وحده في العبادة ، قد تكررت في القرآن الكريم بنحو "٢٧٢" ولنأخذ منها بعض النماذج :

"وما ارسلنا من قبلك من رسول الا نوحي اليه انه لااله الا انا فاعبدون" [٨] .

"واعبدوا الله ولاتشركوا به شيئا" [٩] .

---

(١) الممتحنة : ١٠ .
(٢) المائدة : ٥٠ .
(٣) الكهف : ٢٦ .
(٤) الشورى ٢١
(٥) التوبة : ٣٧ .
(٦) التوبة : ٢٩ .
(٧) المائدة : ٤٩ .
(٨) الانبياء : ٢٥
(٩) النساء : ٣٦ .

"ومالمروا الا ليعبدوا الها واحدا"[1] .

ويكفى ان نعلم ان هذا الجانب اعتبره القرآن غاية الخلق وعلته : فقال : "وماخلقت الجن والانس الا ليعبدون"[2] .

هذا وقد ورد هذا المعني بالفاظ اخرى من مثل قوله تعالى :

"ان الشياطين ليوحون الى اوليائهم ليجادلوكم وان اطعتموهم انكم لمشركون"[3] .

"انما كان قول المؤمنين اذا دعوا الى الله ورسوله ليحكم بينهم ان يقولوا سمعنا واطعنا"[4] .

"ان الذين ارتدوا على ادبارهم من بعد ماتبين لهم الهدى الشيطان سول لهم واملى لهم . ذلك بانهم قالوا للذين كرهوا مانزّل الله سنطيعكم في بعض الامر"[5] .

فطاعة غير الله ولو في بعض الامر طريق الردة ، وهذا يؤكد ان لاطاعة لغير الله اما طاعة الرسول – صلى الله عليه وسلم – فلأنه مبلّغ عن الله "إن عليك الا البلاغ"[6] . فطاعته طاعة الله "من يطع الرسول فقد اطاع الله"[7] . واذا كان الامر كذلك – وهو كذلك – فلابد ان يكون شرع الله شاملا لكي لايحوجنا الله لغيره ولذلك قال الله : "تفصيلاً لكل شيء"[8] . و "مافرّطنا في الكتاب من شيء"[9] ، وسيأتي بيان هذا مفصلا – ان شاء الله – .

الجانب الخامس : افراد الله باسمائه وصفاته وافعاله ، فلاشريك له في اسمائه ولافي صفاته ولافي افعاله ، وتوحيد الله في اسمائه معناه : ان الله قد سمى نفسه باسماء ، وهذه الاسماء له وحده فلاتصرف لسواه سواء كان الاسم مجردا من الوصف مثل "الله" او مشتقا منه مثل "الرحمن" ولهذا قال الله تعالى : "قل ادعوا الله او ادعوا الرحمن ايا ماتدعوا فله الاسماء الحسنى"[10] . وقال تعالى : "فاعبده واصطبر لعبادته

---

(١) التوبة : ٣١ .

(٢) الذاريات : ٥٦ .

(٣) الانعام : ١٢١ .

(٤) النور : ٥١ .

(٥) محمد : ٢٦ .

(٦) الشورى : ٤٨ .

(٧) النساء : ٨٠ .

(٨) الانعام : ٥٤ .

(٩) الانعام : ٣٨ .

(١٠) الاسراء : ١١٠ .

هل تعلم له سميا"[1] . وقال : "ولله الاسماء الحسنى فادعوه بها" [2] . وتوحيد الله في صفاته معناه ان الله - تعالى - قد وصف نفسه بصفات وان هذه الصفات خالصة له وحده ، ولايجوز صرفها لغيره سواء كانت هذه الصفات قائمة بالاسم كما مرّ في اسمه "الرحمن" او مجردة منه كما في قوله تعالى : "ولايحيطون بشيء من علمه" [3] . فعلم الله ليس له فيه شريك ولايماثله علم احد من خلقه . وكل هذا سنفصله - ان شاء الله - في مبحث مستقل . واما توحيده في افعاله فهذا تابع للجانب الاول فالله "خالق كل شيء" وهذا الخلق يعني افعالا كثيرة كالرزق والاحياء والاماتة .. الخ وقد تقدم .

٣- الاستدلال القرآني المقنع لاثبات هذا التوحيد وكثرة صيغه وتنوع اساليبه ونكتفي هنا ان نذكر بعض الادلة التي ساقها القرآن الكريم :

الدليل الاول : دليل الخلق وهو الدليل الذي ذكرناه في مسألة "وجوده - تعالى-" ، حيث انا قلنا هناك : ان هذا الدليل وان دل على وجوده - تعالى - الا انه في الغالب مسوق لمسائل اخرى من ابرزها مسألة التوحيد . والاستدلال بالخلق على توحيد الخالق واضح ، فكل مافي الكون يشهد ان خالق هذا الكون واحد ، وهذه هي الحلقة الاولى في هذا الدليل ثم لما ثبت هذا استخدمه القرآن نفسه دليلا لاثبات حق الله في الحكم وتنفيذ هذا الحكم "التشريع والعبادة" . ولننظر الان في الحلقة الاولى :

"والهكم اله واحد لااله الا هو الرحمن الرحيم . ان في خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس وماانزل من السماء من ماء فأحيا به الارض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والارض لآيات لقوم يعقلون" [4] . فهذه الآية فيها دليل واضح لاثبات وجوده - تعالى - غير ان النص سيق لاثبات التوحيد كما هو بيّن في مقدمته ومعنى هذا الاستدلال : ان السموات والارض .... الخ محسوسات مشاهدات وانها لابد لها من خالق ، وانه لم يدّعِ الخلق احد غير الله ، فالانسان ولو كان كافرا فانه لايدّعي خلق السموات والارض "ام هو الخالقون ؟!" وآلهته الباطلة لاينسب لها الخلق بل "ولئن سألتهم من خلق السموات والارض ليقولن الله" .. فهذا هو الحلقة الاولى . واما الحلقة الثانية فلننظر في هذه الآيات :

"يا ايها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم" [5] .

---

(١) مريم : ٦٥ .
(٢) الاعراف : ١٨٠ .
(٣) البقرة : ٢٥٥ .
(٤) البقرة : ١٦٣ - ١٦٤ .
(٥) البقرة : ٢١ .

"ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر لاتسجدوا للشمس ولاللقمر واسجدوا لله الذي خلقهن" [1] .

"ذلكم الله ربكم لااله الا هو خالق كل شيء فاعبدوه" [2] .

"ام جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم قل الله خالق كل شيء وهو الواحد القهار" [3] .

وهكذا يكون توحيد الله في الخلق دليل وجوب توحيده في العبادة .

وقد يستخدم القرآن مابني على توحيده في الخلق كتوحيده في الملك دليلاً ايضاً لتوحيده في العبادة :

"قل اتعبدون من دون الله مالايملك لكم ضراً ولانفعا" [4] .

"ان الذين تعبدون من دون الله لايملكون لكم رزقا فابتغوا عند الله الرزق واعبدوه واشكروا له اليه ترجعون" [5] .

وقد يجمع الله الاصل ومابني عليه : "قل أرأيتم شركاءكم الذين تدعون من دون الله اروني ماذا خلقوا من الارض ام لهم شرك في السموات ام آتيناهم كتابا فهم على بينة منه بل ان يَعِد الظالمون بعضهم بعضا الا غرورا . ان الله يمسك السموات والارض ان تزولا ولئن زالتَا ان امسكهما من احد من بعده" [6] .

وقد يثبت القرآن عجز المشركين وآلهتهم بالدليل الملموس والتحدي الصارخ مما يؤدي الى نتيجة واحدة هي توحيد الله – تبارك وتعالى– ولنأخذ هذين المثالين :

"الم تر الى الذي حاجّ ابراهيم في ربه ان اتاه الله الملك اذ قال ابراهيم ربي الذي يحيي ويميت قال انا احيي واميت قال ابراهيم فان الله يأتي بالشمس من المشرق فات بها من المغرب فبهت الذي كفر" [7] .

"ان الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له" [8] .

الدليل الثاني : دليل النظام الموحّد ، فالناموس الذي يحكم حركة الكون ناموس واحد مما يدل على ان واضع هذا الناموس واحد ايضا ، وقد نبّه القرآن الى هذا الدليل

---

(١) فصلت : ٣٧ .

(٢) الانعام : ١٠٢ .

(٣) الرعد : ١٦ .

(٤) المائدة : ٧٦

(٥) العنكبوت : ١٧ .

(٦) فاطر : ٤٠–٤١ .

(٧) البقرة : ٢٥٨ .

(٨) الحج : ٧٣ .

كثيراً فتراه يربط بين اجزاء هذا الكون منبها بجمعها على النظام الواحد والغاية الواحدة ولننظر مثلا :

"الم نجعل الارض مهاداً ، والجبال اوتاداً ، وخلقناكم ازواجاً ، وجعلنا نومكم سباتاً ، وجعلنا الليل لباساً ، وجعلنا النهار معاشاً ، وبنينا فوقكم سبعاً شداداً ، وجعلنا سراجاً وهاجاً ، وانزلنا من المعصرات ماءً ثجاجاً ، لنخرج به حباً ونباتاً ، وجنات الفافاً" [١] . فمن الذي جمع بين هذه الاجزاء ؟! وسخرها جميعا لغاية واحدة واضحة ؟! ولننظر ايضا :

"امن خلق السموات والارض وانزل لكم من السماء ماءً فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ماكان لكم ان تنبتوا شجرها أءله مع الله بل هم قوم يعدلون .امّن جعل الارض قرارا وجعل خلالها انهاراً وجعل لها رواسي وجعل بين البحرين حاجزاً أءله مع الله بل اكثرهم لايعلمون" [٢] .

الدليل الثالث : عدم فساد الكون [٣] ، والذي اختصره القرآن بقوله :

"ام اتخذوا آلهة من الارض هم ينشرون . لو كان فيهما الهة الا الله لفسدتا فسبحان الله رب العرش عما يصفون" [٤] .

وهذا الدليل يصلح دليلا على مختلف جوانب التوحيد فمثلا نستطيع ان نقول : لو كان لهذا الكون خالقان لفسد الكون لانهما ان اتفقا ارادة وخلقا فهذا – مع انه فرض باطل – مؤداه انهما يحتاج كل واحد منهما للآخر . والاله لايحتاج . وان اختلفا فسد الكون لامحالة . فهذا دليل على توحيد الله في الخلق . ولو كان في الكون الهان يحكمان او يعبدان ويطاعان لفسد الكون ايضا ، وفي هذا اشارة الى ان سبب فساد الكون هو الاشراك في الحكم والطاعة ، فكل مايكون بين الناس من حروب ونزاعات ... الخ سببه الاول عدم الاحتكام الى حاكم واحد .

الدليل الرابع : دليل الفطرة ، فالانسان – لو صدق مع نفسه – فانه لاسبيل له في انكار التوحيد ، لانه يجد التوحيد ضرورة في فطرته ، واذا ماغلفت هذه الفطرة فانها تظهر عند الشدائد والمصائب ولننظر كيف تحدث القرآن عن هذا الدليل :

"قل ارأيتكم ان اتاكم عذاب الله او اتتكم الساعة اغير الله تدعون ان كنتم صادقين

---

(١) النبأ : ٦-١٦ .

(٢) النمل : ٦٠-٦١ .

(٣) انظر "عقيدة التوحيد في القرآن الكريم" محمد احمد ملكاوي : ٢٧٢ .

(٤) الانبياء : ٢١-٢٢ .

. بل اياه تدعون فيكشف ماتدعون اليه ان شاء وتنسون ماتشركون" (١) .

"واذا مسكم الضر في البحر ضل من تدعون الا اياه" (٢) .

"ولما وقع عليهم الرجز قالوا ياموسى ادع لنا ربك بما عهد عندك لئن كشفت عنا الرجز لنؤمنن لك ولنرسلن معك بني اسرائيل . فلما كشفنا عنهم الرجز الى اجل هم بالغوه اذا هم ينكثون" (٣) .

الدليل الخامس : فقدان المشركين للدليل !! فالمشرك مثبت لقضية لادليل عليها والمثبت مطالب بالدليل بخلاف النافي فلااثبات الا بدليل فحينما لايستطيع المشرك ان يقدم اي دليل على صحة دعواه ان مع الله آلهة اخرى بطلت دعواه وبطلت آلهته ، ولننظر كيف صاغ القرآن هذا الدليل :

"ام اتخذوا من دونه الهة قل هاتوا برهانكم هذا ذكر من معي وذكر من قبلي بل اكثرهم لايعلمون الحق فهم معرضون" (٤) .

"قل ارأيتم ماتدعون من دون الله اروني ماذا خلقوا من الارض ام لهم شرك في السموات ، ائتوني بكتاب من قبل هذا او اثارة من علم ان كنتم صادقين" (٥) .

وبعد كل هذه الادلة يحث القرآن الانسان ان يصدق مع نفسه وان يتأمل في مصيره ، ويدفعه بقوة الى هذا التأمل الموصل الى التوحيد ، يدفعه بالترغيب والترهيب كما سنرى في مبحث "الايمان باليوم الآخر" غير اننا نكتفي هنا بمقطع واحد استعجالا للموعظة والذكرى :

"ومن اظلم ممن افترى على الله كذبا او كذّب بآياته انه لايفلح الظالمون. ويوم نحشرهم جميعا ثم نقول للذين اشركوا اين شركاؤكم الذين كنتم تزعمون . ثم لم تكن فتنتهم الا ان قالوا والله ربنا ماكنا مشركين . انظر كيف كذبوا على انفسهم وضل عنهم ماكانوا يفترون" (٦) .

٤- **مناقشة المشركين على اختلافهم وتعدد آلهتهم** ، فلاتكاد تجد نوعا من انواع الشرك الا وقد ذكره القرآن منبها ومناقشا ومحذرا ، ونستطيع الآن ان نمر مرورا سريعا على هذه الانواع :

---

(١) الانعام : ٤٠-٤١ .

(٢) الاسراء : ٦[illegible]

(٣) الاعراف : ١٣٥-١٣٦ .

(٤) الانبياء : ٢[illegible]

(٥) الاحقاف : ٤ .

(٦) الانعام : ٢١-٢٤ .

١- الاصنام : وهي التماثيل التي عبدت على اختلاف انواعها وتعدد اسمائها . وفي الحقيقة ان اغلب نقاش القرآن مع المشركين انما هم عبدة الاصنام لان الامة التي نزل فيها القرآن كانت امة صنمية وثنية ، وقد وردت كلمة "الاصنام" في القرآن الكريم خمس مرات منها :

"واذ قال ابراهيم لابيه آزر اتتخذ اصناماً الهةً اني اراك وقومك في ضلال مبين" [١]

ووردت كلمة "الاوثان" وهي بمعنى "الاصنام" ثلاث مرات منها :

"فاجتنبوا الرجس من الاوثان" [٢] .

وقد وصف القرآن هذه الاصنام بما ينفّر الناس عنها ويبعدهم عن عبادتها وذلك ببيان حقيقتها وانظر مثلاً :

"يا ابت لم تعبد مالايسمع ولايبصر ولايغني عنك شيئاً" [٣] .

"واتل عليهم نبأ ابراهيم . اذ قال لابيه وقومه ماتعبدون . قالوا نعبد اصناما فنظل لها عاكفين . قال هل يسمعونكم اذ تدعون . او ينفعونكم او يضرون" [٤] .

٢- الشمس والقمر والكواكب : وقد ذكرها القرآن في اكثر من موضع ، منها :

"لا تسجدوا للشمس وللقمر واسجدوا لله الذي خلقهن" [٥] .

"فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربي هذا اكبر فلما افلت قال ياقوم اني بريء مما تشركون . اني وجهت وجهي للذي فطر السموات والارض حنيفا وماانا من المشركين" [٦] . ولقد جاءت هذه الآية بعد ذكر الكواكب والقمر ..

"وانه هو رب الشعرى" [٧] .

٣- الملئكة والجن : ولنقرأ هذه الآيات :

"ويوم يحشرهم جميعا ثم يقول للملئكة اهؤلاء اياكم كانوا يعبدون . قالوا سبحانك انت ولينا من دونهم بل كانوا يعبدون الجن اكثرهم بهم مؤمنون" [٨] .

"ولا يأمركم ان تتخذوا الملئكة والنبيين اربابا ، ايأمركم بالكفر بعد اذ انتم مسلمون" [٩] .

" وجعلوا لله شركاء الجن" [١٠] .

---

(١) الانعام : ٧٤ .

(٢) الحج : ٣٠ .

(٣) مريم : ٤٢ .

(٤) [illegible] ٦٩-٧٣ .

(٥) فصلت : ٣٧ .

(٦) الانعام ٧٨-٧٩ .

(٧) النجم : ٤٩ .

(٨) سبأ : ٤١-٤٢ .

(٩) آل عمران ٨٠ .

(١٠) الانعام : ١٠٠ .

٤- الانبياء كعيسى الذي عبده النصارى وجعلوه ثالث ثلاثة وجعلوه ابنا لله ، وعزير الذي جعله اليهود ابنا لله . ولنقرأ :

"لقد كفر الذين قالوا ان الله هو المسيح ابن مريم وقال المسيح يابني اسرائيل اعبدوا الله ربي وربكم انه من يشرك بالله فقد حرّم الله عليه الجنة ومأواه النار وماللظالمين من انصار . لقد كفر الذن قالوا ان الله ثالث ثلاثة ومامن اله الا اله واحد وان لم ينتهوا عما يقولون ليمّسن الذين كفروا منهم عذاب اليم" (١) .

"وقالت اليهود عزير ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله ذلك قولهم بأفواههم يضاهئون قول الذين كفروا من قبل قاتلهم الله انى يؤفكون" (٢) .

وقد حارب القرآن هذه الدعوى الظالمة : أن يكون له - سبحانه - ولد ، ورد على جميع القائلين بهذه على اختلافهم ولنقرأ :

"ماينبغي للرحمن ان يتخذ ولدا ان كل من في السموات والارض الا آتي الرحمن عبدا" (٣) .

"قل هو الله احد . الله الصمد . لم يلد ولم يولد . ولم يكن له كفوا احد" (٤) .

"الا انهم من افكهم ليقولون ولد الله وانهم لكاذبون" (٥) .

"وقالت اليهود والنصارى نحن ابناء الله واحباؤه قل فلم يعذبكم بذنوبكم بل انتم بشر ممن خلق" (٦) .

"ويجعلون لله البنات سبحانه ولهم مايشتهون" (٧) .

٥- الاحبار والرهبان ، يقول الله - تعالى - : "اتخذوا احبارهم ورهبانهم اربابا من دون الله والمسيح ابن مريم ومامروا الا ليعبدوا الها واحدا لااله الا هو سبحانه عما يشركون" (٨) . ولو تدبرنا هذه الآية لوجدناها تتحدث عن جانب مهم من جوانب التوحيد وهو جانب الحكم والتشريع بدليل انهم لايصلّون للاحبار والرهبان ولايعتقدون انهم خالقوا هذا الكون . ولنسمع الى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - كيف يبين مدلول هذه الآية يوم ان قال له عدي بن حاتم - رضي الله عنه - "انهم لم يعبدوهم" فقال : "بلى انهم حرموا عليهم الحلال واحلوا لهم الحرام فاتبعوهم فذلك عبادتهم اياهم" (٩) .

---

(١) المائدة : ٧٢-٧٣ .
(٢) التوبة ٣٠ .
(٣) مريم ٩٢-٩٣ .
(٤) الاخلاص . جميعها .
(٥) الصافات : ١٥٢ .
(٦) المائدة : ١٨ .
(٧) النحل : ٥٧ .
(٨) التوبة : ٣١ .
(٩) ابن كثير ، التفسير :٢/٣٣٣ . والترمذي بنحوه ، الجامع الصحيح :٥/٢٥٩ .

٦- الهوى : الذي قال القرآن فيه :

ارأيت من اتخذ الهه هواه افأنت تكون عليه وكيلا" [١] .

و"افرأيت من اتخذ الهه هواه واضله الله على علم" [٢] .

ومعنى اتخاذ الهوى الها اي حكما مطاعا لانه "ان الحكم الا لله" ولذلك قال الله :

"وان احكم بينهم بماانزل الله ولاتتبع اهواءهم" [٣] .

---

(١) الفرقان : ٤٣ .

(٢) الجاثية : ٢٣ .

(٣) المائدة : ٤٩ .

المبحث الثاني
التوحيد عند المتكلمين

ليعلم ان المتكلمين على اختلاف مدارسهم قائلون بكل ماذكرنا عن القرآن الكريم في مسألة التوحيد ، غير ان هذا الاتفاق لم يحل دون الاختلاف في بعض المسائل المتعلقة بالتوحيد او في الترتيب والتقسيم ونحو هذا ، وقد ينفعنا هنا ان ندرس هذه المسألة في المدارس المتعددة وعلى النحو التالي :

ا - التوحيد عند المعتزلة :

يعرف المعتزلة التوحيد بقولهم : "فان قيل : فماالتوحيد ؟ قيل : هو العلم بما يتوحد الله – جل وعز – به من الصفات التي يختص بها او باحكامها دون غيره" [1] .

ولانرى حاجة في مناقشة المعتزلة في تعريفهم هذا غير اننا سنجد بوضوح تأثير المرحلة التي عاشها المعتزلة في نظرتهم الى هذه المسألة ثم فيما يتعلق بها ، وسنذكر باختصار شديد مذهبهم وكما يأتي :

يقسم المعتزلة مسائل التوحيد الى اصول خمسة : يقول القاضي عبدالجبار – رحمه الله – : "فان قال : فبينوا لي جمل مايلزمه في التوحيد أن يعرفه ، قيل له يدور ذلك على اصول خمسة :

اولها : اثبات حدوث العالم .

والثاني : اثبات المحدِث .

والثالث : بيان مايستَحقه من الصفات .

والرابع : العلم بما لايجوز عليه من صفات المخلوقين .

والخامس : اثبات وحدانيته" [2] .

وهنا نرى التباسا واضحا بين مصطلحي "التوحيد والوحدانية" وقد يكون المناسب لبحثنا هذا "الوحدانية" التي جعلها القاضي الاصل الاخير في التوحيد . واذا ذهبنا نتلمس منهج المعتزلة في "الوحدانية" فاننا نجد القاضي لم يمنح هذا الاصل الا القليل من اهتمامه ، فلم يتحدث عنه الا قليلاً ، وغالب كلامه فيه يدور حول الرد على الثنوية واهل التثليث ، وقد خلا كلامه من توحيد الله في الحكم والتشريع او العبادة ونحو هذا !! وقد كانت ردوده على النصارى والمجوس ردوداً سريعة مقتضبة قائمة على العقل المجرد ، وهي على اقتضابها ادلة مقنعة ، انظر مثلا كيف يحاجج النصارى : " فاما النصارى

---

(١) القاضي عبدالجبار ، المختصر في اصول الدين : ١٩٨ .

(٢) المصدر السابق : ٢٠٢ .

فقولهم يتناقض ، لانهم يقولون في الاله : انه واحد في الحقيقة ، ثلاثة في الحقيقة ، وهذا محال .. ويقال لهم : ان عيسى اذا كان شخصا ماثلا يأكل ويشرب كالواحد منا فكيف يجوز ان يقال بالهيته وبأنه يعبد ؟! فان قالوا : لان الافعال بالهيته ظهرت على يده كاحياء الموتى ، قيل لهم : ان الله - تعالى - فعلها عند طلبه فلايدل على ماقلتم ولو دل على ذلك لوجب في سائر الانبياء ان يكونوا آلهة" [1] . لكن الذي ينبغي التنبيه عليه هو ان الدليل الذي اعتمده المعتزلة لاثبات التوحيد اصلا هو دليل قرآني ، وهو الذي اصطلح على تسميته بـ "دليل التمانع" ولننظر :

يقول القاضي - رحمه الله - : "فان قالوا : فبينوا ان الله - تعالى - واحد لاكما قالته الثنوية في اثبات قديمين ، ولاماقالته النصارى في التثليث ، قيل لهم : لو كان مع الله - تعالى - ثان لم يخل من ان يكون غير واحد ، وهذا لايصح لانه يجب اذا كان قديما ان يكون مثلا له . فاذا كان قادرا لذاته فكذلك الثاني لو كان معه وهذا يبطل القول بأن معه ثانيا عاجزا ، او يكون قادرا ، ولو كان كذلك لوجب اذا اراد احدهما احياء جسم واراد الآخر اماتته ان لايكون فعل احدهما بالوجود اولى من فعل الآخر وهذا يوجب اما ان لايوجد مرادهما جميعا وفي ذلك ايجاب ضعفهما او ان يوجد مراد احدهما دون الآخر وذلك يدل على ضعفه وعلى انه ليس بقديم مع الله ، فاذاً لم يجب ان يكون - تعالى - الا واحدا وهذا معنى قوله - تعالى - : "لوكان فيهما الهة الا الله لفسدتا" [2] .

٢- التوحيد عند الاشاعرة :

لايكاد يختلف منهج الاشاعرة عن منهج المعتزلة في هذه المسألة خصوصا اوائل الاشاعرة ، ولننظر في كلام الباقلاني - رحمه الله - : "باب الكلام في ان صانع العالم واحد . وليس يجوز ان يكون صانع العالم اثنين ولااكثر من ذلك والدليل على ذلك ان الاثنين يصح ان يختلفا ويوجد احدهما ضد مراد الآخر ..." [3] . ثم يسوق دليل التمانع الذي استدل به المعتزلة ، ثم بعد هذا يورد الردود الكثيرة الواسعة على التثليثين والثنويين ونحوهم .

لكن الذي ينبغي الوقوف عنده هو ماانتهجه من جاء بعد الباقلاني من الاشاعرة حيث انهم تحدثوا عن التوحيد لابمعنى نفي الشريك فحسب وانما ..... ولنستمع الى امام الحرمين - رحمه الله - : "باب العلم بالواحدانية : الباري - سبحانه وتعالى - واحد والواحد في اصطلاح الاصوليين الشيء الذي لاينقسم .. والرب - سبحانه وتعالى - موجود فردٌ متقدس عن قبول التبعيض والانقسام ، وقد يراد بتسميته واحدا انه لامثل له

---

(١) المصدر السابق : ٢٣٠ .

(٢) المصدر السابق : ٢٢٩ .

(٣) الباقلاني : التمهيد ٤٥ .

ولانظير"[1] !! فنلاحظ هنا ان معنى التوحيد عند الجويني انه لايقبل التبعيض ، وقد يحتمل معنى آخر وهو انه لامثيل له !! وهذا ماكرره الامام الغزالي - رحمه الله - حيث قال : "الواحد قد يطلق ويراد به انه لايقبل القسمة اي لاكمية له ولاجزء ولامقدار والباري - تعالى - واحد بمعنى سلب الكمية المصححة للقسمة عنه فانه غير قابل للانقسام .. وقد يطلق ويراد انه لانظير له"[2] . وهكذا نستطيع القول : ا ن التوحيد عند الاشاعرة على ضربين :

الاول : ان ذات الله - تعالى- ليس لها اجزاء ، فهي لاتقبل القسمة ، وقد استدلوا لاثبات هذا الضرب بقولهم : "لو قدر بعضين وحكم بقيام العلم والقدرة والحياة باحدهما فهو الاله ، والزائد عليه قديم على هذا التقدير غير متصف بأوصاف الالوهية"[3] . والباقلاني - رحمه الله - مع انه لم يقسم التوحيد الى ضربين الا انه انكر انكارا شديدا ان تكون الذات المقدسة قابلة للتقسيم فقال مستدلا : "لو كان القديم - سبحانه - ذا ابعاض مجتمعة لوجب ان تكون ابعاضه قائمة بانفسها ، ومحتملة للصفات ، ولم يخل كل بعض منها ان يكون عالما قادرا حيا او غير حي ولاعالم ولاقادر ، فان كان واحدا منها فقط هو الحي العالم القادر دون سائرها وجب ان يكون ذلك البعض منه هو الاله المعبود المستوجب للشكر دون غيره، وهذا يوجب ان تكون العبادة والشكر واجبين لبعض القديم - سبحانه - دون جميعه وهذا كفر من قول الامة كافة . وان كانت سائر ابعاضه عالمة حية قادرة وجب جواز تفرد كل شيء منها فعل غير فعل صاحبه وان يكون كل و احد منها الها"[4] .

الثاني : نفي الشريك او النظير ، وقد استدل الاشاعرة عليه بدليل التمانع نفسه ، يقول الجويني : ويستحيل تقدير الهين والدليل عليه انا لو قدرنا الهين ، وفرضنا الكلام في جسم وقدرنا من احدهما ارادة تحريكه ومن الثاني ارادة تسكينه فتتصدى لنا وجوه كلها مستحيلة"[5] . وهذان الضربان هما - والله اعلم - اساس ماوصل اليه بعض المتكلمين من نفي الكموم الخمسة والتي خلاصتها :

أ - نفي الكم المتصل في الذات ، بمعنى ان الله -سبحانه- ليس مركبا من اجزاء.

ب - نفي الكم المنفصل في الذات ، بمعنى ان الله - سبحانه - لاشريك له ولامثيل.

جـ - نفي الكم المتصل في الصفات ، بمعنى ان كل صفة لله فهي واحدة لاتقبل التجزئة ، فالله له قدرة واحدة وليس قدرتان .

---

(١) الجويني : الارشاد : ٥٢ .

(٢) الغزالي ، الاقتصاد : ٤٩ . وانظر المضنون به على غير اهله : ٣١٠

(٣) الجويني : الارشاد : ٥٢ .

(٤) الباقلاني : التمهيد : ٢٢١ .

(٥) الجويني : الارشاد : ٥٣ .

د – نفي الكم المنفصل في الصفات فليس لصفات الله نظير عند غيره ، فلاقدرة لمخلوق تماثل قدرة الله .

هـ – نفي الكم المنفصل في الافعال ، لان الافعال لاتقوم بالله فلاتكون الا منفصلة ، والله لايشاركه في فعله احد "الله خالق كل شيء" [(١)] .

٣- التوحيد عند ابن حزم :

لايكاد يخرج ابن حزم – رحمه الله – عن منهج الاشاعرة ، فتراه ايضا يقول تحت عنوان "الكلام في التوحيد ونفي التشبيه" : "لو كان الباري – تعالى عن الحادهم – جسما لاقتضى ذلك ضرورة ان يكون له زمان ومكان هما غيره ، وهذا ابطال التوحيد وايجاب الشرك – ثم يقول –: واما لفظة جسم فانها في اللغة عبارة عن الطويل العريض العميق المحتمل للقسمة" [(٢)] فابن حزم يعتبر من التوحيد نفي الجسمية عن الله لانها قابلة للقسمة ، وهذا هو الضرب الاول عند الاشاعرة .. ثم يتحدث عن الضرب الثاني فيقول : "هذا قول لايحتاج في رده الى اكثر من انه شرك مجرد وابطال للتوحيد ، لانه اذا كان مع الله – تعالى – شيء غيره لم يزل معه فقد بطل ان يكون الله – تعالى – كان وحده بل قد صار له شريك .... وهذا كفر" [(٣)] .

٤- التوحيد عند ابن تيمية –

يقسم ابن تيمية –رحمه الله – التوحيد الى قسمين : "توحيد الربوبية" و "توحيد الالوهية" ويجعل الثاني متضمنا للايمان باسمائه – تعالى – وصفاته . فلاضير ان نقول انه يقسم التوحيد الى قسمين او نقول الى ثلاثة ونضيف "توحيد الاسماء والصفات" وهذا الذي استقرت عليه المدرسة التي تأثرت الى حد كبير بمنهج ابن تيمية – رحمه الله –[(٤)] . ولاننا سنتناول موضوع الاسماء والصفات في مبحث مستقل فسنختار هنا التقسيم الاول :

اولا : توحيد الربوبية وهو يتناول نوعين من التقسيم الخماسي لانواع التوحيد في القرآن الكريم "توحيد الله في الخلق" و "توحيده في الملك" فالله رب العالمين بمعنى : خالقهم ومالكهم .

ثانيا : توحيد الالوهية . وهو يتناول الانواع الثلاثة الباقية "حق الله في الحكم والتشريع: و "حقه في عبادته وطاعته وحده" و "اثبات ماثبته لنفسه من الاسماء والصفات

---

(١) انظر اصول الدين الاسلامي ، د. رشدي عليان و د. قحطان الدوري : ١٣٤ .

(٢) ابن حزم ، الفصل : ٢/١١٧–١١٨ .

(٣) المصدر السابق : ٢/١٣٥ .

(٤) انظر فتح المجيد : ١١ . ومنهم من يضيف قسما رابعا وهو "توحيد الافعال" انظر قرة عيون الموحدين : ١٦ .

ونفي مانفاه عن نفسه" .

ولننظر الان في مقاطع من كلامه - رحمه الله - :

"وليس المراد بالتوحيد مجرد توحيد الربوبية وهو اعتقاد ان الله خلق العالم ... وذلك ان الرجل لو اقر بما يستحقه الرب - تعالى - من الصفات ونزهه عن كل ماينزه عنه واقر بانه وحده خالق كل شيء لم يكن موحدا بل ولامؤمنا حتى يشهد ان لااله الا الله فيقر بان الله وحده هو الاله المستحق للعبادة ويلتزم بعبادة الله وحده لاشريك له . والاله هو بمعنى المألوه المعبود الذي يستحق العبادة ، ليس هو الاله بمعنى القادر على الخلق ، فاذا فسر المفسر الاله بمعنى القادر على الاختراع واعتقد ان هذا اخص وصف الاله وجعل اثبات هذا التوحيد هو الغاية في التوحيد كما يفعل ذلك من يفعله من متكلمة الصفاتية ، وهو الذي ينقلونه عن ابي الحسن واتباعه لم يعرفوا حقيقة التوحيد الذي بعث الله به رسوله ، فان مشركي العرب كانوا مقرين بأن الله وحده هو خالق كل شيء وكانوا مع هذا مشركين ، قال - تعالى - "وما يؤمن اكثرهم بالله الا وهم مشركون" [(١)] .. وقال - تعالى - "ولئن سألتهم من خلق السموات والارض وسخر الشمس والقمر ليقولن الله" [(٢)] ، فليس كل من اقرّ ان الله رب كل شيء وخالقه يكون عابداً له دون سواه ، داعيا له دون سواه راجيا له خائفا منه دون ماسواه ، يوالي فيه ويعادى فيه" [(٣)] .

"والتوحيد الذي جاء به الرسول .... اثبات الالهية لله وحده بأن يشهد ان لااله الا هو ولايعبد الا اياه ولايتوكل الا عليه ولايوالي الا له ولايعادي الا فيه ولايعمل الا لاجله ، وذلك يتضمن اثبات ماأثبته لنفسه من الاسماء والصفات" [(٤)] .

"اذ الاله : هو الذي يؤله فيعبد محبة وانابة واجلالا واكراما . والرب : هو الذي يربي عبده فيعطيه خلقه ثم يهديه الى جميع احواله" [(٥)] .

"فالشرك ان كان شركا يكفر به صاحبه وهو نوعان : شرك في الالهية وشرك في الربوبية . فاما الشرك في الالهية فهو : ان يجعل لله ندا اي مثلا في عبادته ، او محبته ، او خوفه ، او رجائه ، او انابته ... واما النوع الثاني : فالشرك في الربوبية فان الرب - سبحانه - هو المالك المدبر المعطي المانع الضار النافع الخافض الرافع المعز المذل ، فمن شهد ان المعطي او المانع او الضار او النافع او المعز او المذل غيره فقد اشرك بربوبيته" [(٦)] .

---

(١) يوسف : ١٠٦ .

(٢) العنكبوت : ٦١ .

(٣) ابن تيمية ، درء تعارض العقل والنقل : ١/٢٢٥-٢٢٧ .

(٤) المصدر السابق : ١/٢٢٤ .

(٥) ابن تيمية ، مجموع الفتاوى : ١/٢٢ .

(٦) المصدر السابق : ١/٩١-٩٢ .

وخلاصة منهج ابن تيمية في الاستدلال على هذه المسألة انه يجعل توحيد الربوبية دليلا على توحيد الالهية ، بمعنى انه لما كان الله هو الخالق المالك الذي لايشاركه في خلقه وملكه احد فلابد من توجيه العبادة له وحده . اسمع اليه وهو يقول :"فاما توحيد الربوبية الذي اقر به الخلق وقرره اهل الكلام فلايكفي وحده ، بل هو من الحجة عليهم ، وهذا معنى مايروى : "يا ابن آدم خلقت كل شيء لك وخلقتك لي فبحقي عيك ان لاتشتغل بما خلقته لك عما خلقتك له" ، واعلم ان هذا حق الله على عباده ان يعبدوه ولايشركوا به شيئا" [١] .

واما توحيد الربوبية فلايرى ابن تيمية حاجة للاستدلال على ثبوته لانه امر فطري ، لاينازع فيه احد الا معاند مكابر" ان اصل العلم الالهي فطري ضروري وانه اشد رسوخا في النفوس من مبدأ العلم الرياضي كقولنا : ان الواحد نصف الاثنين" [٢] ، وعلى هذا "ان احدا من الخلق لم يزعم ان الانبياء والاحبار والرهبان والمسيح بن مريم شاركوا الله في خلق السموات والارض . بل ولازعم احد من الناس ان العالم له صانعان متكافئان في الصفات والافعال . بل ولااثبت احد من بني آدم الها مساويا لله في جميع صفاته . بل عامة المشركين بالله مقرون بأنه ليس شريكه مثله . بل عامتهم يقرون ان الشريك مملوك له" [٣] .

تعقيب : واذا جاز لمثلي ان يدلي بدلوه في مثل هذه المسألة الخطيرة فاني اختصر مااحتشد بذهني في هذه النقاط :

– ان المناهج الكلامية التي مرت بنا لم تصل بنا اطلاقا الى مستوى التفصيل القرآني لهذه المسألة بحثا واستدلالا واسلوبا .وهذه مسألة طبيعية فكلام الله لايدانيه كلام.

– نستطيع القول : ان المناهج الكلامية تتمحور في مسلكين : الاول يضم المعتزلة والاشاعرة وابن حزم ، فهؤلاء جميعا متشابهون في نمط التفكير ، ومتشابهون في النتائج التي توصلوا اليها في هذه المسألة . والثاني هو منهج ابن تيمية فهو منهج مستقل تماما عن المناهج السابقة .

– والذي يبدو لي ان منهج ابن تيمية في هذه المسألة اقرب الى طريقة القرآن غير اننا نستطيع ان نسجل عليه بعض الملاحظات منها :

اولا : نقده للمتكلمين الموهم بأن المتكلمين لايقولون بافراد الله في العبادة ، ثم لذعه لهم على هذا لذعا يوهم انهم ومشركو العرب سواء .... انظر الى كلامه المتقدم عن الاشاعرة بالذات : فاذا فسّر المفسر الاله بمعنى القادر على الاختراع واعتقد ان هذا

---

(١) ابن تيمية ، مجموع الفتاوى : ٢٣/١ .

(٢) المصدر السابق ١٥/٢ .

(٣) المصدر السابق : ٩٦/٣ .

اخص وصف الاله وجعل اثبات هذا التوحيد هو الغاية في التوحيد كما يفعل ذلك من يفعله من متكلمة الصفاتية وهو الذي ينقلونه عن ابي الحسن واتباعه لم يعرفوا حقيقة التوحيد الذي بعث الله به رسوله فان مشركي العرب ..... الخ" .

وهنا نسأل هل هذه مسألة خلافية بين المسلمين ؟ بمعنى هل يصدق ان واحدا من المسلمين يقّر بأن الله هو الخالق ولايقر بأن الله هو المعبود ؟!

ثانيا : ان عدم التركيز في منهج ابن تيمية على حق الله في الحكم و التشريع مع انه مقر به قطعا اورث خطأً واضحا في التصور التفصيلي بما ينبغي ان يبنى على اصل التوحيد ، وهذا الخطأ تمثل في التركيز على اخلاص العبادة لله لاسيما العبادة الفردية كالصلاة والذبح والدعاء ونحو هذا على حساب الجانب الآخر بل الجانب الذي هو الاصل لكل هذا ، فافراد الله في الحكم والتشريع اصل لافراده بالطاعة والعبادة الفردية ، ولهذا نرى ان المنهج التيمي لحد الان لايعير اهتماما كبيراً لقضية الحكم ومن الذي ينبغي ان يحكم ويسن القوانين . والمتأثرون بهذا المنهج الى اليوم لايقض مضاجعهم ان تعطل شريعة الله ويلغى حكم الله في الارض بقدر مايقض مضاجعهم انسان ينذر لغير الله او جاهل يستغيث بقبر من القبور[1] !! صحيح انهم عند النقاش يقولون : ان توحيد الحاكمية داخل ضمن توحيد الالوهية لكن للتأكيد المستمر على الجانب الفردي في توحيد الالوهية وضرب الامثلة بكثرة كاثرة من التصرفات الفردية وطمس الجانب الآخر قاد الى هذا - والله اعلم - .

- واما المناهج الاخرى فهي بعيدة عن اسلوب القرآن ومنهجه الى حد ما ، ونلتمس اثر هذا البعد - بالاضافة الى فارق الاسلوب والتمثيل - في نقطتين :

---

(١) وهذا واضح في كل ما كتبوه عن هذه المسألة ، وخذ مثلا كتاب التوحيد لمحمد بن عبدالوهاب فهو من بدايته الى نهايته لم يفصل الا في نحو النذور وزيارة القبور والرقي والتمائم والتبرك والتطير ونحو هذا وقد يشير الى بقية المسائل اشارة . انظر ، التوحيد : الفهرست . الا اني لاحظت تغيرا واضحا عند بعض تلامذة هذه المدرسة ، يمثل انتقالة مباركة نحو الشمولية الحقة ، وقد تمثل هذا في كثير من الرسائل الحديثة ومنها مثلا "مجمل اصول اهل السنة والجماعة في العقيدة" للدكتور ناصر عبدالكريم العقل ، ورسالة "الايمان الحق : شهادة وعقيدة وعبادة" ، علي جريشة . وتوجت هذه كلها بالرسالة المختصرة القيمة "هكذا علم الانبياء لا اله الا الله" للشيخ سلمان العودة، التي تمثل نقلة حقيقية نحو الوعي الافضل والمنج الاكمل الذي نرجو ان يكون بادرة لالتقاء المدارس الاسلامية المعاصرة على جادة الحق ، ولنأخذ هذا النص في الرسالة الاخيرة "فلئن كانت عبادة الاحجار والاشجار والكواكب ونحوها تتناسب مع عقل الاعرابي البدائي ... فان لازمنة الحضارة المادية والرقي المدني الوانا كثيرة من الشرك تتناسب مع عقول اهلها ، من عبادة الشهوات ، وعبادة العقل وعبادة المادة ، والتقديس الفرعوني للاشخاص والمناهج والدساتير الارضية ، فمما لا شك فيه ان من الشرك طاعة البشر فيما لا يطاع فيه الا الله - تعالى - بحيث يطاع شخص في التحليل والتحريم والتشريع من دون الله .. كما ان مما لاريب فيه ان من الشرك اتباع القوانين والانظمة المخالفة لشريعة الله .... كما ان من ذلك صرف الولاء للكافرين والمنافقين ومحبتهم والركون اليهم" :٤٥-٤٦ . لقد جاء هذا الكلام بعد حشود حفر الباطن ، ومعنى هذا ان الشيخ ادرك الواقع المر ، وان اشغال الناس بالنذور والقبور فحسب قد يكون من دوافعه سياسة الولاء المنكر لاعداء الله ، ولهذا كانت جائزة الشيخ على هذا الوعي السجن .

الاولى : عدم ذكر جوانب التوحيد الاخرى حيث ان مدار بحوثهم حول توحيد الله في الخلق وهذا هو الذي جرّ خصومهم الى الطعن فيهم وربما التلويح بتكفيرهم !! فاني لاستغرب كثيراً لماذا لم يذكروا بقية الجوانب عند حديثهم عن التوحيد ، مع انهم يذكرونها في مواضع اخرى ، وعلى اية حال فان عدم الاهتمام هذا قد قاد الى اخطاء كبيرة في الجوانب الاخرى وربما حسب على هذه المناهج كثير من الطوائف الجاهلة وربما الخرافية مع ان اهل هذه المناهج اهل عقل وعلم وهم ابعد الناس عن الجهل والخرافة مما ادى الى تشويه لاصول هذه المناهج لاسيما المنهج الاشعري الذي لايفرق التيميون اليوم بينه وبين الطرق الجاهلة البعيدة عن المنهج العلمي والمنطق العقلي .

ثانياً : زيادة مبحث جديد في التوحيد وهو توحيد الذات بمعنى عدم قبول الذات الالهية للقسمة مع ان هذا النوع لم يرد له ذكر في القرآن الكريم فكان الاولى السكوت عنه لاسيما بعد ان رأيناه السبب الكبير في اثارة مشكلة الصفات بين الاشاعرة والمعتزلة من جهة وبينهما وبين الحنابلة من جهة ثانية ، - مما سنراه - ان شاء الله - في مبحث الصفات .

صحيح ان الظرف الذي عاشه هؤلاء مختلف عن الظرف الذي نزل فيه القرآن فالكلام كان للضرورة ولكن اولا : الضرورة تقدر بقدرها .. وثانياً : لم يستمر هذا الظرف نفسه على مدار التاريخ فلماذا استمرت هذه البحوث واضدادها الى اليوم ؟!! .

الفصل الثالث

المبحث الأول: الأسماء والصفات في القرآن الكريم

المبحث الثاني: الأسماء والصفات عند المتكلمين

المبحث الاول
الإسماء والصفات في القرآن الكريم

القارئ للقرآن الكريم يجد حشداً كبيراً لاسماء الله – تعالى – وصفاته . فلماذا هذا التأكيد والتكرار ؟ ولماذا كل هذا الحشد ؟ صحيح ان طبيعة القرآن قد تقتضي هذا ، فليس القرآن الا كلام الله المعرّف بالله وبحقوقه ، غير ان هذا قد لايقتضي اكثر من ذكر اسم "الله" وحده ، اما هذه الاسماء الكثيرة المتكررة فلابد ان يكون لها اهداف اخرى ، ولنلق الضوء الآن على المساحة التي اخذتها هذه المسألة في القرآن الكريم والتي سنفصل القول فيها من خلال النقاط التالية :

ا - **اسماء الله - تعالى** - تكررت في القرآن الكريم كثيراً سواء باسم العلم "الله" اوبالاسماء المقترنة بالوصف مثل "الرحمن" . ولانريد هنا ان نخوض في هذ الاسماء "الجليلة" من حيث الاستقصاء والشرح ، وانما نريد ان نصل الى بعض الاهداف التي ارادها القرآن ومن خلال تقسيم هذه الاسماء بحسب معانيها الاساسية والمساحة التي اخذها كل قسم من القرآن الكريم ، وعلى ضوء هذا نستطيع ان نقسم الاسماء الى الانواع الآتية :

النوع الاول : الاسم العلم "الله" وقد تكرر هذا الاسم في القرآن "٢٨١٥" مرة والحكمة من تكرار هذا الاسم واضحة جلية فلانقف عندها .

النوع الثاني : الاسماء التي تدل على ان الله هو الرب والخالق والمالك لهذا الكون . ولنتمعن في هذه الاحصاءات :

الرب : تكرر في القرآن الكريم "٩٨٣" مرة . بصيغ كثيرة منها "رب العالمين" "رب السموات والارض" "ربكم" .. الخ .

الخالق : تكرر بنحو تسع مرات . والخلاق مرتين . والملك : خمس مرات . ومالك : مرتين . والبارئ : ثلاث مرات . والولي : احدى وثلاثين مرة . والمحيي : مرتين .

النوع الثالث : الاسماء التي تدل على ان الله عليم بخلقه ، ولننظر في هذه الاسماء وارقامها :

العليم : ١٥٨ . عالم : ١٣ . علام : ٤ . اعلم : ٤٩ . خبير : ٤٥ . شهيد : ١٧ . اللطيف : ٧ . الحكيم : ٩٦ . سميع : ٤٥ . بصير : ٤٤ .

النوع الرابع : الاسماء التي تدل على ان الله قادر على خلقه ، ولننظر في هذه الإسماء وارقامها :

القدير : ٤٥ . القادر : بالمفرد وصيغة المعظم لنفسه : ١٢ . القوي : ٩ . المتين : ١ فعال لما يريد : ٢ .

النوع الخامس : الاسماء التي تدل على ان الله رحيم بخلقه :

الرحمن : ١٦٩ . الرحيم : ٢٢٧ . الودود : ٢ . البر : ١ . المجيب : ١ . شكور : ٤. شاكر : ٢ . السلام : ١ . الحليم : ١١ . الغفور : ٩١ . الغفار : ٥ . غافرٌ : ١ . التواب : ١١ . العفو : ٥ . الكريم : ٣ . الاكرم : ١ . القريب : ٣ . الوهاب : ٣ .

النوع السادس : الاسماء التي تدل على عظمة الله وعلوه وقدسيته :

العزيز : ٩٠ . القهار : ٦ . القاهر : ٢ . العلي : ٨ . الاعلى : ٢ . المتعال : ١ . العظيم : ٦ . الكبير : ٥ . المتكبر : ١ . الجبار : ١ . المهيمن : ١ . المجيد : ٢ . القدوس : ٢ .

هذه الاحصائية التقريبية تضمنت اغلب اسماء الله – تعالى– التي وردت في القرآن الكريم ، وماعدا هذا فهو قليل ، وهو لايخلو من هذه المعاني المتقدمة ولنأخذ بعض الاسماء :

الاول : ١ . الآخر : ١ . الظاهر : ١ الباطن : ١ الهادي : ٢ . الحفيظ : ٣ . المحيط : ٨ . الوكيل : ١٤ . الاحد : ١ . الواحد : ٢٢ . الصمد : ١ . النور : ١ . القيوم : ٣ الحق : ١٠ . الحميد : ١٧ .

هذه الاسماء كررت في القرآن الكريم بصيغ كثيرة تعمل عملها في نفس القارئ وضميره فقد يأتي الاسم لوحده مصدرة به آية من كتاب الله كما في "الرحمن علم القرآن خلق الانسان علمه البيان" [(١)] و "الله نور السموات والارض" [(٢)] وتارة يختم القرآن آياته بأسمين كريمين يحملان دلالة مقصودة تناسب المقام فأنظر مثلاً "والسارق والسارقة فاقطعوا ايديهما جزاء بما كسبا نكالاً من الله . والله عزيز حكيم" [(٣)] ثن انظر : "ويتوب الله على المؤمنين والمؤمنات وكان الله غفوراً رحيما" [(٤)] .

وهذهالاسماء لم تعزل في مبحث مستقل ، وانما بثت في القرآن في جميع احكامه وقصصه ومواعظه ، مما كان له الاثر الكبير في استقامة الناس وسلوكهم مسلك القرآن الشامل عقيدة وعبادة واحكاماً واخلاقاً .

وهذه الاسماء جاءت من البساطة والوضوح بحيث يفهمها الامي على اميته ، وايم الله لقد كنت متهيباً مثل هذا البحث لان مبحث الاسماء والصفات مبحث معقد لايفهمه الا الراسخون في العلم ، على خلاف بينهم ، وكنت اسأل نفسي لماذا يتضمن القرآن كل هذه المباحث الصعبة المعقدة ؟! وكيف فهمها بلال وابو ذر وصهيب ؟! هذه المباحث التي دوخت الاجيال المتعاقبة من اهل العلم .. كيف ؟! ولماذا ؟! ولكني حينما فتحت القرآن لاقرأه من

---

(١) الرحمن : ١ .

(٢) النور : ٣٥ .

(٣) المائدة : ٣٨ .

(٤) الاحزاب : ٧٣ .

جديد لاقرأ وانا متجرد من مباحث هذه الاجيال ذهب الخوف وزالت الحيرة وادركت ان الله الذي ملأ كتابه بأسمه "الرحمن" واسمه "الرحيم" حاشاه ان يجعل كتابه نفسه مصدر قلق واضطراب وفرقة وشتات ، وادركت ان التعقيد ليس من القرآن ، وانما سنعرف سببه عما قريب – ان شاء الله – .

ولقد جاءت هذه الاسماء متناسبة مع وظيفة الانسان على هذه الارض فهو مستخلف اجير ، وهذا الاجير بحاجة الى ان يعرف من هو مالك هذه الارض – ميدان عمله – وماهو اسمه الذي يناديه به ، وبحاجة الى ان يعلم ان الذي استأجره عالم به حتى لايغش ولايخادع ، وانه قادر عليه حتى لايستهين ، وانه رحيم به حتى لاييأس ولايقنط فليس هذا المبحث مبحثاً نظرياً فلسفياً وانما هو واقعي عملي يتطلبه واقع الانسان على هذه الارض[1]

٢- صفاته - تعالى-

نستطيع ان نقسم صفات الله – تعالى – الواردة في القرآن الكريم الى اقسام كثيرة وبأعتبارات متعددة ، غير اننا سنختار هنا تقسيماً ينفعنا في تحديد علاقة الصفات بالاسماء ، ثم في تحديد الغاية من ذكر هذه الصفات ، ومنهج القرآن في كل هذا ، وعلى اساس هذا التقسيم يبدو لي ان الصفات تندرج تحت الاقسام الآتية :

أ- صفات اقترنت بأسمائه – تعالى – وهي الاسماء الحسنى التي تدل على صفات معينة لله – تعالى وهذا يندرج فيه كل انواع الاسماء – التي مرت – عدا النوع الاول . فالاسماء التي تدل على الربوبية والخلق او العلم او القدرة او الرحمة او العظمة كلها اسماء اشتقت من الوصف فهي اسماء وصفات ، وقد فصلنا القول فيها آنفاً .

ب- صفات تحمل معاني الاسماء المتقدمة غير انها لم تأت بصيغة الاسم ، وكأنها جاءت مؤكدة لهذه الاسماء . ولنأخذ بعض الامثلة :

– الاسماء التي تدل على الربوبية والخلق مثل "رب العالمين" و "الخلاق" و "مالك يوم الدين" هذه الاسماء جاءت معانيها مكررة في صيغ اخرى مثل : "هو الذي خلق لكم مافي الارض جميعاً"[2] "والله يحيي ويميت"[3] "الم تعلم ان الله له ملك السموات والارض"[4] "الملك يومئذ لله"[5] وهكذا .

---

(١) لقد بحث موضوع " اسماء الله – تعالى – " الامام البيهقي ، ووزعها مجاميع بحسب معانيها ، وبين موقف المسلم منها ، وقد اغنى واكفى ، وغالب كلامه فيها نافع في مجال العمل والسلوك لانه ابتعد بها عن مناهج النظر والفلسفة ، انظر الاسماء والصفات : ٤ – ٩٤ .

(٢) البقرة : ٢٩ .

(٣) آل عمران : ١٥٦ .

(٤) البقرة : ١٠٧ .

(٥) الحج : ٥٦ .

- الاسماء التي تدل على العلم مثل "العليم" و "السميع" و "البصير" جاءت مؤكدة ايضاً بصيغ اخرى غير الاسماء مثل "ولايحيطون بشئ من علمه" [١] و "الا يعلم من خلق ؟!" [٢] و "وهو يدرك الابصار" [٣] و "ابصر به واسمع" [٤] و "لم تعبد مالايسمع ولايبصر" [٥] .

- الاسماء التي تدل على القدرة مثل : "القدير" و "القوي" جاءت مؤكدة ايضاً بصيغ اخرى مثل "فقدرنا فنعم القادرون" [٦] "واخرى لم تقدروا عليها قد احاط الله بها" [٧] "ولو يرى الذين ظلموا اذ يرون العذاب ان القوة لله جميعاً" [٨] "اولم يروا ان الله الذي خلقهم هو اشد منهم قوة" [٩] .

- الاسماء التي تدل على الرحمة مثل "الرحمن" "الرحيم" "الودود" جاءت مؤكدة بصيغ اخرى مثل : "كتب ربكم على نفسه الرحمة" [١٠] "لاتقنطوا من رحمة الله" [١١] "مايفتح الله للناس من رحمة فلاممسك لها" [١٢] "فبما رحمة من الله لنت لهم" [١٣] "امن يجيب المضطر اذا دعاه ويكشف السوء" [١٤] "وهو الذي ينزل الغيث من بعد ماقنطوا وينشر رحمته" [١٥] .

- الاسماء التي تدل على العظمة مثل "العلي" "الجبار" "المتكبر" جاءت معانيها مؤكدة بصيغ اخرى مثل "فلله العزة جميعاً" [١٦] "يوم نبطش البطشة الكبرى" [١٧] "ان بطش

---

(١) البقرة ٢٥٥ .

(٢) الملك : ١٤ .

(٣) الانعام : ١٠٣ .

(٤) الكهف : ٢٦ .

(٥) مريم : ٤٢ .

(٦) المرسلات : ٢٣ .

(٧) الفتح : ٢١ .

(٨) البقرة : ١٦٥ .

(٩) فصلت : ١٥ .

(١٠) الانعام : ٥٤ .

(١١) الزمر : ٥٣ .

(١٢) فاطر : ٢ .

(١٣) آل عمران : ١٥٩ .

(١٤) النمل : ٦٢ .

(١٥) الشورى : ٢٨ .

(١٦) فاطر : ١٠ .

(١٧) الدخان : ١٦ .

ربك لشديد" [1] "سبحان ربك رب العزة" [2] .

وهكذا يتبين لنا ان هذا النوع ليس مستقلاً عن النوع الاول وانما هو مؤكد له ، ولكن بصيغ اخرى ، فتارة تكون الصفة بأضافتها الى الله "لاتقنطوا من رحمة الله" وتارة بأسناد فعلها الى الله "فقدرنا" "يكشف السوء" وتارة على سبيل الاختصاص مثل "الحمد لله" "العزة لله" الى غير هذا .

والحقيقة ان هذا النوع والذي قبله يشكلان الغالبية العظمى من صفاته - تعالى - واما ماتبقى فهو قليل اذا قورن بما تقدم .

جـ- صفات لايدل ظاهرها على علاقة معنوية مع هذه الاسماء بل ان ظاهرها ولّد نوع اشكال في فهم المدارس الكلامية - كما سنرى ان شاء الله - ونستطيع ان نقسم هذا النوع الى مايأتي :

اولاً : ابعاض واعضاء اضيفت الى الله - تعالى - مثل :

الوجه : في مثل قوله - تعالى - "كل شئ هالك الا وجهه" [3] و "يبقى وجه ربك ذو الجلال والاكرام" [4] و "فاين ماتولوا فثم وجه الله" [5] .

العين : في قوله : "واصنع الفلك بأعيننا" [6] و "تجري بأعيننا" [7] و "فأنك بأعيننا" [8] و "لتصنع على عيني" [9]

اليد : في مثل "يد الله فوق ايديهم" [10] و "تبارك الذي بيده الملك" [11] و " قال يا ابليس مامنعك ان تسجد لما خلقت يدي" [12] .

ثانياً - افعال لازمة "اختيارية" لاتقوم الا بالفاعل وتدل على معان ليس لها علاقة بأسماء الله الحسنى وهي قليلة في القرآن وذلك مثل :

---

(١) البروج : ١٢ .

(٢) الصافات : ١٨٠ .

(٣) القصص : ٨٨ .

(٤) الرحمن : ٢٧ .

(٥) البقرة : ١١٥ .

(٦) هود : ٣٧ .

(٧) القمر : ١٤ .

(٨) الطور : ٤٨ .

(٩) طه : ٣٩ .

(١٠) الفتح : ١٠ .

(١١) الملك : ١ .

(١٢) ص : ٧٥ .

"استوى" – وهو المكرر اكثر من غيره في مثل "الرحمن على العرش استوى" [١]

و "ثم استوى الى السماء" [٢]

"يأتي" في قوله "هل ينظرون الا ان يأتيهم الله" [٣] و "هل ينظرون الا ان تأتيهم الملئكة او يأتي ربك" [٤] .

"جاء" في قوله "وجاء ربك والملك صفاً صفا" [٥]

ثالثاً – افعال متعدية لكن ليس لها علاقة بأسماء الله الحسنى ، بل قد يكون ظاهرها على خلاف اسمائه الحسنى وذلك مثل :

"يستهزئ" في قوله – تعالى – : "الله يستهزئ بهم" [٦] .

"يمكر" في قوله – تعالى – : "ويمكرون ويمكر الله" [٧] .

"اكيد" في قوله – تعالى – : "انهم يكيدون كيداً واكيد كيدا" [٨]

رابعاً – اضافة الجهة الى الله – تعالى – وذلك مثل :

"الفوق" في مثل قوله – تعالى – : "وهو القاهر فوق عباده" [٩] .

و "يخافون ربهم من فوقهم" [١٠]

"المواجهة" في قوله تعالى- : "فأينما تولوا فثم وجه الله" [١١] .

ان هذا النوع في القرآن الكريم قد أثار ويثير تساؤلات كثيرة ، واختلافات خطيرة [١٢] – كما سنرى ان شاء الله – غير ان السؤال الاول الذي يهمنا هنا ، هو لماذا

---

(١) طه . ٥ .

(٢) البقرة . ٢٩

(٣) البقرة . ٢١٠ .

(٤) الانعام . ١٥٨

(٥) الفجر ٢٢ .

(٦) البقرة : ١٥ .

(٧) الانفال . ٣٠ .

(٨) الطارق : ١٥–١٦

(٩) الانعام : ١٨ .

(١٠) النحل ٥٠

(١١) البقرة . ١١٥ .

(١٢) وهذا مادفع استاذنا الدكتور محسن عبد الحميد ليفرد لهذا الموضوع بحثاً مستقلاً ، اسماه "تفسير آيات الصفات" جاء في مقدمته "وقد لاحظت ولاحظ معي العاملون في الحقل الاسلامي الحديث في السنوات القليلة الأخيرة تياراً يزعم ان منهجه قائم على تصحيح العقيدة ومحاربة مظاهر الشرك في المجتمع الاسلامي ، يشغل الجو الاسلامي بالمساجد وغيره بمناقشات عقيمة حول تفسير الصفات الالهية الخبرية ... – الى ان يقول – وكان هذا الوضع المؤلم دافعي الاول في العودة الى آيات الصفات وقراءتها قراءة جديدة "تفسير آيات الصفات . المقدمة"

ولقد دفعني هذا ايضاً لاختيار موضوع البحث في مرحلة الماجستير "الصفات الخبرية عند اهل السنة والجماعة " وقد قمت فيها بأستقراء تام لجميع الصفات الخبرية في الكتاب والسنة مبيناً اقوال العلماء فيها من السلف والخلف

ذكر القرآن هذه الصفات او هذه الاضافات ؟! وماهي فائدة الانسان الذي يعيش على هذه الارض من هذه الاخبار الغيبية ؟! ان الصفات الاولى واضحة الدلالة واضحة الغاية لكن هذه تختلف اختلافاً كبيراً .. انني هنا لااريد ان ابين رأيي في هذه المسألة - فهذا له مكان آخر - ولكني - وانا اتحدث عن منهج القرآن - لابد ان اشير الى بعض النقاط القرآنية حول المسألة التي قد تكشف لنا جانباً من الحقيقة وتبين لنا ان القرآن لم يهتم بهذا النوع اهتمامه بالنوع الاول ولابد ان يكون هذا مقصوداً . ولننظر اولاً الى هذه الملاحظات :

١- من حيث المساحة التي اخذها هذا النوع في القرآن الكريم تجاه ماقبله . ونظرة واحدة في الاحصاءات السابقة تكفي ، ومن قرأ اي ورقة في القرآن لاعلى التعيين فانه لابد واجد من تلك الصفات المقترنة بأسمائه الحسنى - سبحانه وتعالى - بخلاف الصفات الخبرية هذه .

٢- من حيث انها مقصودة من السياق ام لا . وهذه القضية ينبغي الوقوف عندها لانها تعني اشياء كثيرة ، فلماذا جاءت هذه الصفات في الغالب ليست مقصودة من النص ؟ ولنأخذ هذا المثال :

لفظة العين وردت مضافة الى الله في اربعة مواضع فلننظر فيها :

"واصنع الفلك بأعيننا" ثم قال في الموضع الثاني "تجري بأعيننا"

فالقرآن يتحدث في الموضعين عن سفينة نوح - عليه السلام - ولم يأت النص لتقرير صفة الهية . واما الموضعان الآخران فهما :

"فأنك بأعيننا" و "لتصنع على عيني" فهل يجد القارئ فيهما انهما جاءتا لتقرير صفة الهية .

٣- وهذه النقطة متصلة بما قبلها وفصلناها لاهميتها . وهي ان الصفات المقترنة بالاسماء قد تأتي مصدرة بالامر بالنظر فيها او تصديقها والايمان بها . وانظر مثلاً في مثل قوله - تعالى - "فأعلم انه لا اله الا الله" [1] ، "افلا ينظرون الى الابل كيف خلقت والى السماء كيف رفعت . والى الجبال كيف نصبت . والى الارض كيف سطحت . فذكر انما انت مذكر" [2] ، "اولم يروا ان الله الذي خلقهم هو اشد منهم قوة" [3] . لكنه في الصفات من النوع الثالث لم يرد شئ من هذا فلم يرد : اعلموا ان لله اعينا . او انه يأتي وينزل .

٤- ان القرآن جادل الذين ينكرون بعض تلك الصفات ، واقام الادلة على اثباتها بخلاف هذا النوع ، فأنظر مثلاً كيف يثبت الله وحدانيته بقوله : "لو كان فيهما الهة الا

---

(١) محمد : ١٩ .

(٢) الغاشية : ١٧ - ٢١ .

(٣) فصلت : ١٥ .

الله لفسدتا" [1] ويثبت علمه بقوله : "الا يعلم من خلق ؟!" [2] ، بينما لم يرد مثل هذا في النوع الاخير ...

٥- ان القرآن قد رتب نتائج على الايمان بتلك الصفات او عدم الايمان بها ، فانظر مثلاً : "لئن اشركت ليحبطن عملك" [3] . و "لقد كفر الذين قالوا ان الله ثالث ثلاثة ومامن اله الا اله واحد وان لم ينتهوا عما يقولون ليمسن الذين كفروا منهم عذاب اليم" [4] و "لقد سمع الله قول الذين قالوا ان الله فقير ونحن اغنياء سنكتب ماقالوا وقتلهم الانبياء بغير حق ونقول ذوقوا عذاب الحريق" [5] . لكنه لم يرد نص - بحسب علمي - يرتب عقوبة على من انكر شيئاً من هذه الصفات .

٦- ان الصفات من هذا النوع لو اخذت على ظاهرها فانه ستترك مجالاً فارغاً في الفكر والتخيل بسبب ان القرآن لم يرد فيه تفصيل لهذه الصفات . ونستطيع القول ان القرآن لم يقصد اصلاً ان يعطي العقل البشري تصوراً ولو صغيراً عن حقيقة الاله وكنهه - تبارك وتعالى- ولنعبر عن هذا بالشكل التالي :

ان القرآن احكم الدائرة الاولى في الاسماء والصفات فكل مايحتاجه الانسان من صفات الله بينه له القرآن ، فالاسم ، والوحدانية ، والعلم ، والقدرة ، والرحمة ، كلها صفات يحتاج الانسان معرفتها عن الله لذلك جاءت متكاملة متناسقة ، لاتثير في الفكر الانساني خللاً او تشويشاً ، لكن انظر في الصفات الاخيرة حينما اخذها المشبهة على ظواهرها ، ماذا حدث لهم ، حدث لهم شكل محيّر ليس هناك اي حكمة في تصوره ، فماذا يعني ان تعتقد ان لهذا الشكل عيناً واعيناً ، ويداً ويدين وايدي . ووجهاً وساقاً . ان هذه الالفاظ هي التي اضيفت في القرآن الى الله - مع الخلاف في الساق - لكنه على شتى الاحتمالات والتفسيرات فالقائلون بظواهرها لايحصل لهم شكل متكامل وفي هذا تشويش للعقل والتخيل . فلماذا احكم القرآن التصور الاول بينما ترك هنا مساحة فارغة يعبث بها الخيال ؟ قد نستطيع ان نجيب ولكن لننظر اولاً في الملاحظة الاخيرة :

٧- ان القرآن في الكثير من المواضع وصف بعض خلقه ببعض هذه الصفات وامثالها ولم يكن المقصود الظاهر القاموسي اتفاقاً ، ولنأخذ بعض الامثلة :

أ- في الاعضاء والجوارح لنقرآ هذه الآيات :

---

(١) الانبياء : ٢٢ .

(٢) الملك : ١٤ .

(٣) الزمر : ٦٥ .

(٤) المائدة : ٧٣ .

(٥) آل عمران : ١٨١ .

"وقالت طائفة من اهل الكتاب آمنوا بالذي انزل على الذين آمنوا وجه النهار" (١)

"ثم لترونها عين اليقين" (٢)

"ولاتجعل يدك مغلولة الى عنقك ولاتبسطها كل البسط" (٣)

"الا ان يعفون او يعفو الذي بيده عقدة النكاح" (٤)

"فانه نزله على قلبك بأذن الله مصدقاً لما بين يديه" (٥)

"ان لهم قدم صدق عند ربهم" (٦)

"واجعل لي لسان صدق في الآخرين" (٧)

"واخفض لهما جناح الذل من الرحمة" (٨)

ب- في الافعال لنقرأ هذه الآيات :

"يابني آدم قد انزلنا عليكم لباساً يواري سوءاتكم وريشاً" (٩)

""وانزل لكم من الانعام ثمانية ازواج" (١٠)

"ولما سكت عن موسى الغضب" (١١)

"والصبح اذا تنفس" (١٢)

جـ- في الجهة والمكان :

"ورفع بعضكم فوق بعض درجات" (١٣)

"لتفسدن في الارض مرتين ولتعلن علواً كبيراً" (١٤)

"ان لاتعلوا على الله" (١٥)

"لقد خلقنا الانسان في احسن تقويم ، ثم رددناه اسفل السافلين" (١٦)

---

(١) آل عمران : ٧٢ .
(٢) التكاثر : ٧ .
(٣) الاسراء : ٢٩ .
(٤) البقره : ٢٣٧ .
(٥) البقرة : ٩٧ .
(٦) يونس : ٢ .
(٧) الشعراء : ٨٤ .
(٨) الاسراء : ٢٤ .
(٩) الاعراف : ٢٦ .
(١٠) الزمر : ٦
(١١) الاعراف : ١٥٤ .
(١٢) التكوير : ١٨ .
(١٣) الانعام : ١٦٥ .
(١٤) الاسراء : ٤ .
(١٥) الدخان : ١٩
(١٦) التين : ٤ - ٥ .

ان هذه الملاحظات مجتمعة توصلنا الى ان هذه الاخبار لم تأت لتؤصل اصلاً من اصول الدين ، وانما هي اخبار يجب تصديقها ثم دراستها بحسب مواقعها في القرآن ، للتوصل الى المقصود منها ، فغالباً مايكون مقصودها واضحاً ، فاذا فهمنا المقصود فلاعلينا بعدُ ان نخوض في الكنه والكيف ، فهذا ليس مجال تفكيرنا . وقد يرد ان فهم المقصود لايمكن الا بفهم حقيقة اللفظ ومعناه ، والجواب : ان القرآن نفسه حوى اخباراً اخرى لاتتعلق بالصفات نفهم مقصودها دون ان نفهم حقيقة مدلول الخبر ، وذلك مثل قوله – تعالى – "طلعها كأنه رؤوس الشياطين" [1] فالمقصود الترهيب واثارة الاشمئزاز ولكن الكنه مجهول .

هذه الملاحظات تقودنا ايضاً الى ان نفسح في صدورنا لتقبل الخلاف في تفسيرها ، ولاينبغي ان تعد الفيصل بين الايمان والكفر او بين التوحيد والشرك . لاسيما ان السلف لم يقفوا عندها طويلاً ، ومن وقف عندها فسرها بتفسيرات كثيرة تصح ان تكون الجذور الحقيقية للمذاهب الكلامية في الصفات هذه [2] – والله اعلم – .

د– صفات نفاها القرآن عن الله – تعالى –

وقد يكون هذا النفي ابتداء ، وقد يكون رداً على شرك المشركين وجهل الجاهلين ، وغالب مانفي عن الله يثبت له ضده كما سنرى :

١– نفي الشك : "افي الله شك فاطر السموات والارض" [3] . والشك هذا لم يحدده القرآن ولعله اطلقه قصداً فالشك في وجوده او ربوبيته او قدرته كل ذلك منفي عن الله – سبحانه وتعالى – .

٢– نفي الشريك : "فأعلم انه لا اله الا الله" [4] " لاشريك له" [5] .

٣– نفي الولد : "وقالوا اتخذ الله ولداً سبحانه بل له مافي السموات والارض كل له قانتون" [6] "ويجعلون لله البنات سبحانه ولهم مايشتهون" [7] " وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولداً" [8]

---

(١) الصافات : ٦٥ .

(٢) انظر تفسير آيات الصفات ، د . محسن عبد الحميد : ٢٠ – ٧١ ، والصفات الخبرية عند اهل السنة والجماعة : فصل في الصفات الخبرية عند السلف : ٤٣ – ٦١ .

(٣) ابراهيم : ١٠ .

(٤) محمد : ١٩ .

(٥) الانعام : ١٦٣ .

(٦) البقرة : ١١٦ .

(٧) النحل : ٥٧ .

(٨) الكهف : ٤ .

٤- نفي الوالد : "لم يلد ولم يولد" [١]

٥- نفي الصاحبة : "وانه تعالى جدّ ربنا ماالتخذ صاحبة ولاولدا" [٢] . "بديع السموات والارض انى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة" [٣] .

٦- نفي العجز : "وماكان الله ليعجزه من شئ" [٤]

٧- نفي اللغوب : "ومامسنا من لغوب" [٥]

٨- نفي النوم : "لاتأخذه سنة ولانوم" [٦]

٩- نفي الظلم : "وما ربك بظلام للعبيد" [٧]

١٠- نفي اللعب : "وماخلقنا السموات والارض ومابينهما لاعبين" [٨]

١١- نفي العبث : "افحسبتم انما خلقناكم عبثا" [٩]

١٢- نفي ان يدرك : "لاتدركه الابصار" [١٠]

---

(١) الاخلاص : ٣ - ٤ .

(٢) الجن : ٣ .

(٣) الانعام : ١٠١ .

(٤) فاطر : ٤٤ .

(٥) ق : ٣٨ .

(٦) البقرة : ٢٥٥ .

(٧) فصلت : ٤٦ .

(٨) الدخان : ٣٨ .

(٩) المؤمنون : ١١٥ .

(١٠) الانعام : ١٠٣ .

المبحث الثاني
الاسماء والصفات عند المتكلمين

لم يختلف المتكلمون في اثبات اسمائه – تعالى – المنصوص عليها ، وان اختلفوا في تفسير بعضها ، غير ان البحث الخطير عندهم هو "الصفات" الذي يعد من اعقد مباحثهم بل اعقدها على الاطلاق ، ولقد ساهم هذا المبحث في توسيع الهوّة بين المذاهب الكلامية حتى تنابزت بألقاب التكفير والتضليل ، وهو موضوع طويل طويل ، ليس بأستطاعة الباحث ان يلملم اطرافه ، ولذا سأحاول الاختصار جاهداً ، مقتصراً على مايشير الى الاختلاف من خلال تسليط الضوء على المعالم البارزة لدى كل مدرسة وكمايأتي :

المعتزلة :

نستطيع القول ان المعتزلة ليس لهم منهج متكامل في الاسماء والصفات ، لانهم ركزوا في الغالب على الجانب السلبي ، وغالب مباحثهم تدور في هذا الجانب ، فهم ينفون عن الله مالايليق به على اصول مذهبهم اكثر مما يثبتون له ، ولذا فهم يتحدثون عن "خلق القرآن" بأسهاب بل الازمة التأريخية الخطيرة التي غرقت بها الامة كانت بهذه المسألة . ثم يتحدثون عن "رؤية الله في الآخرة" وربما بنفس القدر من الاهتمام ، وكلا المسألتين من المسائل السلبية ، اذ خلاصتها نفي صفة الكلام القائمة بذات الله – تعالى – ونفي إمكان رؤيته – سبحانه وتعالى – . ومعنى هذا ان منهج المعتزلة قائم في غالبه على الرد والجدل. ولنر الآن المعالم البارزة في منهج المعتزلة :

تقدم معنا ان المعتزلة بنوا اصل التوحيد على خمسة اصول :

اولها : اثبات حدوث العالم .

ثانيها : اثبات المحدِث .

ثالثها : بيان مايستحقه من الصفات .

رابعها : العلم بما لايجوز عليه من صفات .

خامسها : اثبات وحدانيته[1]

ولننظر الآن في الاصل الثالث ثم في الرابع فهما مادة بحثنا هنا :

في الاصل الثالث يتكلم المعتزلة اولاً عن كونه – تعالى – قادراً وعالماً وحياً وسميعاً بصيراً مدركاً وموجوداً وقديماً . فهذه الصفات هي ماثبتت عندهم لله – تعالى – ، ثم يتكلمون عن كيفية اتصاف الله بهذه الصفات ، وهذا مبحث مهم عندهم وكما سنرى :

---

(١) القاضي عبد الجبار ، المختصر في اصول الدين : ٢١٠ .

اولاً =الصفات الثابتة لله :

١- كونه - تعالى - قادراً ، وهم يعتبرون هذه الصفة اصل الصفات ، ويستدلون عليها بحدوث العالم ، يقول القاضي عبد الجبار - رحمه الله - : "اعلم ان اول مايعرف استدلالاً من صفات القديم - عز وجل - انما هو كونه قادراً ، وماعداه من الصفات يترتب عليه لان الدلالة التي دلت على انه - تعالى - هو المحدث للعالم ، دلت على هذه الصفة التي هي كونه - تعالى - قادراً من غير واسطة ، وليست كذلك باقي الصفات" [1]

٢- كونه - تعالى - عالماً ، ويستدلون عليها بالعالم ومافيه من احكام واتقان . يقول القاضي : "وهذه الدالالة على اصلين : احدهما : ان الله - تعالى - قد صح منه الفعل المحكم ، والثاني ان صحة الفعل المحكم دلالة كونه عالماً" [2]

٣- كونه - تعالى - حياً ، ويستدلون عليها بالصفتين السابقتين ، يقول القاضي : "وهذه الدلالة مبنية على اصلين : احدهما : ان الله - تعالى - عالم ، قادر ، والثاني ان العالم القادر لايكون الا حياً". [3]

٤- كونه - تعالى - سميعاً بصيراً مدركاً للمدركات ، وذكر هذه الثلاث جملة واحدة ربما يكون مقصوداً في منهج المعتزلة ، حيث انهم يتحدثون عنها بأعتبارها صفة واحدة هي "الادراك" فكون الله يدرك المسموعات فهو سميع ، وكونه يدرك المبصرات فهو بصير ، ثم يخبرنا القاضي ان المعتزلة قد اختلفوا في هذه الصفة وكماياتي : "فعند شيوخنا البصريين ان الله - تعالى - سميع بصير مدرك للمدركات ، وان كونه مدركاً صفة زائدة على كونه حياً ، واما عند مشايخنا البغداديين هو انه - تعالى - مدرك للمدركات على معنى انه عالم بها وليس له بكونه مدركاً صفة زائدة على كونه حياً" [4] ، ويبدو ان القاضي يميل الى اعتبارها صفة مستقلة ، فيقول في مقام الاستدلال على اصل الصفة وما اختلف فيه منها : "اما الذي يدل على ان الله - تعالى - سميع بصير مدرك للمدركات هو انه حي لاآفة به ، والموانع المعقولة مرتفعة ، فيجب ان يدرك المدركات ، واما الذي يدل على ان المدرك له بكونه مدركاً صفة ، هو ان احدنا يفصل بين حاله اذا كان مدركاً وبين حاله اذا لم يكن مدركاً واجلى الامور مايجده الانسان من نفسه ، ولايمكن ان يرجع بهذه التفرقة الى كونه عالماً حياً" [5] ، ثم يقول : "اما ثبوت العلم مع فقد الادراك فهو ان احدنا يعلم القديم - تعالى - ولايدركه" [6] ، ولايهمنا هنا مناقشة هذه المسألة .

---

(١) القاضي عبد الجبار : شرح الاصول الخمسة : ١٥١ .

(٢) المصدر السابق : ١٥٦

(٣) المصدر السابق : ١٦١ .

(٤) المصدر السابق : ١٦٨ .

(٥) المصدر السابق ١٦٨ .

(٦) المصدر السابق : ١٦٩ .

٥- كونه - تعالى - موجوداً ، بعد ان يسترسل القاضي في نقل تعريفات كثيرة للموجود والمعدوم يصل الى الاستدلال على كونه - تعالى - موجوداً ، فيقول : "وهذه الدلالة مبنية على اصلين : احدهما انه - تعالى - عالم قادر ... والثاني ان العالم القادر لايكون الا موجوداً" [١] ، ثم يتوسع في هذا الاستدلال شرحاً وتفصيلاً ...

٦- كونه - تعالى - قديماً ، والمقصود بهذه الصفة : "هو مالا اول لوجوده" [٢] ، ويستدل القاضي على ذلك بقوله : "فلو كان القديم - تعالى - محدَثاً لاحتاج الى محدِث ، وذلك المحدِث اما ان يكون قديماً او محدَثاً ، فان كان محدثاً كان الكلام في محدِثه كالكلام فيه ، فاما ان ينتهي الى صانع قديم على مانقوله ، او يتسلسل الى مالانهاية ... وذلك يوجب ان لايصح وجود شئ من هذه الحوادث" [٣]

ثانياً : كيفية اتصافه - سبحانه وتعالى - بهذه الصفات :

هذا المبحث مهم جداً في المنهج المعتزلي لانه يعد نقطة افتراق خطيرة بين المعتزلة وبين كثير من المدارس الكلامية الاخرى ، وقد اثار هذا المبحث عاصفة عاتية في ميدان الفكر والعقيدة مما ساهم في تعميق الخندق التفريقي بين ابناء الدين الواحد . واسمع الى القاضي عبد الجبار - رحمه الله - ماذا يقول في مقدمة مبحثه هذا : "ثم نبغ الاشعري واطلق القول بانه - تعالى - يستحق هذه الصفات لمعان قديمة ، لوقاحته وقلة مبالاته بالاسلام والمسلمين !!" [٤] .

هذا وقد اختلفت عبارات المعتزلة في هذا المبحث فقال بعضهم : :ان الله عالم قادر حي بنفسه لابعلم وقدرة وحياة" وقال ابو الهذيل : "هو عالم بعلم هو هو ، وقادر بقدرة هي هو ، وهو حي بحياة هي هو" . وانكر عباد القول الاول لانه ينكر ذكر النفس وذكر الذات . وقال ضرار : "معنى ان الله عالم انه ليس بجاهل ، ومعنى انه قادر انه ليس بعاجز ومعنى انه حي انه ليس بميت" [٥] ونحو هذا قول النظام . غير ان هذا الاختلاف يحمل مدلولاً مشتركاً بينهم وهو ان الله متصف بهذه الصفات لاعلى معنى وجود معان قديمة مع الله ، وهذا عندهم غاية التوحيد ، فهم ينفون تعدد القدماء ولو كانت صفات قائمة بذات القديم . اسمع الى القاضي : "فالقديم - تعالى - لو استحق هذه الصفات لمعان قديمة لوجب ان تكون مثلاً لله - تعالى - وهذا يوجب اذا كان العالم - تعالى - عالماً قادراً لذاته وجب ان تكون هذه المعاني ايضاً قادرة عالمة وذلك محال" [٦]

---

(١) المصدر السابق : ١٧٧ .

(٢) المصدر السابق : ١٨١ .

(٣) المصدر السابق : ١٨١ .

(٤) المصدر السابق : ١٨٣ .

(٥) ابو الحسن الاشعري : مقالات الاسلاميين : ٢٢٥ - ٢٢٦ .

(٦) القاضي عبد الجبار : شرح الاصول الخمسة : ١٩٧ .

ثم يتوسع القاضي بعدد كبير من الصفحات مناقشاً خصومه في كل صفحة على حدة وليس هنا محل التفصيل .

واما في الاصل الرابع فقد اثار المعتزلة اكثر من زوبعة ، وهم يفصلون فيما ينبغي نفيه عن الله – وكما سنرى – والصفات التي نفوها عن الله هي :

١– العجز : "لانه قد ثبت انه قادر على كل مقدور يصح ان يقدر عليه ، حتى لاجنس ولاقدر الا وهو قادر عليه فمحال ان يعجز" [١] .

٢– الفناء : "لانه موجود لابموجد ، بل هو كذلك لذاته" [٢] .

٣– الحواس : "لانه حي لذاته ، وانما يجوز ذلك علينا لانا بالحياة الموجودة فينا نحتاج الى حاسة تكون محلاً للحياة" [٣] وقد نفوا هنا ماجاء في ظاهر بعض النصوص كالعين وغيرها .

٤– الجهل بالمرئيات ونحوها فانه – تعالى – "يرى كل موجود من المرئيات ومحال الموانع عليه ، لانها تجوز على الواحد منا من حيث يحتاج الى الحواس فانما يرى بها الحاضرات دون الغائبات" [٤] .

٥– الجسمية : لانه "لوكان جسماً لوجب ان لايخلو من دلائل الحدوث كالقرب والبعد والاجتماع والافتراق ، وكان يجب ان يكوم محدَثاً كهذه الاجسام ، وايضاً فكان يجب ان يحتاج الى مركِّب ومصوِّر ومؤلِّف كما تحتاج الاجسام الى ذلك" [٥] . ثم يضطرون هنا الى تأويل العشرات من النصوص التي يدل ظاهرها على المكان او الجارحة او الاعراض القائمة به – سبحانه – [٦] .

٦– الرؤية : "والمقصود بها رؤية خلقه له – سبحانه – فهي مستحيلة عندهم في الدنيا والآخرة وقد استدلوا بقوله – تعالى – : "لاتدركه الابصار" [٧] ، وبقولهم : "لو كان – تعالى – يرى بالبصر لوجب ان يجوز ان يكون في جهة اما بنفسه واما بمحله ، وذلك مستحيل عليه ، يبين ذلك ان الواحد منا كما يحتاج الى حاسة البصر في الرؤية فكذا يحتاج الى ان يكون مايراه مقابلاً لحاسته" [٨] . وعلى هذا فقد اوّل المعتزلة كل نص يشير

---

(١) القاضي عبد الجبار ، مختصر اصول الدين : ٢١٤ .

(٢) المصدر السابق : ٢١٤ .

(٣) المصدر السابق : ٢١٤ .

(٤) المصدر السابق : ٢١٤ .

(٥) المصدر السابق : ٢١٥ .

(٦) المصدر السابق : ٢١٦ – ٢١٨ .

(٧) الانعام : ١٠٣ .

(٨) القاضي عبد الجبار ، شرح الاصول الخمسة : ٢٢٠ – ٢٢١ .

الى امكانية رؤيته – تعالى – كما في قوله – تعالى – : "وجوه يومئذ ناضرة الى ربها ناظرة" [1] . فقد اوّلوا النظر هنا بالانتظار اي انتظار رحمته ، وهذه واحدة من المسائل الشائكة عند المتكلمين .

٧– كون كلامه – تعالى – قديماً ، فقد نفى المعتزلة ان يكون كلامه – تعالى – صفة قديمة قائمة به – سبحانه – بل عدّوه فعلاً له "يحدثه ويخلقه في الاجسام اذا اراد مخاطبة الخلق بالامر والنهي والوعد والوعيد والزجر والترغيب ... وماكان من افعاله – تعالى – لايجوز ان يكون قديماً كما لايجوز ذلك في احسانه وسائر نعمه" [2] .
وقد استدلوا على قولهم هذا بعدة ادلة منها : "ان الكلام لايعقل ولايفيد الا بان يتوالى حدوث حروفه على نظم مخصوص ، وماهذا حاله محال ان يكون قديماً ، كما ان المشي لايعقل الا بتوالي حدوث الحركات فمحال قدمها مع ذلك" [3] ثم استدلوا بالنقل بمثل قوله – تعالى – : "ومن قبله كتاب موسى" [4] وهذا يوجب انه بعد غيره" و "وكان امر الله مفعولا" [5] ، والمفعول لايكون الا محدَثاً ووصفه – تعالى – لكتابه بانه ذكرٌ محدَث ، وبانه مفصل محكم ، وبانه عربي ، وكل هذا من علامات الحوادث والافعال [6] .

وعلى هذا فقد صرحوا بان القرآن مخلوق "وكما يجب ان تصف السموات والارضين وسائر افعاله – تعالى – بأنها مخلوقة فكذلك القول في كلامه" [7] ، ومن هنا بدأت المحنة العريضة التي فتنت فيها الامة وامتحن العلماء وسال الدم .

٨– كونه – تعالى – مريداً لذاته ، اذ ارادته عندهم فعله لاغير فليست هي صفة لله ، يقول القاضي : "والذي يدل على انه ليس بمريد لذاته انه كان يجب ان يكون حاله في كونه مريداً كحاله في انه عالم ، فكان يجب ان يريد كل مراد كما يعلم كل معلوم ، فيريد ان يحدث كل مانريده نحن ونتمناه ، وهذا خطأ" [8] .ثم يتفرع عن هذه المسألة "القضاء والقدر" وستأتينا بمبحث مستقل – ان شاء الله – .

هذه اهم الصفات التي سلّط المعتزلة عليها ادوات النفي ، ومن خلالها يتبين ان منهج المعتزلة في الغالب نفي ورد وجدل ، وذلك لطبيعة المرحلة التي عاشوها – والله اعلم – .

---

(١) القيامة : ٢٢ .

(٢) القاضي عبد الجبار شرح الاصول الخمسة : ٢٢٣ .

(٣) المصدر السابق : ٢٢٣ .

(٤) الاحقاف : ١٢ .

(٥) الاحزاب : ٣٧ .

(٦) القاضي عبد الجبار ، شرح الاصول الخمسة : ٢٢٤ .

(٧) المصدر السابق : ٢٢٥ .

(٨) المصدر السابق : ٢٢٧ .

الاشاعرة :

نستطيع ان نلخص منهج الاشاعرة في الصفات بنقاط مختصرة سريعة وكما يأتي :

أ- يثبت الاشاعرة سبع صفات لله - تعالى - وهي :

١- كونه - تعالى - قادراً ، ويستدلون بحدوث العالم ونظامه "لان العالم فعل محكم مرتب متقن منظوم مشتمل على انواع من العجائب والآيات ، وذلك يدل على القدرة" [١] .

٢- كونه - تعالى - عالماً : واستدلوا عليه بدليل الاولى : "فاذا تقرر ان الباري - تعالى - صانع العالم ، واستبان للعاقل لطائف الصنع ، واحاط بما تتصف به السموات والارض ومابينهما من الاتساق والانتظام والاتقان والاحكام فيضطر الى العلم بأنها لم تحدث الا من عالم بها ... وكذلك يعلم كل عاقل على البديهة ان الفعل الرصين المحكم المتين يستحيل صدوره من الجاهل به" [٢]

٣- كونه - تعالى - مريداً . ويستدلون على هذه الصفة بقولهم : "ان الفعل الصادر منه مختص بضروب من الجواز لايتميز بعضها من البعض الا بمرجّح ، ولاتكفي ذاته للترجيح لان نسبة الذات الى الضدّين واحدة ، فماالذي خصص احد الضدين بالوقوع في حال دون حال ؟ وكذلك القدرة لاتكفي فيه ، اذ نسبة القدرة الى الضدين واحدة ، وكذلك العلم ... لان العلم يتبع المعلوم ويتعلق به على ماهو عليه ولايؤثر فيه ولايغيّره ... فان اقتضت صفة الارادة وقوعه في وقت معين تعلق العلم بتعيين وجوده في ذلك الوقت لعلة تعلق الارادة به ، فتكون الارادة للتعيين علة ويكون العلم متعلقاً به تابعاً له غير مؤثر فيه [٣] .

٤- كونه - تعالى - حياً - . ويعتبرون هذه الصفة معلومة بالضرورة لمن آمن بالصفات السابقة "تدّعي انه - تعالى - حي وهو معلوم بالضرورة ، ولم ينكره احد ممن اعترف بكونه - تعالى - عالماً قادراً ، فان كون العالم القادر حياً ضروري" [٤]

٥- كونه - تعالى - سميعاً . وسيأتي الاستدلال عليها مع التالية .

٦- كونه - تعالى - بصيراً ويستدلون على هاتين الصفتين بنفي اضدادهما . يقول امام الحرمين الجويني - رحمه الله - : "والدليل على ان الباري - تعالى - سميع بصير على الحقيقة ان الافعال دالة على كونه حياً كما سبق تقريره ، والحي يجوز ان يتصف بكونه سميعاً بصيراً ، واذا خرج عن كونه سميعاً بصيراً لزم اتصافه بكونه مئوفاً ، اذ كل قابل لنقيضين على البدل لاواسطة بينهما يستحيل خلوه عنهما ، فاذا تقرر استحالة كونه مئوفاً تقرر اتصافه بكونه سميعاً بصيراً" [٥] .

---

(١) الغزالي ، الاقتصاد : ٥٣ . وانظر الغنية في اصول الدين : ٨٥ .

(٢) الجويني ، الارشاد : ٦٢ . وانظر ايضاً الغنية في اصول الدين : ٨٥ .

(٣) الغزالي ، الاقتصاد : ٦٥ - ٦٦ .

(٤) المصدر السابق : ٦٥ .

(٥) الجويني ، الارشاد : ٧٢ - ٧٣ . وانظر الغنية في اصول الدين : ٨٨ .

٧- كونه - تعالى - متكلماً ، ويستدلون على اثبات هذه الصفة بدليل اثبات كونه - تعالى - سميعاً بصيراً "الطريق الى اثبات العلم بكون الرب - تعالى - متكلماً عند اسنادنا نفي النقائص الى السمع وتوجيهنا على انفسنا السؤال عما يثبت للسمع" (١)

وهذه الصفة تعد من النقاط الساخنة في دائرة الصراع بين المدارس الكلامية وكما سيتضح - ان شاء الله - .

هذا وقد استدل الاشاعرة بالادلة النقلية على اثبات هذه الصفات من مثل قوله - تعالى - : "وهو على كل شئ قدير" (٢) . و "يعلم مافي السموات ومافي الارض" (٣) و "فعّال لما يريد" (٤) ، و "لا اله الا هو الحي القيوم" (٥) ، و "هو السميع البصير" (٦) و "وكلم الله موسى تكليما" (٧) (٨) .

ويجدر بنا هنا ان نستعجل الاشارة الى ان منهج الاشاعرة في علاقة هذه الصفات بالذات المقدسة - الآتي بيانه - قد ولّد عن هذه الصفات السبع سبعاً اخرى ، لانهم يرون ان الله - تعالى - قادر لابذاته وانما بصفة قديمة قائمة به ، فهو اذن قادر بقدرة ، وعالم بعلم ، ومريد بأرادة ، وحي بحياة ، وسميع بسمع ، وبصير ببصر ، ومتكلم بكلام . ولهذا يكون عندهم مجموع الصفات الحقيقية - اي التي لها معنى حقيقي بخلاف التي ليس لها معنى حقيقي مستقل اربع عشرة صفة .

ثم يتحدث الاشاعرة عن ست صفات اخرى ليست صفات على الحقيقة لانها لاتحمل معاني مستقلة وكمايأتي :

١- كونه - تعالى - موجوداً ، وهذه الصفة تسمى بالصفة النفسية اذ لم تضف معنى زائداً على النفس بل مقصودها اثبات النفس فهي "لازمة مابقيت النفس غير معللة بعلة قائمة بالموصوف" (٩) .

٢- كونه - تعالى - قديماً بمعنى انه ليس لوجوده بداية . فمقصود هذه الصفة سلب الحدوث عنه - تعالى - لذلك تسمى هذه الصفة والصفات الآتية بالصفات السلبية اذ مقصودها سلب النقيض عن الله فقديم اي ليس بحادث . واستدلوا على اثبات هذه

---

(١) الجويني ، الارشاد : ٩٩ . وانظر الغنية : ٨٩ .

(٢) التغابن : ١٠ .

(٣) آل عمران : ٢٩ .

(٤) البروج : ١٦ .

(٥) البقرة : ٢٥٥ .

(٦) الاسراء ١ .

(٧) النساء : ١٦٤ .

(٨) [illegible] ٨٩ والاقتصاد في الاعتقاد : ٧١ .

(٩) الجويني ، الارشاد [illegible] ٣ .

الصفة بقولهم : "انه لو كان حادثاً لافتقر الى محدِث ، وكذلك القول في محدثه وينساق ذلك الى اثبات حوادث لاأول لها" (١) .

٣- كونه - تعالى - باقياً : اي لايطرأ عليه العدم بعد ان ثبت وجوده وقدمه لان ماثبت قدمه استحال عدمه ، لانه لو انعدم لافتقر عدمه الى سبب فانه طارئ بعد استمرار الوجود في القدم (٢)

٤- كونه - تعالى - قائماً بنفسه ، ومعنى هذه الصفة انه - تعالى - مستغن عن المحل والمخصص ، والدليل على تنزه الله عن المحل والمخصص انه - تعالى - لو حل محلاً وافتقر وجوده اليه لكان المحل قديماً ، ولو افتقر الى مخصص لكان المخصص قديماً ، وتعدد القدماء باطل ، وقد قاد هذا بالطبع الى نفي المكان وتأويل النصوص الموهمة ذاك.

٥- كونه - تعالى - مخالفاً للحوادث لاشئ يماثله لافي ذاته ولافي صفاته وقد عرّف الجويني التماثل بقوله : " فالمثلان كل موجودين سد احدهما مسدّ الآخر ، وربما قيل في حدّهما : هما الموجودان اللذان يستويان فيما يجب ويجوز ويستحيل والاولى العبارة الاولى" (٣) . وقاد هذا الى انكار الكثير من الظواهر التي تشعر بالتماثل كالنزول والقرب والوجه والعين ...الخ .

٦- كونه - تعالى - واحداً لاشريك له . وقد تقدم الحديث عن هذه الصفة

وهكذا يكون مجموع الصفات التي يثبتها الاشاعرة لله - تعالى - عشرين صفة : سبعة معان ، وسبعة معنوية ، وواحدة نفسية ، وخمسة سلبية (٤) ، غير ان الصفات الحقيقية منها سبعة فقط ، وربما هذا هو ماعناه الغزالي - رحمه الله - حيث عقد مبحثاً خاصاً للصفات ولم يذكر فيه الا هذه السبعة ، فهو يقول : "القطب الثاني في الصفات ، وفيه سبعة دعاوى ، اذ ندعي انه - سبحانه - قادر عالم حي مريد سميع بصير متكلم فهذه سبعة صفات" (٥) .

ب- الاحكام المتعلقة بهذه الصفات :

وبعد ان اثبت الاشاعرة الصفات رأوا انفسهم مضطرين للحديث عن "صفات الصفات" وهذا مبحث في غالبه يحمل طابع الرد على المعتزلة ، وربما غيرهم في نقاط ساخنة من مبحث الصفات عموماً ، ولنر هذه الصفات او هذه الاحكام :

---

(١) المصدر السابق : ٣٢ . وانظر الغنية في اصول الدين : ٧٢ .

(٢) انظر الاقتصاد للغزالي : ٢٦ . وانظر الغنية في اصول الدين : ٨٩ - ٩٠ .

(٣) الجويني ، الارشاد : ٣٤ .

(٤) يقول صاحب السنوسية : :فما يجب لمولانا - جل وعز - عشرون صفة ، وهي الوجود والقدم ..." حاشية البيجوري على متن السنوسية : ١٥ - ١٦ ، وانظر المقاصد النووية : ٢١ .

(٥) الغزالي ، الاقتصاد : ٥٣ .

١- ان هذه الصفات ليست هي الذات ، بل هي زائدة على الذات ، كما انها ليست غير الذات"فان قيل : افتقولون : ان صفات الله - تعالى - غير الله - تعالى - ؟ قلنا : هذا خطأ ، فأنا اذا قلنا : الله - تعالى - فقد دللنا به على الذات مع الصفات لاعلى الذات بمجردها ، اذ اسم الله - تعالى - لايصدق على ذات قد لخلوها من صفات الالهية ، كما لايقال : الفقه غير الفقيه" [١] .

وواضح ان هذه النقطة رد على المعتزلة الذين تقدم قولهم في انكار المعاني الزائدة على الذات .

وقد توسع الاشاعرة في الاستدلال لهذا الحكم وفي الرد على المعتزلة وليس هنا محل التفصيل غير انا نستطيع ان نلخص ابرز ادلتهم :

الدليل الاول : "ان الحي منا لايجوز ان يكون حياً عالماً قادراً مريداً مع عدم الحياة والعلم والقدرة ... فوجب ان يكون الباري - سبحانه - ذا حياة وعلم وقدرة وارادة وكلام وسمع وبصر وانه لو لم يكن له شئ من هذه الصفات لم يكن حياً ولاعالماً ولاقادراً ..." [٢] "فلو جاز تقدير كون العالم عالماً دون علم لجاز تقدير العلم من غير ان يتصف محله بكونه عالماً" [٣] .

الدليل الثاني : "ان الفعل الدال على كون الفاعل عالماً قادراً لابد له من تعلق بمدلول ، وان مدلوله لايجوز ان يكون نفس الفاعل ووجوده" [٤] ، ومعنى هذا اننا لو قلنا : ان الله عالم بذاته لابعلم ، فان هذا يعني ان الذات هي العلم ، وان العلم هو الذات ، مع اننا نجد الفرق واضحاً بين مدلول الذات المجردة وبين مدلول "العالم" ، ثم لو كان الامر كذلك اي لو كان العلم هو الذات والقدرة هي الذات فهذا يقود بالضرورة الى ان العلم هو القدرة وقولنا عالم هو نفس قولنا قادر [٥] !! .

الدليل الثالث : استدلوا بالنقل كما في قوله - تعالى- : "انزله بعلمه" [٦] ، و "اولم يروا ان الله الذي خلقهم هو اشد منهم قوة" [٧] . والقو ة : القدرة [٨] .

٢- ان هذه الصفات قديمة : ؛ فانها ان كانت حادثة كان القديم - سبحانه - محلاً للحوادث ، وهو محال" [٩] ، هذا ولااعلم واحداً من المسلمين ادعى ان صفات الله -تعالى-

---

(١) الغزالي ، الاقتصاد : ٨٩ .

(٢) الباقلاني ، التمهيد : ٢٢٧ .

(٣) الجويني ، الارشاد : ٨٨ - ٨٩ .

(٤) الباقلاني ، التمهيد : ٢٢٨ .

(٥) انظر الغنية في اصول الدين : ٩٠ - ٩٣ .

(٦) النساء : ٦٦ .

(٧) فصلت : ١٥ .

(٨) الباقلاني . التمهيد : ٢٣٣ .

(٩) الغزالي ، الاقتصاد : ٩١ .

التي مرّت حادثة الا قول المعتزلة في صفة الكلام - ونحوها الارادة وستأتي - ، اذ انكروا ان يكون صفة لله ، وانما هو فعل لله ، متعلق بعلمه - تعالى - وقد مر معنا استدلالهم على هذا ، غير ان الاشاعرة يقولون : ان الكلام القديم الذي هو صفة لله انما هو الكلام النفسي وليس الحروف والاصوات ، فماأورده المعتزلة ينطبق على الاصوات والحروف اذ هي مخلوقة بتقدم بعضها على بعض ، اما الكلام النفسي وهذا هو الذي انكره المعتزلة فربما استشهد الاشاعرة عليه بقول الشاعر :

ان الكلام لفي الفؤاد وانما جعل اللسان على الفؤاد دليلاً

ولايبدو لي كبير خطر في هذا الخلاف ، غير ان المسألة اخذت ابعد مما تستحق فكانت "محنة خلق القرآن"[1] .

٣- ان هذه الصفات كلها قائمة بذاته ، لايجوز ان يقوم شئ منها بغير ذاته ، ويبدو ان هذه النقطة سيقت للرد على قول المعتزلة في الارادة . يقول الغزالي : "واما المعتزلة فانهم حكموا بان الارادة لاتقوم بذاته - تعالى - فانها حادثة وليس هو محلاً للحوادث"[2]

جـ- مايجوز في حقه - تعالى - :

وهذا المبحث قصد فيه ايضاً الرد على المعتزلة وغيرهم في بعض مامنعوه ، ولنر النقاط التي ركز عليها الاشاعرة في هذا المبحث :

١- انه - تعالى - يجوز له ان يفعل فلايمتنع عليه فعل ولايجب عليه ، ولخص الغزالي - رحمه الله - هذا بقوله : "وندعي في هذا القطب سبعة امور : ندعي انه يجوز لله - تعالى - ان لايكلف عباده ، وانه يجوز ان يكلفهم مالا يطاق ، وانه يجوز منه ايلام العباد بغير عوض وجناية ، وانه لايجب رعاية الاصلح لهم ، وانه لايجب عليه ثواب الطاعة وعقاب المعصية ، وان العبد لايجب عليه شئ بالعقل بل بالشرع ، وانه لايجب على الله بعثة الرسل ، وانه لو بعث لم يكن قبيحاً ولامحالاً بل امكن اظهار صدقهم بالمعجزة"[3] . وواضح ان كل هذه الدعاوي سيقت لبيان موقف الاشاعرة من قضية خلق افعال العباد ومسألة القضاء والقدر ولذلك سنؤجل الحديث عن هذا الى المبحث الآتي "القضاء والقدر" .

٢- انه - تعالى - يجوز ان يرى :

وهذا مبحث عظيم عند الاشاعرة يوسعون فيه القول استدلالاً ودفعاً للشبه ورداً على المخالفين ، وانظر مثلاً الى الباقلاني - رحمه الله - كيف يعقد باباً خاصاً لهذه المسألة "باب الكلام في جواز رؤية الله - تعالى - بالابصار"[4] ، ثم يأتي امام الحرمين

---

(١) انظر الباب الثالث من هذا البحث : ٢٦٤

(٢) الغزالي ، الاقتصاد : ٩٠ .

(٣) المصدر السابق : ١٠٢ .

(٤) الباقلاني ، التمهيد : ٣٠١

- رحمه الله - ليضع في كتابه "الارشاد" باباً خاصاً لهذه المسألة ايضاً "باب اثبات جواز الرؤية على الله - تعالى -" [1] ، وواضح ان لهذا الاهتمام دوافع ساعدت عليه ووسعت من دائرة هذه النقطة ، وقد يكون هذا على حساب بقية المسائل ، ولسنا هنا بصدد تسليط الضوء على هذه المساحة الواسعة وانما نومئ بالمثال الى نماذج من الاستدلال والرد وكمايأتي :

اولا : استدل الاشاعرة بدليل عقلي وهذه خلاصته : "فان قال قائل : فهل يجوز ان يرى القديم - سبحانه - بالابصار ؟ قيل له : اجل ، فان قال : فماالحجة في ذلك ؟ قيل له : الحجة في ذلك انه موجود - تعالى - ، والشئ انما يصح ان يرى من حيث كان موجوداً .. " [2] ويفصّل الغزالي هذا الدليل فيقول : "انا نقول ان الباري - سبحانه - موجود وذات ، وله ثبوت وحقيقة ، وانما يخالف سائر الموجودات في استحالة كونه حادثاً او موصوفاً بما يدل على الحدوث ، او موصوفاً بصفة تناقض صفات الالهية من العلم والقدرة وغيرهما . فكل مايصح لموجود فهو يصح في حقه - تعالى - ان لم يدل على الحدوث ولم يناقض صفة من صفاته ، والدليل عليه تعلق العلم به فانه لما لم يؤد الى تغير في ذاته ولاالى مناقضة صفاته ولاالى الدلالة على الحدوث سوّى بينه وبين الاجسام والاعراض في جواز تعلق العلم بذاته وصفاته ، والرؤية نوع علم لايوجب تعلقه بالمرئي تغير صفة ولايدل على حدوث" [3] .

ويورد المعتزلة شبهة على هذا الدليل خلاصتها ان هنالك فرقاً بين العلم والرؤية ، فالعلم بالشئ لايعني بالضرورة انه في حيز وجهة لكن الرؤية لاتصح الا لمواجهة متحيز امام حاسة الرؤية وهذا محال على الله - تعالى - [4] . وهنا يرد الاشاعرة بقولهم : "فنقول لم قلتم : انه ان كان مرئياً فهو بجهة من الرائي ؟ اعلمتم ذلك بضرورة ام بنظر ؟ ولاسبيل الى دعوى الضرورة ، واما النظر فلابد من بيانه ، ومنتهاهم انهم لم يروا الى الآن شيئاً الا وكان بجهة من الرائي مخصوصة ، فيقال : ومالم ير فلايحكم بأستحالته ، ولو جاز هذا لجاز للمجسم ان يقول : انه - تعالى - جسم لانه فاعل ، فاننا لم نر الى الآن فاعلاً الا جسماً" [5]

ثانياً : ثم استدل الاشاعرة بالنقل من مثل قوله - تعالى - : "وجوه يومئذ ناضرة الى ربها ناظرة" [6] . حيث يقولون : ان العرب لاتستخدم هذه الصيغة الا بمعنى الرؤية

---

(١) الجويني ، الارشاد : ١٦٦ .

(٢) الباقلاني ، التمهيد : ٣٠١ - ٣٠٢ .

(٣) الغزالي ، الاقتصاد : ٤٢ . وقد توسع الايجي في بسط هذا الدليل اكثر من غيره ، انظر المواقف : ٣٠٢، ٣٠٤ .

(٤) القاضي عبد الجبار ، شرح الاصول الخمسة : ٢٥٠ .

(٥) الغزالي ، الاقتصاد : ٤٢ . وانظر الغنية في اصول الدين : ١٤٤ ، فقد توسع في رد هذه الشبهة.

(٦) القيامة : ٢٢ .

البصرية[1] . وقد مر بنا تأويل المعتزلة لهذه الآية . غير ان الصراع جرى اشد في نحو قوله - تعالى - : "لاتدركه الابصار" وليس هنا محل تفصيل هذا الصراع غير اننا نستطيع القول مع كثرة ماجاء به الاشاعرة من تأويلات : ان المعتزلة لهم في هذه الآية وجهة نظر معتبرة ، وقولهم فيها هو الظاهر من النص بدليل احتجاج السيدة عائشة - رضي الله عنها - بهذه الآية على نفي صحة رؤية الرسول - صلى الله عليه وسلم - لربه ليلة الاسراء والمعراج ، ولنقرأ الحديث : عن مسروق - رضي الله عنه - قال : "كنت متكئاً عند عائشة فقالت : يا ابا عائشة ثلاث من تكلم بواحدة منهن فقد اعظم على الله الفرية ، قلت : ماهنّ ؟ قالت : من زعم ان محمدا - صلى الله عليه وسلم - رأى ربه فقد اعظم على الله الفرية ... او لم تسمع ان الله يقول : لاتدركه الابصار وهو يدرك الابصار" [2] ، فأم المؤمنين فهمت ان معنى الآية نفي الرؤية وهي اعلم بلغة القرآن ، مع ان ظاهر ادراك البصر هو الرؤية ، ولهذا لااميل الى تكلف الاشاعرة بقولهم : "فان عارضونا بقوله - تعالى - : "لاتدركه الابصار وهو يدرك الابصار" قلنا في الكلام على هذه الآية ... ان الرب - تعالى - لايدرك جرياً على ظاهر الآية ، بل يرى" [3] . بل ينشرح الصدر لقولهم : "ثم هذه الآية مطلقة غير مختصة بالاوقات وهي عامة فيها ، والآية التي استدللنا بها تنص على اثبات الرؤية في اوقات معلومة ، فيتجه في طرق التأويل حمل المطلق على المقيد ، فيحمل نفي الادراك على ايام الدنيا" [4] ، ويمكن على هذا تأويل قوله - تعالى -: "قال لن تراني" [5] اي في الدنيا اما في الآخرة "فوجوه يومئذ ناضرة الى ربها ناظرة" ويعضد هذه الآية قوله - عليه الصلاة والسلام - : "اذا دخل اهل الجنة الجنة قال : يقول الله - تبارك وتعالى - تريدون شيئاً ازيدكم فيقولون : الم تبيض وجوهنا ، الم تدخلنا الجنة وتنجنا من النار ، فقال : فيكشف الحجاب فماعطوا شيئاً احب اليهم من النظر الى ربهم - عز وجل - " [6]

د - مايستحيل عليه - تعالى - :

يذكر الاشاعرة ان الذي يستحيل عليه - تعالى - انما هو اضداد ماثبت له ، وقد مر معنا انهم يثبتون له - تعالى - عشرين صفة فأضدادها تكون عشرين ايضا . فسنذكرها من غير ذكر ادلتهم اكتفاء بذكر اضدادها فهي اذاً :

---

(١) الباقلاني ، التمهيد : ٣٠٣ .

(٢) صحـ - مسلم بشرح النووى : ٣/ ٨ .

(٣) الجويني ، الارشاد : ١٨٢ .

(٤) الجويني ، الارشاد : ١٨٣ .

(٥) الاعراف : ١٤٣ .

(٦) صحيح مسلم بشرح النووى : ٣/ ١٧ .

١- العدم لانهم اثبتوا لله - تعالى - صفة الوجود .
٢- الحدوث لانهم اثبتوا له - تعالى - صفة القدم .
٣- طروّ العدم لانهم اثبتوا له - تعالى - صفة البقاء .
٤- الشركة في الذات او في الصفات . لانهم اثبتوا له - تعالى - صفة الوحدانية.
٥- افتقاره الى محل او مخصص لانهم اثبتوا له - تعالى - صفة قيامه بنفسه .
٦- مشابهة الحوادث له . لانهم اثبتوا له - تعالى - صفة المخالفة للحوادث .
٧- العجز . لانهم اثبتوا له - تعالى - صفة القدرة .
٨- الاكراه . لانهم اثبتوا له - تعالى - صفة الارادة .
٩- الجهل ، لانهم اثبتوا له - تعالى - صفة العلم .
١٠- العمى ، لانهم اثبتوا له - تعالى - صفة البصر .
١١- الصمم ، لانهم اثبتوا له - تعالى - صفة السمع .
١٢- البكم ، لانهم اثبتوا له - تعالى - صفة الكلام .
١٣- الموت ، لانهم اثبتوا له - تعالى - صفة الحياة .

ثم هذه السبعة الاخيرة تصاغ صياغة اخرى لتقابل الصفات المعنوية السبعة فتقول مثلا : يستحيل عليه - تعالى - ان يكون عاجزا لانه ثبت كونه قادرا وهكذا .. فيكون المجموع عشرين صفة [(١)] ، غير انهم فصّلوا القول في بعض مايستحيل عليه - تعالى - لحاجة في نفس يعقوب ، لاسيما تلك الصفات التي تعد الاسباب الجوهرية لخلافات كلامية اوسع ، ولذلك ترى مثلا امام الحرمين وهو يعقد فصلا "فيما يستحيل اتصاف الله به" ينفي الصفات الآتية :

١- التحيز "ومذهب اهل الحق قاطبة ان الله - سبحانه وتعالى - يتعالى عن التحيز والتخصص بالجهات ، وذهبت الكرامية وبعض الحشوية الى ان الباري - - تعالى عن قولهم - متحيز مختص بجهة فوق - تعالى عن قولهم - ومن الدليل على فساد مانتحلوه ان المختص بالجهات يجوز عليه المحاذاة مع الاجسام ، وكل ماحاذى الاجسام لم يخل من ان يكون مساويا لاقدارها او لاقدار بعضها او يحاذيها منه بعضه ، وكل اصل قاد الى تقدير الاله او تبعيضه فهو كفر صراح" [(٢)] .

٢- الجسمية : " صرحت طوائف من الكرامية بتسمية الرب - تعالى عن قولهم - جسما ، وسبيل مفاتحتهم بالكلام ان نقول : الجسم هو المؤلَّف في حقيقة اللغة ... ثم

---

(١) يقول صاحب السنوسية : "ومما يستحيل في حقه - تعالى - عشرون صفة وهي اضداد العشرين الاولى . "السنوسية : ٢٤ . ويقول شارح الجوهرة : "يستحيل عليه - سبحانه - ضد ذي الصفات، المتقدمة باسرها ، نفسية كانت او سلبية ، معاني كانت ، او معنوية" شرح الجوهرة : ١٣٦-١٣٧ .

(٢) الجويني ، الارشاد : ٠٤٠ . واكثر من رأيته توسع في نفي هذه الصفة الامام الرازي ، انظر كتابه الاربعين في اصول الدين : ١٠٩-١١٣ .

نقول ان سميتم الباري – تعالى– جسما واثبتم له حقائق الاجسام فقد تعرضتم لامرين : اما نقض دلالة حدث الجواهر فان مبناها على قبولها للتأليف والمماسة والمباينة ، واما ان تطردوها وتقضوا بقيام دلالة الحدث في وجود الصانع ، وكلاهما خروج عن الدين وانسلال من ربقة المسلمين" [1] .

٣– قبوله – تعالى – للاعراض : "مما يخالف الجوهر فيه حكم الاله قبول الاعراض وصحة الاتصاف بالحوادث ، والرب – سبحانه وتعالى – يتقدس عن قبول الحوادث ، وذهبت الكرامية الى ان الحوادث تقوم بذات الرب – تعالى عن قولهم – .... والدليل على بطلان ماقالوه ، انه لو قبل الحوادث لم يخل منها ... ومالم يخل من الحوادث لم يسبقها ، وينساق ذلك الى الحكم بحدث الصانع" [2] .

هذه صورة نصية تكشف بعض جوانب الخلاف ومادى اليه من توسعة لدائرة البحث ، ثم بُعد الشقة بين المدارس الكلامية التي وصلت الى حد تكفير بعضها البعض ، ولنزدد الآن بيانا بالنقطة الاخيرة :

هـ – موقف الاشاعرة من الصفات الخبرية :

مر معنا في مبحث "الاسماء والصفات" في القرآن الكريم ان هناك بعض النصوص جاءت ظواهرها واصفة الله – تعالى – بصفات ليست لها في الغالب علاقة باسمائه – تعالى – ، بل لقد ولّد ظاهرها اشكالات كثيرة ، وصراعات مريرة بين المتلكمين وربما حتى ضمن المدرسة الواحدة ، وقسمناها هناك الى اقسام ، ووضحنا طريقة القرآن في عرضها وصياغتها ، ثم رأيت ان اؤخر الحديث عنها حتى نصل الى الاشاعرة ، لان المعتزلة يشاركون الاشاعرة في موقفهم من هذه الظواهر من حيث المنهج ، ثم ان المعتزلة لم تكن مشكلتهم الاولى هي "الصفات الخبرية" وانما هذه برزت كمشكلة داخلية لدى اهل السنة والجماعة ، وقد تناولت هذا مفصلا في رسالة الماجستير "الصفات الخبرية عند اهل السنة والجماعة" . ولهذا سنختصر الكلام هنا في الآتي :

أ – من الممكن القول : ان منهج الاشاعرة العام هو تأويل هذه النصوص ، ولنأخذ نماذج كاشفة :

١– اوّل الاشاعرة الاستواء بمعان كثيرة منها : القهر والغلبة والاستيلاء . يقول الجويني : "فذهب بعضهم الى ان المراد بالاستواء : الاقتدار والقهر والغلبة وذلك سائغ في اللغة شائع فيها ، اذ القائل يقول : استوى الملك على الاقليم اذا احتوى على مقاليد الملك فيه" [3] . ويقول الغزالي : "وليس ذلك الا بطريق القهر والاستيلاء" [4] .

---

(١) الجويني ، الارشاد : ٤٣ . وانظر الجام العوام للغزالي : ٥٥ . حيث شدد النكير على المجسمة حتى وصمهم بالكفر ، وشبههم بعباد الاصنام . وانظر المسامرة بشرح المسايرة : ٢٧ .

(٢) الجويني : الارشاد : ٤٥ . وانظر المواقف : ٢٧٧–٢٧٨ ، وانظر المسامرة : ٢٩ .

(٣) الجويني ، الشامل ٣٥٥ .

(٤) الغزالي قواعد العقائد : ١٦١ .

٢- واولوا ماظاهره الاعضاء ، فقالوا في الوجه انه الذات او القبلة في آية القبلة او العمل الصالح وغير هذا ولنقرأ هذه النماذج : يقول عبد القاهر البغدادي - رحمه الله - : "واما قوله : "ويبقى وجه ربك" فمعناه ويبقى ربك"[1] ويقول الجويني : "واما قوله - تعالى - "ويبقى وجه ربك ذو الجلال والاكرام" الرحمن/ ٧٨ ، فلاوجه لحمل الوجه على صفة ، اذ لاتختص بالبقاء بعد فناء الخلق صفة لله - تعالى - بل هو الباقي بصفاته الواجبة ، فالاظهر حمل الوجه على الوجود ، وقيل المراد بالوجه الجهة التي يراد بها التقرب الى الله - تعالى - يقال : فعلت ذلك لوجه الله - تعالى - ، معناه لجهة امتثال امر الله ، فالمعني بالآية ان كل مالم يرد به وجه الله محبط"[2] .

وقالوا في العين : انها الرؤية او العناية ونحو هذا ، يقول البغدادي : "ولتصنع على عيني ، اي على رؤية مني"[3] ويقول الجويني : والمعنى بالآية انها تجري بأعيننا ، وهي منا بالمكان المحوط بالملئكة والحفظ والرعاية ، يقال : فلان بمرأى من الملك ومسمع اذا كان بحيث تحوطه عنايته وتكتنفه رعايته"[4] .

وقالوا في اليد انها القدرة او النعمة - بحسب موضعها -[5] ، وعلى العموم فلايوجد نص يشير الى اضافة الاعضاء اليه - تعالى - الا اولوه بمعنى يقرب او يبعد .

٣- واولوا كل ماظاهره قيام الحوادث به - تعالى - كالاعراض الطارئة من مجيء ونزول وضحك وغضب ونحو هذا . وهذه نماذج من كلامهم :

يقول الجويني : ومما يسأل عنه قوله - تعالى - : "وجاء ربك والملك صفا صفا"[6] ، وكذلك قوله - تعالى - : "هل ينظرون الا ان يأتيهم الله في ظلل من الغمام والملئكة"[7] ، وليس المعنى بالمجيء الانتقال والزوال ، تعالى الله عن ذلك ، بل المعنى بقوله: "وجاء ربك" اى جاء امر ربك وقضاؤه الفصل وحكمه العدل"[8] . ويقول البغدادي : "اجمع الموحدون على نفي الآفات والغموم والآلام واللذات عن الله - تعالى - ... ثم يقول : الفرح بمعنى الرضا كقوله : "كل حزب بما لديهم فرحون"[9] اي راضون وهذا معنى الفرح المضاف الى الله - تعالى - في توبة عبده . والضحك المضاف اليه على معنى الابانة

---

(١) البغدادي ، اصول الدين : ٧٦ .

(٢) الارشاد : ١٥٧ .

(٣) البغدادي ، اصول الدين : ١١٠ .

(٤) الجويني ، الارشاد : ١٥٧ .

(٥) النووي ، صحيح مسلم بشرح النووي : ٢٠٤/١٦ . وانظر الشامل للجويني : ٥٦٤ .

(٦) الفجر : ٢٢ .

(٧) البقرة : ٢١٠ .

(٨) الجويني ، الارشاد : ١٥٩-١٦٠ .

(٩) المؤمنون : ٥٣ .

والاظهار من قولهم : هذا طريق ضاحك ، اذا كان بيّنا واضحاً [1] .

ولايحتاج القاريء الى طول نظر ليربط بين هذه التأويلات وبين النقطة السابقة التي نفى فيها الاشاعرة الجسمية والتحيز وقبوله - تعالى - للاعراض .

غير ان الذي ينبغي ان لايفوتني هو ان الاشاعرة ليسوا كلهم سواء في مقام التأويل ، بل لقد ورد عن أئمتهم الاوائل مايشير الى الاثبات او التفويض ، فهذا مثلا ابو الحسن الاشعري نفسه يقول : "وان الله - سبحانه - على عرشه ... وان له يدين بلا كيف .... وان له عينين بلا كيف" [2] ، ويقول الباقلاني : "فان قال قائل : فماالحجة في ان لله - عز وجل - وجها ويدين ؟ قيل له : قوله - تعالى - : "ويبقى وجه ربك ذو الجلال والاكرام" [3] وقوله : "مامنعك ان تسجد لما خلقت بيدي" [4] فأثبت لنفسه وجها ويدين" [5] .

ومع هذا فقد طغى على مذهب الاشاعرة التأويل [6] مما انشب معركة طويلة الامد مع المدرسة التيمية والى اليوم [7] .

ابن حزم :

ان منهج ابن حزم - رحمه الله - في الاسماء والصفات تعلوه ضبابية كثيفة ، وقد يكون هذا واحدا من الاسباب التي ساهمت في عزل آرائه وانحصارها ، فحينما نقرأ

(١) البغدادي ، اصول الدين : ٧٩-٨٠ .

(٢) ابو الحسن الاشعري ، مقالات الاسلاميين : ٣٢٠ .

(٣) الرحمن : ٢٧ .

(٤) ص : ٧٥ .

(٥) الباقلاني ، التمهيد : ٢٩٥-٢٩٦ .

(٦) وهذا واضح في كتب التفسير الاشعري بالاضافة الى كتب الكلام، وخذ مثلا تفسير الرازي فلا تكاد تجد آية من هذا النوع الا واوّلها ، انظر تأويله للاستواء : ١/١٥٥ . والوجه : ٢٩/٢٤٦ . والقبضة واليمين : ٢٧/١٥-١٦ . واليد : ١٢/٤٣ . ونحو هذا كثير لايحصى ، وانتشر التأويل عند اغلب المفسرين ، حتى ممن لم يعرفوا باتجاههم الاشعري ، ولذا وهم المغراوي مرتين : الاولى : حينما تهجم على الاشاعرة ووصمهم بالضلال ، والثانية حينما عدّ كل المؤولين اشاعرة ، اسمع له وهو يقول : "والمفسرون الاشعريون الذين يضمهم هذا الباب هم : القرطبي ، الثعلبي ، ابن عطية ، ابن الجوزي ، الرازي ، البيضاوي ، النسفي ، الخازن ، ابو حيان ، الثعالبي ، الجلالين ، الخطيب الشربيني ، ابو السعود ، الشوكاني ، الالوسي ، اسماعيل حقي ، السيد قطب ، المراغي ، فريد وجدي ، محمود حجازي ، الصابوني ، وهذا على سبيل المثال ، لاعلى سبيل الحصر والاستقراء". المفسرون بين التأويل والاثبات في آيات الصفات : ١/١٣ . واما تضليله لهؤلاء جميعا فمنتشر في جميع كتابه ، ويكفي ان تقرأ ماكتبه تحت عنوان : "هل الاشعرية من اهل السنة والجماعة" المصدر السابق : ١/٤٥ .

(٧) معركة الصفات اليوم معركة حامية تدور بين المجوزين للتأويل والمانعين له ، وقد مرّ آنفا قول المغراوي ، ويكفي هذا مثالا على فريق المانعين ، واما خصومهم ! فيكفي ان تضع يدك على رأسك لتقرأ : "القام الحجر للمتطاول على الاشاعرة من البشر" للشيخ حسن السقاف الذي يبدؤه بقوله "الحمد لله الذي اختص الاشاعرة بحمل راية التوحيد وعقيدة الاسلام" !!!
ولا ادري من يدير هذه المعركة ، ولصالح من ؟

للمتكلمين في هذا المبحث لانكاد نجدهم يشيرون الى رأي ابن حزم ، مع انه تكلم كثيرا فيه ، صحيح ان اغلب كلامه نقد ورد لكنه يحوي منهجا مستقلا قد نستطيع ان نبدد عنه بعض الضباب من خلال النقاط المختصرة التالية :

١- ينفي ابن حزم مصطلح "الصفات" جملة وتفصيلا ، ويشنع على القائلين به بقوة وعنف ، واقرأ معي : "واما اطلاق لفظ الصفات لله - تعالى عز وجل - فمحال لايجوز لان الله - تعالى - لم ينص قط في كلامه المنزل على لفظة الصفات ولاعلى لفظ الصفة ولاحفظ عن النبي - صلى الله عليه وسلم - بان لله - تعالى - صفة او صفات .. فلايجوز القول بلفظ الصفات ولااعتقاده بل هي بدعة منكرة ، قال الله - تعالى - : "ان هي الا اسماء سميتموها انتم وآباؤكم ماانزل الله بها من سلطان ان يتبعون الا الظن وماتهوى الانفس ولقد جاءهم من ربهم الهدى" [١] [٢] .

والحقيقة اني كنت اظن ان مقصود ابن حزم نفي المصطلح لانفي المعنى لكني اقتنعت انه ينكر حقيقة الصفات ايضا ولننظر في النقطة الثانية :

٢- يرى ابن حزم ان كل اسم لله فهو اسم علم ليس مشتقا . فهي على كثرتها لاتدل الا على الذات ، دون معنى اخر ، وقد ذهب بهذا ابعد من المعتزلة ، ولنقرأ قوله : "وجملة ذلك اننا لانسمي الله - عز وجل - الا بما سمى به نفسه ، ولم يسم نفسه علما ولاقدرة فلايحل لاحد ان يسميه بذلك ، واما قولهم : هل يفهم من قول القائل : الله ، كالذي يفهم من قوله : عالم فقط ، او يفهم من قوله : عالم ، غير مايفهم من قوله : الله ، فجوابنا وبالله - تعالى - نتأيد : اننا لانفهم من قولنا : قدير وعالم اذا اردنا بذلك الله - تعالى - الا مانفهم من قولنا : الله ، فقط . لان كل ذلك اسماء اعلام لامشتقة من صفة اصلا [٣] . وربما اغرب اكثر حينما قال : فان قالوا : اتقولون : لم يزل الله خالقا خلاقا رازقا ؟ قلنا : لانقول هذا ، لان الله - تعالى - لم ينص على انه كان خالقا ، خلاقا ، رازقا . لكنا نقول : لم يزل الخلاق الرزاق ولم يزل الله - تعالى - لايخلق ولايرزق ثم خلق ورزق من خلق ، وهذا يوجب ضرورة انها اسماء اعلام لامشتقة ، لانه لو كان خالق ورازق مشتقين من خلق ورزق لكان لم يزل ذا خلق يخلقه ويرزقه" [٤] .

٣- واذا كان هذا هو موقفه من اسمائه - تعالى - البينات الواضحات . فماهو موقفه من الصفات الخبرية ؟ ان ابن حزم يشن حملة كبيرة على المؤولين لكنه يرجع في نهاية المطاف الى تأويل ربما يكون ابعد في التأويل من تأويل المؤولين !! ولنر نماذج من ذلك :

---

(١) النجم : ٢٣ .

(٢) ابن حزم ، الفصل : ٢/١٢٠-١٢١ .

(٣) المصدر السابق : ٢/١٢٨-١٢٩ .

(٤) المصدر السابق : ٣/١٤٤ .

أ – الاستواء : يرد ابن حزم على من اوله على معنى الجهة والمكان ، ثم يرد على من اوله بالاستيلاء . ثم يرد على من اوله بانه صفة ذات ومعناه نفي الاعوجاج ، ويصم هذه الاقوال كلها بالفساد لكنه يرجع ليقول : "ان معنى قوله – تعالى – على العرش استوى : انه فعل فعله في العرش وهو انتهاء خلقه اليه فليس بعد العرش شيء"[1] . فيكون المعنى عنده : الرحمن على العرش انتهى ، وهذا تأويل ربما ابعد من التأويل .

ب – الوجه : يرد ابن حزم على المشبهة الذين اخذوا بالظاهر ، ويرد على من قال : انه : الله ، "وقال ابو الهذيل : وجه الله هو الله . وهذا لاينبغي ان يطلق لانه تسمية وتسمية الله – تعالى – لاتجوز الا بنص "وبعد هذا فماالذي سيقوله هو ؟ لنقرأ : "وقال الاخرون : وجه الله – تعالى – انما يراد به الله – عز وجل – وهذا هو الحق الذي قام البرهان بصحته"[2] .

ربما استطعنا ان نقدم من خلال هذه النقاط معالم مهمة من منهج ابن حزم في الاسماء والصفات فلنكتف بهذا ولننتقل الى منهج آخر ربما يكون على الضد منه .

ابن تيمية :

يؤكد ابن تيمية – رحمه الله – على ان منهجه في الاسماء والصفات هو منهج نصي فماثبته النص اثبته ومانفاه نفاه ، واسمع اليه وهو يقول : "فاما الاول وهو التوحيد في الصفات فالاصل في هذا الباب ان يوصف الله بما وصف به نفسه ، وبما وصفته به رسله نفيا واثباتاً ، فيثبت لله ماأثبته لنفسه ، وينفي عنه مانفاه عن نفسه"[3] .

على هذا كان ينبغي ان يريحنا شيخ الاسلام من تفصيل منهجه بعدما فصلنا منهج القرآن ، غير اننا في الحقيقة نجد انفسنا مضطرين لتفصيل منهج ابن تيمية ومن خلال الاصول التي وضعها هو في مبحث الاسماء والصفات ، صحيح ان ابن تيمية حاول ان يثبت مصداقيته اكثر فجاء بمنهج يتسع تقريبا لكل ماجاء في النص من الاسماء والصفات الا انه في خضم الصراع والجدال اضطر ابن تيمية ان يضع لنفسه منهجا خاصا لن نستطيع الان ان نفصله في هذه العجالة لكننا قد نستطيع الاشارة اليه من خلال الاصول التي وضعها بنفسه لمنهجه :

الأصل الأول : ان اثبات الصفات واجب على التفصيل ، ونفي مالايليق بالله على الاجمال ، فتراه يقول : "والله – سبحانه – بعث رسله باثبات مفصل ونفي مجمل"[4] ثم

---

(١) المصدر السابق : ٣/ ١٢٥ .

(٢) المصدر السابق : ٣/١٦٦ .

(٣) ابن تيمية ، مجموع الفتاوي : ٣/٣ . وانظر الرسالة التدمرية : ٤ .

(٤) المصدر السابق : ٣/٤ .

يشرح هذا الاصل ويسرد كثيرا من نصوص الصفات الخبرية ، ثم يقول "الى امثال هذه الآيات والاحاديث الثابتة عن النبي – صلى الله عليه وسلم – في اسماء الرب – تعالى – وصفاته فان في ذلك من اثبات ذاته وصفاته على وجه التفصيل" [١] .

الاصل الثاني : انه ينبغي معاملة الاسماء والصفات معاملة واحدة فلانفرق مثلا بين القدرة والارادة والعلم من جهة وبين الوجه واليدين والقدم من جهة ثانية . يقول ابن تيمية : "القول في بعض الصفات كالقول في بعض فان كان المخاطب ممن يقول : بان الله حي بحياة ، عليم بعلم ، قدير بقدرة ، سميع بسمع ، بصير ببصر ، متكلم بكلام ، مريد بارادة ، ويجعل ذلك كله حقيقة وينازع في محبته ورضاه وغضبه وكراهته فيجعل ذلك مجازا ... فيقال له : لافرق بين مانفيته وبين مااثبته ، بل القول في احدهما كالقول في الآخر" [٢] .

الاصل الثالث : "ان القول في الصفات كالقول في الذات ، فان الله ليس كمثله شيء لافي ذاته ولافي صفاته ولافي افعاله ، فاذا كان له ذات حقيقة لاتمثل الذوات ، فالذات متصفة بصفات حقيقية لاتماثل سائر الصفات" ويوضح ابن تيمية هذا الاصل بقوله : "وكذلك اذا قال : كيف ينزل ربنا الى السماء الدنيا ؟ قيل له : كيف هو ؟ فاذا قال : لااعلم كيفيته ، قيل له : ونحن لانعلم كيفية نزوله ، اذ العلم بكيفية الصفة يستلزم العلم بكيفية الموصوف ، وهو فرع له وتابع له فكيف تطالبني بالعلم بكيفية سمعه وبصره وتكليميه واستوائه ونزوله وانت لاتعلم كيفية ذاته ؟" [٣] .

الاصل الرابع : ان كل مافي القرآن ظاهر بيّن المعنى ولايمكن ان يكون القرآن او بعض آياته غامضة ولهذا فماورد من الاسماء والصفات في القرآن الكريم ينبغي الاخذ بظاهره ولايصح ان يقال : ان ظاهرها ليس مرادا . اسمع قوله : "اذا قال القائل : ظاهر النصوص مراد او ظاهرها ليس بمراد ؟ فانه يقال : لفظ الظاهر فيه اجمال واشتراك فان كان القائل يعتقد ان ظاهرها التمثيل بصفات المخلوقين او ماهو من خصائصهم فلاريب ان هذا غير مراد ، ولكن السلف والائمة لم يكونوا يسمون هذا ظاهرها ، ولايرتضون ان يكون ظاهر القرآن والحديث كفرا وباطلا ، والله – سبحانه وتعالى – اعلم واحكم من ان يكون كلامه الذي وصف به نفسه لايظهر منه الا ماهو كفر او

---

(١) المصدر السابق : ٣/٧ .

(٢) المصدر السابق : ٣/١٧ .

(٣) المصدر السابق : ٣/٢٥ .

ضلال" [1] . وقد يساعدنا في فهم هذا الاصل تفسير ابن تيمية للمحكم والمتشابه فهو مندرج تحت هذا الاصل ، يقول - عليه الرحمة - : "القرآن كله محكم بمعنى الاتقان ، فقد سماه الله حكيما بقوله : الر تلك آيات الكتاب الحكيم" [2] ... واما التشابه الذي يعمه فهو ضد الاختلاف المنفي عنه في قوله : " ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا" [3] ... فالتشابه هنا : هو تماثل الكلام وتناسبه ، بحيث يصدق بعضه بعضا ، فاذا امر بأمر لم يأمر بنقيضه في موضع آخر ، بل يأمر به او بنظيره او بملزوماته ، واذا نهى عن شيء لم يأمر به في موضع آخر ، بل ينهى عنه او عن نظيره ، او عن ملزوماته ، اذا لم يكن هناك نسخ ، وكذلك اذا اخبر بثبوت شيء لم يخبر بنقيض ذلك ... فهذا التشابه العام لاينافي الاحكام العام بل هو مصدّق له" [4] .

وهذا كله قاد ابن تيمية - رحمه الله - الى ان يقول : "وهؤلاء الذين ينفون التأويل مطلقا ، ويحتجون بقوله - تعالى - : "ومايعلم تأويله الا الله" [5] . قد يظنون انا خوطبنا في القرآن بما لايفهمه احد ، او بما لامعنى له ، او بما لايفهم منه شيء ، وهذا مع انه باطل فهو متناقض" [6] ثم يقول موضحا : "فمن المحال في العقل والدين ان يكون السراج المنير الذي اخرج الله به الناس من الظلمات الى النور ، وانزل معه الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه .... محال مع هذا وغيره ان يكون قد ترك باب الايمان بالله ، والعلم به ملتبسا مشتبها ، ولم يميّز بين مايجب لله من الاسماء الحسنى والصفات العليا ، ومايجوز عليه ، ومايمتنع عليه ، فان معرفة هذا اصل الدين واساس الهداية وافضل وأوجب مااكتسبته القلوب وحصلته النفوس وادركته العقول ، فكيف يكون ذلك الكتاب وذلك الرسول وافضل خلق الله بعد النبيين لم يحكموا هذا الباب اعتقادا وقولا" [7] ، وبهذه النقولات تبين مراده من الاصل هذا - والله اعلم - .

نظرة في هذه الاصول :

ان الوقفة مع هذه الاصول مهمة لاسيما وان هذه الاصول تمثل منهجا لازال حيا حيويا قادرا على اقناع شريحة واسعة من المسلمين ، ولهذا سيكون لنا مع كل اصل وقفة سريعة وبحسب تسلسل الاصول :

---

(١) المصدر السابق :٣/٤٣ .

(٢) يونس : ١ .

(٣) النساء : ٨٢ .

(٤) ابن تيمية ، مجموع الفتاوى : ٣/٦٠-٦١ .

(٥) آل عمران : ٧ .

(٦) ابن تيمية ، مجموع الفتاوى : ٣/٦٧ .

(٧) المصدر السابق : ٥/٦ .

الوقفة الاولى : ان هذا الاصل صحيح الى حد مالاسيما اذا قارنا مجموع الاسماء والصفات التي اثبتها القرآن بمجموع مانفاه القرآن عن الله . لكنه لنا ملاحظتان على هذا الاصل ؛ الاولى : ان القرآن فصل في النفي - كما مرّ معنا - لاسيما فيما يحتاج الى النفي مثل : نفي الشريك والشبيه والولد والوالد ونفي النوم والسنة واللغوب والنسيان ، وهذه ليست على سبيل الحصر وانما ذكرت في معرض الرد او كأمثلة على التنزيه فلايمكن حينما نسأل مثلا : هل الله - سبحانه - يجوع ؟ ان نقول لاندري لان النص لم ينف هذا ، يعضد هذه الملاحظة الآتية : الثاني : ان النفي المجمل مثل قوله - تعالى - : ليس كمثله شيء"[1] يصبح عديم الفائدة اذا لم يطبق على جزئياته ، فالقرآن حينما نفى اجمالا فللاختصار لانه ليس من الحكمة ان يسرد القرآن كل صفة لاتليق بالله فهي ليست لها حصر ، ولهذا نرى ابن تيمية نفسه يخرج عن هذا الاصل فتراه يقول : "والكبد والطحال ونحو ذلك هي اعضاء الاكل والشرب فالغني المنزه عن ذلك منزه عن آلات ذلك بخلاف اليد فانها للعمل والفعل ، وهو - سبحانه - موصوف بالعمل والفعل"[2] .

واغلب الظن ان ابن تيمية رأى في النفي المفصل ماقاد فعلا الى تأويل الكثير من نصوص الصفات ، فالذي ينفي عن الله التركيب والتجسيم والتحيز لابد ان يؤول الاستواء والوجه واليدين ... الخ .

الوقفة الثانية : وهذا الاصل لايستقيم ، فالصفات لايمكن ان تعامل معاملة واحدة ، اذ ان القاريء لنصوص الصفات يجد بوضوح الفوارق الآتية :

١- ان من الصفات مايدركه العقل مع وجود النص ، فالقدرة والعلم والحياة ونحوها صفات يثبتها العقل مع وجود النص بها ، بينما مثل الوجه واليدين والعين لايدركها العقل بل ربما يحيل ظاهرها .

٢- اذا تركنا العقل جانبا واتجهنا الى النص نفسه ، فالنص مختلف من حيث وروده ودلالته ، فبعض نصوص الصفات جاءت قطعية الورود قطعية الدلالة مثل "ان الله على كل شيء قدير" "فاعلم انه لا اله الا الله" . بينما جاءت نصوص اخرى في الصفات ظنية الورود او ظنية الدلالة ، فمثال ظنية الورود احاديث الآحاد التي جاء فيها اضافة الضحك لله "[3] ، وظني الدلالة مثل قوله - تعالى - يوم يكشف عن ساق"[4] ، وظنية الورود والدلالة مثل احاديث الآحاد التي تحمل اكثر من معنى كما في قوله - عليه الصلاة

---

(١) الشورى : ١١ .

(٢) ابن تيمية ، مجموع الفتاوى : ٨٦/٣ .

(٣) انظر الرد على المريسي لابي سعيد الدارمي : ٥٣٠ .

(٤) القلم : ٤٢ .

والسلام - : "ان الله خلق آدم على صورته" [١] . فكيف نعاملها معاملة واحدة ؟ ! وكيف نعامل ماجاء النص لاجله مثل : "فاعلم انه لا اله الا الله" مع مالم يأت النص له بل جاء لغيره كما في قوله - تعالى - عن سفينة نوح - عليه السلام - : "تجري بأعيننا" [٢] . اذ الحديث عن السفينة وليس في مجال تقرير الصفات - والله اعلم - .

٣- اشتقاق الاسماء الحسنى من بعض الصفات يمنحها قوة اضافية ، فمثلا انت تقول في دعائك : يارحمن ياودود ياغفور . لكنك لاتقول يامستوي ويانازل وياضاحك ، فلايمكن ان تكون هذه بقوة تلك .

٤- شيوع الخلاف في بعض الصفات دون بعض يجعلها ليست متساوية فمثلا لايوجد مسلم يقول : ان الله ليس غفوراً او ليس بعالم ، بينما نجد الخلاف في بعض الصفات قائما حتى ضمن المدرسة الواحدة ، ولنأخذ هذين المثالين :

المثال الاول : يقول ابن خزيمة - رحمه الله - وهو من أئمة الاثبات المعروفين : توهم بعض من لم يتحر العلم ان قوله : على صورته" يريد صورة الرحمن - عز ربنا وجل - عن ان يكون هذا معنى الخبر ... فتفهّموا - رحمكم الله - معنى الخبر ، لاتغلطوا ولاتغالطوا ، اقتصدوا عن سواء السبيل وتحملوا القول بالتشبيه الذي هو ضلال" [٣] . وقد ايده على قوله هذا في نفي الصورة عن الله جمهور العلماء ، بينما ورد عن ابن قتيبة - رحمه الله - قوله : "والذي عندي - والله اعلم - ان الصورة ليست بأعجب من اليدين والاصابع والعين ... ونحن نؤمن بالجميع ولانقول في شيء منه بكيفية ولاحد" [٤] .

المثال الثاني : في قوله - تعالى - : "فأينما تولوا فثم وجه الله" فيرى جمهور العلماء انه : قبلة الله ، وهذا رأي ابن عباس وعكرمة ومجاهد والشافعي وابن تيمية ، وهذا نص قول ابن تيمية - رحمه الله - : "قد قال مجاهد والشافعي : يعني قبلة الله ، فقلت : نعم هذا صحيح عن مجاهد والشافعي وغيرهما ، وهذا حق وليست هذه الآية من آيات الصفات ، ومن عدها في الصفات فقد غلط" [٥] ، ثم انظر بعد هذا الى قول عثمان بن سعيد الدارمي :"ثم زدتم عليها فادعيتم ان وجه الله مخلوق اذ ادعيتم أنه وجهه وجه القبلة" [٦] . والى قول ابن القيم رادا على شيخه ومن سبقه : "انه لايعرف اطلاق وجه الله

---

(١) مسلم ، صحيح مسلم بشرح النووي : ١٦/١٦٥-١٦٦ . ولذا اختلفت آراء النصيين انفسهم فيه ، فاثبته ابن قتيبة على ظاهره ، تأويل مختلف الحديث : ١٤٥ . واوله الآخرون كابن خزيمة ، التوحيد واثبات الرب : ٢٨ .

(٢) القمر : ١٤ .

(٣) ابن خزيمة ، التوحيد واثبات صفات الرب : ٢٧ . وانظر نحو هذا لابن فورك ، مشكل الحديث : ١٥-١٦.

(٤) ابن قتيبة : تأويل مختلف الحديث : ١٤٥ .

(٥) ابن تيمية ، مجموع الفتاوى : ٣/١٩٣ .

(٦) الدارمي ، الرد على المريسي : ٥٢٠ .

على القبلة لغة ولاشرعا ولاعرفا" [1] .

٥- الفائدة العملية لاخبارنا ببعض الاسماء والصفات واضحة جلية فاسم الله "العليم" يبعث فيك روح المراقبة ، واسمه "الرحمن" يبعث فيك حس الرجاء والحياء الدافع الى العمل الطيب ، واسمه "الجبار" يبعث فيك حس الخوف .. وهكذا ، ولكن ما الفائدة العملية لاخبارنا بان له يدا واعينا وقدما .. الخ . ولذلك عرض القرآن لتلك الصفات لم يكن كعرضه لهذه - والله اعلم - .

وبهذه الفوارق الخمسة لااجد هذا الاصل مستقيما - والله اعلم - .

الوقفة الثالثة : ان جعل الصفات تابعة للذات من حيث انك كما لاتدرك الذات فمن اولى ان لاتدرك الصفات لايخلو من اضطراب وركاكة ، فالصفات في اللغة كاشفة للذات ، فحينما نذكر اسم شخص لآخر لايعرفه فنبدأ بوصفه لكي يعرفه ، فالصفات هي التي تقودنا الى معرفة الذات ، فاذا قال لك صاحبك اني اجهل هذا الشخص فمن باب اولى ان اجهل صفاته ، يكون كلامه غير مستقيم ، اذ وظيفة الصفات التبيين والتمييز ، فلو قلنا لشخص "الله" ولم يكن سمع بهذه الكلمة من قبل ، فسيقول : مامعنى هذا الاسم ؟ وسيكون الجواب مثلا : انه خالق السموات والارض العليم القدير .. الخ فسيفهم المقصود ، ولذلك ينبغي ان تكون الصفات واضحة والا فقدت وظيفتها ، لكن الذي يستقيم لابن تيمية ان يقول : ان جهالة الابعاض والاعضاء كجهالة الذات او هي من باب اولى ، وربما كان هذا هو الذي ببال ابن تيمية يوم ان وضع الاصل هذا ، فنحن لانعرف كيفية الوجه واليدين لاننا لانعرف كيفية الذات ، ولكن هل يقول ابن تيمية بان هذه اعضاء ؟! ام يقول : انها صفات ؟! .

الوقفة الرابعة : ان القرآن كله محكم وليس فيه اختلاف ، كلام في غاية الصحة والسلامة ، ولكن لابد من ملاحظة الآتي :

١- التفريق بين الظاهر القاموسي والظاهر من السياق ، فان لفظة "اسد" ظاهرها :الحيوان المفترس المعروف ، لكن هذا ظاهر قاموسي ، فاذا قلنا : حمزة اسد الله - فسيكون الظاهر من السياق ليس الحيوان وانما الشجاعة ، فتأويل الاسد هنا بالشجاعة هل هو خروج عن الظاهر ؟! نعم خروج عن الظاهر في القاموس "الكلمة المجردة" ولكن ليس خروجا عن ظاهر النص ، ولهذا فقد تأتي نصوص ظاهرها مفهوم الا انه ليس بالضرورة ان يكون المعنى المفهوم هو المعنى القاموسي ، فلو سألت بدويا على بعيره مامعنى قوله - تعالى - "فانك بأعيننا" فانه سيقول لك انها العناية والرعاية ، فهل هذا خروج بالنص عن ظاهره ؟! ولذلك فكلام ابن تيمية صحيح فالقرآن كله محكم بيّن

(١) ابن القيم ، مختصر الصواعق المرسلة : ٣٥٤ .

بالسياق وليس شرطا ان لايكون القرآن ظاهرا الا اذا استخدم الكلمات كما هي في القاموس .

٢- وبما ان عقيدة القرآن عقيدة عملية ليست فلسفية نظرية فان من يبحث خارج ميدان العمل والتكليف قد يلقى غموضا في آيات القرآن ، ولنأخذ المثال السابق فمن اراد ان يفهم الجانب العملي من الآية فانه سيقول : ان الله اراد ان يخبرنا بأنه يحفظ المؤمنين وينصرهم ويؤيدهم ولذك قص علينا قصة نوح وسفينته وكيف نجاه الله ومن معه من الطوفان . فمثل هذا لايجد غموضا في القرآن ولكن الذي يتجاوز هذا الى ان يسأل : لماذا قال الله : "بأعيننا" وهل هي جمع على حقيقته ام جمع اريد به المثنى ؟! فان هذا لن يجد جوابا شافيا وسينقلب القرآن عليه غامضا عسير الفهم .

وهكذا يتبين من بعد هذه الاصول والوقفات ان ابن تيمية - رحمه الله - حاول ان يكون اكثر التصاقا بمنهج القرآن من غيره وقد نجح في ذلك حيث انه استوعب في رسائله وفتاواه جميع نصوص الاسماء والصفات - الا ماشاء الله - شارحا وموضحا ، ولم يحاول ان يختصر الصفات في سبع او عشرين وانما ترك الامر للنصوص نفسها غير انه لم يسلم من تأثير الظروف المحيطة به فوضع هذه الاصول التي ميزت منهجه عن بقية المناهج والتي تبين لنا الان انها لم تكن جميعها على مستوى المنهج القرآني وهذا امر معتاد في بني آدم والشاذ عكسه - والله اعلم -.

واذا كنا سمحنا لانفسنا ان نوجه هذا النقد لاصول ابن تيمية هذه ، فان العدالة تقضي ان نقف مع من قبله هذه الوقفات التي اراها ضرورية في هذا المقام :

الوقفة الأولى : لقد مر معنا خلاف المعتزلة مع غيرهم في قضية "زيادة الصفات على الذات او عدم زيادتها " ومع ان الظاهر قول مخالفيهم اذ لامعنى لحقيقة الصفات ان لم تكن تدل على معان زائدة على مجرد مايدل عليه الاسم العلم، لكن الم يأخذ هذا المبحث اكثر مما يستحق ؟ خصوصا انه ليس من بين المختلفين من ينكر هذه الصفات ؛ فكلهم يقولون بعلم الله وقدرته وحياته .. الخ ولم يأت نص من الشرع بهذا ، فنحن لسنا مكلفين بالاجابة على هذا السؤال ابدا ، وبعد خوضنا فيه من غير تكليف فمن يضمن لنا السلامة ؟ ان الذي يناسب عقولنا ووظيفتنا على هذه الارض :ان نعلم انه موجود لايشبه الكائنات ، ازلي ابدي حي عالم مريد قادر متفرد في وجوب وجوده وفي كمال صفاته وفي صنع خلقه وانه متكلم سميع بصير ومايتبع ذلك من الصفات التي جاء الشرع باطلاق اسمائها عليه ، اما كون الصفات زائدة على الذات وكون الكلام صفة غير ماأشتمل عليه العلم عن معاني الكتب السماوية وكون السمع والبصر غير العلم بالمسموعات والمبصرات ونحو ذلك من الشؤون التي اختلف عليها النُظّار وتفرقت فيها المذاهب فمما لايجوز الخوض فيه ، اذ لايمكن لعقول البشر ان تصل اليه والاستدلال على شيء منه بالالفاظ

الواردة ضعف في العقل وتغرير بالشرع"[1] .

الوقفة الثانية : لازلت اذكر وانا صغير احفظ بعض متون التوحيد في المدرسة الدينية في الفلوجة انه كان يجول بخاطري سؤال لم اجد الجواب عليه ، انا اقرأ الصفات الواجبة في حقه – تعالى – عشرون صفة سبعة منها اراها مكررة حيث انها تصاغ مرة بالاسماء المشتقة منها كالقادر والعالم وتصاغ مرة ثانية بأسماء معانيها المجردة فنقول : له القدرة والعلم كنت اسأل : لماذا هذه الصفات فقط ؟ والقرآن مليء بالكثير من اسمائه – تعالى – وصفاته ؟ فيقال لي : ان هذه الصفات الواردة في القرآن تندرج تحت هذه العشرين . او ان هذه العشرين هي فقط مايجب عقلا لله – تعالى – وكنت اسأل : أليس الله مستحقاً لصفة الصدق والعظمة والكرم ونحوها وكلها ليست من الصفات العشرين ؟ الحق ان القلب لايطمئن لأي حصر لصفات الله ، وبأي تبرير كان ، فان طريقة القرآن في عرضه لاسمائه – تعالى – وصفاته هي التي يطمئن اليها القلب وهي التي يجد القلب اثرها في اعماق اعماقه ، تمعن معي في قول الله – تعالى – : "هو الله الذي لا اله الا هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم. هو الله الذي لا اله الا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر سبحان الله عما يشركون . هو الله الخالق البارىء المصور له الاسماء الحسنى يسبح له مافي السموات والارض وهو العزيز الحكيم"[2] . فهل تجد في قلبك ماتجده وانت تقرأ الصفات العشرين عند الاشاعرة او غيرهم ؟! ثم ان هذا الحصر قد ادى الى خلاف عريض بين المتكلمين ، بل انه لم يحدد بهذا العدد الا نتيجة لنقاط خلاف مسبقة – والله اعلم – .

---

(١) الشيخ محمد عبده ، رسالة التوحيد : ٦٩ .

(٢) الحشر ٢٢–٢٤ .

الفصل الرابع

المبحث الأول: القدر في القرآن الكريم

المبحث الثاني: القدر عند المتكلمين

المبحث الاول
القدر في القرآن الكريم

لاريب ان موضوع القدر من المواضيع الشائكة الخطيرة ، وهو وثيق الصلة بموضوع الصفات ، الا ان مايتناول الجانب الانساني منه اكبر حيث ان من مسائل القدر العويصة هل الانسان مخيّر ام مسيّر ؟ ولاشك ان هذا السؤال لايمكن التفويض فيه كما هو الشأن في كثير من الصفات لانه يمس الجانب العملي التكليفي ، فكيف تعامل القرآن مع هذه القضية ، وماهو منهجه في ذلك ؟ .

لعلنا نستطيع ان نتلمس المنهج القرآني من خلال النقاط الآتية :

١- ان الله – تبارك وتعالى – له الارادة المطلقة ، فهو يفعل مايشاء ويختار ، ولايستطيع احد ان يقيد ارادة الله ، وقد اضاف القرآن لفظ الارادة والمشيئة الى الباري – تعالى – بنحو "٢٥٠" آية ، ولنتمعن في هذه الآيات :

"ولو شاء الله ماقتتلوا ولكن الله يفعل مايريد" (١) .

"ان ربك فعال لما يريد" (٢) .

"ان يردن الرحمن بضر لاتغن عني شفاعتهم شيئاً " (٣)

"ولو شاء الله لذهب بسمعهم وابصارهم ان الله على كل شئ قدير" (٤) .

"ولو شاء ربك لآمن من في الارض كلهم جميعاً " (٥) .

"وما تشاؤن الا ان يشاء الله رب العالمين" (٦) .

٢- انه – تعالى – مع ارادته المطلقة الا انه لايمكن ان يظلم احداً ، واقرأ معي :

"ان الله لايظلم مثقال ذرة وان تك حسنة يضاعفها" (٧) .

"وما الله يريد ظلماً للعالمين" (٨) .

"وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا انفسهم يظلمون" (٩) .

---

(١) البقرة : ٢٥٣ .
(٢) هود : ١٠٧ .
(٣) يس : ٢٣ .
(٤) البقرة : ٢٠ .
(٥) يونس : ٩٩ .
(٦) التكوير : ٢٩ .
(٧) النساء : ٤٠ .
(٨) آل عمران : ١٠٨ .
(٩) العنكبوت : ٤٠ .

٣- وانه - تعالى - قد ينعم على انسان ويقتر على آخر ويمرض آخر ويعافي آخر وليس في هذا ظلم وانما هو "الابتلاء والاختبار" فليس الخير خيراً بنفسه ، ولاالشر شراً بنفسه ، وانما قد ينقلب الخير شراً حينما يقود الخير الى البطر ، وينقلب الشر خيراً اذا قاد الى الصبر والتسليم ، فالله يختبر عباده بما يشاء ووفق الحكمة الالهية التي قد لاندركها ، واقرأ معي :

"وبلوناهم بالحسنات والسيئات لعلهم يرجعون" (١) .

"لكي لاتحزنوا على مافاتكم" (٢) .

"انا جعلنا ماعلى الارض زينة لها لنبلوهم ايهم احسن عملا" (٣) .

"ولو يشاء الله لانتصر منهم ولكن ليبلو بعضكم ببعض" (٤) .

"ونبلوكم بالشر والخير فتنة" (٥) .

"ولنبلونكم بشئ من الخوف والجوع ونقص من الاموال والانفس والثمرات وبشّر الصابرين الذين اذا اصابتهم مصيبة قالوا انا لله وانا اليه راجعون" (٦) .

"انما اموالكم واولادكم فتنة والله عنده اجر عظيم" (٧) .

٤- وبعد هذه الحقيقة الكبيرة يأتي القرآن ليدخل في المجال العملي التكليفي ونتلمس هذا في بعض النماذج الآتية :

أ- امتدح القرآن الشاكرين الذين يحسنون استعمال النعمة كما يأمر الله ، فطالما ان الله هو الذي خلقها لك ليبتليك اتشكر ام تكفر ، فلابد ان يحثك على ان تكون من الشاكرين ، ولهذا وردت مادة "شكر" في القرآن الكريم بنحو "٧٥" مرة . ونقرأ منها :

"وايدكم بنصره ورزقكم من الطيبات لعلكم تشكرون" (٨) .

"قال هذا من فضل ربي ليبلوني أأشكر ام اكفر ومن شكر فانما يشكر لنفسه ومن كفر فان ربي غني كريم" (٩) .

"فكلوا مما رزقكم الله حلالاً طيباً واشكروا نعمة الله" (١٠) .

---

(١) الاعراف : ١٦٨ .
(٢) آل عمران : ١٥٣ .
(٣) الكهف : ٧ .
(٤) محمد : ٤ .
(٥) الانبياء : ٣٥ .
(٦) البقرة :١٥٥ - ١٥٦ .
(٧) التغابن : ١٥ .
(٨) الانفال : ٢٦ .
(٩) النمل : ٤٠ .
(١٠)النحل : ١١٤ .

ب- وحث القرآن على الصبر ، وامتدح الصابرين ، حتى ورد "الصبر" في القرآن بما يزيد على مائة مرة ، ولنتبارك ببعضها :

"فاصبر كما صبر اولوا العزم من الرسل" [١] .

"سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار" [٢] .

"ولنجزين الذين صبروا اجرهم باحسن ماكانوا يعملون" [٣] .

"اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله" [٤] .

"ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين" [٥] .

جـ - وحسم القرآن قضية الخوف من الموت ، فالاجل مقدر محتوم لايقبل اندفاعاً ولاتأخيراً ، وبالتالي فالمسلم لايرهب الموت لابل ربما يعشق الميتة العزيزة الشريفة ويسعى لها بقدميه يوم ان تكون في سبيل الله . وبهذه العقيدة تفجرت الطاقات ، وخرجت الزحوف تلو الزحوف لاعلاء كلمة الحق في كل ارض الله ، دون خوف ، او وجل ، وقد حرص القرآن على هذه العقيدة واكد عليها بعشرات الآيات وبأساليب مختلفة ، ولنقرأ :

"وانفقوا من مارزقناكم من قبل ان يأتي احدكم الموت فيقول ربي لولا اخرتني الى اجل قريب فأصدق واكن من الصالحين . ولن يؤخر الله نفساً اذا جاء اجلها والله خبير بما تعملون" [٦] .

"وما كان لنفس ان تموت الا بأذن الله كتاباً مؤجلاً " [٧] .

"قل لو كنتم في بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل الى مضاجعهم" [٨] .

"الذين قالوا لاخوانهم وقعدوا لو اطاعونا ماقتلوا قل فادرؤا عن انفسكم الموت ان كنتم صادقين" [٩] . وقد ماتوا فمادرؤا !!! .

د- وحث القرآن على الانفاق لان الرزق من الله ، والملك لله والله يضاعف لمن يشاء ، وماكان لغيرك لن يصل اليك ، وماكان لك لن يصل لغيرك ، وقد حشد القرآن لهذه القضية مايصعب حصره من الآيات ، وهذه امثلة منها :

---

(١) الاحقاف : ٣٥ .

(٢) الرعد : ٢٤ .

(٣) النحل : ٩٦ .

(٤) آل عمران : ٢٠٠ .

(٥) محمد ٣١ .

(٦) المنافقون : ١٠ - ١١ .

(٧) آل عمران : ١٤٥ .

(٨) آل عمران : ١٥٤ .

(٩) آل عمران : ١٦٨ .

"ومانفقتم من شئ فهو يخلفه وهو خير الرازقين" [1] .

"ان الذين يتلون كتاب الله واقاموا الصلاة وانفقوا مما رزقناهم سراً وعلانية يرجون تجارة لن تبور . ليوفيهم اجورهم ويزيدهم من فضله انه غفور شكور" [2] .

"وماتنفقوا من خير يوفَّ اليكم وانتم لاتظلمون" [3] .

"يا ايها الذين آمنوا هل ادلكم على تجارة تنجيكم من عذاب اليم . تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وانفسكم ذلكم خير لكم ان كنتم تعلمون" [4] .

وهكذا نرى عقيدة القدر القرآنية عقيدة عملية ، فلأنّ الله يبتلي عباده بالنعمة وضدها فعليك ان تشكر او تصبر ، ولأنّ الله كتب عليك الموت بأجل محدد فجاهد في سبيل الله ولاتخف ، ولان الله هو الرزاق فانفق مما رزقك الله .

هـ - ولأنّ الله - تعالى - يفعل مايريد لامعقب لحكمه ولاراد لقضائه ، فعلى المسلم ان لاييأس ولايقنط بل يبقى متفائلاً متطلعاً الى رحمة الله وفرجه ، فلاشئ يقف امام ارادة الله - فعليه ان يقف سائلاً راجياً متضرعاً ، واسمع هذه النفحات القدسيات :

"قال انما اشكو بثي وحزني الى الله واعلم من الله مالاتعلمون . يابنيّ اذهبوا فتحسسوا من يوسف واخيه ولاتيأسوا من روح الله انه لاييأس من روح الله الا القوم الكافرون" [5] .

"قل يا عبادي الذين اسرفوا على انفسهم لاتقنطوا من رحمة الله ان الله يغفر الذنوب جميعاً انه هو الغفور الرحيم" [6] .

وهكذا تكون عقيدة القدر القرآنية عقيدة عملية مهمتها ان تدفع بالانسان لاداء وظيفته على هذه الارض شكراً وصبراً وجهاداً وانفاقاً واملاً ، وابتعد القرآن عن القدر الفلسفي الغيبي الذي لايورث الا ارباكاً وانطواءاً وجدلاً وصراعاً - فماحلى عقيدة القرآن ومابهى جيلاً تربى على هذه العقيدة .

وهي عقيدة واضحة !! لقد قرأت النصوص التي مرت فهل وجدت اشكالاً في فهمها ؟ صحيح ان هنالك نصوصاً تشير الى الارادة الالهية المطلقة المهيمنة ، وأخرى الى حرية الانسان ، وقد يجمعهما نص واحد كما في قوله - تعالى - : "ان هو الا ذكر للعالمين . لمن شاء منكم ان يستقيم . وماتشاؤن الا ان يشاء الله رب العالمين" [7] . فانظر

---

(١) سبأ : ٣٩ .

(٢) فاطر : ٢٩ - ٣٠ .

(٣) البقرة : ٢٧٢

(٤) الصف : ١٠ - ١١ .

(٥) يوسف : ٨٦ - ٨٧ .

(٦) الزمر : ٥٣ .

(٧) التكوير : ٢٧ - ٢٩ .

كيف اثبت مشيئة الانسان اولاً ثم عقب بالمشيئة الالهية المهيمنة ، ولكن اي اشكال في هذا اذا لم نتجاوز النص ؟ فالنص يثبت لك المشيئة ، فهل تنكرها انت ؟ كيف وانت تحس بها في كل لحظة ، حينما تريد ان تأكل او تنام او تصلي او تقرأ او تكتب ، بل انت تتصرف على اساس هذه المشيئة مع الكون من حولك ، فلو سقط عليك جذع من السقف لاتغضب عليه لانه ليست له مشيئة ، ولو ضربك امرؤ بعصا فانك تغضب لان صاحب العصا له مشيئة ، مع ان العصا اخف من الجذع !!![1] فأنت اذاً لاتشك بمشيئتك - اطلاقاً - ولابمشيئة كثير من المخلوقين ، فهي واضحة وضوح الشمس ، فقل لي اذاً هل جاء الغموض من الشطر الثاني ؟ اذا اثبت للمخلوق مشيئة واضحة كالشمس ، فكيف تنكر مشيئة الخالق ؟ هذا الذي تحدث به القرآن ، اثبت لك مشيئة واثبت لربك مشيئة ، وكلا الامرين في غاية الوضوح ، لكنك ذهبت ابعد من هذا لتسأل عن طبيعة العلاقة بين مشيئتك ومشيئة الله ، وماذا لو تعارضا ؟ وهذه لم يتحدث عنها القرآن ، فلنر الذين تحدثوا عنها اين وصلوا ؟

---

(١) انظر : دفاع عن العقيدة والشريعة ، محمد الغزالي : ١٠١ .

المبحث الثاني
القدر عند المتكلمين

ربما نستطيع ان نجزم انه لايوجد في المتكلمين من ينكر عقيدة القدر القرآنية ، فمامرّ معنا محل تسليم الجميع ، غير ان هذا التسليم لم يسلمهم من النزاع ، لانهم حاولوا الاجابة عن الاسئلة الفلسفية الغيبية تلك التي لم يثرها القرآن اصلاً ، وربما اكرهت الظروف المعقدة التي مرت بها الامة المتكلمين على الخوض في هذه المسائل متجاوزين بذلك نصيحة رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : "اذا ذكر القدر فامسكوا" [1] .

وعلى هذا كان مبحث المتكلمين مكرساً لحل المشكلة التي واجهتهم وخلاصتها : ماهي الصلة بين ارادة الله وارادة الانسان ؟ وبلفظ آخر : هل الانسان مجبر ام مختار ؟ وان كان مجبراً على فعله فكيف يحاسبه الله ؟ وان كان مختاراً فماموقع هذا الاختيار من ارادة الله ؟ وهل يصح ان يفعل الانسان شيئاً لايريده الله ؟

ان هذه الاسئلة ليست غريبة ، وانما قد تنقدح في ذهن اي انسان لان التفكير فيها ظاهرة نفسية عامة [2] ، ولذلك وردت هذه الاسئلة على لسان اصحاب رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : حتى قالوا له : "يا رسول الله اعلم اهل الجنة من اهل النار ؟ قال : فقال : نعم . قال : قيل ففيم يعمل العاملون ؟ قال : كل ميسر لما خلق له" [3] ، الا انه يبقى منهج الاسلام الكف عن الاسئلة الفلسفية الغيبية "اذا ذكر القدر فامسكوا" والحث على الجانب العملي التكليفي .

اذاً فالمشكلة قديمة الا انها كبرت بمرور الزمن ، فاظهرت جوابين ضدّين ، كل جواب تبنته طائفة معينة ثم بعد ذلك جاءت الدراسات التوفيقية او الوسطية ، وهكذا ظهرت مذاهب متعددة في الموضوع سنتعرف عليها سريعاً ومن خلال الاتجاهات الاتية :

القدرية :

روى الامام مسلم في صحيحه عن يحيى بن يعمر قال : "كان اول من قال في القدر بالبصرة معبد الجهني ، فانطلقت انا وحميد بن عبدالرحمن الحميري حاجّين او معتمرين فقلنا لو لقينا احدا من اصحاب رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فسألناه عما يقول هؤلاء في القدر ، فوفق لنا عبد الله بن عمر بن الخطاب داخلاً المسجد ،

(١) قال الحافظ العراقي : "حديث : اذا ذكر القدر فامسكوا . الحديث رواه الطبراني عن حديث ابن مسعود باسناد حسن" . تخريج احاديث الاحياء ، المطبوع بهامش الاحياء : ٣٠/١ .

(٢) انظر دراسات في الفرق ، د. عرفان عبد الحميد : ٢٤٢ .

(٣) مسلم ، صحيح مسلم بشرح النووي : ١٩٨/١٦ .

فاكتنفته انا وصاحبي احدنا عن يمينه والآخر عن شماله ، فظننت ان صاحبي سيكل الكلام اليّ فقلت : ابا عبد الرحمن انه قد ظهر قبلنا ناس يقرؤون القرآن ويتقفرون العلم ، – وذكر من شأنهم – وانهم يزعمون ان لاقدر وان الامر أُنُف ، قال : فاذا لقيت اولئك فاخبرهم اني بريء منهم وانهم براء مني ، والذي يحلف به عبد الله بن عمر لو ان لاحدهم مثل احد ذهباً فانفقه ماقبل الله منه حتى يؤمن بالقدر" [1] .

يظهر من هذا الحديث ان مشكلة القدر مشكلة قديمة ، وان اول من قال بنفي القدر هو معبد الجهني وتبعه خلق على ذلك سمّوا بالقدرية لنفيهم القدر ، وقد نقل الامام النووي – رحمه الله – انكار القدرية لهذا الاسم قائلين : "لسنا بقدرية بل انتم القدرية لاعتقادكم اثبات القدر" ونقل رد العلماء عليهم : "هذا تمويه من هؤلاء الجهلة ومباهتة وتواقح فان اهل الحق يفوّضون امورهم الى الله – سبحانه وتعالى – ويضيفون القدر والافعال الى الله – سبحانه وتعالى – وهؤلاء الجهلة يضيفونه الى انفسهم ومدعي الشئ لنفسه ومضيفه اليها اولى بأن ينسب اليه ممن يعتقده لغيره وينفيه عن نفسه" [2] .

وعلى اية حال فان هذا الاسم عرف به هؤلاء الذين يقولون : لاقدر وان الامر أُنُف ، ويبدو ان هؤلاء يقصدون نفي علم الله السابق للحوادث ، ولذلك كفرهم ابن عمر – رضي الله عنهما – كما هو ظاهر كلامه ، يقول القاضي عياض – رحمه الله – : "هذا في القدرية الاول الذين نفوا تقدم علم الله – تعالى – بالكائنات" [3] .

والحقيقة التي ينبغي ان لاتحتجب ان ظروفا صعبة دفعت بمعبد وغيره الى القول بهذا القول ، فقد روي ان معبد الجهني وعطاء بن يسار اتيا الحسن البصري وقالا له : يا ابا سعيد ان هؤلاء الملوك يسفكون دماء المسلمين ويأخذون اموالهم ويقولون : انما تجري اعمالنا على قدر من الله – تعالى – فقال الحسن في جوابهما : كذب اعداء الله ، والعجيب ان معبداً هذا سفك دمه !! وهذا يعني انه كان يدرك خطورة الظرف الذي عاش فيه ، ومن قال قولاً والسيف على رقبته فلاغرابة ان يكون في قوله شطط او غلط .

ولقد ساند معبداً في رأيه هذا غيلان الدمشقي وكان ابوه مولى لعثمان بن عفان – رضي الله عنه – ويعتبر غيلان في رأي اكثر كتاب الفرق انه المبشر الحقيقي بمذهب القدر ، وقد قتل ايضاً !! [4] وهذا يؤكد ان مذهب القدر قد نشأ في ظروف غير طبيعية ولذلك زال هذا المذهب بزوال اسباب وجوده وبقيت افكاره تشكل ربما هجيناً جديداً في فكر المعتزلة [5] وغيرهم لكن اخف ضرراً واقل شططاً – والله اعلم – .

---

(١) مسلم ، صحيح مسلم بشرح النووي : ١/١٥٠ –١٥٦ .

(٢) المصدر السابق : ١/١٥٤ .

(٣) المصدر السابق : ١/١٥٦ .

(٤) عرفان عبد الحميد ، دراسات في الفرق : ٢٥٨ . وانظر الفرق بين الفرق : ١٤–١٥ .

(٥) بل ان المعتزلة يرون غيلان من اسلافهم ، طبقات المعتزلة : ٢٥ .

الجبرية :

وهذه تعني بأختصار ان الانسان مجبر ليس بمختار ، وكل مايقع من الانسان وغيره فانما هو من الله ، وهذه الفكرة تماماً ضد الفكرة الاولى ، فهذه آمنت بالقضاء والقدر ايماناً عالياً بحيث الغت دور الانسان وارادته ، وربما يكون الدافع الى القول بها دافعاً سياسياً لخدمة الملوك وتبرير ظلمهم – كما مر معنا قول معبد للحسن – وربما يكون حالة نفسية ايمانية تعبر عن "التصور الديني والورع الزائد والشعور الطاغي بعظمة الله وقدرته لدرجة تتضاءل بجنبها قدرة الانسان المخلوق وتنتفي" (١) .

والمعروف ان اول من قال بهذه الفكرة الجعد بن درهم والجهم بن صفوان (٢) ، لكنها لم تستمر طويلاً فآلت الى ماآلت اليه سابقتها ، لكنها لاتعدم خيوطاً تسللت في بعض المدارس الاخرى – كما سنرى – .

المعتزلة :

مع خلاف المعتزلة للقدرية الا ان الاتجاه القدري قدر على ان يترك بصماته الواضحة في الفكر الاعتزالي ، ولهذا نجد الكثير من كتاب الفرق من يصفهم بالقدرية (٣) ، فماهي علاقة المعتزلة بالقدرية ، ومامقدار الوفاق والخلاف ؟ سنحاول كشف هذا من خلال النقاط الاتية :

اولاً : ينفي المعتزلة عن انفسهم اسم "القدرية" كما فعل القدرية الاول ، ويناقش القاضي عبد الجبار هذه القضية باسهاب طويل ، ليس هنا محله ، غير اننا نكتفي بهذا المقطع : "اعلم ان القدرية عندنا انما هم المجبرة والمشبهة ، وعندهم المعتزلة ، فنحن نرميهم بهذا اللقب ، وهم يرموننا به" (٤) .

ثانياً : خلاصة فكرة المعتزلة هي ماحكاه القاضي : "واذ قد عرفت ذلك ، وسألك سائل عن افعال العباد أهي بقضاء الله – تعالى – وقدره ام لا؟ كان الواجب في الجواب عنه ان تقول : ان اردت بالقضاء والقدر الخلق فمعاذ الله من ذلك ، وكيف تكون افعال العباد مخلوقة لله – تعالى – وهي موقوفة على قصورهم ودواعيهم ، ان شاؤا فعلوها وان شاؤا تركوها ؟ فلو جاز والحال هذه ان لاتكون افعال العباد من جهتهم لجاز في افعال

---

(١) عرفان عبد الحميد ، دراسات في الفرق :٢٥٦ .

(٢) انظر مقالات الاسلاميين : ٣١٢/١ . وانظر خلق افعال العباد للبخاري : ١١٨ و ٢١٢ . والفرق بين الفرق : ١٩٩ . والبرهان في معرفة عقائد الاديان : ٣٤ و ٤١ . ودراسات في الفرق : ٢٥٥ .

(٣) انظر الفرق بين الفرق : ٩٣ . والبرهان في معرفة عقائد اهل الاديان : ٥٠ .

(٤) القاضي عبد الجبار ، شرح الاصول الخمسة : ٧٧٢ .

الله – تعالى – ذلك ، فان بهذه الطريقة يعرف ان الفعل فعل لفاعله وبعد ، فلو كانت مخلوقة لله – تعالى – لما استحق العباد عليها المدح والذم والثواب والعقاب" (١) واذا جاز ان يكون هنالك فعل ليس لله جاز ان يكون فاعلان او اكثر في هذا الكون ، وهذا ماصرح به القاضي فقال : "فانا انما اثبتنا فاعلين يفعلان مايفعلانه على طريقة الاختيار" (٢) . وقد جرّ هذا على المعتزلة تشنيعاً غليظاً ونقدا لاذعا من الآخرين (٣) .

ثالثاً : ولكي تكتمل الصورة فلابد من الاشارة الى انهم لايعنون بنفي القدر نفي تقدم علم الله ، بل انهم اصلاً لايجوزون قيام الحوادث به – تعالى – وهذا معلوم من مذهبهم ، بل انهم لم يقولوا بخلق القرآن الا على هذا الاساس ، فصفات الله جميعها قديمة و "انه – تعالى – لايجوز ان يستحق هذه الصفات لمعان محدثة" (٤) ولذلك نراهم يؤولون كل نص يشير ظاهره الى تجدد علم الله – تعالى – بالحوادث ، فترى القاضي يرد على من استدل بهذه النصوص لاثبات حدوث صفة العلم لله – تعالى – : "واما شبههم من جهة السمع ، فقد تعلقوا بقوله – تعالى – : "حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلوا اخباركم" (٥) ... وتعلقوا ايضاً بقوله – تعالى – : "الان خفف الله عنكم وعلم ان فيكم ضعفا " (٦) ، ثم يوجه هذه النصوص بقوله : "المراد به حتى يقع الجهاد المعلوم من حالكم" و "اي وقع الضعف المعلوم من حالكم وقوعه" (٧) . وهذا فارق مهم بينهم وبين القدرية الاول .

رابعاً : وقد استدل المعتزلة على مذهبهم هذا بأدلة كثيرة جديرة بالتأمل وسنعرض ابرزها لتتكشف جوانب مهمة من طبيعة التفكير الاعتزالي في هذا المجال :

١– لان في الحوادث المشاهدة ماهو حسن وماهو قبيح ، فالانسان قد يصلي وقد يزني فلابد ان ينسب الفعل هذا الى فاعله ، والا فأنّا سنجعل الله فاعلا للزنا ، و "ان الله – جل ذكره – عالم بقبح كل قبيح ، وعالم انه لاحاجة به الى فعل القبائح ، بل هو غني عنها ، ومن هذه صفته لايختار القبيح" (٨) .

---

(١) المصدر السابق : ٧٧١ .

(٢) المصدر السابق : ٧٧٧ .

(٣) انظر الفرق بين الفرق : ٩٣ ومجموع الفتاوي لابن تيمية : ١٢٥/٨.

(٤) القاضي عبد الجبار ، شرح الاصول الخمسة : ١٨٦ .

(٥) محمد : ٣١ .

(٦) الانفال : ٦٦ .

(٧) القاضي عبد الجبار ، شرح الاصول الخمسة : ١٩٥ .

(٨) القاضي عبد الجبار ، المختصر في اصول الدين : ٢٣٥ .

٢- ان افعال الناس "تقع بحسب قصدهم وعلومهم وقدرهم ، فلو اراد احدنا البناء لم تقع الكتابة ، ولو جهل الكتابة لم تصح ان تقع ، ولو اراد حمل الجبال لم يقع ، ولو كان من فعل غيره فيه لكان جهله وعلمه وقلة قدرته وكثرتها بمنزلة واحدة ، وهذا يدل على ان افعالهم حادثة من قبلهم" [١] .

٣- "لو كانت هذه الافاعيل الله خلقها لبطل الامر والنهي وبعثة الانبياء ، والامر بالمعروف والنهي عن المنكر ... والنبي كيف يدعو الكفار الى العدول عن الكفر الى الايمان والله - تعالى - هو الخالق للكفر فيهم والمانع لهم عن الايمان ؟!" [٢] .

٤- لو كانت كل الافعال مخلوقة لله "فكيف يحسن من الله - تعالى - المسألة والمحاسبة وجميع ماوقع من الافعال هو الذي خلقه ؟" [٣] .

فهذه الادلة تكشف جوانب مهمة من فلسفة القدر بل "العدل الالهي" عند المعتزلة ، وهي واضحة قوية الا انها تصلح للاحتجاج على المجبرة ، اما غيرهم ففيه نظر ، فمَن غيرهم ؟ لنقرأ :

الاشاعرة :

عرف الاشاعرة بانهم مدرسة توفيقية وسطية في غالب نهجهم ، ولقد برز هذا جلياً في مسألة القدر ، وكما يتبين من خلال النقاط التالية :

اولاً : ان الله خالق كل شئ حتى افعال العباد ، يقول الجويني - رحمه الله - : "اتفق سلف الامة قبل ظهور البدع والاهواء واضطراب الاراء على ان الخالق المبدع رب العالمين ، ولاخالق سواه ، ولامخترع الا هو ، فهذا مذهب اهل الحق ، فالحوادث كلها حدثت بقدرة الله - تعالى - ، ولافرق بين ماتعلقت قدرة العباد به وبين ماتفرد الرب بالاقتدار عليه" [٤] . وفي هذا رد واضح على القدرية والمعتزلة .

ثانياً : "العبد قادر على كسبه ، وقدرته ثابتة عليه ، وذهبت الجبرية الى نفي القدرة ، وزعموا ان مايسمى كسباً للعبد او فعلا له فهو على سبيل التوسع والتجوز في الاطلاق ، والحركات الاختيارية والارادية بمثابة الرعدة والرعشة ، والدليل على اثبات القدرة ان العبد اذا ارتعدت يده ثم انه حركها قصدا فانه يفرق بين حالته في الحركة وبين الحالة التي اختارها واكتسبها ، والتفرقة بين حالتي الاضطرار والاختيار معلومة على

---

(١) المصدر السابق : ٢٣٨ .

(٢) المصدر السابق : ٢٣٩ .

(٣) المصدر السابق : ٢٣٩ .

(٤) الجويني : الارشاد : ١٨٧ .

الضرورة"[1] وفي هذا رد واضح على الجبرية ، والعبد على هذا ممدوح او مذموم مأجور او مأزور تبعا لارادته .

والحقيقة ان فهم التوفيق بين النقطتين محتاج الى بيان واضح واسع وشرح مفصل ، ولذلك تعب الاشاعرة في اقناع الناس بهذه الفكرة "نظرية الكسب" بهذا الاسم انتشرت الفكرة وبهذا الاسم تميز المذهب الاشعري في القدر ، ونستطيع ان ننقل هنا بعض الفقرات الشارحة لنظرية الكسب هذه :

يقول الباقلاني – رحمه الله – : "معنى الكسب انه تصرف في الفعل بقدرة تقارنه في محله فتجعله بخلاف الضرورة من حركة الفالج وغيرها"[2] .

ويقول ايضا : "قد قالوا : لو كانت افعالنا خلقا لله لكانت مقدورة لنا وله ، ولو كان كذلك لجاز ان نفعلها ويتركها هو ، او نتركها ويفعلها ، فيكون الشئ الواحد مفعولا متروكا ، قيل لهم : هذا باطل ، لان الانسان لايقدر على الفعل الا في حال وجوده ، فلايجوز ان يتركه في حال قد وجد فيها ، ولايجوز ايضا ان يتركه الله في تلك الحال ، لانه هو الموجد لعينه دون العبد الذي يكسبه ، فلو تركه لم يكن موجودا "[3] .

وربما تتضح نظرية الكسب اكثر بقول عبد القاهر البغدادي – رحمه الله – : "وقد ضرب بعض اصحابنا للاكتساب مثلا في الحجر الكبير قد يعجز عن حمله رجل ويقدر آخر على حمله منفردا به ، اذا اجتمعا جميعا على حمله كان حصول الحمل بأقواهما ولاخرج اضعفهما بذلك عن كونه حاملا ، كذلك العبد لايقدر على الانفراد بفعله ، ولو اراد الله الانفراد باحداث ماهو كسب للعبد قدر عليه ووجد مقدوره ، فوجوده على الحقيقة بقدرة الله – تعالى – ولايخرج مع ذلك المكتسب من كونه فاعلا "[4] .

لقد حاول الاشاعرة ان يتخلصوا بنظرية الكسب هذه من مأزق خطير وقعت فيه الفرق الاخرى ، وهذا المأزق تمثل في كيفية الحفاظ على عقيدة "التوحيد والعدل" فمن يرجح كفة التوحيد في الخلق ، فلاخالق الا الله ، لابد ان يقع في محظور آخر وهو كيف يحاسب الله عباده مع سلب اختيارهم ؟! وكيف يفعل الله القبيح ؟! ومن غلّب جانب العدل والتنزيه لابد ان يقع في محظور اكبر اذ كيف يكون هنالك خالق للخير وخالق للشر او خالق للحسن وخالق للقبيح ؟! .

لكن الاشاعرة ارادوا ان يخلصوا من المحظورين مرة واحدة فقالوا : الله خالق كل شئ ، والانسان كاسب لفعل الله ، فهو محاسب على الكسب لاعلى الخلق والفعل ، وكأنهم يعنون بهذا ان العبد يريد ان يفعل شيئاً فيخلقه له الله ثم يثيبه او يعاقبه على هذه

---

(١) المصدر السابق : ٢١٥ .

(٢) الباقلاني ، التمهيد : ٣٤٧ .

(٣) المصدر السابق : ٣٤٦ .

(٤) البغدادي ، اصول الدين : ١٣٤ .

الارادة ، والواقع ان الاشاعرة قد خرجوا بعض الشئ من المأزق لكنهم لم يخرجوا منه نهائياً ، ولن يخرجوا الا مجرّحين لحدة حافة الزاوية ، اذ يبقى السؤال قائماً ، من احدث هذه الارادة عند الانسان ؟ اليست هي حادثة فلابد لها من محدث ؟ وظاهر القرآن يصرح بانها مخلوقة لله "وماتشاؤون الا ان يشاء الله" (١) . ولااظن الاشاعرة يقولون بغير هذا ، فاذا كان الله خلق فيّ ارادة الشر وخلق لي الشر فكيف يحاسبني عليه ؟! وهل سيكون معنى الكسب الا اني تلبست بهذا الفعل ولو على كره مني ؟! .

الذي يطمئن اليه القلب انه لو كان الله يعلم ان العقل البشري يستطيع ان يدرك حقيقة الارادة الالهية وعلاقتها بتكليف الانسان لما قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : "اذا ذكر القدر فامسكوا" ولارشدنا الوحي لحل هذا اللغز ، ولكن ينبغي ان يعلم البشر انهم لايقدرون على كل شئ وان عقولهم محدودة لن تستطيع ان تخترق الغيب الا بسلطان من الله الا بوحي الله – والله اعلم – .

ابن حزم :

بحث ابن حزم – رحمه الله – هذا الموضوع بأسهاب ، غير ان القارئ لايستطيع ان يحدد الصورة المرسومة في ذهن ابن حزم لهذا الموضوع ، انها تبدو صورة مترجرجة ، وربما يكون السبب هو منهجه النصي الذي حاول فيه الجمع بين النصوص بطريقة تكشف له جانب الغيب ولكنه عاد بما يصعب فهمه ، عاد وهو يعكس صورة اليائس من الوصول الى كنه الحقيقة . ولنعش مع هذه النقاط التي لخصناها من منهجه :

اولاً : وجه ابن حزم سهام نقده الى المذهبين الضدّين : "الجبرية والقدرية" ، ولنأخذ هذين النموذجين من نقده :

رد ابن حزم على الجبرية فقال : "فاما من قال بالاجبار فانهم احتجوا فقالوا : لما كان الله – تعالى – فعالا وكان لايشبهه شئ من خلقه وجب ان لايكون احد فعالاغيره ... وخطأ هذه المقالة ظاهر بالحس والنص وباللغة التي بها خاطبنا الله – تعالى –" (٢) .

ثم يلتفت الى المعتزلة والقدرية ويأخذ بخناقهم ويقول : "ويقال للمعتزلة ايضا : انتم تقرون ايضا معنا بان الله – تعالى – لم يزل عليما بأن كل كائن فانه سيكون على ماهو عليه اذا كان ولم يزل الله – تعالى – يعلم ان فلانا سيطأ فلانة في وقت كذا فتحمل منه بولد يخلقه الله – تعالى – من منييهما الخارج منهما عند جماعه اياها وانه يعيش ثمانين سنة ويملك ويفعل ويصنع ، فاذا قلتم : ان ذلك الفلان يقدر قدرة تامة على ترك ذلك الوطأ الذي لم يزل الله – تعالى – يعلم انه سيكون وانه يخلق ذلك الولد منه فقد قطعتم بانه قادر

---

(١) التكوير : ٢٩ .

(٢) ابن حزم ، الفصل : ٣/٢٣ .

على ان يمنع الله من خلق ماقد علم انه سيخلق ، وانه قادر قدرة تامة على ابطال علم الله - عز وجل - وهذا كفر" [١] .

ثانياً : قد يستطيع القارئ ان يجد خيطا متينا بين ابن حزم والاشاعرة ، الا ان هذا الخيط لم يخل من خدوش واضحة ، فأما الخيط فتصريحه بنظرية الكسب التي قال بها الاشاعرة ولنقرأ قوله :

"وقالوا ايضاً : انتم تقولون : ان الله - تعالى - خلق الفعل وان العبد اكتسبه فاخبرونا عن هذا الاكتساب الذي انفرد به العبد اهو خلق ام هو غيره ؟ فان قلتم : هو خلق الله ، لزمكم انه - تعالى - اكتسبه وانه مكتسب له اذ الكسب هو الخلق ، وان قلتم ان الكسب هو غير الخلق وليس خلقا لله - تعالى - تركتم قولكم ورجعتم الى قولنا" [٢] ، وهذا الاعتراض الذي اورده هو اعتراض القدرية والمعتزلة على نظربة الكسب التي تبناها ابن حزم فلنرَ كيف دافع عنها :

يقول ابن حزم : "واما اعتراضهم بهل الخلق هو الكسب او غيره ؟ فنعم كسبنا لما ظهر منا وبطن ، وكل صنعنا وجميع اعمالنا وافعالنا لذلك هو خلق لله - عز وجل - فينا كما ذكرنا لان كل ذلك شئ وقال - تعالى - : "انا كل شئ خلقناه بقدر" [٣] ، ولكننا لانتعدى باسم الكسب حيث اوقعه الله - تعالى - مخبرا لنا باننا نجزى بما كسبت ايدينا وبما كسبنا في غير موضع من كتابه ولايحل ان يقال : انه كسب الله - تعالى - لانه - تعالى - لم يقله ولااذن في قوله ، ولايحل ان يقال : انها خلق لنا لان الله - تعالى - لم يقله ولااذن في قوله ، لكن نقول : هي خلق لله كما نص على انه خالق كل شئ ، ونقول : هي كسب لنا كما قال - تعالى - : "لها ماكسبت وعليها مااكتسبت" [٤] [٥] .

ربما مثل ابن حزم نظرية الكسب الاشعرية اصدق تمثيل لكنه يعود بما قد يفهم منه الخدش لهذه الصلة :

يقول في معرض رده على الجبرية : "واما احتجاجهم بأن الله - تعالى - لما كان فعالا وجب ان لايكون فعال غيره ، فخطأ من القول لوجوه : احدها : ان النص قد ورد بأن للانسان افعالا واعمالا ، قال - تعالى - : "كانوا لايتناهون عن منكر فعلوه لبئس ماكانوا يفعلون" [٦] . فاثبت الله لهم الفعل" [٧] .

---

(١) المصدر السابق : ٣٧/٣ .
(٢) المصدر السابق : ٦٢/٣ .
(٣) القمر : ٤٩ .
(٤) البقرة : ٢٨٦ .
(٥) ابن حزم ، الفصل : ٨١/٣ .
(٦) المائدة : ٧٩ .
(٧) ابن حزم ، الفصل : ٢٥/٣ .

ويقول : "فان قيل : فهو مختار لما يفعل ؟ قلنا : نعم ، اختيارا صحيحا لامجازا ، لانه مريد لكونه محب له مؤثر على تركه وهذا معنى لفظة الاختيار على الحقيقة وليس مضطرا ولامجبرا ولامكروها"[1] .

ولكن كيف يكون الانسان فاعلا مختارا على الحقيقة لامجبرا ولامكرها وابن حزم نفسه يقول : "نص - تعالى - على ان لنا مشيئة الا انها لاتكون منا الا ان يشاء الله كونها وهذا نص قولنا"[2] .

لا ريب انه من مجموع كلامه يتضح انه موافق للاشاعرة ، ولكن صعوبة الموضوع لابد ان تترك في كلامه صعوبة لايستطيع القارئ ان يحدد بالضبط مايقصده - والله اعلم - .

ابن تيمية :

بحث ابن تيمية - رحمه الله - موضوع القدر بتفصيل طويل ، ويكفي ان نعلم ان المجلد الثامن من مجموع الفتاوي قد خصص لهذا الموضوع هذا عدا الرسائل والبحوث الاخرى المتفرقة ، وقد بحث - رحمه الله - اصول هذه المسألة وفروعها وماترتب عليها ، وقد اتسم منهجه بكثرة النصوص مستدلا بها ومتأثرا بها حتى في المصطلحات ، غير ان الحق انه في نهاية المطاف لم يستطع ان يأتي بما يفك اللغز ويحل الاشكال ، وهذا يؤكد الحقيقة الكبيرة ان العقل ليس باستطاعته ان يفهم كل شئ .

نستطيع ان نقدم منهج ابن تيمية مختصرا في النقاط التالية :

اولا : رد ابن تيمية على اغلب الذين تكلموا بالقدر ردا قويا حتى كاد ان لايسلم منه احد ، ولنقرأ هذه النتف الصغيرة من كلامه :

"وهذا المقام مقام واي مقام !!! زلت فيه اقدام ، وضلت فيه افهام ، وبدّل فيه دين المسلمين ، والتبس فيه اهل التوحيد بعبّاد الاصنام ، على كثير ممن يدعون نهاية التوحيد والتحقيق والمعرفة والكلام ، ومعلوم عند كل من يؤمن بالله ورسوله ان المعتزلة والشيعة القدرية المثبتين للامر والنهي والوعد والوعيد خير ممن يسوي بين المؤمن والكافر ، والبر والفاجر ، والنبي الصادق ، والمتنبئ الكاذب ، واولياء الله واعدائه ، ويجعل هذا غاية التحقيق ، ونهاية التوحيد ، وهؤلاء يدخلون في مسمى "القدرية" الذين ذمهم السلف ، بل هم احق بالذم من المعتزلة ونحوهم ، كما قال ابو بكر الخلال في "كتاب السنة" الرد على القدرية وقولهم : ان الله اجبر العباد على المعاصي"[3] وواضح ان هذا الرد مسلط على الجبرية او "القدرية" كما يرجح تسميتهم بها ، ولكنه شمل في الحقيقة المعتزلة ونحوهم .

---

(١) المصدر السابق : ٥٣/٣ .
(٢) المصدر السابق : ٢٣/٣ .
(٣) ابن تيمية ، مجموع الفتاوي : ١٠٣/٨ .

ويقول ايضا : "واما جمهور القدرية فهم يقرون بالعلم والكتاب المتقدم لكن ينكرون ان الله خلق افعال العباد وارادة الكائنات ، وتعارضهم القدرية المجبرة الذين يقولون : ليس للعبد قدرة ولاارادة حقيقية ولاهو فاعل حقيقة ، وكل هؤلاء مبتدعة ضلال" [(١)] ، ومن خلال هذين النصين يتبين موقف ابن تيمية من المذهبين الضدين : القدر والجبر ، فابن تيمية يعدهما "قدرية" لانهم تكلموا بالقدر بغير حق ، وهم ضلال مبتدعة ، وقد يظن ظان ان سيميل الى الوسطية الاشعرية لكن اسمع كلامه في الكسب والقائلين به :

"ثم اثبتوا كسبا لاحقيقة له ، فانه لايعقل من حيث تعلق القدرة بالمقدور فرق بين الكسب والفعل ، ولهذا صار الناس يسخرون بمن قال هذا ، ويقولون : ثلاثة اشياء لاحقيقة لها ، طفرة النظام ، واحوال ابي هاشم ، وكسب الاشعري" [(٢)] .

ويقول ايضا : "واخذوا يفرقون بين الكسب الذي اثبتوه وبين الخلق ، فقالوا : الكسب عبارة عن اقتران المقدور بالقدرة الحادثة ، والخلق هو المقدور بالقدرة القديمة ... فقال لهم الناس : هذا لايوجب فرقا بين كون العبد كسب وبين كونه فعل واوجد واحدث وصنع وعمل ونحو ذلك فان فعله واحداثه وعمله وصنعه هو ايضا مقدور بالقدرة الحادثة وهو قائم في محل القدرة الحادثة ، وايضا فهذا الفرق لاحقيقة له ..." [(٣)] .

واذا كان ابن تيمية قد انتقد الضدين والوسط فالى اين سيتجه ؟! سنرى في النقطة التالية :

ثانياً : رسم ابن تيمية لنفسه منهجاً وسطياً ايضا لكن ليس كوسطية الاشعرية وانما وسطية نستطيع ان نصفها انها تبدأ بالقدر وتنتهي بالجبر !! ولذلك نستطيع ان نقسم منهجه الى النقطتين التاليتين :

أ- يشارك ابن تيمية القدرية في اثبات القدرة الحادثة للانسان وانه يفعل ويصنع مايشاء ، ولننظر في هذه الجمل من كلامه :

"اعلم ان العبد فاعل على الحقيقة وله مشيئة ثابتة ، وله ارادة جازمة وقوة صالحة ، وقد نطق القرآن باثبات مشيئة العباد في غير ماآية كقوله : "لمن شاء منكم ان يستقيم وماتشاؤون الا ان يشاء الله رب العالمين" [(٤)] "فمن شاء اتخذ الى ربه سبيلا" [(٥)] ... ونطق باثبات فعله في عامة آيات القرآن : "يعملون" "يفعلون" "يؤمنون" "يكفرون" "يتفكرون" "يحافظون" "يتقون" [(٦)] .

---

(١) المصدر السابق : ٨/٢٨٨ - ٢٨٩ .

(٢) المصدر السابق : ٨/١٢٨ .

(٣) المصدر السابق : ٨/١١٩ .

(٤) التكوير : ٢٨ - ٢٩ .

(٥) المزمل : ١٩ .

(٦) ابن تيمية ، مجموع الفتاوي :٣٩٣ .

ويقول ايضا : "اما قول القائل : مالنا في جميع افعالنا قدرة فقد كذب ، فانه - سبحانه - فرّق بين المستطيع القادر وغير المستطيع ، فقال : "فاتقوا الله ما استطعتم" [1] ، وقال : "ولله على الناس حج البيت من استطاع اليه سبيلا" [2] ... والله قد اثبت للعبد مشيئة وفعلا " [3] .

ب- ثم يرجع بعد هذا الى قول الجبرية لارجوع نسخ والغاء ، وانما رجوعا مرحليا توفيقيا او هي انعطافة في منتصف الطريق تجنبا للمأزق الشائك ، ولنستمع اليه وهو يحدثنا عن هذه الانعطافة بصريح العبارة :

"فان قيل : هب ان فعلي الذي اردته واخترته هو واقع بمشيئتي وارادتي ، اليست تلك الارادة وتلك المشيئة من خلق الله - تعالى - ؟ واذا خلق الامر الموجب للفعل فهل يتأتى ترك الفعل معه ؟ اقصى مافي الباب ان الاول جبر بغير توسط الارادة من العبد ، وهذا جبر بتوسط الارادة ، فنقول : الجبر المنفي هو الاول كما فسرناه ، واما اثبات القسم الثاني فلاريب فيه عند اهل الاستنان والآثار واولي الالباب والابصار ، لكن لايطلق عليه اسم الجبر خشية الالتباس بالقسم الاول ، وفرارا من تبادر الاذهان اليه ، وربما سمي جبرا اذا أمن من اللبس وعلم القصد" [4] .

وهكذا يتلخص منهج ابن تيمية في السلسلة الاتية : ان العبد يفعل مايشاء بمشيئته هو ، الا ان هذه المشيئة هي من الله وهو مجبور عليها .

وفي الحقيقة فاني لاجد كبير فرق بين ان يقول الانسان : ان الله اجبرني على فعل السرقة ، او جبرني على ارادة السرقة ، لاسيما وان الذي دفع القدرية الى القول بالارادة الحرة للانسان لم يحلّ هنا ، فالقدرية يقولون : بما ان الله يثيب الطائع ويعاقب العاصي فلابد ان يكون مريدا مختارا ، ولو لم يكن كذلك فعقابه ظلم !! فهل استطاع ابن تيمية ان يحل هذا الاشكال ؟!

لكن لنرجع الى اصل هذا الاشكال ، هل ان الانسان محتاج حقيقة الى حله ؟ لقد خلق الله الانسان في هذه الارض وارسل اليه رسله يبلغونه امره ونهيه : افعل ولاتفعل ، والانسان يشعر بانه مختار وقادر فيستطيع ان يطيع ويستطيع ان يعصي ، هذه حقيقة يجدها الانسان في نفسه شأنها شأن بقية اعماله فهو ينام في الوقت الذي يريد ، ويأكل ويشرب ويعلم انه ان شرب الدواء يشفى وان شرب السم يموت وهو حر قادر في كل هذا ، وعلى اساس هذه الحرية يعتب الانسان على اخيه حينما يسئ اليه وربما يطالب بمعاقبته ، ويشكر من يحسن اليه ، فحق الانسان على الانسان لايسقط لاعند القدرية

---

(١) التغابن : ١٦ .

(٢) آل عمران : ٩٧ .

(٣) ابن تيمية ، مجموع الفتاوي : ٢٦٧/٨ .

(٤) المصدر السابق : ٣٩٤/٨ - ٣٩٥ .

ولاعند الجبرية ، فلماذا لايكون حق الله ايضا كذلك ؟ واذا كان الامر كذلك فماحاجة الانسان الى ان يعرف الارادة الالهية وكيفية عملها وصلتها بارادة الانسان ؟ ان هذا بعيد عن وظيفة الانسان وعن حدود ادراكه العقلي [1] ، وان الله الذي خلق الانسان اعلم بطاقته وبما يصلحه ، والله الاعلم والاحكم .

---

(١) لابد ان يعلم الانسان ان طاقته العقلية محدودة ، بدليل ان العقل لايمكن له ان يدرك الا المحدود ، "لايستطيع ان يدرك شيئا حتى يحصره بين اثنين ... تصور خلود المؤمنين في الجنة ! ان عقل المؤمن موقن بانه حقيقة ... ولكن هل يحيط عقلك بالخلود ؟ ركز فكرك فيه ، تجد انك تتصور بقاءهم في الجنة قرنا وقرنين ، ومائة قرن ، ومليون والف مليون ، ثم تجد عقلك عاجزا ، ويسأل : وبعد ؟ انه يريد ان يضع لذلك نهاية ، انه لايدرك اللانهاية ، ... ان العقل يختل ميزانه ان حاول الحكم على غير المحدود" . علي الطنطاوي ، تعريف عام بدين الاسلام : ١/٥٤-٥٥ .
فاذا ادرك العقل عجزه عن هذا الادراك ، فالعجز عن الادراك ادراك – والله اعلم – .

الباب الثالث

النبوات

الفصل الأول: الأنبياء والرسل -عليهم الصلاة والسلام-

الفصل الثاني: الوحي والرسالات

الباب الثالث

النبوات

الفصل الأول: الأنبياء والرسل -عليهم الصلاة والسلام-

الفصل الثاني: الوحي والرسالات

المبحث الاول
الانبياء والرسل في القرآن الكريم

قد نستطيع ان نتبين منهج القرآن في هذا الموضوع من خلال النقاط التالية :

اولاً - اهمية الايمان بالانبياء

منح القرآن الكريم مسألة الايمان بالانبياء والرسل اهمية كبيرة تتناسب مع عظمتها وخطورة شأنها ، فأننا حينما تحدثنا عن التوحيد فهمنا ان التوحيد لايتم بل ولايسمى توحيداً الا بأفراد الله في العبودية ، اذ معنى "لا اله الا الله" انه لامعبود بحق الا الله ، والمعبود هو المطاع [1] ، والعبادة هي امتثال الامر والنهي ، وهذا يقتضي ان لله اوامر ونواهي ، فكيف يتعرف الانسان على هذه الاوامر والنواهي ؟ انه لاطريق للتلقي من الله الا بواسطة الرسل - عليهم الصلاة والسلام - ، وعلى هذا فان الذي لايؤمن بالرسل لايمكن ان يكون موحداً لله ، ومن هذا ندرك لماذا اهتم القرآن بهذه القضية ، ولنلاحظ الآن مظاهر هذا الاهتمام في النماذج التالية :

أ- كثرة النصوص القرآنية التي جاءت مفصلّة ومبينة ومؤكدة هذه القضية ، ويكفي ان نعلم ان كلمة "الرسول" وحدها تكررت في القرآن الكريم بنحو "٣٦٣"مرة ، وكلمة "النبي" بنحو "٧٥"مرة . واما الحديث عنهم - عليهم الصلاة والسلام - وماجرى لهم فهذا استطيع ان اجزم انه يمثل اغلب القرآن .

ب- اقتران الايمان بهم بالايمان بالله في مواضع كثيرة من القرآن الكريم ، سواء كان هذا في النبوة العامة او الخاصة ، ولنأخذ بعض النماذج من الصنفين ، فأما في النبوة العامة فلنقرأ مثلاً :

"ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر ، والملكئة والكتاب والنبيين" [2]

"قولوا آمنا بالله وماانزل الينا وماانزل الى ابراهيم واسماعيل واسحاق ويعقوب والاسباط وماأوتي موسى وعيسى وماأوتي النبيون من ربهم لانفرق بين احد منهم ونحن له مسلمون" [3]

"والذين آمنوا بالله ورسله اولئك هم الصديقون" [4]

"ان الذين يكفرون بالله ورسله ويريدون ان يفرقوا بين الله ورسله ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون ان يتخذوا بين ذلك سبيلاً . اولئك هم الكفار حقاً واعتدنا

---

(١) جاء في مختار الصاح " والعبادة : الطاعة" مختار الصاح : ٤٠٨ .

(٢) البقرة : ١٧٧ .

(٣) البقرة : ١٣٦ .

(٤) الحديد : ١٩ .

للكافرين عذاباً مهينا . والذين آمنوا بالله ورسله ولم يفرقوا بين احد منهم اولئك سوف يؤتيهم اجورهم وكان الله غفوراً رحيما" [١]

وفي النبوة الخاصة لنقرأ :

"يا ايها الذين آمنوا آمنوا بالله ورسوله والكتاب الذي نزّل على رسوله" [٢] .

"فآمنوا بالله ورسوله النبي الامي" [٣] .

"وما منعهم ان تقبل منهم نفقاتهم الا انهم كفروا بالله ورسوله" [٤] .

"الم يعلموا انه من يحادد الله ورسوله فان له نار جهنم" [٥] .

"انما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله" [٦]

جـ- التحذير من تكذيبهم وتخويف المكذبين بما لاقى اسلافهم ، ويكفي ان نمر على هذه الآيات :

"كذبت قبلهم قوم نوح فكذبوا عبدنا وقالوا مجنون وازدجر . فدعا ربه اني مغلوب فأنتصر . ففتحنا ابواب السماء بماء منهمر . وفجرنا الارض عيوناً فالتقى الماء على امر قد قدر . وحملناه على ذات الواح ودسر . تجري بأعيننا جزاء لمن كان كفر . ولقد تركناها آية فهل من مدكر . فكيف كان عذابي ونذر" [٧] .

"كذبت قبلهم قوم نوح وعاد وفرعون ذو الاوتاد . وثمود وقوم لوط واصحاب الايكة اولئك الاحزاب . ان كل الا كذب الرسل فحق عقاب . ومابنظر هؤلاء الا صيحة واحدة مالها من فواق" [٨] .

"ولقد كذب اصحاب الحجر المرسلين . وآتيناهم آياتنا فكانوا عنها معرضين . وكانوا ينحتون من الجبال بيوتاً آمنين . فأخذتهم الصيحة مصبحين . فماأغنى عنهم ماكانوا يكسبون" [٩] .

"ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات فسئل بني اسرائيل اذ جاءهم فقال له فرعون اني لأظنك ياموسى مسحوراً . قال لقد علمت ماأنزل هؤلاء الا رب السموات والارض واني لأظنك يافرعون مثبورا .فأراد ان يستفزهم من الارض فأغرقناه ومن معه جميعا" [١٠]

---

(١) النساء : ١٥٠ – ١٥٢ .
(٢) النساء : ١٣٦ .
(٣) الاعراف : ١٥٨ .
(٤) التوبة : ٥٤ .
(٥) التوبة : ٦٣ .
(٦) النور : ٦٢ .
(٧) القمر : ٩ – ١٦ .
(٨) ص : ١٢ – ١٥ .
(٩) الحجر : ٨٠ – ٨٤ .
(١٠)الاسراء : ١٠١ – ١٠٣ .

ثانياً - وظيفة الرسل - عليهم الصلاة والسلام -

اكد القرآن على ان وظيفة الرسل الحقيقية انما هي التبليغ ، تبليغ شريعة الله لخلق الله ، ولنقرأ هذه الآيات :

"فأن اعرضوا فماارسلناك عليهم حفيظا ان عليك الا البلاغ" [1] .

"وما على الرسول الا البلاغ المبين" [2] .

"فهل على الرسل الا البلاغ المبين" [3]

وقد يأتي التبليغ بلفظ الدعوة والتبيين والهدى كما في هذه الآيات :

"ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي احسن" [4] .

"وما ارسلنا من رسول الا بلسان قومه ليبين لهم" [5] .

"وانزلنا اليك الذكر لتبيّن للناس مانزّل اليهم" [6] .

"وانك لتهدي الى صراط مستقيم" [7] .

وقد يأتي بلفظ الامر بالمعروف والنهي عن المنكر لزيادة مقصودة في معنى التبليغ ولنقرأ :

"الذين يتّبعون الرسول النبي الامي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والانجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر" [8] .

وقد يقترن التبليغ بالوعد او الوعيد فيكون تبشيراً او انذاراً ، وقد تكرر هذا في القرآن كثيراً ولنقرأ :

"انا ارسلناك بالحق بشيراً ونذيرا" [9] .

"وما ارسلناك الا كافة للناس بشيراً ونذيرا" [10] .

"انما انت منذر" [11] .

---

(١) الشورى : ٤٨ .

(٢) العنكبوت : ١٨ .

(٣) النحل : ٣٥ .

(٤) النحل : ١٢٥ .

(٥) ابراهيم : ٤ .

(٦) النحل : ٤٤ .

(٧) الشورى : ٨٢ .

(٨) الاعراف : ١٥٧ .

(٩) البقرة : ١١٩ .

(١٠) سبأ : ٢٨ .

(١١) الرعد : ٧ .

"فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين" [١] .

"وما نرسل المرسلين الا مبشرين ومنذرين" [٢] .

والتبليغ قد يحتاج الى جهاد بالنفس والمال ، فيكون الجهاد واجباً عليهم وجزءاً من وظيفتهم ، ولنقرأ :

"يأيها النبي جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم" [٣] .

"فلاتطع الكافرين وجاهدهم به جهاداً كبيرا" [٤] .

والتبليغ قد يكون خاصاً لقوم مخصوصين كما هو حال الانبياء السابقين ، وقد يكون عاماً للناس اجمعين كما هو في حق سيدنا محمد – صلى الله عليه وسلم – ولنقرأ اولاً امثلة من التبليغ الخاص :

"كذبت قوم نوح المرسلين . اذ قال لهم اخوهم نوح الا تتقون . اني لكم رسول مبين" [٥] .

"والى عاد اخاهم هودا قال ياقوم اعبدوا الله" [٦] .

"والى ثمود اخاهم صالحاً قال ياقوم اعبدوا الله" [٧] .

"واتل عليهم نبأ ابراهيم . اذ قال لابيه وقومه ماتعبدون" [٨] .

"كذبت قوم لوط المرسلين . اذ قال لهم اخوهم لوط الا تتقون" [٩] .

"والى مدين اخاهم شعيباً قال ياقوم اعبدوا الله" [١٠] .

"ثم بعثنا من بعدهم موسى بآياتنا الى فرعون وملائه" [١١] .

"فلولا كانت قرية آمنت فنفعها ايمانها الا قوم يونس" [١٢]

"اذ قال عيسى ابن مريم يابني اسرائيل اني رسول الله اليكم" [١٣] .

(١) البقرة : ٢١٣ .

(٢) الانعام : ٤٨ .

(٣) التوبة : ٧٣ .

(٤) الفرقان : ٥٢ .

(٥) الشعراء : ١٠٥ – ١٠٧

(٦) الاعراف : ٦٥

(٧) الاعراف : ٧٣ .

(٨) الشعراء : ٦٩ – ٧٠ .

(٩) الشعراء : ١٦٠ – ١٦١ .

(١٠) الاعراف : ٨٥ .

(١١) الاعراف : ١٠٣ .

(١٢) يونس : ٩٨ .

(١٣) الصف : ٦ ، وقد جاء في الانجيل الموجود الآن مايؤيد هذا ، اقرأ مثلاً عن عيسى –عليه السلام– انه قال : "لم ارسل الا الى خراف بيت اسرائيل الضالة" انجيل متي ، الاصحاح : ١٥ – ٢٤ .

ثم لنقرأ امثلة من التبليغ العام :

"وما ارسلناك الا كافة للناس بشيراً ونذيرا" [١] .

"وما ارسلناك الا رحمة للعالمين" [٢] .

"يأأيها الناس قد جاءكم الرسول بالحق من ربكم" [٣] .

"وارسلناك للناس رسولا" [٤] .

"هو الذي ارسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله" [٥] .

وينبغي الاشارة بعد هذا الى حقيقة مهمة وهي ان وظيفة الرسل هذه يتحملها المؤمنون من بعدهم لان عمر الرسول محدود ، ولاتتم الفائدة الا بوجود ورثة للرسول يحملون بعده هذه الامانة ، والا تطلب الامر وجود الرسل ابداً بين الناس ، او ضياع الامر والنهي ، ولهذا يقول الله - تعالى - مخاطباً الامة بما خاطب به نبيها :

"ولتكن منكم امة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر واولئك هم المفلحون" [٦] .

"كنتم خير امة اخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله" [٧] .

"انفروا خفافاً وثقالاً وجاهدوا بأموالكم وانفسكم في سبيل الله" [٨] .

"ام حسبتم ان تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين" [٩] .

وهذه الحقيقة الكبيرة [١٠] هي التي دفعت الصحابة الكرام - رضي الله عنهم - الى مواصلة المسير مبلغين دعوة الله ، ومجاهدين في سبيلها ، وماذا كان الانسان يتصور لو ان هذه المهمة كانت مهمة الرسول لوحده ؟!!

ثالثاً - صفاتهم - عليهم الصلاة والسلام -

تحدث القرآن بأسهاب عن صفات الانبياء - عليهم الصلاة والسلام - وهو في كل

---

(١) سبأ : ٢٨ .

(٢) الانبياء : ١٠٧ .

(٣) النساء : ١٧٠ .

(٤) النساء : ٧٩ .

(٥) التوبة : ٣٣ .

(٦) آل عمران : ١٠٤ .

(٧) آل عمران : ١١٠ .

(٨) التوبة : ٤١ .

(٩) آل عمران : ١٧٢ .

(١٠) انظر ماكتبه الاستاذ عبد الكريم زيدان تحت عنوان "الامة شريكة لرسولها في وظيفة الدعوة الى الله" اصول الدعوة " ٣٠٨ .

حديثه لم يخرج عن منهجه المعروف ، فهو لايحدثنا الا عما نحتاجه في وظيفتنا . ولنر هذا من خلال الصفات التالية :

١- الامانة والصدق في التبليغ :

"ولو تقول علينا بعض الاقاويل لاخذنا منه باليمين ثم لقطعنا منه الوتين فمامنكم من احد عنه حاجزين" [١] .

"ومانطق عن الهوى ان هو الا وحي يوحى" [٢] .

"وقال موسى يافرعون اني رسول من رب العالمين . حقيق على ان لااقول على الله الا الحق" [٣] .

"يأيها الناس قد جاءكم الرسول بالحق من ربكم" [٤] .

"واذ تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين لايرجون لقاءنا أئت بقرآن غير هذا او بدله قل مايكون لي ان ابدله من تلقاء نفسي ان اتبع الا مايوحى اليّ اني اخاف ان عصيت ربي عذاب يوم عظيم" [٥] .

"عالم الغيب فلايظهر على غيبه احدا . الا من ارتضى من رسول فانه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصدا . ليعلم ان قد ابلغوا رسالات ربهم واحاط بمالديهم واحصى كل شئ عددا" [٦] .

٢- الخلق الكريم :

فلقد وصفهم القرآن بأنهم من طراز فريد في الاخلاق ، وربما يوجز في هذا ، وربما يفصل فمما اوجزه القرآن "وانك لعلى خلق عظيم" [٧]

لكن الذي يهمنا هنا التفصيل لمعان مهمة في الاخلاق لاسيما تلك المتعلقة بوظيفة الرسل الاساسية ، ولنأخذ هذه الامثلة :

أ- التجرد لله - تعالى - في الدعوة ، وعدم النظر الى مافي ايدي الناس ، فلقد قال نوح لقومه : "وما أسألكم عليه من اجر ان اجري على رب العالمين" [٨] .

---

(١) الحاقة : ٤٤ - ٤٧ .

(٢) النجم : ٣ - ٤ .

(٣) الاعراف : ١٠٤ - ١٠٥ .

(٤) النساء : ١٧٠ .

(٥) يونس : ١٥ .

(٦) الجن : ٢٦ - ٢٨ .

(٧) القلم : ٤ .

(٨) الشعراء : ١٠٩ .

وقال هود لقومه : "وما أسألكم عليه من اجر ان اجري على رب العالمين" [١] .

وقال صالح لقومه : "وما أسألكم عليه من اجر ان اجري على رب العالمين" [٢] .

وقال لوط لقومه : "وما أسألكم عليه من اجر ان اجري على رب العالمين" [٣] .

وقال شعيب لقومه : "وما أسألكم عليه من اجر ان اجري على رب العالمين" [٤] .

وقال الله لمحمد – صلى الله عليه وعلى من قبله – : "وما تسألهم عليه من اجر" [٥] .

ب- الصدق :

"واذكر في الكتاب ادريس انه كان صديقاً نبيا" [٦] .

"واذكر في الكتاب اسماعيل انه كان صادق الوعد وكان رسولاً نبيا" [٧] .

"يوسف ايها الصديق افتنا في سبع بقرات" [٨] .

"واذكر في الكتاب ابراهيم انه كان صديقاً نبيا" [٩] .

جـ- الامانة :

قال نوح لقومه : " اني لكم رسول امين" [١٠] .

وقال هود لقومه : " اني لكم رسول امين" [١١] .

وقال صالح لقومه : " اني لكم رسول امين" [١٢] .

وقال لوط لقومه : " اني لكم رسول امين" [١٣] .

وقال شعيب لقومه : " اني لكم رسول امين" [١٤] .

وعن موسى : "إن خير من استأجرت القوي الامين" [١٥]

---

(١) الشعراء : ١٢٧ .

(٢) الشعراء : ١٤٥ .

(٣) الشعراء : ١٦٤ .

(٤) [illegible]

(٥) يوسف : ١٠٤ .

(٦) مريم : ٥٦

(٧) مريم : ٥٤ .

(٨) يوسف : ٤٦ .

(٩) مريم : ٤١ .

(١٠) الشعراء : ١٠٧ .

(١١) الشعراء : ١٢٥ .

(١٢) الشعراء : ١٤٣ .

(١٣) الشعراء : ١٦٣ .

(١٤) الشعراء : ١٧٨ .

(١٥) القصص : ٢٦ .

وعن يوسف : "قال انك اليوم لدينا مكين امين" [١] .

د – العفاف والطهر :

فعن لوط : "ولوطاً اذ قال لقومه أتأتون الفاحشة ماسبقكم بها من احد من العالمين. انكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء بل انتم قوم مسرفون . وماكان جواب قومه الا ان قالوا اخرجوهم من قريتكم انهم اناس يتطهرون" [٢]

وعن يوسف : "وراودته التي هو في بيتها عن نفسه وغلقت الابواب وقالت هيت لك قال معاذ الله" [٣] . و "ولقد راودته عن نفسه فأستعصم ولئن لم يفعل ماأمره ليسجنن وليكونا من الصاغرين . قال رب السجن احب الي مما يدعونني اليه" [٤]

هـ– الحلم والصبر :

فعن ابراهيم : "ان ابراهيم لأوّاه حليم" [٥] . "ان ابراهيم لحليم اوّاه" [٦] . وعن اولي العزم : "فأصبر كما صبر الولا العزم من الرسل" [٧] .

وعن جملة من الرسل تحدث القرآن عنهم ثم عطف عليهم بقوله : "واسماعيل وادريس وذا الكفل كل من الصابرين . وادخلناهم في رحمتنا انهم من الصالحين" [٨] .

وعن الرسل كافة : "ولقد كُذّبت رسل من قبلك فصبروا على ماكذبوا واوذوا" [٩] .

و– اللين والتواضع :

قال الله عن رسوله محمد – صلى الله عليه وسلم – : "فبما رحمة من الله لنت لهم ، ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك" [١٠] .

وعن عيسى – عليه السلام – : "قال اني عبد الله آتاني الكتاب وجعلني نبيا . وجعلني مباركاً اين ماكنت واوصاني بالصلاة والزكاة مادمت حيا . وبراً بوالدتي ولم يجعلني جباراً شقيا . والسلام علي يوم ولدت ويوم اموت ويوم ابعث حيا" [١١] .

---

(١) يوسف : ٥٤ .

(٢) الاعراف : ٨٠ – ٨٢ .

(٣) يوسف : ٢٣ .

(٤) يوسف : ٣٢ – ٣٣ .

(٥) التوبة : ١١٤ .

(٦) هود : ٧٥ .

(٧) الاحقاف : ٣٥ .

(٨) الانبياء : ٨٥ – ٨٦ .

(٩) الانعام : ٣٤ .

(١٠) آل عمران : ١٥٩ .

(١١) مريم : ٣٠ – ٣٣ .

ز - الشجاعة : ولنقرأ هذه الامثلة :

عن ابراهيم : [1] "فراغ الى الهتهم فقال الا تأكلون . مالكم لاتنطقون فراغ عليهم ضرباً باليمين ، فأقبلوا اليه يزفون . قال اتعبدون ماتنحتون . والله خلقكم وماتعملون . قالوا ابنوا له بنياناً فألقوه في الجحيم . فأرادوا به كيداً فجعلناهم الاسفلين" [2] .

وعن موسى : "ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات فسأل بني اسرائيل اذ جاءهم فقال له فرعون اني لاظنك يا موسى مسحورا . قال لقد علمت ماانزل هؤلاء الا رب السموات والارض بصائر واني لاظنك يا فرعون مثبورا" [3] .

وعن محمد - عليه وعلى من قبله الصلاة والسلام - : " محمد رسول الله والذين معه اشداء على الكفار " [4] . و "اذ تصعدون ولاتلوون على احد والرسول يدعوكم" [5] .

٣- الفطانة والحكمة وقوة الحجة : ونستطيع ان نجدها في ثلاثة نماذج من الآيات :

أ- الاخبار عنهم بهذه الصفات صراحة مثل قوله تعالى - عن ابراهيم : "وتلك حجتنا آتيناها ابراهيم على قومه" [6] ، ومثل قوله - تعالى - عن داود : "وقتل داود جالوت وآتاه الله الملك والحكمة وعلمه مما يشاء" [7] ، و "شددنا ملكه وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب" [8] . وعن يوسف : "قال اجعلني على خزائن الارض اني حفيظ عليم" [9] . وعن محمد - صلى الله عليه وعلى من قبله - : "سنقرئك فلاتنسى" [10] .

ب - عرض هذه الصفات من خلال الحوار والمجادلة ، ولنأخذ هذه الامثلة :

---

(١) يقول الاستاذ عفيف عبد الفتاح طبارة تحت عنوان "درس في الشجاعة" : "ان في حياة ابراهيم درس في الشجاعة والاقدام والاستماتة في سبيل المبدأ والعقيدة ، فابراهيم يقف وجهاً لوجه امام قومه الذين فشت فيهم عبادة الاصنام ، يسفه معتقداتهم ويدعوهم بالحجة والبرهان الى ترك عبادتها ... لم يجد ابرهيم آذاناً صاغية لدعوته ... فلم يثنه ذلك عن قصده ... بل شهر في وجوه قومه سلاحاً امضى واقوى ، سلاحاً يدمر معتقداتهم ويزلزل بنيان مقدساتهم ، انه سلاح مقاومة الباطل باليد ... ان نتيجة هذا العمل واضحة للعيان : اما موته المحقق ، واما اقناع قومه" . مع الانبياء في القرآن الكريم : ١٣٨ .

(٢) الصافات : ٩١ - ٩٨ .

(٣) الاسراء : ١٠١-١٠٢ .

(٤) الفتح : ٢٩ .

(٥) آل عمران : ١٥٣ .

(٦) الانعام : ٨٣ .

(٧) البقرة : ٢٥١ .

(٨) ص : ٢٠ .

(٩) يوسف : ٥٥ .

(١٠) الاعلى : ٦ .

ابراهيم : "الم تر الى الذي حاجّ ابرهيم في ربه ان آتاه الله الملك اذ قال ابراهيم ربي الذي يحيي ويميت قال انا أحيي وأميت قال ابراهيم فان الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت الذي كفر" [١] .

يوسف : "ودخل معه السجن فتيان قال احدهما اني اراني اعصر خمرا وقال الآخر اني اراني احمل فوق رأسي خبزا تأكل الطير منه نبئنا بتأويله انا نراك من المحسنين . قال لايأتيكما طعام ترزقانه الا نبأتكما بتأويله قبل ان يأتيكما ذلكما مما علمني ربي اني تركت ملة قوم لايؤمنون بالله وهم بالآخرة هم كافرون . واتبعت ملة آبائي ابراهيم واسحق ويعقوب ماكان لنا نشرك بالله من شيء ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس ولكن اكثر الناس لايشكرون . ياصاحبي السجن أأرباب متفرقون خير ام الله الواحد القهار . ماتعبدون من دونه الا اسماء سميتموها انتم وآباؤكم ماانزل الله بها من سلطان ان الحكم الا لله امر الا تعبدوا الا اياه ذلك الدين القيم ولكن اكثر الناس لايعلمون . يا صاحبي السجن اما أحدكما فيسقي ربه خمرا واما الآخر فيصلب فتأكل الطير من رأسه قضي الامر الذي فيه تستفتيان" [٢] .

فانظر في المثال الاول لما اراد الطاغية ان يراوغ في قضية الاماتة والاحياء كيف ترك ابراهيم هذه المسألة وفاجأ الطاغية بسؤال لم يتوقعه فأرداه باهتا [٣] وتصور لو انا افترضنا ان ابراهيم بقى يجادله في المسألة الاولى ماذا تكون النتيجة ؟ ! ثم لاحظ ان سؤال ابراهيم الثاني لايدع المجال حتى للمكابر ، فتخيل لو ان ابراهيم قال له : من خلق الشمس ؟ فان المكابر قد يقول : انا ، ولكن ابراهيم طالبه بفعل جديد في الشمس ، فماذا يقول المكابر ؟! .

وفي المثال الثاني انظر كيف استغل يوسف حاجة صاحبيه الى علمه [٤] ، فحينما سألاه عن رؤياهما كان يعلم انهما سيصغيان اليه فاستغل هذا الظرف فأخّر الجواب وبدأ يسألهما عن التوحيد والشرك ويبيّن لهما الحقيقة ثم لما اكمل مهمته في تبليغ الدعوة شرع في الجواب !!

جـ - ان يعرضها القرآن من خلال بعض المواقف الذكية والمخارج البارعة ولنبق مع الجد الكريم والحفيد الكريم :

---

(١) البقرة : ٢٥٨ .

(٢) يوسف : ٣٦-٤١ .

(٣) انظر "مع الانبياء في القرآن الكريم" : ١١٩ .

(٤) يقول سيد قطب - رحمه الله - : وينتهز يوسف هذه الفرصة ليبث بين السجناء عقيدته الصحيحة ، فكونه سجينا لايعفيه من تصحيح العقيدة الفاسدة والاوضاع الفاسدة .. ويبدأ يوسف مع صاحبي السجن من موضوعهما الذي يشغل بالهما ، فيطمئنهما ابتداء الى انه سيؤول لهم الرؤى .. وبذلك يكسب ثقتهما منذ اللحظة الاولى ... ويبدو في طريقة تناول يوسف للحديث لطف مدخله الى النفوس ، وكياسته وتنقله في الحديث في رفق لطيف ، وهي سمة هذه الشخصية البارزة في القصة بطولها "في ظلال القرآن" : ٤/١٩٨٨ .

ابراهيم :" تالله لاكيدن اصنامكم بعد ان تولوا مدبرين . فجعلهم جذاذا الا كبيرا لهم لعلهم اليه يرجعون . قالوا من فعل هذا بآلهتنا انه لمن الظالمين . قالوا سمعنا فتى يذكرهم يقال له ابراهيم . قالوا فأتوا به على اعين الناس لعلهم يشهدون . قالو أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا ابراهيم . قال بل فعله كبيرهم هذا فسألوهم ان كانوا ينطقون . فرجعوا الى انفسهم فقالوا انكم انتم الظالمون . ثم نكسوا على رؤوسهم لقد علمت ماهؤلاء ينطقون . قال افتعبدون من دون الله مالاينفعكم شيئا ولايضركم . أفّ لكم ولما تعبدون من دون الله افلا تعقلون ؟!"[1] .

يوسف : "ولما دخلوا على يوسف اوى اليه اخاه قال اني انا اخوك فلاتبتئس بما كانوا يعملون . فلما جهزهم بجهازهم جعل السقاية في رحل اخيه ثم اذّن مؤذن ايتها العير انكم لسارقون . قالوا واقبلوا عليهم ماذا تفقدون . قالوا نفقد صواع الملك ولمن جاء به حمل بعير وانا به زعيم . قالوا تالله لقد علمتم ماجئنا لنفسد في الارض وماكنا سارقين . قالوا فماجزاؤه ان كنتم كاذبين . قالوا جزاؤه من وجد في رحله فهو جزاؤه كذلك نجزي الظالمين . فبدأ بأوعيتهم قبل وعاء اخيه ثم استخرجها من وعاء اخيه كذلك كدنا ليوسف ماكان ليأخذ اخاه في دين الملك الا ان يشاء الله نرفع درجات من نشاء وفوق كل ذي علم عليم"[2] .

وهذان المثالان لايحتاجان الى تعليق ، ففي كل جملة التفاتة ذكية وكيد بارع وسياسة فطنة .

وهذه الصفات كلها واضحة المقصود ، انها تعنى باختصار ان الانبياء - عليهم الصلاة والسلام - هم نمط خاص من البشر ، لايدانيهم احد في كل صفات الفضيلة ، وعلى هذا فهم اهل لقيادة البشرية لتحقيق سعادتها في الدنيا والآخرة ، غير ان الموازنة لاتكتمل بهذه الصفات ، اذ ان النفس البشرية ليست قادرة دائما على الثبات في الموقف الصحيح دون تأرجح وتردد او افراط وتفريط او غلو في الكره والحب ، لقد جاءت هذه الصفات لتضع الانبياء - عليهم الصلاة والسلام - في المكانه الرائدة المرموقة من اجل وحدة القيادة والتوجيه ، لكن ماذا لو ان البشر تعدّوا بالانبياء مقامهم الحقيقي ، وذهبوا بهم بعيدا حتى يتجاوزوا بهم حدود المخلوق الى مقام الخالق - تبارك وتعالى - كما قالوا : عزير ابن الله وعيسى ابن الله - تعالى الله عن قولهم - ومن هنا كان ضروريا ان يتحدث القرآن عن نوع آخر من الصفات وهو الآتي :

٤- صفاتهم البشرية :

لقد اكد القرآن هذه الصفات لحماية جانب التوحيد ، فالخالق خالق ، والمخلوق

---

(١) الانبياء : ٥٧-٦٧ .

(٢) يوسف ٦٩-٧٦ .

مخلوق ، واذا كانت تلك الصفات تدفع بالنفس الضعيفة ان تولّه هؤلاء الصفوة فان هذه الصفات تعين على الثبات في الموقف الصحيح ، وتقي من الانزلاق ، وهي مع تلك تكمل الصورة الحقيقية لهؤلاء الصفوة ، وهذه قد لانستطيع حصرها ، الا اننا نستطيع ان نتلمسها في الامثلة الآتية :

أ – التأكيد على ان هؤلاء الصفوة هم بشر من خلق الله . ولنقرأ :

"قالت لهم رسلهم ان نحن الا بشر مثلكم" (١) .

"قل انما انا بشر مثلكم يوحى اليّ" (٢) .

"قل سبحان ربي هل كنت الا بشرا رسولا" (٣) .

"ماكان لبشر ان يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة ثم يقول للناس كونوا عبادا لي من دون الله" (٤) .

ب – التأكيد على انهم عباد الله :

فعن نوح قال القرآن : "كذبت قبلهم قوم نوح فكذبوا عبدنا وقالوا مجنون وازدجر" (٥) .

وعن داود قال : "ووهبنا لداود سليمان نعم العبد انه اواب" (٦) .

وعن ايوب : "واذكر عبدنا ايوب" (٨) .

وعن عيسى : "قال اني عبدالله آتاني الكتاب وجعلني نبيا" (٩) .

وعن محمد – صلى الله عليه وعلى اخوانه وسلم – : " سبحان الذي اسرى بعبده" (٣) . و "الحمد لله الذي انزل على عبده الكتاب" (١١) .

جـ – انهم لايملكون من امر الله شيئا ولاينفعون ولايضرون :

"ليس لك من الامر شيء" (١٢)

"قل لو عندي ماتستعجلون به لقضي الامر بيني وبينكم" (١٣) .

---

(١) ابرهيم : ١١ .

(٢) فصلت : ٦ .

(٣) الاسراء : ٩٣ .

(٤) آل عمران : ٧٩ .

(٥) القمر : ٩ .

(٦) ص : ٣٠ .

(٨) ص : ٤١ .

(٩) مريم : ٣٠ .

(٣) الاسراء : ١ .

(١١) الكهف : ١ .

(١٢) آل عمران : ١٢٨ .

(١٣) الانعام : ٥٨ .

"قل فمن يملك من الله شيئا ان اراد ان يهلك المسيح بن مريم وامه ومن في الارض جميعاً"(1) .

"قل اني لااملك لكم ضرا ولارشدا" (2) .

"لأستغفرن لك ومااملك لك من الله من شيء" (3) .

"انك لاتهدي من احببت ولكن الله يهدي من يشاء" (4) .

د - ذكر عوارضهم البشرية كالمرض والجوع والتعب والاكل والشرب ولنقرأ : عن آدم : "فقلنا يا آدم ان هذا عدو لك ولزوجك فلايخرجنكما من الجنة فتشقى . ان لك الا تجوع فيها ولاتعرى . وانك لاتظمؤ فيها ولاتضحى . فوسوس اليه الشيطان قال يا آدم هل ادلك على شجرة الخلد وملك لايبلى . فاكلا منها فبدت لهما سؤاتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة" (5) .

وعن نوح : "فكذبوا عبدنا وقالوا مجنون وازدجر . فدعا ربه اني مغلوب فانتصر" (6) .

وعن ابراهيم : "الذي خلقني فهو يهدين . والذي هو يطعمني ويسقين . واذا مرضت فهو يشفين . والذي يميتني ثم يحيين" (7) .

وعن لوط : "ولما جاءت رسلنا لوطا سيء بهم وضاق بهم ذرعا وقال هذا يوم عصيب" (8) .

وعن يعقوب : "قال اني ليحزنني ان تذهبوا به واخاف ان يأكله الذئب" (9) .

وعن ايوب : "وايوب اذ نادى ربه اني مسني الضر وانت ارحم الراحمين فاستجبنا له فكشفنا مابه من ضر" (10) .

وعن موسى : "واحلل عقدة من لساني . يفقهوا قولي" (11) . ثم "فاذا حبالهم وعصيهم يخيل اليه من سحرهم انها تسعى . فأوجس في نفسه خيفة موسى . قلنا

---

(1) المائدة : 17 .

(2) الجن : 21 .

(3) الممتحنة : 4 .

(4) القصص : 56 .

(5) طه : 117-121 .

(6) القمر : 9-10 .

(7) الشعراء : 78-81 .

(8) هود : 77 .

(9) يوسف : 13 .

(10) الانبياء : 83-84 .

(11) طه : 27-28 .

لاتخف انك انت الاعلى"[1] .

وعن يونس : "وان يونس لمن المرسلين . اذ ابق الى الفلك المشحون . فساهم فكان من المدحضين . فالتقمه الحوت وهو مليم"[2] .

وعن محمد - صلى الله عليه وعلى اخوانه وسلم - : "ولقد نعلم انك يضيق صدرك بما يقولون"[3] .

ان هذه الامثلة تبين ان هناك هدفا من وراء عرض القرآن للطبيعة البشرية عند الرسل الكرام - عليهم الصلاة والسلام - .

هـ - ذكر زلات واخطاء وقع بها الانبياء - عليهم الصلاة والسلام - :

فقد سجل القرآن كثيرا من الزلات التي وقع فيها الانبياء ولاشك ان هذا امر مقصود ، واظهر مافيه حماية جانب التوحيد فالرب رب والعبد عبد[4] . ولنقرأ مثلا :

عن آدم : "فوسوس اليه الشيطان قال يا آدم هل ادلك على شجرة الخلد وملك لايبلى . فأكلا منها فبدت لهما سوأتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة وعصى آدم ربه فغوى . ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى"[5] .

وعن داود : "اذ دخلوا على داود ففزع منهم قالوا لاتخف خصمان بغى بعضنا على بعض فاحكم بيننا بالحق ولاتشطط واهدنا الى سواء الصراط . ان هذا اخي له تسع وتسعون نعجة ولي نعجة واحدة فقال اكفلنيها وعزني في الخطاب . قال لقد ظلمك بسؤال نعجتك الى نعاجه وان كثيرا من الخلطاء ليبغي بعضهم على بعض الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليل ماهم وظن داود انما فتناه فاستغفر ربه وخرّ راكعا واناب . فغفرنا له ذلك وان له عندنا لزلفى وحسن مآب"[6] .

وعن يونس : "فاصبر لحكم ربك ولاتكن كصاحب الحوت اذ نادى وهو مكظوم . لولا ان تداركه نعمة من ربه لنبذ بالعراء وهو مذموم . فاجتباه ربه فجعله من الصالحين"[7] . و "ذا النون اذ ذهب مغاضبا فظن ان لن نقدر عليه فنادى في الظلمات ان لا اله الا انت سبحانك اني كنت من الظالمين"[8] .

---

(١) طه : ٦٦-٦٨ .

(٢) الصافات : ١٣٩-١٤٢ .

(٣) الحجر : ٩٧ .

(٤) وقد ذكر ان من حكم تسجيل الزلات هذه تبيان صدق الانبياء فيما يبلغونه ، اذ لو لم يكونوا صادقين لما تلوا على الناس زلاتهم ، ومنها ايضا للتأسي ، فالنبي الذي يلجأ الى ربه عند الزلة يعلم اتباعه كيفية الرجوع والانابة والاعتراف بالخطأ . انظر اصول الدين الاسلامي ، د. رشدي عليان و د. قحطان الدوري : ٢٥٤ -٢٥٥ .

(٥) طه : ١٢٠-١٢٢ .

(٦) ص : ٢٢-٢٥ .

(٧) القلم : ٤٨-٥٠ .

(٨) الانبياء : ٨٧ .

وعن محمد – صلى الله عليه وعلى اخوانه وسلم – : "عبس وتولى ان جاءه الاعمى ومايدريك لعله يزكى او يذكر فتنفعه الذكرى اما من استغنى فانت له تصدى وماعليك الا يزكى واما من جاءك يسعى وهو يخشى فانت عنه تلهى" (١) . و "ياايها النبي لم تحرم ماحل الله لك تبتغي مرضات ازواجك والله غفور رحيم" (٢) .

لقد حاول العلماء ان يؤولوا هذه النصوص ليوفقوا بينها وبين مبدأ عصمة الانبياء ، وستمر معنا تأويلاتهم – ان شاء الله – ولكن القرآن سجلها دون ذكر مبرراتها ، والسلف لم يفهموا منها مايحتاج الى تأويل او تبرير ، بدليل انه لم يأت واحد منهم يسأل : يارسول الله كيف انت معصوم والقرآن يقول عنك "ليغفر لك الله ماتقدم من ذنبك وماتأخر" (٣) .

ان القرآن لم يجد هنا مشكلة تحتاج الى علاج فالامر واضح بيّن : الله هو الذي ارسل هؤلاء الرسل – عليهم الصلاة والسلام – فمهمتهم تبليغ الرسالة ، والرسالة تعهّد الله بايصالها للناس سليمة كاملة "ولو تقول علينا بعض الاقاويل لاخذنا منه باليمين ثم لقطعنا منه الوتين فمامنكم من احد عنه حاجزين" (٤) . فهذه الزلات لا علاقة لها بالرسالة ، لاعلاقة لها بوظيفتهم الاساسية ، نعم ان التأسي بهم ثمرة الايمان بهم : "لقد كان لكم في رسول الله اسوة حسنة" (٥) . لكن هذا الاقتداء لايبقى على اطلاقه بعد تبيين الله – تعالى – للزلة والخطأ ، فرسول الله – صلى الله عليه وسلم – نقتدي به في كل شيء لكننا لانعبس بوجه الاعمى لان الله لم يقر الرسول – صلى الله عليه وسلم – على هذا التصرف بل عاتبه عليه ، والاصل فيما لم يعاتب عليه الرسول ان يقتدى به . فليست هنا مشكله حقيقية ، لاسيما بعد ان بين الله صفاتهم الاول ، التي تثبت مع هذه الزلات انهم الصفوة ، وانهم وحدهم المؤهلون لقيادة البشرية ، واما هذه الزلات فحينما لاتؤثر على وظيفتهم ولاعلى مكانتهم القيادية ، ولاتنفر الناس عنهم لقوله – تعالى – "ولوكنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك" (٦) . فالنبي لايمكن ان يرتكب ماينفر الناس عنه كالكذب والخيانة والفواحش . فاذا سلم النبي من كل هذا فهذه الزلات الطفيفة لاتحتاج بعد الى تأويل وتبرير ، مع ان الذي يريد ان يبرر ويؤول فان له متسعا – كما سيأتي – لكن ماالحاجة اليه ؟! – والله اعلم – .

---

(١) عبس : ١–١٠ .

(٢) التحريم : ١ .

(٣) الفتح : ٢ .

(٤) الحاقة : ٤٤–٤٧ .

(٥) الاحزاب : ٢١ .

(٦) آل عمران : ١٥٩ .

رابعا - اسماؤهم في القرآن الكريم :

لم يذكر لنا القرآن اسماء الانبياء والمرسلين جميعا ، بل صرح بالعكس فقال : "ولقد ارسلنا رسلا من قبلك منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك" [(١)] .

والذين قص القرآن علينا اخبارهم منهم من صرّح بنبوتهم او رسالتهم ومنهم من لم يصرح ، وانما استفيد من اشارات ودلائل اخرى وهي محل نزاع بين العلماء - كما سيأتي - فلنأخذ من صرح القرآن بنبوتهم أو رسالتهم :

١- ادريس - عليه الصلاة والسلام - يقول القرآن : "واذكر في الكتاب ادريس انه كان صديقا نبيا" [(٢)] .

٢ - نوح - عليه الصلاة والسلام - يقول القرآن : "انا ارسلنا نوحا الى قومه أن انذر قومك من قبل ان يأتيهم عذاب اليم" [(٣)] .

٣- هود - عليه الصلاة والسلام - يقول القرآن : "كذبت عاد المرسلين اذ قال لهم اخوهم هود الا تتقون . اني لكم رسول امين" [(٤)] .

٤ - صالح - عليه الصلاة والسلام - يقول القرآن : "كذبت ثمود المرسلين . اذ قال لهم اخوهم صالح الا تتقون . اني لكم رسول امين" [(٥)] .

٥ - ابراهيم - عليه الصلاة والسلام - يقول القرآن : "واذكر في الكتاب ابراهيم انه كان صديقانبيا" [(٦)] .

٦ - لوط - عليه الصلاة والسلام - يقول القرآن : "كذبت قوم لوط المرسلين . اذ قال لهم اخوهم لوط الا تتقون . اني لكم رسول امين" [(٧)] .

٧ - اسماعيل - عليه الصلاة والسلام - يقول القرآن : "واذكر في الكتاب اسماعيل انه كان صادق الوعد وكان رسولا نبيا" [(٨)] .

٨ - اسحاق - عليه الصلاة والسلام - يقول القرآن : "وبشرناه باسحاق نبيا من الصالحين" [(٩)] .

٩ - يعقوب - عليه الصلاة والسلام - يقول القرآن : "ووهبنا له اسحاق ويعقوب

---

(١) غافر : ٧٨ .

(٢) مريم : ٥٦ .

(٣) نوح : ١ .

(٤) الشعراء : ١٢٣-١٢٥ .

(٥) الشعراء ١٤١ - ١٤٣ .

(٦) مريم : ٤١ .

(٧) الشعراء . ١٦٠ - ١٦٢ .

(٨) مريم : ٥٤ .

(٩) الصافات : ١١٢ .

كلا جعلنا نبيا" [١] .

١٠- يوسف - عليه الصلاة والسلام - يقول القرآن : "ولقد جاءكم يوسف من قبل بالبينات فمازلتم في شك مما جاءكم حتى اذا هلك قلتم لن يبعث الله من بعده رسولا" [٢] .

١١- شعيب - عليه الصلاة والسلام - يقول القرآن : "كذب اصحاب الايكة المرسلين . اذ قال لهم شعيب الا تتقون . اني لكم رسول امين" [٣] .

١٢- ايوب - عليه الصلاة والسلام - يقول القرآن : "انا اوحينا اليك كما اوحينا الى نوح والنبيين من بعده واوحينا الى ابراهيم و اسماعيل واسحق ويعقوب والاسباط وعيسى وايوب" [٤] .

١٣- موسى - عليه الصلاة والسلام - يقول القرآن : "ولقد ارسلنا موسى بآياتنا وسلطان مبين" [٥] .

١٤- هارون - عليه الصلاة والسلام - يقول القرآن : "ثم بعثنا من بعدهم موسى وهارون الى فرعون وملئه بآياتنا" [٦] .

١٥- داود - عليه الصلاة والسلام - يقول القرآن : "ولقد فضلنا بعض النبيين على بعض وآتينا داود زبورا" [٧] .

١٦- سليمان - عليه الصلاة والسلام - يقول القرآن : "انا اوحينا اليك كما اوحينا الى نوح والنبيين من بعده واوحينا الى ابراهيم واسماعيل واسحاق ويعقوب والاسباط وعيسى وايوب ويونس وهارون وسليمان" [٨] .

١٧- الياس - عليه الصلاة والسلام - يقول القرآن : "وان الياس لمن المرسلين" [٩] .

١٨- يونس - عليه الصلاة والسلام - يقول القرآن : "وان يونس لمن المرسلين" [١٠]

١٩- يحيى - عليه الصلاة والسلام - يقول القرآن : "ان الله يبشرك بيحيى

---

(١) مريم : ٤٩ .
(٢) غافر : ٣٤ .
(٣) الشعراء : ١٧٦-١٧٨ .
(٤) النساء : ١٦٣ .
(٥) غافر ٢٣ .
(٦) يونس : ٧٥
(٧) الاسراء : ٥٥ .
(٨) النساء : ١٦٣
(٩) الصافات : ١٢٣ .
(١٠) الصافات : ١٣٩ .

مصدقا بكلمة من الله وسيدا وحصورا ونبيا من الصالحين"[1] .

٢٠- عيسى - عليه الصلاة والسلام - يقول القرآن : "واذ قال عيسى بن مريم يابني اسرائيل اني رسول الله اليكم"[2] .

٢١- سيدنا محمد - صلى الله عليه وسلم - يقول القرآن : "محمد رسول الله والذين معه اشداء على الكفار رحماء بينهم"[3] . وبه ختمت النبوة "ماكان محمد ابا احد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين"[4] .

بقيت عندنا ثلاث مسائل متعلقة باسماء الانبياء - عليهم الصلاة والسلام - :

المسألة الاولى : مسألة "الاسباط" الذين اكد القرآن على نبوتهم حيث قال : "قولوا آمنا بالله ومانزل الينا ومانزل الى ابراهيم واسماعيل واسحاق ويعقوب والاسباط"[5] . واكد هذا في غير هذا الموضع[6] لكن القرآن لم يبين لنا من هم الاسباط[7] وكم عددهم ؟ ولاشك ان هناك حكمة من هذا ، اذ لو علم الله ان في اخبارهم نفعاً لنا لقصها علينا لكن الله اعلم واحكم . وقد فهم سلفنا هذا فلم يسألوا عنه ولنا بهم اسوة حسنة .

المسألة الثانية : اربع رسل ذكرهم القرآن ولم يصرح بنبوتهم او رسالتهم ، وهم : آدم وذو الكفل واليسع وزكريا . اما آدم فهو نبي وان لم يصرح القرآن بذلك لما يأتي :

أ - قوله - صلى الله عليه وسلم - عن آدم - عليه السلام : "وما من نبي يومئذ آدم فمن سواه الا تحت لوائي"[8] .

ب - قوله - تعالى - : "فأما يأتينكم مني هدى فمن تبع هداي فلاخوف عليهم ولاهم يحزنون"[9] .

---

(١) آل عمران : ٤٠ .

(٢) الصف : ٦ .

(٣) الفتح : ٢٩ .

(٤) الاحزاب : ٤٠ .

(٥) البقرة . ١٣٦ .

(٦) ال عمران . ٨٤ .

(٧) يرى كثير من المفسرين ان الاسباط اثنا عشر رجلا اولاد يعقوب ، يوسف واخوته . انظر تفسير الطبري : ٥٦٨/١ . وقال البخاري والخليل بن احمد والزمخشري ان المقصود بهم : قبائل بني اسرائيل وهم احفاد يعقوب واولادهم ، وعلى هذا فهؤلاء ليسوا بأنبياء ، ويكون معنى الآية عند هؤلاء "شعوب بني اسرائيل وما انزل الله من الوحي على الانبياء الموجودين منهم "تفسير ابن كثير : ١٧٨/١ ، والكشاف : ١٩٥/١ . وهو رأي النسفي ايضا . انظر تفسيره : ٧٧/١ .

(٨) الترمذي ، الجامع الصحيح : ٥٤٨/٥ ، رقم الحديث ٣٦١٥ ، وقال عنه : "حسن صحيح" .

(٩) البقرة : ٣٨ .

جـ - قوله - تعالى - : "ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى" [1] .

واما ذو الكفل فقد اختلف فيه العلماء ولم يأت دليل قاطع على اثبات نبوته ، الا ان ذكره مع الانبياء في قوله - تعالى - : "واسماعيل وادريس وذا الكفل كل من الصابرين" [2] قرينة قوية على انه منهم ، وهذا هو الذي رجحه ابن كثير - رحمه الله - الا انه نقل عن مجاهد قوله : "رجل صالح غيرنبي" [3] - والله اعلم - .

واما اليسع فلم اعثر على مايثبت كونه نبيا او رسولا الا ماجاء من ذكره مع الانبياء - عليهم الصلاة والسلام - في قوله -تعالى- : "واسماعيل واليسع ويونس ولوطا وكلا فضلنا على العالمين" [4] . ولاريب ان هذه قرينة قوية على انه منهم - والله اعلم - .

واما زكريا فلم اجد في القرآن مايصرح بنبوته ، الا ان ماجاء فيه من القرائن القوية الدالة على نبوته يكفي ، وهذه هي :

أ - ذكره مع قائمة الانبياء - عليهم الصلاة والسلام - في قوله - تعالى - : "وزكريا ويحيى وعيسى والياس كل من الصالحين" [5] .

ب - قوله - تعالى - : "قال رب انى يكون لي غلام وكانت امرأتي عاقرا وقد بلغت من الكبر عتيا ، قال كذلك قال ربك هو علي هين وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئا . قال رب اجعل لي آية قال آيتك الا تكلم الناس ثلاث ليال سويا" [6] . والظاهر ان هذا وحي - والله اعلم - .

المسألة الثالثة : اسماء ذكرت في القرآن الكريم في غير قائمة الانبياء ، وانما ذكر كل واحد لوحده ، ولم يشر القرآن الى نبوتهم ، ومنهم : لقمان وذو القرنين ، والعبد الصالح صاحب موسى - عليه السلام - ومريم - عليها السلام - وقد اختلف العلماء فيهم - ولسنا هنا بصدد المقارنة والترجيح لكن سنذكر فقط جانبا من صفاتهم في القرآن لاسيما تلك التي اثارت الجدل :

١- لقمان : قال الله - تعالى - : "ولقد آتينا لقمان الحكمة" [7] . ثم يعرض القرآن بعضا من هذه الحكمة وفيها توحيد وآداب وصلاة وامر بالمعروف ونهي عن المنكر. وهذه دلائل على انه يملك هديا وشريعة ، وهذه الشريعة من الله - "ولقد آتينا لقمان الحكمة" .

---

(١) طه : ١٢٢ .

(٢) الانبياء : ٨٥ .

(٣) ابن كثير ، التفسير : ٣/١٨٥ .

(٤) الانعام : ٨٦ .

(٥) الانعام : ٨٥ .

(٦) مريم : ٨-١٠ .

(٧) لقمان : ١٢ .

ولكن ماورد عن السلف لايرجح كونه نبيا . وقد لخص لنا ابن كثير - رحمه الله - قول السلف فيه بقوله : "اختلف السلف في لقمان هل كان نبيا او عبدا صالحا من غير نبوة ؟ على قولين ، الاكثرون على الثاني ، ثم قال : "ولهذا كان جمهور السلف على انه لم يكن نبيا" [١] .

٢ - ذو القرنين ورد ذكره في اواخر الكهف ، يقول القرآن : "ويسألونك عن ذي القرنين ، قل سأتلو عليكم منه ذكرا . انا مكنا له في الارض وآتيناه من كل شيء سببا" [٢] . وفي هذا النص لايوجد اي ايماء الى انه نبي لكن قول الله بعد هذا : "قلنا ياذا القرنين اما ان تعذب واما ان تتخذ فيهم حسنا . قال اما من ظلم فسوف نعذبه ثم يرد الى ربه فيعذبه عذا با نكرا . واما من آمن وعمل صالحا فله جزاء الحسنى" [٣] مشعر بنبوته اذ قول الله مباشرة لواحد من خلقه سيما القائد والموجه الظاهر فيه الوحي - والله اعلم - .

٣- العبد الصالح . يقول القرآن عنه : "فوجدا عبدا من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علما" [٤] . ثم يذكر القرآن عمل الرجل الصالح في السفينة وقتله للغلام وبنائه للجدار ، ثم يعقب : "وما فعلته عن امري" [٥] . ان هذه امارة قوية على انه نبي لاسيما قتله للغلام اذ لايعقل ان يجوز الا بوحي - والله اعلم - .

٤- مريم : يقول القرآن : "فارسلنا اليها روحنا فتمثل لها بشرا سويا" [٦] . و "اذ قالت الملئكة يامريم ان الله يبشرك بكلمة منه" [٧] . و "اذ قالت الملآئكة يامريم ان الله اصطفاك" [٨] . فقول الملائكة لها مع ذكر اصطفاء الله لها قرائن على نبوتها ، الا ان قوله - تعالى - : "ومارسلنا من قبلك الا رجالا نوحي اليهم" [٩] . يمنع من كونها نبية ، وارسال الروح اليها لم يكن بالوحي وانما لقضية خاصة لاعلاقة لها بالشرع وعلى هذا الجمهور وخالف ابن حزم في نبوة المرأة بصورة عامة وسيأتينا كلامه - والله اعلم" .

---

(١) ابن كثير ، التفسير : ٤٢٧/٣ .

(٢) الكهف : ٨٣-٨٤ .

(٣) الكهف : ٨٦-٨٨ .

(٤) الكهف : ٦٥ .

(٥) الكهف : ٨٢ .

(٦) مريم : ١٧ .

(٧) آل عمران : ٤٥ .

(٨) آل عمران : ٤٢ .

(٩) يوسف : ١٠٩ .

خامسا - دلائل صدقهم في ادعائهم النبوة :

الوظيفة التي كلف الله بها المرسلين وظيفة خطيرة كبيرة ، ولذلك فهي تحتاج الى ادلة اثبات واضحة قوية "لئلا يكون للناس على الله حجة" [1] . وليتميز النبي الصادق من المتنبيء الكاذب ، ولذلك ايد الله رسله بما لايقدر عليه غيرهم ، وهذا هو الذي يسمى بالمعجزات ، نعم هناك دلائل كثيرة على صدق الانبياء فسيرتهم واخلاقهم والمنهج الذي جاؤا به كل هذا ادلة واضحة على صدقهم ، لكن الله الحكم الحق اراد ان لايدع مساغا لمعاند مكابر ، ولذا ايد الله انبياءه بمعجزات يعجز عن مثيلها كل انسان ، وهذه المعجزات تقترن بالتحدي الصارخ الذي يستفز الخصم لاظهار كامل ماعنده من طاقات ، ومع هذا لم يقدراحد على مجاراة المعجزات ، ولانريد هنا ان نفصل المعجزات التي وردت في القرآن ، لكن سنأخذ امثلة منها تكشف لنا منهج القرآن في عرضه للمعجزات ، وسنأخذ هذه الامثلة من خلال النوعين الآتيين :

النوع الاول : معجزات جاء بها الانبياء لكنها لم تأت لاثبات النبوة ، مع انها دليل قاطع على النبوة ، وهذه بعض الامثلة :

أ - "واصنع الفلك بأعيننا ووحينا ولاتخاطبني في الذين ظلموا انهم مغرقون. ويصنع الفلك وكلما مر عليه ملأ من قومه سخروا منه قال ان تسخروا منا فانا نسخر منكم كما تسخرون . فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ويحل عليه عذاب مقيم . حتى اذا جاء امرنا وفار التنور" [2] .

فالمعجزة هنا ان نوحا علم مسبقا بالطوفان ، وباشر بصناعة السفينة ، والناس يسخرون منه ، ولكنهم فوجئوا بامر الله والوعد الحق ، فهذه معجزة تصلح دليلا قويا على صدق نوح - عليه السلام - لكن نوحا ماجاء بهذا للاستدلال او التحدي وانما لاهلاك قوم علم الله انهم لن يؤمنوا .

ب - "قالوا حرّقوه وانصروا آلهتكم ان كنتم فاعلين . قلنا يا نار كوني بردا وسلاما على ابراهيم . وارادوا به كيدا فجعلناهم الاخسرين" [3] . وهذه كتلك معجزة ليس فيها معنى التحدي ولاجاءت لتصديق ابراهيم - عليه السلام - في دعواه .

جـ - "غلبت الروم . في ادنى الارض وهم من بعد غلبهم سيغلبون . في بضع سنين لله الامر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون" [4] . وهذا الاخبار بالغيب لاشك انه معجزة لنبينا محمد - صلى الله عليه وسلم - لكنه لم يأت لاثبات نبوته - عليه الصلاة

---

(١) النساء : ١٦٥ .

(٢) هود : ٣٧-٤٠ .

(٣) الانبياء : ٦٨-٧٠ .

(٤) الروم : ٢-٤ .

والسلام –[1] .

النوع الثاني : معجزات سبقها او قارنها التحدي ، وجاءت اصلا لاثبات صدق النبي . ولنقرأ هذه الامثلة :

أ – "وقال موسى يافرعون اني رسول من رب العالمين .حقيق على ان لااقول على الله الا الحق قد جئتكم ببينة من ربكم فارسل معي بني اسرائيل . قال ان كنت جئت بآية فأت بها ان كنت من الصادقين . فالقى عصاه فاذا هي ثعبان مبين . ونزع يده فاذا هي بيضاء للناظرين . قال الملأ من قوم فرعون ان هذا لساحر عليم . يريد ان يخرجكم من ارضكم فماذا تأمرون . قالوا ارجه واخاه وارسل في المدائن حاشرين . يأتوك بكل ساحر عليم . وجاء السحرة فرعون قالوا : ان لنا لاجرا ان كنا نحن الغالبين . قال نعم وانكم لمن المقربين . قالوا ياموسى اما ان تلقى واما ان نكون نحن الملقين . قال القوا فلما القوا سحروا اعين الناس واسترهبوهم وجاؤا بسحر عظيم . واوحينا الى موسى ان الق عصاك فاذا هي تلقف مايأفكون . فوقع الحق وبطل ماكانوا يعملون . فغلبوا هنالك وانقلبوا صاغرين . والقي السحرة ساجدين . قالوا آمنا برب العالمين . رب موسى وهارون"[2] .

ب – "وان كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله ان كنتم صادقين . فان لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة اعدت للكافرين"[3] . و "قل لئن اجتمعت الانس والجن على ان يأتوا بمثل هذا القرآن لايأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا"[4] .

اخترنا هذين المثلين لانهما يمثلان هذا النوع ابلغ تمثيل ، فلقد اجتمع فيهما مالم يجتمع في غيرهما ، ولنر الملاحظات الآتية :

١– كلتاهما جاءتا لازالة الريب واثبات الصدق . "لا اقول على الله الا الحق قد جئتكم ببينة" " ان كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة " .

٢– كلتاهما اقترنتا بالتحدي : "قال القوا فلما القوا سحروا اعين الناس واسترهبوهم وجاءوا بسحر عظيم . واوحينا الى موسى ان الق عصاك" ولقد جاء هذا التحدي في نص آخر اكثروضوحا : "فلما جاء السحرة قال لهم موسى القوا ماانتم ملقون . فلما القوا قال موسى ماجئتم به السحر ان الله سيبطله"[5] . واما الثانية :

---

(١) وهذا واضح من سبب النزول . انظر تفسير الطبري : ١٦/٢١ . وعلى هذا نفهم ان اشتراط التحدي في المعجزة لا دليل عليه ، الا اذا قلنا : ان هذه الامثلة ليست معجزات ، ولا قائل به ، او نقول : ان التحدي قائم ضمنا ، ولا بأس بهذا لكنه تكلف – والله اعلم – .

(٢) الاعراف : ١٠٤–١٢٢ .

(٣) البقرة : ٢٣–٢٤ .

(٤) الاسراء : ٨٨ .

(٥) يونس : ٨٠–٨١ .

"فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله ان كنتم صادقين"[1] .

٣- ان هذا التحدي قابله الكافرون بالجدية والعزم على الغلبة ، ففرعون والسحرة قالوا : "فاجمعوا كيدكم ثم اتوا صفا وقد افلح اليوم من استعلى"[2] . وقريش احتارت وتخبطت "انه فكر وقدر . فقتل كيف قدر . ثم قتل كيف قدر . ثم نظر . ثم عبس وبسر . ثم ادبر واستكبر . فقال ان هذا الا سحر يؤثر . ان هذا الا قول البشر"[3] . ومع هذه الجدية فشل حزب الشيطان .

٤ - انهم كانوا اصحاب هذا الميدان وفرسانه ، فالسحر الفرعوني ، والبلاغة القريشية لامثيل لهما . وقد وصف القرآن مقدرة السحرة بقوله : "فلما القوا سحروا اعين الناس واسترهبوهم وجاءوا بسحر عظيم" . واما بلاغة قريش فهي اعرف من ان تعرّف .

٥ - ان الموانع قد ازيلت فهم اصحاب القوة والسلطان والنفوذ . فالذي قال : انا ربكم الاعلى"[4] ماكان يخشى من موسى . ومن قال : "ان هذا الا سحر يؤثر . ان هذا الا قول البشر[5] ، ماكان يخشى من محمد - صلى الله عليه وسلم - .

٦ - ان عنصر الزمن قد اضيف الى الاعجاز ليعطيه تأكيدا اكبر ، فالانبياء ماكانوا مستعجلين في انتظار الاستجابة للتحدي ، اما موسى - عليه السلام - فحينما القى عصاه اول مرة ليثبت صدقه قال الملأ : "ارجه واخاه وارسل في المدائن حاشرين . يأتوك بكل ساحر عليم" . ولم يعترض موسى - عليه السلام - على هذا الارجاء ، ومعنى هذا انه اراد ان يستفرغوا على مهل كامل طاقتهم ويتأكدوا بانفسهم انهم لاطاقة لهم على مجاراة قدرة الله . واما محمد - صلى الله عليه وسلم - فعنصر الزمن مفتوح الى ان تقوم الساعة ، ولم يقدر احد ان يواجه او يجابه .

وقد يقال : ان معجزة موسى ظاهرة واضحة ، فماالذي اعجز العرب في القرآن الكريم ؟!. سنحاول ان نجيب على ذا السؤال في المبحث الآتي "الوحي" - ان شاءالله - .

سادسا : اخبارهم :

ليس القرآن كتاب قصص وتاريخ ، بل هو عقيدة وشريعة ودستور حياة ، لكن الذي يقلب صفحات القرآن الكريم يرى انه منح القصص لاسيما قصص الانبياء اهمية كبيرة حتى لتكاد تجزم ان القصص قد اخذت الحظ الاوفر من الآيات ، فماالسر في ذلك . لنر اولا منهج القرآن في القصص هذه : قصص الانبياء ومن خلال المنهج ستتبين الحكمة

---

(١) البقرة : ٢٣ .

(٢) طه : ٦٤ .

(٣) المدثر : ١٨-٢٥ .

(٤) النازعات : ٢٤ .

(٥) المدثر : ٢٤-٢٥ .

والغاية ، وربما نستطيع ان نرسم معالم المنهج القرآني في قصص الانبياء بالنقاط التالية :

١- لم يتحدث القرآن عن حياة الانبياء العامة من حيث الولادة والنمو والسكن والعيش وعدد افراد الاسرة وحالتهم المادية والاجتماعية ولامناسبات الفرح او الحزن والعادات والتقاليد السائدة ، بل ولم يذكر لنا شيئا عن وفياتهم وتواريخها ولانحو هذا الا بحدود ضيقة جدا ولاسباب خاصة . فمثلا تحدث القرآن عن آدم واكله من الشجرة وقطعا لم يكن المقصود هو الاكل وطريقة الاكل بدليل انه حينما انزل الى الارض لم يخبرنا القرآن عن اكله . بل الشجرة كانت هنا محور المعركة بين الانسان والشيطان ، وتحدث عن مرض ايوب وماكان المقصود الاخبار المجرد وانما التأسي بصبر الانبياء في كل محنة ومصيبة مما هو واضح من سياق الآيات . وتحدث عن يوسف والقائه في الجب ومعاناته مع امرأة العزيز وسجنه ثم التمكين له في الارض . ولاريب ان المسلم في طريقه الطويل يحتاج الى كل هذه الدروس ويحتاج الى الامل الواسع ، فالطفل الملقى في الجب والذي ظن الناس هلاكه يصبح عزيز مصر !! ويأتي الحديث عن مريم وابنها المسيح لاظهار قدرة الله وعنايته بعباده الصالحين . وهكذا ، فلايوجد في القرآن الكريم ذكر لتاريخ هؤلاء الصفوة التاريخ البشري الا وله غاية عملية ينتفع من ذكرها المسلم في مهمته الكبيرة على هذه الارض[١] .

٢- مع ان غاية خلق الانسان هي العبادة "وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون"[٢] . الا ان القرآن لم يفصل لنا عبادة الانبياء - عليهم الصلاة والسلام - لاصلاتهم ولاصيامهم ولاذكرهم ولانحو هذا الا في حدود ضيقة ولغايات خاصة ايضا ، فمثلا غالب مايرد من ذكرهم ومناجاتهم هو دعاؤهم بحفظ الرسالة وتبليغ الدعوة او هلاك الظالمين الواقفين بطريقها ، وخذ هذين المثالين : "وقال نوح رب لاتذر على الارض من الكافرين ديارا . انك ان تذرهم يضلوا عبادك ولايلدوا الا فاجرا كفارا رب اغفر لي ولوالدي ولمن دخل بيتي مؤمنا وللمؤمنين والمؤمنات ولاتزد الظالمين الا تبارا"[٣] . و "اذ يرفع ابراهيم القواعد من البيت واسماعيل ربناتقبل منا انك انت السميع العليم . ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا امة مسلمة لك وارنا مناسكنا وتب علينا انك انت التواب الرحيم . ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلوا عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم انك انت

---

(١) من الرائع جدا ما كتبه سيد قطب في مقدمته على سورة يوسف ، حيث بين المنهج القرآني في القصة تبيينا مفصلا . ومما ينسابنا هنا قوله : "وتبقى وراء ذلك كله عبرة القصة وقيمتها في مجال الحركة الاسلامية ، وايحاءاتها المتوافية مع حاجات الحركة في بعض مراحلها ، ومع حاجاتها الثابتة التي لاتتعلق بمرحلة خاصة منها ، الى جانب الحقائق الكبرى التي تتقرر من خلال سياق القصة" في ظلال القرآن : ١٩٦٣/٤ .

(٢) الذاريات : ٥٦ .

(٣) نوح : ٢٦-٢٨ .

العزيز الحكيم"[1]

وقد يقول قائل ان القرآن لم يكثر من ذكر عبادات الانبياء - عليهم الصلاة والسلام - لاننا في العبادات لانقتدي بهم وانما لنا عباداتنا الخاصة وشريعتنا الخاصة ، والصحيح انه لو كان الامر كذلك لقص علينا طريقة رسول الله محمد - صلى الله عليه وسلم - في العبادة ، ولكن القرآن لم يفصل في هذا ايضا ، وكأنه يريد ان يقول ان وظيفة القرآن الاولى هي اقناع الانسان بهذه الطريق ونصب المعالم الثابتة عليها لكي لاينحرف ومده بكل مايحتاجه للصبر والثبات والمواصلة وبعد هذا فقد يكفي قوله -تعالى- للسائرين : "لقد كان لكم في رسول الله اسوة حسنة"[2] - والله اعلم - .

٣ - المعاني الرئيسية التي اكدها القرآن هي تلك المتعلقة بوظيفة رسل الله الرئيسية ، فلقد رعاها القرآن ايما رعاية ، وفصل القول فيها ايما تفصيل حتى لايكاد يخطر على بالك حالة من الممكن ان يواجهها داعية مالا والقرآن يحدثك عن نبي قد واجهها قبلك وضرب لك فيها المثل والعبرة ، ولنلخص القول في هذا على النحو الآتي :

أ - تحدث القرآن بالتفصيل عن طرق الانبياء في تبليغ دعوتهم ، وكيف كانوا جادّين في الامر ، ولنأخذ بعض الامثلة :

المثال الاول : "قال رب اني دعوت قومي ليلا ونهارا . فلم يزدهم دعائي الا فرارا . واني كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا اصابعهم في آذانهم واستغشوا ثيابهم واصروا واستكبروا استكبارا . ثم اني دعوتهم جهارا . ثم اني اعلنت لهم واسررت لهم اسرارا"[3] .

المثال الثاني : "ولقد آتينا ابراهيم رشده من قبل وكنا به عالمين . اذ قال لابيه وقومه ماهذه التماثيل التي انتم لها عاكفون . قالوا وجدنا آباءنا لها عابدون . قال لقد كنتم انتم وآباؤكم في ضلال مبين . قالوا اجئتنا بالحق ام انت من اللاعبين . قال بل ربكم رب السموات والارض الذي فطرهن وانا على ذلكم من الشاهدين . وتالله لاكيدن اصنامكم بعد ان تولوا مدبرين . فجعلهم جذاذا الا كبيرا لهم لعلهم اليه يرجعون ...."[4] .

المثال الثالث : "وقال الملك ائتوني به فلما جاءه الرسول قال ارجع الى ربك فأسأله مابال النسوة اللاتي قطّعن ايديهن ان ربي بكيدهن عليم . قال ماخطبكن اذ راودتن يوسف عن نفسه قلن حاش لله ماعلمنا عليه من سوء قالت امرأة العزيز الآن حصحص الحق انا راودته عن نفسه وانه لمن الصادقين . ذلك ليعلم اني لم اخنه بالغيب وان الله لايهدي كيد الخائنين . ومابرئ نفسي ان النفس لامارة بالسوء الا مارحم ربي ان ربي

---

(١) البقرة ١٢٧-١٢٩ .

(٢) الاحزاب : ٢١ .

(٣) نوح : ٥-٩ .

(٤) الانبياء : ٥١-٥٨ .

غفور رحيم . وقال الملك ائتوني به استخلصه لنفسي فلما كلمه قال انك اليوم لدينا مكين امين . قال اجعلني على خزائن الارض اني حفيظ عليم . وكذلك مكنا ليوسف في الارض" [1] .

المثال الرابع : "قال اجئتنا لتخرجنامن ارضنا بسحرك ياموسى . فلنأتينك بسحر مثله فاجعل بيننا وبينك موعدا لانخلفه نحن ولاانت مكانا سوى . قال موعدكم يوم الزينة وان يحشر الناس ضحى" [2] . فلماذا اختار يوم الزينة ووقت الضحى ؟! ولماذا اراد ان يحشر الناس ؟! .

ان هذه الامثلة لاتحتاج الى تعليق ، فهي جلية واضحة في ان الانبياء - عليهم الصلاة والسلام - ماتركوا مجالا او منفذا يستطيعون ان يمرقوا منه لتبليغ دعوتهم الا دخلوه .

ب - فصل القرآن اجناس المدعوّين الذين اتصل بهم الانبياء - عليهم الصلاة والسلام - فلاتكاد تجد طبقة من الناس الا والقرآن يقدم لك نوذجا عن اتصال الانبياء بهم ولنقرأ هذه النماذج :

النوذج الاول : الملوك:

"الم تر الى الذي حاج ابراهيم في ربه ان آتاه الله الملك اذ قال ابراهيم ربي الذي يحيي ويميت قال انا احيي واميت قال ابراهيم فان الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت الذي كفر" [3] .

"ثم بعثنا من بعدهم موسى وهارون الى فرعون وملائه بآياتنا" [4] .

"وتفقد الطير فقال مالي لاارى الهدهد ام كان من الغائبين . لاعذبنه عذابا شديدا او لاذبحنه او ليأتني بسلطان مبين . فمكث غير بعيد فقال احطت بما لم تحط به وجئتك من سبأ بنبأ يقين . اني وجدت امرأة تملكهم واوتيت من كل شيء ولها عرش عظيم . وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله وزين لهم الشيطان فصدهم عن السبيل فهم لايهتدون" [5] . ثم كتب اليها سليمان كتابه "انه من سليمان وانه بسم الله الرحمن الرحيم . الّا تعلوا عليّ وأتوني مسلمين" [6] .

النموذج الثاني : الاغنياء المترفون :

"اتبنون بكل ريع آية تعبثون . وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون . واذابطشتم بطشتم

---

(١) يوسف : ٥٠-٥٦ .

(٢) طه ٥٧، ٥٩ .

(٣) البقرة : ٢٥٨ .

(٤) يونس : ٧٥ .

(٥) النمل : ٢٠-٢٤ .

(٦) النمل : ٣٠-٣١ .

جبارين . فاتقوا الله واطيعون . واتقوا الذي امدكم بما تعلمون . امدكم بأنعام وبنين . وجنات وعيون"[١] .

"واذكروا اذ جعلكم خلفاء من بعد عاد وبوّأكم في الارض تتخذون من سهولها قصورا وتنحتون الجبال بيوتا فاذكروا الاء الله ولاتعثوا في الارض مفسدين"[٢] .

النموذج الثالث : الفقراء والمستضعفون :

"فقال الملأ الذين كفروا من قومه مانراك الا بشرا مثلنا ومانراك اتبعك الا الذين هم اراذلنا بادي الرأي ومانرى لكم علينا من فضل بل نظنكم كاذبين"[٣] .

"ان فرعون علا في الارض وجعل اهلها شيعا يستضعف طائفة منهم يذبّح ابناءهم ويستحيي نساءهم انه كان من المفسدين . ونريد ان نمن على الذين استضعفوا في الارض ونجعلهم ائمة ونجعلهم الوارثين . ونمكن لهم في الارض ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ماكانوا يحذرون"[٤] .

النوذج الرابع : المطففون :

"والى مدين اخاهم شعيبا قال ياقوم اعبدوا الله مالكم من اله غيره ولاتنقصوا المكيال والميزان اني اراكم بخير واني اخاف عليكم عذاب يوم محيط . ويا قوم اوفوا المكيال والميزان بالقسط ولاتبخسوا الناس اشياءهم ولاتعثوا في الارض مفسدين"[٥] .

النموذج الخامس : الشاذّون :

"ولوطا اذ قال لقومه اتأتون الفاحشة ماسبقكم بها من احد من العالمين . انكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء بل انتم قوم مسرفون . وماكان جواب قومه الا ان قالوا اخرجوهم من قريتكم انهم اناس يتطهرون"[٦] .

النموذج السادس : المسجونون :

"ياصاحبي السجن أأرباب متفرقون خير ام الله الواحد القهار . ماتعبدون من دونه الا اسماء سميتموها انتم وآباوءكم ماانزل الله بها من سلطان ان الحكم الا لله امر الا تعبدوا الا اياه"[٧] .

---

(١) الشعراء : ١٢٨-١٣٤ .

(٢) الاعراف : ٧٤ .

(٣) هود : ٢٧ .

(٤) القصص : ٤-٦ .

(٥) هود : ٨٤-٨٥ .

(٦) الاعراف : ٨٠-٨٢ .

(٧) يوسف : ٣٩-٤٠ .

النموذج السابع : الاقربون :

"ونادى نوح ابنه وكان في معزل يابني اركب معنا ولاتكن مع الكافرين" [١] .

"واذكر في الكتاب ابراهيم انه كان صديقا نبيا . اذ قال لابيه يا أبت لم تعبد مالايسمع ولايبصر ولايغني عنك شيئا . يا أبت قد جاءني من العلم مالم يأتك فاتبعني اهدك صراطا سويا . يا أبت لاتعبد الشيطان ان الشيطان كان للرحمن عصيا . يا أبت اني اخاف ان يمسك عذاب من الرحمن فتكون للشيطان وليا" [٢] .

جـ – بين القرآن نقطة البداية في دعوة الرسل – عليهم الصلاة والسلام – ولنلاحظ النقطتين الآتيتين :

الاولى : ان القرآن سجل في اغلب قصص الانبياء انهم بدأوا بالدعوة الى توحيد الله والتصديق بالوحي وطاعة الرسول ، وهي كلها تمثل نقطة واحدة هي بداية السير على منهج الله وشرعه ، ولنقرأ هذه الامثلة :

"ولقد ارسلنا نوحا الى قومه اني لكم نذير مبين . ان لاتعبدوا الا الله اني اخاف عليكم عذاب يوم اليم" [٣] .

"والى عاد اخاهم هودا قال ياقوم اعبدوا الله مالكم من اله غيره" [٤] .

"والى ثمود اخاهم صالحا قال ياقوم اعبدوا الله مالكم من اله غيره" [٥] .

"و،الى مدين اخاهم شعيبا قال ياقوم اعبدوا الله ملكم من اله غيره" [٦] .

الثانية: ان القرآن قد يسجل دعوة بعض الانبياء في البداية لامور فرعية لاتعتبر من اصول الايمان والعقيدة وذلك مثل :

"ولوطا اذ قال لقومه اتأتون الفاحشة ماسبقكم بها من احد من العالمين" [٧] .

"قال لايأتيكما طعام ترزقانه الا نبأتكما بتأويله قبل ان يأتيكما ذلكما مما علمني ربي اني تركت ملة قوم لايؤمنون بالله وهم بالآخرة هم كافرون" [٨] .

"والى مدين اخاهم شعيبا قال ياقوم اعبدوا الله مالكم من اله غيره ولاتنقصوا المكيال والميزان" [٩] .

---

(١) هود :٤٢ .

(٢) مريم : ٤١-٤٥ .

(٣) هود ٢٥-٢٦ .

(٤) هود : ٥٠ .

(٥) هود : ٦١ .

(٦) هود : ٨٤ .

(٧) الاعراف : ٧ .

(٨) يوسف : ٣٧ .

(٩) هود : ٨٤ .

"ومصدقا لما بين يديّ من التوراة ولاحل لكم بعض الذي حرّم عليكم وجئتكم بآية من ربكم فاتقوا الله واطيعون . ان الله ربي وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم" [١] .

فهؤلاء الانبياء تحدثوا مع قومهم بقضايا ليست من اصول الدين وقبل اسلامهم مع ان القرآن يقول "لئن اشركت ليحبطن عملك" [٢] . بمعنى ان هذه الفرعيات لو استجابوا لها فانها لاتقبل منهم ، فلماذا يتعب الانبياء انفسهم فيها ؟ ! بل القرآن نفسه في العهد المكي تحدث مع قريش بمثل هذا :

"واذا المؤودة سئلت بأي ذنب قتلت" [٣] .

"فلا اقتحم العقبة . وماادراك ماالعقبة . فك رقبة . او اطعام في يوم ذي مسغبة . يتيما ذا مقربة . او مسكينا ذا متربة" [٤] .

"ويل للمطففين الذين اذا اكتالوا على الناس يستوفون واذا كالوهم او وزنوهم يخسرون" [٥] .

"كلا بل لاتكرمون اليتيم ولاتحاضّون على طعام المسكين" [٦] .

"ارأيت الذي يكذّب بالدين فذلك الذي يدع اليتيم ولايحض على طعام المسكين" [٧] .

هذه كلها نزلت في مكة ، والخطاب فيها موجه للمشركين ، فلماذا ؟! .

ان هذا السؤال لابد ان نوجهه الى انفسنا ونحن نقرأ لبعض الكتاب الاسلاميين ان الرسول – صلى الله عليه وسلم – بقي في مكة ثلاث عشرة سنة وليس له شغل الا الدعوة الى التوحيد [٨] .

والصحيح – والله اعلم – ان احترام الاسلام للانسان يقترن عنده مع اولويات الدين نفسه لانه لايمكن ان يحقق الاسلام غايته في مجتمع مسخ يسوده الشذوذ والانانية والظلم ولهذا فمحاربة الاسلام للظلم بكل انواعه السياسية والاقتصادية وغيرها مطلوب

---

(١) آل عمران : ٥٠–٥١ .

(٢) الزمر : ٦٥ .

(٣) التكوير : ٨–٩ .

(٤) البلد : ١١–١٦ .

(٥) المطففين :١–٣ .

(٦) الفجر : ١٧–١٨ .

(٧) الماعون : ١–٣ .

(٨) يقول الشيخ عبدالله عزام – رحمه الله – : "لقد كانت العقيدة هي الموضوع الوحيد الذي عالجته السور المكية" العقيدة واثرها في بناء الجيل /١٠ . ويكاد يكون كلامه هذا تكرارا لكلام سيد قطب – رحمه الله – من قبل حيث قال : "القرآن مكي ... الذي ظل يتنزل على رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ثلاثة عشر عاما كاملة ، يحدثه فيها عن قضية واحدة ، قضية واحدة لاتتغير .. لقد كان يعالج القضية الاولى والقضية الكبرى ، والقضية الاساسية في هذا الدين الجديد ، قضية العقيدة"..في ظلال القرآن : ١٠٠٤/٢ .

مع دعوتهم الى الايمان والتوحيد ، فانه في الحرية والعدالة يستطيع الانسان ان يفكر وان يحاور وان يقتنع بالمنهج الذي يراه ، وعلى هذا فالمطالبة بالحرية لهذا الانسان لاينبغي ان تؤجل عن دعوته الى لااله الا الله محمد رسول الله . هذا اولا . وثانيا : فان الحديث عن بعض مبادىء الاسلام واخلاقه من شأنه ان يقود الى الرغبة في التعرف على عقيدته واصوله ، فالمرأة وهي في المطبخ وتسمع محمدا - صلى الله عليه وسلم - يقرأ في صلاته : "واذا المؤودة سئلت بأي ذنب قتلت" سيحركها هذا الى ان تترك المطبخ قليلا لتصغي اليه ، وهكذا قل في العبيد والايتام والمحرومين - والله اعلم - .

د- تحدث القرآن بالتفصيل عن المعاناة الكبيرة التي عاشها الرسل الكرام اثناء تبليغهم لدعوة الله . وهذه امثلة مما سطره القرآن :

المثال الاول : القتل او محاولة القتل :

"قل فلم تقتلون انبياء الله من قبل ان كنتم مؤمنين" (١) .

"ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير الحق" (٢) .

"قالوا حرّقوه وانصروا آلهتكم ان كنتم فاعلين . قلنا يانار كوني بردا وسلاما على ابراهيم" (٣) .

"ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين . اذ قال الله ياعيسى ان متوفيك ورافعك الي ومطهرك من الذين كفروا" (٤) . وقد فسّر الله هذا المكر بقوله : "وقولهم انا قتلنا المسيح عيسى بن مريم رسول الله وماقتلوه وماصلبوه ولكن شبه لهم" (٥) .

المثال الثاني : التهديد :

"قالوا لئن لم تنته يانوح لتكونن من المرجومين" (٦) .

"قالوا لئن لم تنته يالوط لتكونن من المخرجين" (٧) .

"ولئن لم يفعل ماآمره ليسجنن وليكونا من الصاغرين" (٨)

"قالوا ياشعيب مانفقه كثيرا مما تقول وانا لنراك فينا ضعيفا ولولا رهطك لرجمناك ومااانت علينا بعزيز" (٩) .

---

(١) البقرة : ٩١ .

(٢) البقرة : ٦١ .

(٣) الانبياء : ٦٨-٦٩ .

(٤) آل عمران : ٥٤-٥٥ .

(٥) النساء : ١٥٧ .

(٦) الشعراء : ١١٦ .

(٧) الشعراء : ١٦٧ .

(٨) يوسف : ٣٢ .

(٩) هود : ٩١ .

"وقال فرعون ذروني اقتل موسى وليدع ربه" [1] .

المثال الثالث : الاستهزاء والشتم والاتهام :

"كذبت قبلهم قوم نوح فكذبوا عبدنا وقالوا مجنون وازدجر" [2] .

"قالوا ياهود ماجئتنا ببينة ومانحن بتاركي آلهتنا عن قولك ومانحن لك بمؤمنين . إن نقول إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء" [3] .

"ثم بعثنا من بعدهم موسى وهارون الى فرعون وملأه بآياتنا فاستكبروا وكانوا قوما مجرمين . فلما جاءهم الحق من عندنا قالوا ان هذا لسحر مبين" [4] .

"وقال فرعون ذروني اقتل موسى وليدع ربه اني اخاف ان يبدّل دينكم او ان يظهر في الارض الفساد" [5] .

"كذلك ماأتى الذين من قبلهم من رسول الا قالوا ساحر او مجنون" [6] .

المثال الرابع : العناد والمكابرة :

"قالوا يانوح قد جادلتنا فاكثرت جدالنا فأتنا بما تعدنا ان كنت من الصادقين" [7] .

"واني كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا اصابعهم في آذانهم واستغشوا ثيابهم واصروا واستكبروا استكبارا" [8] .

"قالوا سواء علينا اوعظت ام لم تكن من الواعظين" [9] .

"فلما جاءتهم آياتنا مبصرة قالوا هذا سحر مبين . وجحدوا بها واستيقنتها انفسهم ظلما وعلوا" [10] .

"واذ قالوا اللهم ان كان هذا هو الحق من عندك فامطر علينا حجارة من السماء او ائتنا بعذاب اليم" [11] .

---

(١) غافر : ٢٦ .

(٢) القمر : ٩ .

(٣) هود : ٥٣-٥٤ .

(٤) يونس : ٧٥-٧٦ .

(٥) غافر : ٢٦ .

(٦) الذاريات : ٥٢ .

(٧) هود : ٣٢ .

(٨) نوح : ٧ .

(٩) الشعراء : ١٣٦ .

(١٠) النحل : ١٤ .

(١١) الانفال : ٣٢ .

هـ - الثبات والمصير :

لقد سجل القرآن مواجهة الانبياء - عليهم الصلاة والسلام - لهذه المصاعب والمحن بالثبات واليقين ، هذا الثبات الذي جعل المعركة تطول بين الحق والباطل ، لان الحرب بينهما حرب وجود لايمكن للحق ان يتنازل عن شيء ابدا ، ولذلك اعتنى القرآن بسرد نتائج هذه المعارك المريرة التي قادها رسل الله - عليهم الصلاة والسلام - وهذه النتائج نستطيع ان نختار منها الامثلة الآتية :

النتيجة الاولى : هلاك الكافرين المكذبين ونجاة الرسول ومن معه :

"كذبت قبلهم قوم نوح فكذبوا عبدنا وقالوا مجنون وازدجر . فدعا ربه اني مغلوب فانتصر . ففتحنا ابواب السماء بماء منهمر وفجرنا الارض عيونا فالتقى الماء على امر قد قدر . وحملناه على ذات الواح ودسر . تجري بأعيننا جزاء لمن كان كفر" [١] .

"فلما رأوه عارضا مستقبل اوديتهم قالوا هذا عارض ممطرنا بل هو ماستعجلتم به ريح فيها عذاب اليم . تدمر كل شيء بأمر ربها فاصبحوا لايرى الا مساكنهم كذلك نجزي المجرمين" [٢] . ولقد سلم الله هودا رسولهم فقال : "فانجيناه والذين معه برحمة منا وقطعنا دابر الذين كذّبوا" [٣] .

"فلما جاء امرنا نجينا صالحا والذين آمنوا معه برحمة منا ومن خزي يومئذ ان ربك هو القوي العزيز . واخذ الذين ظلموا الصيحة فاصبحوا في ديارهم جاثمين" [٤] .

"فما كان جواب قومه الا ان قالوا اخرجوا آل لوط من قريتكم انهم اناس يتطهرون . فانجيناه واهله الا امرأته قدرناها من الغابرين . وامطرنا عليهم مطرا فساء مطر المنذرين" [٥] .

"ولما جاء امرنا نجينا شعيبا والذن آمنوا معه برحمة منا واخذت الذين ظلموا الصيحة فاصبحوا في ديارهم جاثمين" [٦] .

"فلما تراء الجمعان قال اصحاب موسى انا لمدركون . قال كلا ان معي ربي سيهدين . فأوحينا الى موسى ان اضرب بعصاك البحر فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم . وازلفنا ثم الآخرين . ونجينا موسى ومن معه اجمعين . ثم اغرقنا الآخرين" [٧] .

النتيجة الثانية : الاستجابة والدخول في دين الله . وقد تكون هذه الاستجابة قليلة

---

(١) القمر : ٩-١٤ .

(٢) الاحقاف : ٢٤-٢٥ .

(٣) الاعراف : ٧٢ .

(٤) هود : ٦٦-٦٧ .

(٥) النمل : ٥٦-٥٨ .

(٦) هود : ٩٤ .

(٧) الشعراء : ٦١-٦٦ .

مقتصرة على عدد قليل من الناس وقد يكون العكس فمن امثلة الحالة الاولى :

قال القرآن عن نوح – عليه السلام – : "وما آمن معه الا قليل" [١] .

وقال عن هود – عليه السلام – : "ولما جاء امرنا نجينا هودا والذين آمنوا معه" [٢]

والدليل على انهم قلة ان الله اعقب هذا بقوله : "وتلك عاد جحدوا بآيات ربهم وعصوا رسله" [٣] . وهود ماارسل الا الى عاد .

وقال عن صالح – عليه السلام – : "قال الملأ الذين استكبروا من قومه للذين استضعفوا لمن آمن منهم اتعلمون ان صالحا مرسل من ربه قالوا انا بما ارسل به مؤمنون" [٤] . وهذه كتلك فقد قال الله عن قوم صالح : "الا ان ثمود كفروا ربهم" [٥]

وعن لوط – عليه السلام – : "فاخرجنا من كان فيها من المؤمنين . فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين . وتركنا فيها آية للذين يخافون العذاب الاليم" [٦] .

وعن شعيب – عليه السلام – : " قال الملأ الذين استكبروا من قومه لنخرجنك ياشعيب والذين آمنوا معك من قريتنا او لتعودن في ملتنا" [٧] .

ومن امثلة الحالة الثانية :

يونس – عليه السلام – : "الا قوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزي" [٨] .

موسى – عليه السلام – : "ومن قوم موسى امة يهدون بالحق وبه يعدلون . وقطعناهم اثنتي عشرة اسباطا امما" [٩] .

محمد – صلى الله عليه وسلم – : "اذا جاء نصر الله والفتح ورأيت الناس يدخلون في دين الله افواجا فسبح بحمد ربك واستغفره انه كان توابا" [١٠] .

النتيجة الثالثة : التمكين للرسل واتباعهم :

"وكذلك مكنا ليوسف في الارض يتبوء منها حيث يشاء نصيب برحمتنا من نشاء" [١١] .

---

(١) هود : ٤٠ .

(٢) هود : ٥٨ .

(٣) هود ٥٩ .

(٤) الاعراف ٧٥ .

(٥) هود : ٦٨ .

(٦) الذاريات : ٣٥-٣٧ .

(٧) الاعراف : ٨٨ .

(٨) يونس ٩٨ .

(٩) الاعراف : ١٥٩-١٦٠ .

(١٠)النصر : جميعها .

(١١)يوسف : ٥٦ .

"واورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الارض ومغاربها التي باركنا فيها وتمت كلمة ربك الحسنى على بني اسرائيل بما صبروا ودمرنا ماكان يصنع فرعون وقومه وماكانوا يعرشون"[1] .

"يا داود انا جعلناك خليفة في الارض فاحكم بين الناس بالحق"[2] .

"وورث سليمان داود وقال يا ايها الناس علمنا منطق الطير واوتينا من كل شيء ان هذا لهو الفضل المبين . وحشر لسليمان جنوده من الجن والانس والطير فهم يوزعون"[3] .

"واذكروا اذ انتم قليل مستضعفون في الارض تخافون ان يتخطفكم الناس فآواكم وايدكم بنصره"[4] . و "هو الذي ارسله رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيدا . محمد رسول الله والذين معه اشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعا سجدا يبتغون فضلا من الله ورضوانا سيماهم في وجوههم من اثر السجود ذلك مثلهم في التوراة ومثلهم في الانجيل كزرع اخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ به الكفار"[5].

و - بين الرسل واتباعهم :

يقص علينا القرآن الكريم مسيرة الرسل الكرام مع اتباعهم ، وفي هذاتكتمل الصورة وتتضح معالم الخارطة المتكاملة لوظيفتهم - عليهم الصلاة والسلام - فتبليغ الدعوة اولاً ثم تشكيل الصف المسلم الذي يستطيع ان يصارع الكفر على هذه الارض وان يخلف الرسول في المسيرة الطويلة ، غير ان هذا الصف ليس صفا ملائكيا انما هو بشر .

ولذا سجل القرآن بأمانة بالغة المواقف الصحيحة المباركة لذلك الصف ، وسجل ايضا المواقف الخاطئة ، وسنحاول سريعا - ان شاء الله - التمثيل لكل هذا باختصار شديد ، ولنتمتع اولا بأمثلة من المواقف الصحيحة :

المثال الاول : سحرة فرعون : "فالقى السحرة سجدا قالوا آمنا برب هارون وموسى . قال آمنتم له قبل ان آذن لكم انه لكبيركم الذي علمكم السحر فلاقطعن ايديكم وارجلكم من خلاف ولاصلبنكم في جذوع النخل ولتعلمن اينّا اشد عذابا وابقى . قالوا لن

---

(١) الاعراف : ١٣٧ .

(٢) ص : ٢٦ .

(٣) النمل : ١٦-١٧ .

(٤) الانفال : ٢٦ .

(٥) الفتح : ٢٨-٢٩ .

* هذه النتائج الثلاث هي التي ذكرها القرآن الكريم في سيرة رسل الله - عليهم الصلاة والسلام - وهنالك نتيجة اخرى تتمثل بابادة الفئة المؤمنة وانتصار الطغيان والكفر ، وهذه حالة واحدة وردت في القرآن الكريم في سورة "البروج" ولم يشر القرآن الى وجود نبي بينهم - والله اعلم - .

نؤثرك على ماجاءنا من البينات والذي فطرنا فاقض ماانت قاض . انما تقضي هذه الحياة الدنيا . انا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا وماأكرهتنا عليه من السحر والله خير وابقى" [١] .

المثال الثاني : مؤمن آل فرعون : "وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم ايمانه اتقتلون رجلا ان يقول ربي الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم وان يك كاذبا فعليه كذبه وان يك صادقا يصبكم بعض الذي يعدكم ان الله لايهدي من هو مسرف كذاب . ياقوم لكم الملك اليوم ظاهرين في الارض فمن ينصرنا من بأس الله ان جاءنا" [٢] .

المثال الثالث : جيش طالوت : "قال الذين يظنون انهم ملاقوا الله كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله والله مع الصابرين . ولما برزوا لجالوت وجنوده قالوا ربنا افرغ علينا صبرا وثبت اقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين . فهزموهم باذن الله وقتل داود جالوت" [٣] . وطالوت هو واحد من اتباع الانبياء : "وقال لهم نبيهم ان الله قد بعث لكم طالوت ملكا" [٤] .

المثال الرابع – صحابة رسول الله محمد – صلى الله عليه وسلم – : "محمد رسول الله والذين معه اشداء على الكفار رحماء بينهم" [٥] " للفقراء المهاجرين الذين اخرجوا من ديارهم واموالهم يبتغون فضلا من الله ورضوانا وينصرون الله ورسوله اولئك هم الصادقون . والذين تبوءوا الدار والايمان من قبلهم يحبون من هاجر اليهم ولايجدون في صدورهم حاجة مما اوتوا ويؤثرون على انفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فاولئك هم المفلحون" [٦] .

واما المواقف الخاطئة فنختار منها الامثلة الآتية :

المثال الاول : بنو اسرائيل مع موسى وهارون – عليهما السلام – فقد سجل القرآن عن هؤلاء القوم الكم الهائل من الاخطاء والجرائم التي قد تصل الى الردة وقتل الانبياء ولنقرأ :

"قالوا ياموسى انا لن ندخلها ابدا ماداموا فيها فاذهب انت وربك فقاتلا انا ههنا قاعدون" [٧] .

وجاوزنا ببني اسرائيل البحر فأتوا على قوم يعكفون على اصنام لهم قالوا

---

(١) طه : ٧٠-٧٣ .

(٢) غافر : ٢٨-٢٩ .

(٣) البقرة : ٢٤٩-٢٥١ .

(٤) البقرة : ٢٤٧ .

(٥) الفتح . ٢٩ .

(٦) الحشر : ٨-٩ .

(٧) المائدة : ٢٤ .

ياموسى اجعل لنا الها كما لهم آلهة قال انكم قوم تجهلون"[1] .

"واذ واعدنا موسى اربعين ليلة ثم اتخذتم العجل من بعده وانتم ظالمون"[2] .

"فبما نقضهم ميثاقهم لعناهم وجعلنا قلوبهم قاسية يحرفون الكلم عن مواضعه ونسوا حظا مما ذكروا به ولاتزال تطلع على خائنة منهم الا قليلا منهم"[3] .

المثال الثاني من اصحاب رسول الله – صلى الله عليه وعليهم وسلم – :

رماة احد : "ولقد صدقكم الله وعده اذ تحسونهم باذنه حتى اذا فشلتم وتنازعتم في الامر وعصيتم من بعد ماأراكم ماتحبون منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة ثم صرفكم عنهم ليبتليكم ولقد عفا عنكم"[4] .

المنهزمون يوم حنين :"ويوم حنين اذ اعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئا وضاقت عليكم الارض بما رحبت ثم وليتم مدبرين"[5] .

المتخلفون يوم العسرة : "وعلى الثلاثة الذين خلفوا حتى اذا ضاقت عليهم الارض بما رحبت وضاقت عليهم انفسهم وظنوا ان لاملجأ من الله الا اليه ثم تاب عليهم ليتوبوا ان الله هو التواب الرحيم"[6] .

ز – ان هنالك من الرسل الكرام من اهتم القرآن بقصته اكثر من غيره وابرز مثال على هذا : موسى – عليه الصلاة والسلام – ولنلاحظ معالم هذا الاهتمام :

١– لقد تكرر اسم "موسى" في القرآن (١٣٦) مرة . في حين تكرر اسم "نوح" (٣٣) مرة . واسم "ابراهيم" (٦٩) مرة . واسم "شعيب" (١١) مرة . و "يوسف" (٢٧) مرة و "عيسى" (٢٥) مرة .

٢– ان قصة موسى – عليه السلام – تكررت في القرآن بشكل ملفت للنظر ، فلقد تكررت قصته في مالايقل عن "٤٠" سورة لاسيما السور الطوال التي فصلت قصته تفصيلا دقيقا مثل سورة البقرة وآل عمران والنساء والمائدة والانعام والاعراف ثم يونس وهود ثم الكهف وطه والانبياء والمؤمنون والشعراء والقصص وغير هذا .

٣– ومن مظاهر الاهتمام الكبير تفصيل الحديث عن الادوار المختلفة التي لعبتها هذه الشخصية الخطيرة في التأريخ . فالقرآن تحدّث عنه حملا ورضيعا وغريبا ثم زوجا ثم رسولا يجابه فرعون والسحرة والملأ ، ثم قائدا كبيرا لاعقد شعب وفي اعقد ظرف ، ويكفي ان نعلم ان القرآن كرر اسم فرعون لعلاقته بموسى اكثر من تكراره لاسم اي نبي

---

(١) الاعراف : ١٣٨ .

(٢) البقرة : ٥١ .

(٣) المائدة ١٣ .

(٤) آل عمران : ١٥٢ .

(٥) التوبة : ٢٥ .

(٦) التوبة : ١١٨ .

غير موسى . فلقد تكرر اسم "فرعون" (٧٤) مرة .

٤- ان المعجزات التي ايد الله بها موسى قد تكون اكثر من مجموع ماذكره القرآن للانبياء من المعجزات ، فيده البيضاء ، وعصاه التي ابطلت السحر وفلقت البحر ، وتجنيد الطوفان والجراد والقمل والضفادع [1] وغيرها له في معركته الكبيرة ، كل هذا يثبت ان دور موسى - عليه السلام - يمتاز بخصوصية قد لايشاركه فيها بقية الانبياء السابقين .

٥- تأييد الله له بوزير واخ يشد به عضده "قال سنشد عضدك بأخيك" [2] . هذا الاخ الذي منحه الله الرسالة مع موسى - عليهما السلام - وقد تكرر اسمه "هارون" في القرآن (١٩) مرة. في حين لم يذكر القرآن عن رسول ايده الله برسول آخر وكلاهما يحملان رسالة واحدة غير موسى - عليه السلام - .

ان هذه النقاط وغيرها تجعلنا نتساءل : لماذا كل هذا الاهتمام ؟!

اني لااريد هنا ان افصل في الجواب ولكني احاول ان الفت نظر القارىء الكريم الى هذه النقاط شاحذا همته للنظر فيها والتفكر فيما هو ابعد منها :

النقطة الاولى : ان موسى - عليه السلام- جابه الذي قال : "ماريكم الا مارى" [3] و "ما علمت لكم من اله غيري" [4] . فهل كان بعلم الله ان الامة الاسلامية ستواجه فرعون وفرعون وفرعون مرات ومرات ومرات ؟ دون ريب فان الشخصية الفرعونية مكررة بكل جوانبها : الكبر ، والقوة ، والمال ، والملأ ، والعملاء ، والاجراء ، ثم الظلم والدم والتأله !!.

النقطة الثانية : ان الشعب الذي قاده موسى وهارون بعد ان خلصاه من وطأة فرعون شعب كبير ، ومتعدد الطاقات ، وقابل للانشقاق ثم الضياع ، او للتماسك ثم التمكين ، ان هذه الصفات كلها - دون ريب - هي صفات الامة التي يريد الاسلام ان يخلصها من وطأة الفراعنة ، ثم المسير بها الى التماسك والتمكين ، انهم البدلاء الشرعيون عن شعب موسى في حمل الامانة واعلان خلافة الله في الارض ، والبديل او الوريث لاغنى له عن تجارب سلفه وتأريخه .

النقطة الثالثة : هل كان بعلم الله ان العدو الاول الذي سيبقى يواجه الامة القرآنية بحقد وعناد هم اليهود اتباع موسى - عليه السلام - الذين غيروا وبدلوا ؟! وان الله اراد لنا ان نعرف خبايا هؤلاء وطريقة تفكيرهم لكي لانقع في البئر مائة مرة ولانلدغ من جحر واحد مرتين ، الواقع يشهد بهذا ولكن : ياليت قومي يعلمون .

---

(١) يقول القرآن الكريم "فارسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم آيات مفصلات" الاعراف : ١٣٣ .

(٢) القصص : ٣٥ .

(٣) غافر : ٢٩ .

(٤) القصص : ٣٨ .

المبحث الثاني
الانبياء والرسل عند المتكلمين

لا ريب ان ماعرضناه في المبحث السابق يعد محل الاتفاق بين المتكلمين في موضوع الانبياء" ، ولكن هذا لم يمنع من الاختلاف في تفسير بعض النصوص التي مرت او الاختلاف في مباحث جديدة لم يتطرق لها القرآن ، او على الاقل لم يصرح بموقف واضح منها ، ولذا فعند حديثنا عن مناهج المتكلمين في الموضوع هذا سوف نركز على المعالم المميزة لشخصية كل مدرسة وباختصار شديد - ان شاء الله - .

المعتزلة :

لم يعر المعتزلة هذا المبحث اهتماما كبيرا وذلك لاسباب اهمها : ان تأكيدهم على مسائل التوحيد قد اخذ مساحة واسعة من اهتمامهم على حساب بقية المسائل . ثم ان غالب مسائل النبوات بعيدة عن نقاط النزاع والاثارة ، ولهذا ايضا فمنهجهم في النبوات لايخلو من ربطه بتلك النقاط ولو بخيط ضعيف ، ولعلنا نستطيع ان نقدم خلاصة منهجهم في النقاط الآتية :

اولا - الربط بين مبحث النبوات والعدل الالهي :

وهذا مبحث معتزلي بحت وخلاصته : "هو انه - تعالى - اذا علم ان صلاحنا يتعلق بهذه الشرعيات فلابد من ان يعرفناها لكي لايكون مخلا بما هو واجب عليه ، ومن العدل ان لايخل بما هو واجب عليه" [1] . و "اذا كان لايمكن تعريفنا ذلك الا بأن يبعث الينا رسولا مؤيدا بعلم معجز دال على صدقه فلابد من ان يفعل ذلك ، ولايجوز له الاخلال به" [2] . وهكذا تكون النبوة واجبة على الله ، لانها من الحسن والحسن واجب فعله على الله لانه جزء من عقيدة العدل الالهي ، وهكذا بدأ المعتزلة مبحث النبوات بقضية غيبية بعيدة عن ميدان العمل والتكليف والتي لايمكن ان نصل من خلالها الا الى الشق والشقاق .

ثانيا - تعريف النبي والرسول :

يعرف المعتزلة الرسول بقولهم : "الرسول من الالفاظ المتعدية اي لابد من ان يكون هنك مُرسِل ومرسل اليه ، واذا اطلق فلاينصرف الا الى المبعوث من جهة الله - تعالى - دون غيره : . ثم يعرفون النبي بقولهم : "اما النبي ، فقد يكون مهموزا ومشددا واذا كان

---

(١) القاضي عبدالجبار ، شرح الاصول الخمسة : ٥٦٣ .
(٢) المصدر السابق : ٥٦٤ .

مهموزا فهو من الانباء ، وهو الاخبار ...... واذا كان مشددا فانه يكون من النباوة وهو الرفعة والجلالة" [٣] .

وبعد هذا يرى المتعزلة انه لافرق في الواقع بين النبي والرسول "واذا عرفت ذلك فاعلم انه لافرق في الاصطلاح بين الرسول والنبي" ومن هذه الزاوية يدخلون في نزاع مع المدارس الكلامية الاخرى : "وقد خالف في ذلك بعضهم ، واستدل بقوله - تعالى - : " ومارسلنا من قبلك من رسول ولانبي" [١] قالوا : فصل القديم - تعالى - بين الرسول والنبي فيجب ان يكون احدهما غير الاخر ، والذي يدل على اتفاق الكلمتين في المعنى انهما يثبتان معا ويزولان معا في الاستعمال ، حتى لو ثبت احدهما ونفى الاخر لتناقض الكلام ، وهذا هو امارة اثبات كلتي اللفظتين المتفقتين في الفائدة ، واما قوله - تعالى - : " ومارسلنا من قبلك من رسول ولانبي" فانه لايدل على ماذكروه ، لان مجرد الفصل لايدل على اختلاف الجنسين ، الا ترى انه - تعالى - فصل بين نبينا وغيره من الانبياء ، ثم لايدل على ان نبينا ليس من الانبياء" [٢] .

ثالثا - دليل صدق الرسول :

يرى المعتزلة انه يجب على الله ان يؤيد الرسول بمعجزة تدلل على صدقه ، وقد وضعوا شروطا لكي تكون المعجزة . وهي كما يأتي :

١- "ان يكون من جهة الله - تعالى - او في الحكم كأنه من جهته - جل وعز - ... وعلى كل حال فلابد من ان يكون جاريا في الحكم مجرى فعل الله ليصح كونه دلالة على صدق من ظهر عليه ، والا فلو لم يجر هذا المجرى لم يكن نسبته الى صدق من ظهر عليه الا كنسبته الى كذبه" [٣] .

٢- "ان يكون واقعا عقيب دعوى المدعي للنبوة ، لانه لو تقدم الدعوى لم تتعلق به ، ... وكذلك فلو تراخى عنه لم يتعلق به ... الا انه اذا ثبت صدق المدعي للنبوة بمعجز وتراخى عن دعواه معجز آخر جاز" [٤] .

٣- "ان يكون مطابقا لدعواه ، فانه لو لم يكن كذلك وكان بالعكس لم يكن يتعلق بدعواه فلايدل على صدقه" [٥] .

---

(٣) المصدر السابق : ٥٦٧ .

(١) الحج : ٥٢ .

(٢) القاضي عبدالجبار : شرح الاصول الخمسة :٥٦٧-٥٦٨ . ويبدو ان المعتزلة ليسوا متفقين على هذا الرأي بل الزمخشري يصرح بالغيرية بين النبي والرسول ، فالرسول عنده من جمع مع المعجزة شريعة ووحيا جديدا من الله ، واما النبي فهو المؤيد بالمعجزة الا انه يدعو الى شريعة رسول قبله . الكشاف : ١٦٤/٣ .

(٣) المصدر السابق : ٥٦٩ .

(٤) المصدر السابق : ٥٦٩ - ٥٧٠ .

(٥) المصدر السابق : ٥٧٠ .

٤- "ان يكون ناقضا لعادة من بين ظهرانيه لانه لو لم يكن كذلك لم يكن ليدل على صدق من ظهر عليه اصلا" [١] .

وبعد هذه الشروط يحسن بنا ان ننقل تعقيب القاضي عبد الجبار - رحمه الله - والذي يكشف فيه اللبس الذي حصل عند البعض بين المعجزة والشعوذة او السحر فيقول : "فمتى حصل المعجز على هذه الاوصاف والشرائط التي راعيناها كان دالا على صدق المدعي للنبوة ، واذ قد عرفت ذلك من حال المعجز ، فقد ظهر لك الفرق بينه وبين الشعوذة ومايتوصل اليه بالحيلة ، لما قد ذكرنا من ان المعجز لابد ان يكون من جهة الله - تعالى - او في الحكم كأنه من جهته - جل وعلا - وليس كذلك الحيلة ، وكذلك فان المعجز لابد ان يكون ناقضا للعادة خارقا لها ، وليس هكذا سبيل مايتوصل اليه بالحيلة وخفة اليد ، وكذلك فان الحيلة مما يمكن ان تتعلم وتعلم ، وهذا غير ثابت في المعجز ، وكذلك فان الحيلة تفتقر الى آلات وادوات لو فقدت واحدة منها لم تنفذ وليس كذلك المعجز، واقوى مايذكر هـهنا ان المشعوذ والمحتال انما ينفذ حيلته على من لم يكن من اهل صناعته ولايكون له بها دراية ومعرفة ، وليس هذا حال المعجزة ، فقد جعل الله - سبحانه وتعالى - معجزة كل نبي ممايتعاطاه اهل زمانه ، حتى جعل معجزة موسى - عليه السلام - قلب العصا حية لما كان الغالب على اهل ذلك الزمان السحر ، وجعل معجزة عيسى - عليه السلام - ابراء الاكمه والابرص لما كان الغالب على اهل زمانه الطب . وجعل معجزة نبينا محمد - صلى الله عليه وسلم - القرآن وجعله في اعلى طبقات الفصاحة لما كانت الغلبة للفصاحة والفصحاء في ذلك الزمان ، وبها كان يفاخر اهله ويتباهى ، فقد وضح لك بهذه الوجوه الفرق بين المعجز والحيلة" [٢] .

وقد بحث المعتزلة باهتمام دليل صدق رسول الله محمد - صلى الله عليه وسلم - بصورة خاصة ، وبحثوا قضية الاعجاز القرآني ولهم منهجهم الخاص فيه ، غير انا آثرنا ان نؤخر هذا الى المبحث الآتي "الوحي والرسالة" .

رابعا - صفات الرسول :

لم اجد عند المعتزلة مايصطدم مع المنهج القرآني في هذا الموضوع ، غير اني وجدتهم يؤكدون قضية يتناسب التأكيد عليها مع منهج المعتزلة العقلي ، هذه القضية التي عدّوها اصل الصفات الرسولية وهي "تنزيه الرسول عن كل منفر" لان وجود المنفر في الرسول يتعارض مع الغاية التي من اجلها بعثه الله ، ولهذا ليس مشكلة عندهم ان يرتكب الرسول عملا لايؤثر على هذه الغاية ، ولو كان هذا العمل منهيا عنه ، اما المنفر فلا ، ولو لم يكن فيه اثم كالتشويه الخلقي ، ولنقرأ بعض ماسطره ائمتهم في هذا الموضوع :

(١) المصدر السابق : ٥٧١ .

(٢) المصدر السابق : ٥٧٢ .

يقول القاضي عبد الجبار – رحمه الله – : "وجملة ذلك ان الرسول لابد من ان يكون منزها عن المنفرات جملة كبيرة او صغيرة ، لان الغرض بالبعثة ليس الا لطف العباد ومصالحهم . وماهذا سبيله فلابد من ان يكون مفعولا بالمكلف على ابلغ الوجوه ، ومن ذلك ماذكرنا من انه – تعالى – لابد من ان يجنب رسوله – عليه السلام – ماينفر عن القبول منه لانه لو لم يجنبه عما هذه حاله لم يقع القبول منه ، ... ولذلك جنب الله – تعالى – رسوله – عليه السلام – عن الغلظة والفظاظة وذكر علته فقال : ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك" [1] .

وعلى هذا بنوا عصمة الانبياء من الكبائر قبل البعثة وبعدها ، يقول القاضي : "واذا قد صح لك ماقلناه ، فقد ثبت انه لايجوز على الانبياء الكبيرة لاقبل البعثة ولابعدها ..... فقد ذكرنا ان الرسول لابد من ان يكون منزها عما ينفر عن القبول عنه ، والكبائر كلها منفرة ، فيجب ان يجنب الله – تعالى – رسوله عنها" [2] .

وعلى هذا وجدوا انفسهم مضطرين لتأويل المعاصي التي سجلها القرآن على الانبياء – عليهم الصلاة والسلام – فمثلا يقول الزمخشري – : "فان قلت : الخطيئة التي اهبط بها آدم ان كانت كبيرة فالكبيرة لاتجوز على الانبياء ، وان كانت صغيرة فلم جرى عليه ماجرى بسببها من نزع اللباس والاخراج من الجنة والاهباط من السماء ، كما فعل بابليس ونسبته الى الغي والعصيان ونسيان العهد وعدم العزيمة والحاجة الى التوبة ؟ قلت : ماكانت الا صغيرة مغمورة بأعمال قلبه من الاخلاص والافكار الصالحة التي هي اجل الاعمال واعظم الطاعات ، وانما جرى عليه ماجرى ، تعظيما للخطيئة وتفظيعا لشأنها وتهويلا ، ليكون ذلك لطفا له ولذريته في اجتناب الخطايا واتقاء المآثم" [3] .

وبناء على هذا ربطوا بين الكبائر والمنفرات الخلقية بجامع التنفير ، فقال القاضي : "وكما لايصح عليهم الكبيرة فكذلك لايصح عليهم شيء من المنفرّات على ماسبق نحو الكذب والسرقة ونحو دمامة الخلقة وقبح المنظر بحيث ينفر" [4] .

وخلصوا من مجموع ماتقدم الى تجويز بعض الامور التي لاتؤدي الى التنفير ، فمن ذلك انهم جوزوا عليهم الصغائر ، وقد مر معنا قول الزمخشري ، ويقول القاضي : "فأما الصغائر التي لاحظ لها الا في تقليل الثواب دون التنفير ، فانها مجوزة على الانبياء ، ولامانع يمنع منه ، لان قلة الثواب مما لايقدح في صدق الرسل ولافي القبول منهم" [5] .

---

(١) المصدر السابق : ٥٧٣ ، والآية : ١٥٩ من سورة آل عمران .

(٢) المصدر السابق : ٥٧٣-٥٧٤ .

(٣) الزمخشري ، الكشاف : ١٢٩/١-١٣٠ .

(٤) القاضي عبدالجبار ، شرح الاصول الخمسة : ٥٧٥ .

(٥) المصدر السابق : ٥٧٥ .

وجوزوا عليهم ارتكاب المنفر الذي لم يكن منفرا في زمانهم ، "وليس يمتنع فيما ينفر في زمان الا ينفر في زمان آخر فان للآزمنة والعادات تأثيراً في ذلك [1] .

خامسا - مناقشة منكري النبوات :

توسع المعتزلة في الرد على منكري النبوات ومناقشتهم ، سواء كان انكارا لاصل النبوة او للنبوة الخاصة ، اما الذين انكروا اصل النبوات فهم جماعة من البراهمة ، ولنقرأ مايقول فيهم القاضي - رحمه الله - :

"واعلم ان المخالف في هذا الباب جماعة من البراهمة الذين يثبتون الصانع بتوحيده وعدله وينكرون النبوات [2] وقد ذكر لهم ثلاث شبه ورد عليها وكما يأتي :

الشبهة الاولى : "ان ماأتى به الانبياء لايخلو اما ان يكون موافقا للعقل ففي العقل غنية عنه وكفاية ، او مخالفا له ، وذلك مايوجب ان يرد عليهم وان لايقبل منهم" [3] .

ويرد القاضي على هذه الشبهة بقوله : "ان الافعال مامن شيء منها الا ويجوز ان يقع على وجه فيحسن ، وعلى خالف ذلك الوجه فيقبح ، واما ان نحكم على فعل من الافعال بالقبح والحسن بمجرده ، فلا.... وصار الحال في ذلك كالحال في الاطباء اذا قالوا : ان هذا البقل ينفع ذك وذلك يضر ، وكنا قد علمنا قبل ذلك ان دفع الضرر عن النفس واجب ، وجر النفع الى النفس حسن ، فكما لايكون والحال ماقلناه قد اتوا بشيء مخالف للعقل ، فكذلك حال هؤلاء الرسل" [4] .

الشبهة الثانية : "انه - تعالى - اذا بعث الينا رسولا فلابد من ان يظهر عليه علما معجزا دالا على نبوته ليكون فرقا بينه وبين المتنبي ، ولايمكننا ان نميز بين المعجز والحيلة بوجه ، لان مامن معجز الا ويجوز ان يكون من باب الشعوذة وخفة اليد وماجرى مجراها ، فيجب ان لايقبل قولهم ويعتمد على العقول" [5] .

وقد تقدم بحث القاضي في التفريق بين المعجزة والشعوذة ونحوها ، وقد ذكر فروقا مقنعة ، خلاصتها ان الحيل والشعوذة والسحر كلها تقبل التعلم وتقبل الاشتراك ، ثم هي ليست ناقضة لعادة اهل هذه الصنعة ، وانما هي مستغربة بالنسبة لمن يجهل هذه الصنعة اصلا ، وكل هذا بخلاف المعجزة فهي لاتقبل التعلم ولا الاشتراك ، وهي ناقضة لاصحاب الشأن كما في العصا للسحرة والقرآن لاهل البلاغة والبيان .

---

(١) المصدر السابق : ٥٧٥ .

(٢) المصدر السابق : ٥٦٣ .

(٣) المصدر السباق : ٥٦٣ .

(٤) المصدر السابق : ٥٦٤-٥٦٥ .

(٥) المصدر السابق : ٥٦٤ .

الشبهة الثالثة : "ان ماأتى به الانبياء نحو افعال الصلاة من القيام والقعود والركوع والسجود واعمال الحج نحو التلبية والهرولة ورمي الجمار والطواف ، كلها مستقبحة من جهة العقل منكرة ، لان كل عاقل يستقبح بكمال عقله ذلك وينكره ، فيجب ان ترد ولاتقبل" [1] .

وقد رد القاضي هذه الشبهة بقوله : "واما ماذكروه ثانيا من ان هذه الافاعيل كلها قبيحة في العقل فأبعد ، لانا قد ذكرنا ان مجرد الفعل لايمكن ان يحكم عليه بالقبح والحسن ، حتى لو سألنا سائل عن القيام هل يقبح ام لا، فانه مما لايمكننا اطلاق القول في الجواب عن ذلك ، والواجب ان نقيد فنقول : ان حصل فيه غرض وتعرّى عن سائر وجوه القبح حسن ، والا كان قبيحا ، هذا واذا كان هكذا وكنا قد علمنا بقول الرسول المصدّق بالمعجز ان لنا في هذه الافعال مصالح والطافا فكيف يجوز ان يحكم فيها بالقبح ..... وهكذا فاذا كنا نرمي صيدا مع ان النفع فيه يسير ثم تستحسن الهرولة اليه كيلا ينفلت فكيف لاتستحسن في اعمال الحج ؟ وقد علم الله فيها من المصالح ماقد اظهره على لسان رسوله – صلى الله عليه وسلم –" [2] .

واما الذين انكروا النبوة الخاصة ، فقد تحدث عنهم القاضي ضمن الذين انكروا نسخ الشرائع ولذا آثرنا ان ننقل هذا في المبحث القادم "الوحي والرسالات" تفاديا لداء التكرار .

الاشاعرة :

لايبعد منهج الاشاعرة هنا كثيرا عن منهج المعتزلة من حيث المسائل التي ركزوا عليها في هذا الموضوع . ومن خلال عرضنا لهذه المسائل سيتضح منهجهم بجلاء – ان شاء الله – فالى المسائل :

المسألة الاولى – علاقة هذا الموضوع بالالهيات :

وهذه المسألة صاغها الاشاعرة – على مايبدو – للرد على المعتزلة القائلين بوجوب ارسال الرسل على الله – تعالى – بناء على عقيدة العدل الالهي ، لكن الاشاعرة يقولون : "ان بعثة الانبياء جائز وليس بمحال ولاواجب وقالت المعتزلة : انه واجب" [3] . وهذا خلاف راجع في حقيقته الى قضية فلسفية غيبية وهي : هل يجب على الله فعل الاصلح لعباده ؟ قال المعتزلة : يجب ، وقال الاشاعرة : لايجب على الله فعل شيء ، فلما كان بعثة الانبياء فيها مصلحة العباد اوجبها المعتزلة على الله ، ولم يرها الاشاعرة واجبة عليه .

---

(١) القاضي عبدالجبار ، شرح الاصول الخمسة : ٥٦٣ .

(٢) المصدر السابق : ٥٦٦ .

(٣) الغزالي ، الاقتصاد : ١٢١ .

ففي هذه المسألة مؤشر واضح على جنوح العقل الاسلامي في مرحلة تأريخية حرجة الى البحث فيما لايمكن ان يدرك ، ولو ادرك فرضا فانه لامساس له بالواقع والميدان التكليفي ، فاذا علمت ان المعتزلة والاشاعرة يؤمنون جميعا بأن الله ارسل رسلا وختم هؤلاء الرسل برسالة محمد – صلى الله عليه وسلم – وان طاعته واجبة يثاب عليها ومخالفته معصية يعاقب عليها ، فماذا سيؤثر بعد هذا ان نبحث في هؤلاء الرسل الذين ارسلهم الله يقينا أأرسلهم الله لان ارسالهم كان واجبا عليه – تعالى – ام لا؟!! بحث لاطائل من ورائه – والله – .

المسألة الثانية – تعريف النبي والرسول :

يتفق الاشاعرة مع المعتزلة في التعريف اللغوي لهاتين الكلمتين ، الا انهم يخالفونهم في جوهر الموضوع ، فبينما يرى المعتزلة انه من حيث الاصطلاح لافرق بين النبي والرسول فكل نبي رسول وكل رسول نبي ، يرى الاشاعرة غير هذا ، يقول البغدادي – رحمه الله – : "وكل رسول لله – عز وجل – نبي وليس كل نبي رسولا ، والفرق بينهما ان النبي من اتاه الوحي من الله – عز وجل – ونزل عليه الملك بالوحي ، والرسول من يأتي بشرع على الابتداء او بنسخ بعض احكام شريعة قبله" [(١)] . ولكنني في الحقيقة لم اجد مايقطع بترجيح احد الرأيين من القرآن الكريم ، ومعنى هذا ان القرآن لم يهتم بها ربما لعدم جدواها من الناحية العملية كما هو دأب القرآن – والله اعلم – .

المسألة الثالثة – دليل صدق الرسول :

ربما لايختلف الاشاعرة مع المعتزلة في هذه المسألة اطلاقا ، ولذا سنعرض شواهد الوفاق :

يقول الجويني – رحمه الله – : "اعلموا ان المعجزة لها اوصاف تتعين الاحاطة بها ، منها ان تكون فعلا لله – تعالى – فلايجوز ان تكون المعجزة صفة قديمة ، اذ لااختصاص للصفة القديمة ببعض المتحدين دون بعض" [(٢)] .

ويقول ايضا : "ومن شرائطها ان تكون خارقة للعادة ، اذ لو كانت عامة معتادة يستوي فيها البار والفاجر والصالح والطالح ومدعي النبوة المحق بها والمفتري بدعواه ، لما أفاد مايقدر معجزا تمييزا وتخصيصا على الصادق ولاخفاء بذلك" [(٣)] .

ويقول ايضا "والشريطة الثالثة للمعجزة ان تتعلق بتصديق دعوى من ظهرت على

---

(١) البغدادي ، اصول الدين : ١٥٤ .

(٢) الجويني ، الارشاد : ٣٠٨ .

(٣) المصدر السابق : ٣٠٩ .

يديه[1] ، وهذا الشرط يتضمن عند الجويني شروطا اخرى منها : "ان يتحدى النبي بالمعجزة ، وتظهر على وفق دعواه .... ومن وجوهه ان تتقدم المعجزة على الدعوى" [2] .

فهذه الشروط هي الشروط التي وضعها المعتزلة بعينها .

المسالة الرابعة - صفات الرسول :

وفي هذه المسألة لايبدو ان هناك فرقا بين المنهجين ، ولذا سنكتفي بعرض هذا الشاهد :

يقول الجويني "فان قيل : بينوا لنا عصمة الانبياء ومايجب لهم ، قلنا : تجب عصمتهم عما يناقض مدلول المعجزة ، وهذا مما نعلمه عقلا ، ومدلول المعجزة صدقهم فيما يبلغون ، فان قيل : هل تجب عصمتهم عن المعاصي ؟ قلنا : اما الفواحش المؤذنة بالسقوط وقلة الديانة ، فتجب عصمة الانبياء عنها اجماعا ، ولايشهد لذلك العقل ، وانما يشهد العقل لوجوب العصمة عما يناقض مدلول المعجزة ، واما الذنوب المعدودة من الصغائر .... فلاتنفيها العقول ، ولم يقم عندي دليل قاطع سمعي على نفيها ولاعلى اثباتها ، اذ القواطع نصوص او اجماع ، ولااجماع اذ العلماء مختلفون في تجويز الصغائر على الانبياء ، والنصوص التي تثبت اصولها قطعا ولايقبل فحواها التأويل ، غير موجودة ، فاذا قيل : اذا كانت المسألة مظنونة فماالاغلب على الظن عندكم ؟ قلنا : الاغلب على الظن عندنا جوازها ، وقد شهدت اقاصيص الانبياء في آي من كتاب الله - تعالى - على ذلك" [3] .

ويبدو لنا التوافق الكامل بين المعتزلة والاشاعرة في الموضوع هذا سيما على رأي الجويني نفسه ، الا ان قوله الآنف : "اذ العلماء مختلفون في تجويز الصغائر على الانبياء" يجعلنا ننتبه الى حقيقة ان الاشاعرة غير متفقين في الجزئية هذه ، فلقد قال بعضهم : "فهم معصومون من الصغائر والكبائر قبل النبوة وبعدها" [4] ، ولانريد ان ندخل في هذا الخلاف لاسيما انهم يقولون : لايوجد دليل قاطع في المسألة - كما تقدم - والله اعلم .

المسالة الخامسة : مناقشة منكري النبوات :

ناقش الاشاعرة البراهمة الذين انكروا اصل النبوات كما ناقشوا منكري النبوة الخاصة ، اما مناقشتهم للآخيرين فقد آثرنا ان نفصله في المبحث الآتي "الوحي

---

(١) المصدر السابق : ٣١٣ .

(٢) المصدر السابق : ٣١٣-٣١٤ . وقد تقدم معنا مناقشة اشتراط التحدي في المعجزة .

(٣) المصدر السابق : ٣٥٦-٣٥٧ .

(٤) النووي ، المقاصد النووية : ١١ .

والرسالات" . واما مناقشتهم للبراهمة ، فلايبعد من منهج المعتزلة غير اني وجدت بعض الشبه التي ناقشها الاشاعرة غير تلك التي ناقشها المعتزلة ، ولذا فسنكتفي بعرض اهم الشبه التي لم يذكرها المعتزلة ، وهي :

الشبهة الاولى : "ان ارساله الرسل الى من يعلم انه يكفر به ويشتمه ويرد قوله ويستوجب بذلك العقاب الاليم سفه وخلاف الصواب ، فلما لم يجز السفه على الله – سبحانه – لم يجز ان يرسل الرسل الى من حاله ماوصفنا" [1] .

ويرد الباقلاني هذه بقوله : "يجب على اعتلالكم الا يخلق الله – سبحانه – من يعلم انه يكفر به ويجحد نعمه ويلحد في صفاته ولاينتفع بوجود نفسه والا يحتج بالعقول وماوضعه من الادلة فيها على احد علم انه يجحدها ولايستعملها ولاينيب الى ماوضح في عقله حسنه ، ولايحذر مما حذّر منه فان مرّوا على ذلك تركوا دينهم وان ابوه نقضوا اعتلالهم" [2] .

الشبهة الثانية : "ان الرسول من جنس المرسل اليه وان جوهرهما واحد وان تفضيل احد المتماثلين المتساويين على مثله ونوعه ومن هو بصفته حيف ومحاباة وميل وخروج عن الحكمة وذلك غير جائز على الحكيم" [3] .

ويرد الباقلاني هذه من ثلاثة وجوه : الاول : "نحن نمنعكم اشد المنع من ان يكون في العقل بمجرده طريق لقبح فعل او لحسنه او حظره او اباحته او ايجابه ، ونقول : ان هذه الاحكام باسرها لاتثبت للافعال الا بالشرع دون قضية العقل" [4] ، وهذا القول رد على اصل شبهتهم وهي : ان تفضيل الله لبعض خلقه مستقبح ولايليق بالله .

والثاني : "ولم قلتم : ان ذلك سفه ومانكرتم من انه جائز لنا وصواب في حكمتنا ان نحبو بعض عبيدنا واصدقائنا والمتصرفين معنا كتصرف غيره باكثر مما نحبو به غيره ونفضله بعطاء وتشريف لايستحقه اكثر مما نحبو به غيره" [5] .

والثالث : "ثم يقال لهم : مانكرتم على من قال من مثبتي نبوة الرسل ان الله – تعالى – ليس يفضل احد الشخصين على الاخر المجانس له ابتداء ولالاجل جنسه ، ولكن لاجل انه مستحق للتفضيل بالرسالة وغيرها بعمله والاخلاص في الاجتهاد كما ان الله يفضل المنيب وقابل الحجج العقلية عندكم على من لم يقبلها ، لالجنسه ولالابتدائه بذلك ولابغير علة" [6]

---

(١) الباقلاني ، التمهيد : ١٤٢ .

(٢) المصدر السابق : ١٤٢

(٣) المصدر السابق : ١٢٧ .

(٤) المصدر السابق : ١٢٨ .

(٥) المصدر السابق : ١٢٨ .

(٦) المصدر السابق : ١٢٩ .

ابن حزم :

لايبعد ابن حزم – رحمه الله – عمن قبله من حيث المسائل التي اهتم بها الا في النزر القليل وسنتعرف على جملة آرائه من خلال هذه المسائل :

المسألة الاولى : صلة هذا الموضوع بالالهيات :

يساند ابن حزم الاشاعرة ضد المعتزله في هذا الموضوع فهو يقول : "واما نحن فنقول ان مجيء الرسل قبل ان يبعثهم الله – تعالى – واقع في باب الامكان ، واما بعد ان بعثهم الله – عزوجل – ففي حد الوجوب ، ثم اخبر الصادق – عليه السلام – عنه – تعالى – انه لانبي بعده ، فقد جد الامتناع ، ولسنا نحتاج الى تكلف ذكر قول من قال من المسلمين : ان مجيء الرسل من باب الواجب ، واعتلالهم في ذلك بوجوب الانذار في الحكمة ، اذ ليس هذا القول صحيحا ، وانما قولنا الذي بيناه في غير موضع انه – تعالى – لايفعل شيئا لعلة ، وانه – تعالى – يفعل مايشاء ، وان كل مافعله فهو عدل وحكمة اي شيء كان" [1] .

المسألة الثانية : نبوة المرأة :

يخالف ابن حزم جمهور المتكلمين الذين يشترطون الذكورة في النبوة لما جاء في قوله – تعالى – : " ومارسلنا من قبلك الا رجالا نوحي اليهم" [2] . الا ان ابن حزم ذهب الى ظواهر اخرى من كتاب الله فيها معنى الايحاء والانباء والامر ونحو هذا ، فيقول : "ولاندفع نبوة من جاء القرآن بان الله – تعالى – نبأه ، فأما ام موسى وام عيسى وام اسحق فالقرآن قد جاء بمخاطبة الملائكة لبعضهن بالوحي ، والى بعض منهن عن الله – عز وجل – بالانباء بما يكون قبل ان يكون وهذه النبوة نفسها التي لانبوة غيرها فصحت نبوتهن بنص القرآن" [3] .

ومع ان اختيار الجمهور هو الظاهر لظاهر الاية ، الا ان ادلة ابن حزم ليست ضعيفة وانما منها مايصعب رده او تأويله واقرأ معي : "واوحينا الى ام موسى ان ارضعيه فاذا خفت عليه فالقيه في اليم ولاتخافي ولاتحزني انا رادوه اليك وجاعلوه من المرسلين" [4] . فهل هذه الاوامر والنواهي والبشارات وفي مثل هذه القضية الخطيرة كانت كلها خواطر والهامات لاامرا وتكليفا ؟! . الله اعلم ، والذي يطمئن اليه القلب هو السكوت والتفويض لاسيما انها مسألة لاينبني عليها عمل ، ولسنا مكلفين بمعرفة حقيقتها .

---

(١) ابن حزم ، الفصل : ٦٩/١ .

(٢) النحل : ٤٣ .

(٣) ابن حزم : الفصل : ١١/٤ .

(٤) القصص : ٧ .

المسألة الثالثة : دليل صدق الرسول :

لايختلف ابن حزم مع غيره في كون المعجزة دليلا على صدق الرسول ، لكنني لم اجد له مايثبت اهتمامه بشروط المعجزة كما هي الحال بالنسبة لبقية المتكلمين ، الا اني وجدته اهتم بمسألة اخرى وهي دليل صدق المعجزة ، اما التفريق بين المعجزة وغيرها فقد كفينا بما تقدم من قول المعتزلة وتفصيلهم فيه اذ لايكاد يخرج غيرهم عما جاؤا به ، ولذا سنعرض المسألة التي اهتم فيها ابن حزم اكثر من غيره وهي :

دليل صدق المعجزة : "ان هذه الاشياء لها طرق توصل الى صحة اليقين بها عند من لم يشاهدها كصحتها عند من شاهدها ولافرق ، وهي نقل الكافة التي قد استشعرت العقول ببدايتها والنفوس باول معارفها انه لاسبيل الى جواز الكذب ولاالوهم عليها وان ذلك ممتنع فيها فمن تجاهل واجاز ذلك عليها خرج عن كل معقول ، ولزمه ان لايصدق ان من غاب عن بصره من الانس انهم احياء ناطقون كمن شاهدوا ان صورهم على حسب الصورة التي عاين ، ولزم ان يكون عنده ممكنا في بعض من غاب عن بصره من الناس ان يكونوا بخلاف ماعهد من الصورة ، اذ لايعرف احد ان كل من غاب عن حسه فانه في مثل كيفية ماشاهد من نوعه الا بنقل الكواف ... ويلزم من لم يصدق خبر الكافة ويجيز فيه الكذب والوهم ان لايصدق ضرورة بأن احدا كان قبله في الدنيا ولاان في الدنيا احد الا من شاهد بحسه "ثم يقول : "فنقول له حينئذ فرّق بين مانقل اليك من كل ذلك وبين كل مانقل اليك من علامات الانبياء ولاسبيل له الى الفرق بين شيء من ذلك اصلا" [1] .

يتبين لنا من هذا الاسترسال ان ابن حزم بنى دليله هذا على مقدمتين : الاولى : ان المعجزات نقلت الينا نقلا متواترا . والثانية : ان التواتر يفيد اليقين . ولكن الحقيقة ان الاولى لاتسلم له وان سلمت في نبي فلاتسلم لبقية الانبياء ، والذي يرتاح اليه القلب والعقل : ان نسلك طريقا آخر فنقول : ان القرآن معجزة باقية خالدة ودليل صدقها كامن فيها - كما سيأتي تفصيله في المبحث القادم - واذا قام صدق القرآن يقينا فماخبرنا القرآن عنه فهو يقين ايضا ، ثم ان القضية من الممكن ان نفهمها بترتيب آخر فنقول : ماهي حاجتنا الى التصديق بنبوة الانبياء السابقين ؟ انالسنا بحاجة الى التصديق بهم الا لان القرآن اخبر عنهم فنصدقهم لتصديقنا بالقرآن ، ولهذا لو ان نبيا لم يرد ذكره في القرآن فنحن لانحتاج الى الايمان به ، ولو انا آمنا بنبي ورد ذكره بالقرآن لالوروده وانما لبرهان آخر ، فان هذا الايمان لايكفي ، وعلى هذا القضية قضية القرآن - والله اعلم - .

المسألة الرابعة : عصمة الانبياء :

على خلاف منهجه الظاهري يحاول ابن حزم ان يؤول كل نص ورد بنسبة المعاصي الى الانبياء - عليهم الصلاة والسلام - وذلك لانه الزم نفسه برأي هذه خلاصته :

---

(١) ابن حزم ، الفصل " ١/٧٤-٧٥ .

"وذهب جميع اهل الاسلام من اهل السنة والمعتزلة والبخارية والخوارج والشيعة الى انه لايجوز البتة ان يقع من نبي اصلا معصية بعمد لاصغيرة ولاكبيرة .. وهذا قول الذي ندين الله – تعالى – به ولايحل لاحد ان يدين بسواه" [١] .

واذا كان الامر كذلك فبماذا سيؤول ابن حزم ماورد في الكتاب مما يضادد قوله هذا ، انه توسع في تأويل النصوص في هذه المسألة حتى رتب مباحثه بتفصيل واسهاب ، فتره يعقد مبحثا "الكلام في آدم عليه السلام" ثم "الكلام في نوح – عليه السلام –" ثم الكلام في ابراهيم – عليه السلام –" وهكذا حتى "الكلام في محمد – صلى الله عليه وسلم –" . ولانريد ان نسترسل معه في استرساله ولكن نستطيع القول : ان غالب هذه التأويلات يرجع الى مسلكين ، بينهما ابن حزم نفسه فقال "ونقول : انه يقع من الانبياء السهو عن غير قصد ويقع منهم ايضا قصد الشيء يريدون به وجه الله – تعالى – والتقرب به منه فيوافق خلاف مراد الله – تعالى الا انه – تعالى – لايقرهم على شيء من هذين الوجهين اصلا بل ينبههم على ذلك" [٢] ويبدو انه اختار هذين المسلكين لانهما ليسا معصية – والله اعلم – .

وربما نستطيع ان نتلمس في منهجه مخرجا ثالثا ، وهو ان النبي قبل البعثة ليس شرطا ان يكون مكلفا بشرع وعلى هذا فماوقع منه قبل البعثة لايعد معصية لانه لامعصية الا مع وجود التشريع ، يقول ابن حزم : "وان نشأ في قوم دثرت شريعتهم فهو غير متعبد ولامأمور بما لم يأته امر الله – تعالى – به فليس عاصيا لله – تعالى – في شيء يفعله او يتركه" [٣] .

ان منهج ابن حزم الظاهري لم يحل هنا دون الخروج عن الظاهر الى التأويل . فلماذا ؟! اغلب الظن انه وقف عند ظواهر اخرى وبنى مذهبه عليها ، ثم وجد مساغا لتأويل النصوص المقابلة فأولها . ولنأخذ مثالا من الظواهر التي تمسك بها : "ام حسب الذين اجترحوا السيئات ان نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ساء مايحكمون" [٤] . فهمها ابن حزم كالآتي : ان هنالك صنفين من الناس : صنف اجترح السيئات وصنف لا ، والذي لم يجترح افضل قطعا من الذي يجترح ، واذا كان في عقيدتنا ان الصحابة هم افضل الخلق بعد الانبياء ليسوا معصومين من السيئات ، فمن اولئك الذين لم يجترحوا ؟! . لايمكن ان يكونوا غير الانبياء لانه لااحد افضل من الصحابة الا هم . فالأنبياء اذاً لايمكن ان يجترحوا السيئات . وهذا المثال يكفي لفهم طبيعة منهجه في هذا الموضوع [٥] .

---

(١) المصدر السابق : ٢/٤ .
(٢) المصدر السابق : ٣/٤ .
(٣) المصدر السابق : ٣٠/٤–٣١ .
(٤) الجاثية : ٢١ .
(٥) انظر الفصل : ٢٦/٤ .

واما مناقشته لمنكري النبوات فقد ناقش البراهمة واورد شبههم وردها بنحو منهج الاشاعرة فلاحاجة الى التكرار [1] .

ابن تيمية :

اذ اردنا ان نقدم كلمة بين يدي منهج ابن تيمية في هذا الموضوع ، فأقول اني لم اجد له منهجا واضحا متكاملا ، وانما في الغالب مسائل يسأل عنها فيجيب ، او ردود على بعض مخالفية في بعض الجزئيات . ويبدو ان مسائل النبوات اصلا لم يكن سوقها رائجا ايام ابن تيمية – رحمه الله – كما في مسائل الالهيات ، ولهذا فاني حينما قرأت كتاب "النبوات" فوجئت فلقد كنت اظن ان ابن تيمية سيسعفني به في كثير من المسائل ، لكني وجدت انه يتحدث في هذا الكتاب بما يزيد عن "١٥٠" صفحة عن الصفات والقدر والفرق الكلامية كالمعتزلة والاشاعرة ونحو هذا ، في حين انه لم يتحدث عن "عصمة الانبياء" بصفحة واحدة . فاذا كان هذا في كتاب "النبوات" فكيف لو قرأت كتاب "الصفات" ؟! .

ومع هذا فاننا قد نستطيع ان نتعرف على مذهبه في هذا الموضوع من خلال النقاط التي استخلصناها من بعض كتبه وها هي :

١- لفتة رائعة من ابن تيمية – رحمه الله – ان يجعل ضمن ماكتبه في موضوع النبوات مبحثا عنوانه "احوال الرسل في القرآن" تحدث فيه عن القصص النبوي في القرآن . فتراه يقف عند سورة "الانبياء" ثم ينتقل فيقول "واما سورة مريم فذكر الله – تعالى – فيها انعامه على الانبياء المذكورين فيها" ثم يقول "واما سورة العنكبوت" [2] وهكذا وقد ذكر هذا باختصار شديد وكان هدفه اعطاء الخصائص الواضحة لبعض السور في حديثها عن الانبياء – عليهم الصلاة والسلام – .

٢- يفرق ابن تيمية بين النبي والرسول مساندا بهذا الاشاعرة مخالفا للمعتزلة ، فتراه يقول :"فالنبي هو الذي ينبئه الله ، وهو ينبيء بما انبأ الله به ، فان ارسل مع ذلك الى من خالف امر الله ليبلغه رسالة من الله اليه فهو رسول ، واما اذا كان انما يعمل بالشريعة قبله ، ولم يرسل هو الى احد ليبلغه عن الله رسالة فهو نبي وليس برسول" [3] .

٣- واما في صفات الانبياء والرسل – عليهم الصلاة والسلام – فلم اجد له الا اشارات سريعة ، فمثلا في موضوع العصمة وجدته يقول "الاقوال نوعان : اقوال ثابتة عن الانبياء ، فهي معصومة يجب ان يكون معناها حقا ... النوع الثاني : ماليس منقولا

---

(١) انظر المصدر السابق : ٦٩/١ .

(٢) ابن تيمية ، النبوات : ٥٤ .

(٣) المصدر السابق : ٢١٨ .

عن الانبياء ، فمن سواهم ليس معصوما" [1] ويقول في موضع آخر : "والنبي قد علّمه الله من الغيب الذي عصمه فيه عن الخطأ" [2] ولم اعثر على شيء ذي بال في هذه المسألة غير هذا المقطع وهو مبتور ايضا فمامعنى العصمة هنا ؟ اهو معصوم من الخطأ في التبليغ فقط ؟ ام انه معصوم عن كل خطأ ؟ .

٤- الدليل على صدق النبي : يرى ابن تيمية ان هناك ادلة كثيرة على صدق الانبياء "ان آيات الانبياء الدالة على صدقهم كثيرة متنوعة ، وان النبي الصادق خير الناس ، والكاذب على الله شر الناس ، وبينهما من الفروق مالايحصيه الا الله ، فكيف يشتبه هذا بهذا ، بل لهذا من دلائل صدقه ، ولهذا من دلائل كذبه مالايمكن احصاؤه ، وكل من خص دليل الصدق بشيء معين فقط غلط" [3] .

ومن هذه الادلة عنده :

أ – العلوم التي تدرك بالعقل والتي جاء الانبياء بتأكيدها وتبيينها وهداية الخلق اليها "فالرسل هدوا الخلق وارشدوهم الى دلالة العقول عليها ، فهي عقلية شرعية ، فليس لمخالف الرسول ان يقول : هذه لم تعلم الا بخبرهم ، فاثبات خبرهم بها دور ، بل يقال : بعدالتهم وارشادهم وتبيينهم للعقول ، صارت معلومة بالعقل والامثال المضروبة والاقيسة العقلية ، وبهذه العلوم يعلم صحة ماجاء به الرسول – صلى الله عليه وسلم – وبطلان قول مخالفهم" [4] .

ب – العلوم التي لاسبيل للعقل في ادراكها وقد جاء بها الانبياء فانها تدل على صدقهم بوجوه "منها اتفاق الرسل على الاخبار به من غير تواطؤ ولااتفاق بينهم ... ومعلوم انه اذا اخبر واحد عن علوم طويلة فيها تفاصيل كثيرة .... واخبر غيره قبل ذلك مع الجزم بانهما لم يتواطئا ، ولايمكن ان يقال انه يمكن الكذب في مثل ذلك ، افاد خبرهما العلم ، وان لم يعلم حالهما ، فلو ناجى رجلا رجلا بحضرة رجال وحدث بحديث طويل فيه اسرار تتعلق به في رجل بتلك الامور الاسرار ثم جاء آخر قد علمنا انه لم يتفق مع المخبر الاول ، فأخبر عن تلك المناجاة والاسرار مثل ماخبر به الاول ، جزمنا قطعا بصدقهما ، ومعلوم ان موسى اخبر بما اخبر به قبل ان يبعث محمد – صلى الله عليه وسلم – ، وقبل ان يبعث المسيح ، ومعلوم ايضا لكل من كان عالما بحال محمد – صلى الله عليه وسلم – انه نشأ بين قوم اميين ، لايقرؤن كتابا ولايعلمون علوم الانبياء ، وانه لم يكن عندهم من يعلم مافي التوراة والانجيل ونبوة الانبياء ، وقد اخبر محمد – صلى الله عليه وسلم – من توحيد الله وصفاته واسمائه وملائكته وعرشه وكرسيه ، وانبيائه ورسله ،

---

(١) ابن تيمية ، مجموع الفتاوى : ١٩١/٤ .

(٢) ابن تيمية : النبوات : ٣٤ .

(٣) المصدر السابق : ١٩١–١٩٢ .

(٤) ابن تيمية ، مجموع الفتاوى : ٢١١/٤ .

واخبارهم واخبار مكذبيهم بنظير مايوجد في كتب الانبياء"[1] .

جـ - احوال اقوام الانبياء واتباعهم ، يقول ابن تيمية : "ومن الطرق الواضحة القاطعة المعلومة الى قيام الساعة بالتواتر من احوال اتباع الانبياء ، واحوال من كذبهم وكفر بهم ، حال نوح وقومه ، وهود وقومه ، وصالح وقومه ، وحال ابراهيم وقومه ، وحال موسى وفرعون ، وحال محمد - صلى الله عليه وسلم - وقومه ، وهذا الطريق قد بينها الله في غير موضع من كتابه كقوله : "كذبت قبلهم قوم نوح والاحزاب من بعدهم " الى "فكيف كان عقاب"[2] .... فبين انه تارك آثار القوم المعذبين للمشاهدة ، ويستدل بذلك على عقوبة الله لهم .... فذكر طريقتين يعلم بهما ذلك : احدهما : مايعاين ويعقل بالقلوب ، والثاني : مايسمع فانه قد تواتر عند كل احد حال الانبياء ، ومصدقهم ، ومكذبهم ، وعاينوا من اثارهم مادل على انه - سبحانه - عاقب مكذبهم وانتقم منهم ، وانهم كانوا على الحق الذي يحبه ويرضاه ، وان من كذبهم كان على الباطل الذي يغضب الله على اهله[3] .

د - المعجزات : "ومن الطرق ايضا ان يعلم ماتواتر من معجزاتهم الباهرة ، وآياتهم القاهرة ، وانه يمتنع ان تكون المعجزة على يد مدعى النبوة وهو كذاب"[4] .

هذا وقد توسع ابن تيمية في تبيان الفروق التي بين المعجزات وغيرها من الخوارق وهذا ابرز ماذكره :

الاول : "ان ماتخبر به الانبياء لايكون الا صدقا ، واما مايخبر به من خالفهم من السحرة والكهان وعباد المشركين واهل الكتاب واهل البدع والفجور من المسلمين فانه لابد فيه من الكذب" .

الثاني : "ان الانبياء لاتأمر الا بالعدل ولاتفعل الا العدل وهؤلاء المخالفون لهم لابد لهم من الظلم فان ماخالف العدل لايكون الا ظلما ، فيدخلون في العدوان على الخلق وفعل الفواحش والشرك" .

الثالث " "ان مايأتي به مخالفهم معتاد لغير الانبياء ، كما هو معتاد للسحرة والكهان وعباد المشركين واهل الكتاب واهل البدع والفجور ، وآيات الانبياء هي معتادة انها تدل على خبر الله وامره على علمه وحكمه فتدل على انهم انبياء" ، وقصد ابن تيمية هنا : ان المعجزة لاتخرق العادة والعادة عنده ان النبي يأتي ومعه معجزة ، ولنسمع منه : "فكونه خارقا للعادة ليس امرا مضبوطا ، فانه ان اريد به انه لم يوجد له نظير في العالم فهذا باطل ، فان آيات الانبياء بعضها نظير بعض"[5] وتحفّظه على مصطلح "خوارق العادات" ليس خطيرا فهو خلاف لفظي وانظر الفوارق الآتية :

---

(١) ابن تيمية ، مجموع الفتاوى : ٤/٢١١-٢١٢ .

(٢) غافر : ٥ .

(٣) ابن تيمية ، مجموع الفتاوى : ٤/٢١٣-٢١٤ .

(٤) المصدر السابق : ٤/٢١٤ .

(٥) ابن تيمية ، النبوات : ٣٢-٣٣ .

الرابع : "ان ماتأتي به السحرة والكهان ، والمشركون واهل البدع من اهل الملل لايخرج عن كونه مقدورا للانس والجن وآيات الانبياء لايقدر على مثلها لاالانس ولاالجن ، كما قال - تعالى - : "قل لئن اجتمعت الانس والجن على ان يأتوا بمثل هذا القرآن لايأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا" [١] .

الخامس : "ان مايأتي به السحرة والكهان ، وكل مخالف للرسل تمكن معارضته بمثله واقوى منه ، كما هو الواقع لمن عرف هذا الباب ، وآيات الانبياء لايمكن احدا ان يعارضهالا بمثلها ولاباقوى منها" .

السادس : "ان آيات الانبياء هي الخارقة للعادات عادات الانس والجن ، بخلاف فوارق مخالفهيم ، فان كل ضرب منها معتاد لطائفة غير الانبياء ، وآيات الانبياء ليست معتادة لغير الذين يصدقون على الله" [٢] فانظر كيف استخدم المصطلح الذي تحفظ عليه قبل قليل ، مما يؤكد انه خلاف لفظي .

٥ - وبعد ان اثبت ابن تيمية النبوة العامة وبيّن دليل الصدق فيها اتجه لمناقشة اليهود والنصارى الذين انكروا النبوة الخاصة نبوة محمد - صلى الله عليه وسلم - فتراه يقول : "ان اليهود والنصارى الذين يزعمون انهم يتبعون موسى وعيسى - صلى الله عليهما وسلم - انما يتبعونهم لاجل انهم رسل الله ، ومامن طريق تثبت بها نبوة موسى وعيسى الا ومحمد - صلى الله عليه وسلم - اولى واحرى ، مثال ذلك : اذا قال اليهود والنصارى : قد ثبت بالنقل المتواتر ان موسى وعيسى مع دعواه النبوة ظهرت على يديه الآيات الدالة على صدقه ، وانه جاء من الدين والشريعة مايعلم انه لم يجيء به مفتر كذاب .... قيل له : كل من هاتين الطريقتين دليل يثبت نبوة محمد - صلى الله عليه وسلم - بطريق الاولى ، فانه من المعلوم ان الذين نقلوا مادعا اليه محمد - صلى الله عليه وسلم - من الدين والشريعة ، ونقلوا ماجاء به من الآيات والمعجزات اعظم من الذين نقلوا مثل ذلك عن موسى وعيسى ، وماجاء به من هذين النوعين اعظم مما جاء به موسى وعيسى" [٣] .

هذه النقاط على اقتضابها تشكل ابرز المعالم لمنهج - ابن تيمية - رحمه الله - في موضوع النبوات ، وقد بدا منهجه بسيطا واضحا هادئا ، خلا تماما من الكلمات المتشنجة والعبارات الشديدة ، وهذا يؤكد ان مناهج المتكلمين تنصبغ الى حد ما بانفعالاتهم وردود افعالهم ، فلما كان مبحث النبوات لايثير حساسية معينة عند ابن تيمية بدا منهجه بهذا الشكل ، بينما في موضوع الصفات مثلا يختلف الاسلوب تماما ، وهذا قطعا ينزه عنه المنهج القرآني .

---

(١) الاسراء : ٨٨ .

(٢) ابن تيمية ، النبوات : ٤٣٩-٤٤٢ . وقد ذكر هذه الفروق وغيرها .

(٣) ابن تيمية ، مجموع الفتاوى : ٤/٢٠١ .

الفصل الثاني

المبحث الأول: الوحي والرسالات في القرآن الكريم

المبحث الثاني: الوحي والرسالات عند المتكلمين

المبحث الاول
الوحي والرسالات في القرآن الكريم

لايجد قارئ القرآن تفصيلا قرآنياً للوحي من حيث هو ، او من حيث كيفيته الا بحدود ضيقه ، والغالب على الظن ان هذا يعود الى منهج القرآن العملي ، فقضية الوحي قضية غيبية بحتة ، ولايهم الانسان منها سوى التصديق بمعناها القريب منه وهو ايصال الرسالة من الله الى رسوله بطريقة ما . والتصديق يكون بالمعجزات اوبدلائل النبوة الاخرى ، فاذا صدق الانسان بهذه الحقيقة فهذا يكفي . ولنر الان حديث القرآن عن الوحي :

وردت كلمة الوحي و مشتقاتها في القرآن بنحو "٧٨" مرة ، غير ان هذه المرات الكثيرة تكاد تكون خالية من تفصيل الجانب الغيبي ، وانما ياتي بعضها لاخبارنا بأن الله اوحى الى رسوله بكذا ، وهذا كثير جداً ، مثل : "فأوحى اليهم ربهم لنهلكن الظالمين " (١) "فاوحى الى عبده مااوحى" (٢) "واوحينا الى موسى الى ان الق عصاك" (٣) و "ثم اوحينا اليك ان اتبع ملة ابراهيم" (٤) . وقد يأتي بمعنى الرسالة نفسها مثل : "وماينطق عن الهوى ان هو الا وحي يوحى" (٥) "قل انما انذركم بالوحي" (٦) و "ان اتبع الا ما يوحى الي" (٧) و "فلعلك تارك بعض مايوحى اليك وضائق به صدرك" (٨) ، وهذا كثير ايضاً ، وقد ياتي لمعان لغوية لاعلاقه لها بالرسول والرسالة مثل :"واوحى ربك الى النحلِ ان اتخذي من الجبال بيوتا" (٩) "و يومئذ تحدث اخبارها بان ربك اوحى لها " (١٠) .

والخلاصة ان القران تحدث عن الوحي من حيث التصديق به ، او من حيث الامر بطاعته وتبليغه ونحو هذا اما في كنهه وكيفيته فلم نجد الا القليل ولنقف عنده :

الاية الوحيدة التي تقف عند هذا الموضوع هي :" وماكان لبشر ان يكلمه الله الا وحيا او من وراء حجاب او يرسل رسولاً فيوحي بأذنه مايشاء"(١١) فهذه الاية حددت طرق

(١) ابراهيم : ١٣ .
(٢) النجم : ١٠ .
(٣) الاعراف : ١١٧ .
(٤) النحل : ١٢٣ .
(٥) النجم : ٣-٤ .
(٦) الانبياء : ٤٥ .
(٧) يونس : ١٥ .
(٨) هود : ١٢ .
(٩) النحل : ٦٨ .
(١٠) الزلزلة : ٥ .
(١١) الشورى : ٥١ .

تلقي النبي عن الله ، انها ثلاثه :الاولى :الوحي : وواضح ان المقصود به هنا الالهام ، بمعنى ان الله – سبحانه – يقذف المعنى في قلب النبي بوضوح بحيث لايختلط مع غيره من واردات ذهنية وخواطر ، ولكن القران لم يفصل كيفية هذا الوحي اطلاقا ، فلاندري كيف يتلقى النبي كلمات الله ، ربما ذكر القران كيفية واحدة جائت في جزئية معينة من القصص النبوي وهي "فلما بلغ معه السعي قال يابني اني ارى في المنام اني اذبحك فانظر ماذا ترى قال يا ابتي افعل ماتؤمر ستجدني ان شاء الله من الصابرين ، فلما اسلما وتله للجبين . وناديناه ان يا ابراهيم قد صدقت الرؤيا انا كذلك نجزي المحسنين "[1] . فهذه الايات تبين ان الرؤيا هي احد طرق الوحي .

الثانية : من وراء الحجاب ،ومعناه ان الله – تبارك وتعالى – قد يخاطب النبي ولكن من وراء الحجاب ، كما في قصة موسى – عليه السلام – حيث يقول الله – تعالى – : " هل اتاك حديث موسى . اذ راى نارا فقال لاهله امكثوا اني انست نارا لعلي اتيكم منها بقبس او اجد على النار هدى . فلما اتاها نودي يا موسى . اني انا ربك فاخلع نعليك انك بالوادي المقدس طوى . وانا اخترتك فاستمع لما يوحى . انني انا الله لااله الا انا فاعبدني واقم الصلاه لذكري" [2] فموسى كليم الله ولكنه كلمه من وراء الحجاب بدليل قوله – تعالى– : " ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه قال رب ارني انظر اليك قال لن تراني ولكن انظر الى الجبل فان استقر مكانه فسوف تراني فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا وخر موسى صعقا فلما افاق قال سبحانك تبت اليك وانا اول المؤمنين"[3] ومع هذا فان القرآن لم يبين لنا كيف تكلم الله ، وكيف سمع موسى هذا الكلام ، لكن ماالفائدة العملية لاخبارنا ؟ ولو اخبرنا فهل ستفهم عقولنا لغة الغيب ؟! .

الثالثة : ان يرسل رسولا : والمقصود هنا الملك الموكل بالوحي ، حيث ياتي بالوحي من الله ويبلغه الى رسول الله ، وهذا هو الذي وضحه القران بقوله : "قل من كان عدوا لجبريل فانه نزله على قلبك باذن الله" [4] و "وانه لتنزيل رب العالمين . نزل به الروح الامين . على قلبك لتكون من المنذرين . بلسان عربي مبين" [5] .

اما الرسالات فقد اعتنى بها القرآن اكثر لانها تمس الميدان التكليفي العملي ، وقد نستطيع ان نلمس المنهج القرآني فيها من خلال تقسيم الموضوع الى القسمين الآتيين :

---

(١) الصافات : ١٠٢ –١٠٥ .

(٢) طه : ٩–١٥ .

(٣) الاعراف : ١٤٣ .

(٤) البقرة : ٩٧ .

(٥) الشعراء : ١٩٢– ١٩٥ .

القسم الاول : موقف القرآن من الرسالات السابقة :

مع كثرة ماورد في القرآن من تفاصيل عن الرسل الكرام - عليهم الصلاة والسلام - الا ان القرآن لم يذكر لنا الا بعضاً من رسالاتهم ، ولاندري اهذه هي كل الرسالات ؟! ام ان القرآن ذكر هذا البعض وسكت عن الباقي لحكمة يعلمها الله ؟ الله اعلم ، ولكن الذي تحدث عنه القرآن من الرسالات سنتناوله كالآتي :

أ- التوراة : ذكر القرآن التوراة "١٨" مرة ، وخلاصة حديث القرآن عن التوراة قد نستطيع اجماله في الآتي :

١- وصف القرآن التوراة بأنها هدى ونور وفرقان وضياء وذكر ، ولنقرأ : "أنا انزلنا التوراة فيها هدى ونور" [(١)] .

"ولقد آتينا موسى وهارون الفرقان وضياء وذكراً للمتقين" [(٢)] .

٢- ان التوراة كتاب شامل لكل شئ : "ثم آتينا موسى الكتاب تماماً على الذي احسن وتفصيلاً لكل شئ وهدى ورحمة" [(٣)] .

٣- ان الرسالات التي جاءت بعدها مصدقة لها ، فلقد قال القرآن عن عيسى - عليه السلام - : "وقفّينا على آثارهم بعيسى بن مريم مصدقاً لما بين يديه من التوراة" [(٤)] .

وقال عن محمد - صلى الله عليه وسلم - : "ولقد آتينا موسى الكتاب وقفينا من بعده بالرسل وآتينا عيسى بن مريم البينات وايدناه بروح القدس أفكلما جاءكم رسول بما لاتهوى انفسكم استكبرتم ففريقاً كذبتم وفريقاً تقتلون . وقالوا قلوبنا غلف بل لعنهم الله بكفرهم فقليلاً مايؤمنون . ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ماعرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين" [(٥)] .

٤- ان القرآن تحدث عن بعض الذي جاء في التوراة ، ولنأخذ هذين المثالين :

الاول : "وكتبنا عليهم فيها ان النفس بالنفس والعين بالعين والانف بالانف والاذن بالاذن والسن بالسن والجروح قصاص فمن تصدق به فهو كفارة له ، ومن لم يحكم بما انزل الله فاولئك هم الظالمون" [(٦)] .

المثال الثاني : "الذين يتبعون الرسول النبي الامي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والانجيل" [(٧)] .

---

(١) المائدة : ٤٤ .
(٢) الانبياء : ٤٨ .
(٣) الانعام : ١٥٤ .
(٤) المائدة : ٤٦ .
(٥) البقرة : ٨٩ .
(٦) المائدة : ٤٥ .
(٧) الاعراف : ٥٧

٥- ذكر القرآن ان الذين كلفوا بحمل امانة "التواراة" منهم من حملها بأمانة ومنهم من لم يحملها ، فقال عن الاولين : "ومن قوم موسى امة يهدون بالحق وبه يعدلون" [١] . وقال عن الآخرين : "مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل اسفاراً بئس مثل القوم الذين كذبّوا بآيات الله والله لايهدي القوم الظالمين" [٢] لكن هؤلاء اصبحوا هم الكثرة الغالبة ، فأخذ القرآن لايتحدث عن حملة التوراة "بني اسرائيل" الا ويعمهم بالخيانة ونقض الميثاق "فبما نقضهم ميثاقهم لعناهم وجعلنا قلوبهم قاسية" [٣] "وقضينا الى بني اسرائيل في الكتاب لتفسدن في الارض مرتين ولتعلن علواً كبيراً" [٤] .

٦- اكد القرآن ان التوراة الموجودة الآن بين ايدينا هي ليست التوراة التي انزلها على موسى - عليه السلام - وانما هي محرفة من قبل بني اسرائيل الذين خانوا العهد ونقضوا الميثاق ، يقول القرآن : "ومنهم اميون لايعلمون الكتاب الا اماني وان هم الا يظنون . فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلاً فويل لهم مما كتبت ايديهم وويل لهم مما يكسبون" [٥] "افتطمعون ان يؤمنوا لكم وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ماعقلوه وهم يعلمون" [٦] "فبما نقضهم ميثاقهم لعناهم وجعلنا قلوبهم قاسية يحرفون الكلم عن مواضعه ونسوا حظاً مما ذكروا به" [٧] .

ب- الانجيل : ذكر القرآن الانجيل "١٢" مرة ويكاد يكون حديث القرآن عن الانجيل قريباً من حديثه عن التوراة الا في بعض النقاط ، ولنر :

١- وصف القرآن الانجيل بأنه هدى ونور وموعظة :

"وقفينا على آثارهم بعيسى بن مريم مصدقاً لما بين يديه من التوراة وآتيناه الانجيل فيه هدى ونور ومصدقاً لما بين يديه من التوراة وهدى وموعظة للمتقين" [٨] .

٢- لم يصف القرآن الانجيل بما وصف به التوراة من انه كتاب شامل يفصل كل شئ ، بل على العكس جاء وكأنه يصفه بمهمة محدودة ، هي نسخ بعض ماورد في التوراة من احكام ، لحكمة يعلمها الله ، يقول القرآن على لسان عيسى : "ومصدقاً لما بين يدي

---

(١) الاعراف : ١٥٩ .

(٢) الجمعة : ٥ .

(٣) المائدة : ١٣ .

(٤) الاسراء : ٤ .

(٥) البقرة : ٧٨ - ٧٩ .

(٦) البقرة : ٧٥ .

(٧) المائدة : ١٣ .

(٨) المائدة : ٤٧ .

من التوراة ولاحل لكم بعض الذي حرم عليكم" [١] . ولهذا ربط القرآن بينهما في مهمة عيسى - عليه السلام - فقال : "ويعلمه الكتاب والحكمة والتوراة والانجيل . ورسولاً الى بني اسرائيل" [٢] .

٣- هناك فرق واضح في اهتمام القرآن ، فالظاهر اهتمامه برسالة موسى اكثر من الانجيل ويظهر هذا في عدد المرات التي ذكرت فيها التوراة "١٨" مرة بينما ذكر الانجيل "١٢" مرة ، وذكر موسى "١٣٦" مرة ، بينما لم يذكر عيسى الا "٢٥" مرة ، وهناك اشارة ربما تكون اظهر في الدلالة على اهتمام القرآن بالتوراة اكثر من اهتمامه بالانجيل وهي قوله - تعالى - : "واذ صرفنا اليك نفراً من الجن يستمعون القرآن فلما حضروه قالوا انصتوا فلما قضي ولّوا الى قومهم منذرين . قالوا ياقومنا انا سمعنا كتاباً انزل من بعد موسى مصدقاً لما بين يديه يهدي الى الحق والى طريق مستقيم" [٣] .

٤- بالاضافة الى ماورد في التوراة والانجيل من وصف لرسول الله محمد - صلى الله عليه وسلم - كما مر معنا في قوله - تعالى - : "الذين يتبعون الرسول النبي الامي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والانجيل" [٤] ، لكن القرآن يجعل هناك خاصية لرسالة عيسى - عليه السلام - في هذا الموضوع الا وهي كون البشارة بمجيء الرسول الخاتم - صلى الله عليه وسلم - جعلت كأنها الركن الاهم في رسالة عيسى - عليه السلام - : "واذ قال عيسى بن مريم يابني اسرائيل اني رسول الله اليكم مصدقاً لما بين يدي من التوراة ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه احمد" [٥] .

٥- ان القرآن جاء مصدقاً ايضاً لرسالة عيسى - عليه السلام - كما هو مصدق لجميع الرسالات السابقة : "واذ اخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه" [٦] . و "قل من كان عدواً لجبريل فانه نزله على قلبك بأذن الله مصدقاً لما بين يديه" [٧] .

٦- وتحدث عن حملة الانجيل كما تحدث عن حملة التوراه فقسمهم الى قسمين : فئه وقفت مع الانجيل الحق واخرى كاذبة كافرة خائنة ، فقال عن الاولى :" فلما احس عيسى منهم الكفر قال من انصاري الى الله قال الحواريون نحن انصار الله آمنا بالله

---

(١) آل عمران : ٥٠ .

(٢) آل عمران : ٤٨ - ٤٩ .

(٣) الاحقاف : ٢٩ - ٣٠ .

(٤) الاعراف : ١٥٧ .

(٥) الصف : ٦ .

(٦) آل عمران : ٨١ .

(٧) البقرة : ٩٧ .

واشهد بانا مسلمون . ربنا امنا بما انزلت واتبعنا الرسول فاكتبنا مع الشاهدين "[1] .
واما الثانية فهم "ومن الذين قالوا انا نصارى اخذنا ميثاقهم فنسوا حظا مما ذكروا به فاغرينا بينهم العداوة والبغضاء الى يوم القيامة وسوف ينبئهم الله بما كانو يصنعون"[2] .

٧- ويخلص القرآن الى ان الانجيل الذي بين ايدينا الآن ليس هو كلام الله بل هو من تحريف المحرفين : "وان منهم لفريقاً يلوون السنتهم بالكتاب لتحسبوه من الكتاب وماهو من الكتاب ويقولون هو من عند الله وماهو من عند الله ويقولون على الله الكذبوهم يعلمون . ماكان لبشر ان يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة ثم يقول للناس كونوا عباداً لي من دون الله ولكن كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون"[3] .

والحقيقة فالقرآن لايفصل في مقدار التحريف الذي ورد على التوراة والانجيل ، وكأن هدفه فقط ان يقول لنا ان هذين الكتابين ليسا مصدر ثقة لان الاهواء دخلتهما ، اما التفصيل فلانحتاجه نحن ، وايضاً فان مقدار التحريف مختلف زماناً ومكاناً ومذاهب فلم يرد القرآن ان يدخل هذه المعمعة - والله اعلم - .

جـ- الزبور ، وردت كلمة الزبور في القرآن ثلاث مرات وهذه هي :

"ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر ان الارض يرثها عبادي الصالحون"[4] .

"وآتينا داود زبورا"[5] .

"وآتينا داود زبورا"[6] .

والآية الاولى ليست صريحة في زبور داود ، اما الآيتان الاخريان فليس فيهما اي تفصيل لهذا الكتاب ، ولم اجد في غير هذه الثلاث مايعيننا على تكوين اي صورة عن هذه الرسالة ، غير اني ذهبت اتلمس في قصة النبي داود - عليه السلام - الذي تكرر اسمه في القرآن "١٦" مرة ، فلم اجد مايعينني الا في مثل قوله - تعالى - "لعن الذين كفروامن بني اسرائيل على لسان داود"[7] . فهل هذا اللعن في الزبور ؟ الله اعلم . وفي مثل "ولقد آتينا داود وسليمان علما"[8] فهل المقصود بالعلم الزبور نفسه ؟ الله اعلم . ومثل "ياداود

---

(١) آل عمران : ٥٢-٥٣

(٢) المائده : ١٤

(٣) آل عمران : ٧٨ - ٧٩ .

(٤) الانبياء : ١٠٥ .

(٥) النساء : ١٦٣ .

(٦) الاسراء : ٥٥ .

(٧) المائدة : ٧٨ .

(٨) النمل : ١٥ .

انا جعلناك خليفة في الارض فأحكم بين الناس بالحق"[1] فهل الحق كان الزبور ، بمعنى هل كان دستور الحكم الزبور ؟ الله اعلم .

د - الصحف ، وكل الذي جاء في القرآن عنها هوذا :

"اولم تأتهم بينة مافي الصحف الاولى"[2] .

"ام لم ينبأ بما في صحف موسى وابراهيم الذي وفى . الا تزر وازرة وزر اخرى وان ليس للانسان الا ماسعى"[3] .

"قد افلح من تزكى . وذكر اسم ربه فصلى . بل تؤثرون الحياة الدنيا . والآخرة خير وابقى . ان هذا لفي الصحف الاولى . صحف ابراهيم وموسى"[4] .

هـ- الالواح : وهي الواح موسى - عليه السلام - وقد وردت في ثلاث مواضع :

"وكتبنا له في الالواح من كل شئ . موعظة وتفصيلاً لكل شئ فخذها بقوة وأمر قومك يأخذوا بإحسنها ساوريكم دار الفاسقين"[5] .

" ولما رجع موسى الى قومه غضبان آسفاً قال بئسما خلفتموني من بعدي اعجلتم امر ربكم والقى الالواح واخذ برأس اخيه يجره اليه"[6] .

"ولما سكت عن موسى الغضب اخذ الالواح وفي نسختها هدى ورحمة للذين هم لربهم يرهبون"[7] .

مما تقدم نستطيع ان نسجل الملاحظات الآتية على المنهج القرآني :

الاولى : اهتمام القرآن بالجانب العملي وابتعاده عن الجانب الفلسفي الغيبي ، وعلى هذا رأينا كيف تحدث القرآن عن امكانية الوحي بل وثبوته ثم عن الايمان والتصديق به ونحو هذا بينما ابتعد عن كيفية التلقي عن الله او عن الملك ، ورأينا كيف اهتم القرآن بالرسالات التي لها اتباعها اليوم وابتعد عن التفصيل في باقي الرسالات ، وفي الرسالات الباقية لم يتحدث القرآن الا عما فيه مصلحة للمسلمين .

الثانية : تبيان القرآن لمواقف اهل الكتب السابقة المتباينة ، وحكم الله في كل فريق منهم لتكون العبرة البالغة للوريث الشرعي لاولئك .

---

(١) ص : ٢٦ .

(٢) طه : ١٣٣ .

(٣) النجم : ٣٦ - ٣٩ .

(٤) الاعلى : ١٤ - ١٩ .

(٥) الاعراف : ١٤٥ .

(٦) الاعراف : ١٥٠ .

(٧) الاعراف : ١٥٤ .

الثالثة : تحدث القرآن عن التحريف والتزوير الذي قام به اهل الكتب السابقة لكتبهم ليصل بنا الى حقيقتين : الاولى تكشف لنا حقيقة هؤلاء القوم للحذر والفطنة فان قوماً كذبوا على الله كيف لايكذبون على مخلوق ؟! . والثانية : ان هذ الكتب التي تسمى "مقدسة" ليست عندنا كذلك بعد ان دخلها التزوير ، بل من الممكن مطالعة نواياهم من خلالها .

الرابعة : ربط القرآن بين الرسالات السابقة والرسالة الخاتمة برباط وثيق حيث وصفها بأنها يصدق بعضها بعضاً ، وانها هدى ونور ورحمة ، وانها تحمل ثوابت لاتختلف ولاتتغير كالتوحيد والعدل ... الخ .

الخامسة : انه اهتم بالتوراة اكثر من غيرها وذلك لامور كثيرة قد يكون من ضمنها التشابه الكبير بين القرآن والتوراة من حيث الشمولية والتفصيل لكل شئ ، وقد يكون لما فيها – بعد التحريف – من خفايا ونوايا اليهود الذين وضعوا عقيدتهم لتناسب اهدافهم السياسية والاقتصادية ... الخ .

القسم الثاني : القرآن في القرآن :

تحدث القرآن عن نفسه طويلاً ، ولعلنا نقدر ان نختصر اهم ماجاء فيه عنه في النقاط التالية :

١– اسماء القرآن [١] وصفاته : وصف القرآن نفسه باسماء وصفات كثيرة من ابرزها :

أ– القرآن ، ورد هذا الاسم في القرآن بنحو "٧٠" مرة ، منها : "ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر" [٢] و "بل هو قرآن مجيد" [٣] .

ب– الكتاب ، مثل : "ذلك الكتاب لاريب فيه" [٤] ، و "تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم" [٥] .

جـ– الفرقان ، مثل : "تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا" [٦] .

د– الذكر ، مثل : "وانزلنا اليك الذكر لتبين للناس مانزل اليهم" [٧] .

---

(١) من النافع مطالعة "الهدي والبيان في اسماء القرآن" للشيخ صالح بن ابراهيم البليهي ، الذي جمع فيه كل اسماء القرآن الكريم وصفاته – الا ما شاء الله – مع الشرح والتفصيل .

(٢) القمر : ١٧ .

(٣) البروج : ٢١ .

(٤) البقرة : ٢ .

(٥) غافر : ٢ .

(٦) الفرقان : ١ .

(٧) النمل : ٤٤ .

هـ – تنزيل ، مثل : "حم . تنزيل من الرحمن الرحيم" [١] .

و – النبأ ، مثل : "قل هو نبأ عظيم . انتم عنه معرضون" [٢] . و "عم يتساءلون عن النبأ العظيم . الذين هم فيه مختلفون" [٣] .

ز– النور، مثل :"وانزلنا اليكم نورا مبينا" [٤] و "فآمنوا بالله ورسوله والنور الذي انزلنا" [٥]

ح – الحق ، مثل : "وكذب به قومك وهو الحق" [٦] .

ط – برهان ، مثل : "يا ايها الناس قد جاءكم برهان من ربكم" [٧] .

ي – بلاغ ، مثل : "هذا بلاغ للناس ولينذروا به" [٨] .

ك – ل – م – البيان والهدى والموعظة : "هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين" [٩]

ن – س – شفاء ورحمة ، مثل : "يا ايها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم وشفاء لما في الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين" [١٠] .

ع – ف – علي وحكيم : "وانه في ام الكتاب لدينا لعلي حكيم" [١١] .

ص – تذكرة "وانه لتذكرة للمتقين" [١٢] .

وواضح هدف القرآن من كل هذه الاسماء والاوصاف ، انها تعطي الصورة المتكاملة للقرآن وتوضح مهمة القرآن الاساسية في هذه الارض ، ان هذه الاسماء تلقي في نفس القارئ حقائق كبيرة تقوده حتما الى الاداء الافضل في وظيفته الارضية .

٢– نزول القرآن : تناول القرآن هذا المعنى من زوايا متعددة منها :

أ– واسطة النزول ، حيث حدد القرآن ان الذي نزل بالقرآن على محمد – صلى الله عليه وسلم – انما هو جبريل الامين ولنقرأ : "قل من كان عدوا لجبريل فانه نزله على قلبك

---

(١) فصلت : ١ – ٢ .

(٢) ص : ٦٧ .

(٣) النبأ : ١ – ٣ .

(٤) النساء : ١٧٤ .

(٥) التغابن : ٦٤ .

(٦) الانعام : ٦٦ .

(٧) النساء : ١٧٤ .

(٨) ابراهيم : ٥٢ .

(٩) آل عمران : ١٣٨ .

(١٠) يونس : ٥٧ .

(١١) الزخرف : ٤ .

(١٢) الحاقة : ٤٨ .

باذن الله" [1] . و "نزل به الروح الامين على قلبك لتكون من المنذرين" [2] .

ب – بدء النزول : حيث حدد القرآن انه في شهر رمضان وفي ليلة القدر ، فقال : "شهر رمضان الذي انزل فيه القرآن" [3] . وقال : "انا انزلناه في ليلة القدر . وماادراك ماليلة القدر . ليلة القدر خير من الف شهر . تنزل الملائكة والروح فيها باذن ربهم من كل امر سلام هي حتى مطلع الفجر" [4] . والقرآن وان لم يحدد ان فيها بدأ النزول ، الا ان القرائن تفيد ان هذا هو المقصود وانظر في الفقرة جـ :

جـ – تفريق النزول : حيث تحدث القرآن في اكثر من موضع انه نزل مفرقا على مكث من الزمن ولم ينزل جملة واحدة ، فتسمع القرآن يقول : "وقرآنا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلا" [5] . و "وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة كذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلا" [6] .

ومن يتصفح القرآن يجد هذا التفريق واضحا من خلال اسباب النزول ، فكثيرا ماينزل القرآن جوابا على سؤال او حلا لمشكلة او عتابا على تصرف و نحو هذا .

٣– شمولية القرآن : حيث جاء القرآن يؤكد انه كتاب شامل لكل النواحي التي يحتاجها الانسان في مهمته على هذه الارض ، فهو كتاب عقيدة وعبادة وجهاد واخلاق ودستور ونظام حياة ، تجد هذا واضحا في مثل قوله – تعالى – : "ما كان حديثا يفترى ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل كل شئ" [7] . و "ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شئ" [8] وقارئ القرآن يجد هذا واضحا جليا ، ففي القرآن تفصيل العقيدة وامر بالعبادة وذكر لتاريخ الرسل والامم السابقة ، وفيه شريعة كاملة من الاسرة ونظامها حتى الخلافة والسياسة الخارجية الى جوانب الاجتماع والاقتصاد وغيرها .

واقرأ مثلا هذه الآيات :

"ما كان لنبي ان يكون له اسرى حتى يثخن في الارض" [9] .

---

(١) البقرة : ٩٧ .

(٢) الشعراء : ١٩٢ – ١٩٤ .

(٣) البقرة : ١٨٥ .

(٤) القدر : جميعها .

(٥) الاسراء : ١٠٦ .

(٦) الفرقان : ٣٢ .

(٧) يوسف : ١١١ .

(٨) النحل : ٨٩ .

(٩) الانفال : ٦٧ .

"وان جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله" [١] .

"واعدوا لهم ماستطعتم من قوة" [٢] .

"خذ من اموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها" [٣] .

"وآتوا النساء صدقاتهن نحلة" [٤] .

"والوالدات يرضعن اولادهن حولين كاملين لمن اراد ان يتم الرضاعة وعلى المولود له رزقهن وكسوتهن بالمعروف" [٥] .

"للرجال نصيب مما ترك الوالدان والاقربون وللنساء نصيب مما ترك الوالدان والاقربون مما قل منه او كثر نصيبا مفروضا" [٦] .

"وان كنتم على سفر ولم تجدوا كاتبا فرهان مقبوضة فان امن بعضكم بعضا فليؤد الذي أؤتمن امانته" [٧] .

"ويل للمطففين . الذين اذا اكتالوا على الناس يستوفون . واذا كالوهم او وزنوهم يخسرون" [٨] .

٤- عمومية القرآن للناس كافة بل وحتى الجن ولنقرأ :

"وما ارسلناك الا رحمة للعالمين" [٩] .

"وما ارسلناك الا كافة للناس بشيرا ونذيرا" [١٠] .

"تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا" [١١] .

"واذ صرفنا اليك نفرا من الجن يستمعون القرآن فلما حضروه قالوا انصتوا فلما قضي ولّوا الى قومهم منذرين . قالوا يا قومنا انا سمعنا كتابا انزل من بعد موسى مصدقا لما بين يديه يهدي الى الحق والى طريق مستقيم . يا قومنا اجيبوا داعي الله وآمنوا به يغفر لكم من ذنوبكم ويجركم من عذاب اليم" [١٢] .

---

(١) الانفال : ٦١ .

(٢) الانفال : ٦٠ .

(٣) التوبة : ١٠٣ .

(٤) النساء : ٤ .

(٥) البقرة : ٢٣٣ .

(٦) النساء : ٧ .

(٧) البقرة : ٢٨٣ .

(٨) المطففين : ١-٣ .

(٩) الانبياء : ١٠٧ .

(١٠) سبأ : ٢٨ .

(١١) الفرقان : ١ .

(١٢) الاحقاف : ٢٩ - ٣١ .

٥- انه معجزة لايقدر احد ان يأتي بمثله ابدا ، ولنقرأ :

"قل لئن اجتمعت الانس والجن على ان يأتوا بمثل هذا القرآن لايأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا" [١] .

" ام يقولون تقوّله بل لايؤمنون . فليأتوا بحديث مثله ان كانوا صادقين" [٢] .

"ام يقولون افتراه قل فأتوابعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله ان كنتم صادقين" [٣] .

"ام يقولون افتراه قل فأتوا بسورة مثله وادعوا من استطعتم من دون الله ان كنتم صادقين" [٤] .

"ان كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله ان كنتم صادقين" [٥] .

تحداهم القرآن بهذا الاسلوب الاستفزازي الذي يبعث في نفس الخصم روح الاصرار والاستنفار والجدية القصوى في المواجهة ، ومع هذا لم يقم للقرآن احد من خصومه فثبت اعجازه ، وثبت انه معجزة .

الا ان السؤال الذي ينقدح في الذهن بدون تريث : لماذا ؟! لماذا عجز العرب عن ان يأتوا ولو بسورة واحدة من مثل سور القرآن ؟! ماالذي اعجزهم في القرآن ؟! القرآن نفسه لايجيب على هذا السؤال ، وكأنه اراد ان يتركك لتبحث بكل جهدك لتكشف جوانب الاعجاز بنفسك ، من الممكن ان تكون هذه هي الحكمة ، ومن الممكن القول : ان القرآن كله معجز : لفظه ومعناه ، حكمه وبيانه ، اخباره الماضية وانباؤه المستقبلية ، تحليله للنفس او تحليله للكون .. الخ فلما كان كله معجزا اكتفى القرآن بان يتحداهم بمثله ، والمثل كلمة شاملة مطلقة .

٦- ان الله تكفل بحفظه : ولنقرأ :

"انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون" [٦] .

"وانه لكتاب عزيز . لايأتيه الباطل من بين يديه ولامن خلفه تنزيل من حكيم حميد" [٧] .

---

(١) الاسراء : ٨٨ .
(٢) الطور : ٣٣ - ٣٤ .
(٣) هود : ١٣ .
(٤) يونس : ٣٨ .
(٥) البقرة : ٢٣ .
(٦) الحجر : ٩ .
(٧) فصلت : ٤١ - ٤٢ .

"ام يقولون افترى على الله كذبا فان يشأ الله يختم على قلبك ويمح الله الباطل ويحق الحق بكلماته انه عليم بذات الصدور"[1] .

ولا يزال الواقع يشهد بذا الحفظ ، فمع اختلاف المسلمين وتباين آرائهم ومذاهبهم في الكثير من المسائل الخطيرة والطفيفة الا ان يد التزوير لم تستطع ان تمتد الى كتاب الله - تبارك وتعالى - ، وكذلك تعرض الامة لحالات من الضعف والانحطاط والجهل وسيطرة اعدائها على مقدراتها وحتى مدارسها ومناهج التعليم فيها ومع هذا بقي القرآن هو القرآن ، فالله اكبر !! .

٧- ان القرآن فيه محكم ومتشابه ، ولنقرأ :

"كتاب احكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير"[2] .

"الله نزّل احسن الحديث كتابا متشابها"[3] .

"هو الذي انزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن ام الكتاب وأخر متشابهات فاما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ماتشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله ومايعلم تأويله الا الله والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا ومايذكر الا اولوا الالباب"[4] .

هذه الآيات الثلاث تحمل ثلاثة معان تبدو ولاول وهلة كأنها متضادة فالاولى معناها : ان القرآن محكم ، والثانية : ان القرآن متشابه ، والثالثة : ان القرآن بعضه محكم وبعضه متشابه !!! فماحقيقة الامر ؟

اننا لو اتينا الى النص نفسه من غير ان نحمل ثقل الخلاف الكلامي حول موضوع "المحكم والمتشابه"فسنصل الى حقيقة الامر بيسر - ان شاء الله - ولنبدأ : مامعنى "احكمت آياته" ؟ الاحكام هو : الاتقان ، والقرآن كله محكم بمعنى انه متقن وباعلى درجات الاتقان ، ولو لم يكن كذلك فكيف اعجز بلغاء العرب وفصحاءهم ؟ وبعد فلنسأل : مامعنى "متشابها" ؟ التشابه : التشاكل والتماثل ، وآيات القرآن كلها متشابهة قطعا ، فليس بينها تناقض واختلاف "ولوكان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا"[5] . وهذا المعنى يعضد المعنى الاول فالقرآن محكم ولانه محكم فهو متشابه ، او فهو متقن ولانه متقن فهو ليس مختلفا ولامتناقضا ، واذا كان الامر كذلك فكيف نفهم الاية الثالثة ؟! ان الآية وضعت المحكم بمقابل المتشابه فلايمكن الجمع بينهما ، اذاً هل المحكم هنا غير المحكم في الآية الاولى ؟ وهل المتشابه هنا غير المتشابه في الآية الثانية ؟ الجواب بنعم او لا ، لايخلو من تسرع ، ولو تأملنا في النص نفسه لوجدنا ان المحكم في

---

(١) الشورى : ٢٤ .
(٢) هود : ١ .
(٣) الزمر : ٢٣ .
(٤) آل عمران : ٧ .
(٥) النساء : ٨٢ .

الآية الثالثة قد اضيف له معنى زائد على معناه الاول فالمحكم هنا المتقن مضافا اليه انه ام الكتاب ، ومعنى ام الكتاب هنا واضح فامك اصلك ومنها ولدت ، فالقرآن يقول لك : ان في القرآن آيات متقنات تمثل الاصول الواضحة لهذا القرآن كله ، واذا كانت هذه اصول فاذاً هناك فروع تنبني على هذه الاصول ، لان القرآن ماقال : هن الكتاب ، بل هن ام الكتاب ، فالكتاب اذاً اصول وفروع ، والاصول في هذه : المحكمات ، اذاً فالفروع المتشابهات ، فالمتشابهات اذاً اضيف اليها معنى زائد على مجرد التماثل وعدم الاختلاف وهو انها فروع ينبغي ان تبنى على اصولها ، وعلى هذا فاتباع المتشابه يؤدي الى الفتنة لابمعنى ان المتشابه نفسه فتنة – معاذ الله – فليس في القرآن الا النور والهدى والشفاء – كما مر معنا في اسماء القرآن وصفاته – لكن الفتنة جاءت من اتباع المتشابه فقط بعيدا عن اصوله ، وهنا الفتنة وهنا الخطر : اذ كيف تريد ان تفهم معنى فرعيا جزئيا بعد ان قطعته من اصوله ؟! وكأنني الآن استطيع ان اقرب الصورة من خلال الامثلة الافتراضية الآتية :

أ– لو قال شخص : ان رسالة محمد – صلى الله عليه وسلم – خاصة بالقومية العربية بدليل قوله – تعالى – "انه لذكر لك ولقومك" [1] .

ب – لو قال شخص : ان الدعوة الى الله والجهاد في سبيله باطل لقوله – تعالى – "لكم دينكم ولي دين" [2] و "لا اكراه في الدين" [3] .

جـ – لو قال شخص : ان القرآن اقر وحدة الاديان وانه لافرق بين المسلم واليهودي والنصراني وغيرهم اذا سلم القلب وحسن العمل بدليل قوله – تعالى – : "ان الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا فلهم اجرهم عند ربهم ولاخوف عليهم ولاهم يحزنون" [4] .

فهؤلاء كلهم جاؤا الى هذه الايات وقطعوها عن اصولها وحاولوا فهمها بما يناقض الاصول الثابتة في كتاب الله فكانوا اهل زيغ واهل فتنة ، لكن المؤمن لاتلتبس عليه هذه الآيات ، فعالمية الاسلام هذه اصل من اصول القرآن "وما ارسلناك الا كافة للناس بشيرا ونذيرا" [5] . فكيف يستطيع ان يقتنع بان الاسلام دين القومية العربية فقط او دين قريش لقوله – تعالى – : "وانذر عشيرتك الاقربين" [6] . انه سيفهم كل هذه الفرعيات على انها مثلا تمثل مرحلة من مسيرة الدعوة او اي معنى آخر لايهدم الاصل . وهكذا في الثاني فالاصل ثابت عند المؤمنين ان الدعوة والجهاد من صميم ديننا وآيات القرآن الواضحات

(١) الزخرف : ٤٤ .
(٢) الكافرون : ٦ .
(٣) البقرة : ٢٥٦ .
(٤) البقرة :٦٢ .
(٥) سبأ : ٢٨ .
(٦) الشعراء : ٢١٤ .

اكثر من ان تحصى وخذ هذه الآية فقط : "فاذا انسلخ الاشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصد فان تابوا واقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم" (١) . ونقول للثالث اقرأ فقط ، "ومن يبتغ غير الاسلام دينا فلن يقبل منه وهو في الاخرة من الخاسرين" (٢) و "قاتلوا الذين لايؤمنون بالله ولاباليوم الآخر ولايحرمون ماحرم الله ورسوله ولايدينون دين الحق من الذين اوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون" (٣) .

فاذاً ليس في القرآن آيات ينبغي ان لانقرأها ولانتدبرها لانها تؤدي الى الفتنة او لانها متشابهات ، كيف ؟ والقرآن يقول : "افلا يتدبرون القرآن" (٤) ، ولم يستثن اي آية ، ولو كان في القرآن آيات لايجوز اتباعها والبحث عنها فاولاً : لماذا لم يحددها القرآن ؟ وثانيا كيف يكون القرآن معجزا ببيانه وبلاغته وفيه آيات لاتفهم ؟ لاسيما وان آية آل عمران تشير ولو من بعيد ان المتشابهات اكثر لان المحكمات هن ام الكتاب فقط ، فهل القرآن كله امهات ؟! .

ان هذا المعنى للمحكم والمتشابه هو الذي ينسجم مع مبادئ الاسلام ووظيفة القرآن ولايصطدم بأي حقيقة اسلامية ثابتة غير ان هناك اشكالا في الوقوف على "الله" في آية آل عمران ، وهو وقوف صحيح لاغبار عليه ، فكيف يكون : لايعلمه الا الله ، ثم نقول ان المتشابه من الممكن ان يعرف برده الى اصوله المحكمات ، الحقيقة ان هذه الاشكالية وان كثر فيها الجدل الا انها ان لم نخرج من دائرة النص فمن الممكن فهمها بيسر وبارجاعها الى المحكمات ايضا ، فلما كان عندنا يقينا ان القرآن رسالة هدى ونور ، ودستور حياة ، لاكتاب الغاز وطلاسم ، فلايصح عندنا بعدُ ان نتصور وجود آيات لايفهمها الا الله ، واذا كان الامر كذلك فحل هذه الاشكالية لايكلف كثيرا ، اذ من الممكن القول : ان اهل الزيغ ارادوا ان يؤولوا بعض الآيات تأويلا باطلا يبتغون به الفتنة وتأويلهم هذا وغايتهم لايعلمها الا الله ، فهو الذي يعلم خفايا النفوس ونوايا الضمائر ، اما نحن فقد نشك وقد نظن وربما نجهل تماما ، وبهذا التفسير نجمع ايضا بين معنى القراءتين فالقراءة الثانية "الا الله والراسخون في العلم" جعلت الراسخين يعلمون تأويله ، فيكون المعنى : لايعلم تأويله عندهم وقصدهم من ذلك الا الله ، والراسخون في العلم لاتفتنهم تأويلات الزائغين فهم على علم وبصيرة ولهذا يقولون امنا به ، هذا على القراءة الاولى . وعلى الثانية : ان المتشابه لايعلمه الا الله والراسخون الذين يعلمون اصول هذا الدين لاتشتبه عليهم الفرعيات كما تشتبه على غيرهم – والله اعلم – .

---

(١) التوبة : ٥ .

(٢) آل عمران : ٨٥ .

(٣) التوبة : ٢٩ .

(٤) النساء : ٨٢ .

المبحث الثاني
الوحي والرسالات عند المتكلمين

من المسلّم به اننا كلما ابتعدنا عن العقليات واقتربنا من السمعيات كلما كبرت مساحة الوفاق وضاقت مسائل الخلاف ، لان هناك نصوصاً تحكم الجميع ، نعم قد نختلف في فهم النص الا ان هذا الاختلاف يبقى محصوراً في المعاني التي يحتملها النص ، ومبحث الوحي والرسالات قريب من السمع بل هو سمعي في اكثر جوانبه ، ولذا انكمشت فيه دائرة الصراع بين المتكلمين وخذ مثلاً حينما يحدد القرآن طرق الوحي "وماكان لرجل ان يكلمه الله الا .. الخ" فماذا سيقول المتكلمون بعد "الا" ؟! من هذا المنطلق سنحاول التركيز على مسائل في هذا المبحث خاض فيها المتكلمون بقوة وكانت لكل مدرسة فيها معالمها الخاصة ، اما المسائل الاخرى لاسيما ثوابت المبحث واولياته فنستغني عن ذكرها او نمر على بعضها مراً سريعاً :

المعتزلة :

لم يطل المعتزلة وقوفهم على موضوع الوحي ولاموضوع الرسالات السابقة ، وانما صبوا جل اهتمامهم على بعض المسائل المتعلقة برسالة رسولنا الكريم محمد – صلى الله عليه وسلم – القرآن ، وها نحن نتناول ابرز هذه المسائل :

المسألة الاولى : نسخ القرآن للشرائع السابقة :

يبدأ القاضي عبد الجبار – رحمه الله – بتصنيف الذين ينكرون نسخ القرآن لشريعتهم – وهم اليهود – الى ثلاثة اصناف ويرد عليهم صنفاً صنفاً :

الصنف الاول : الذين انكروا النسخ لدليل عقلي : وذكر ان هؤلاء احتجوا بدليلين عقليين : الاول : قولهم : "ذلك يقتضي ان يصيرالحق باطلاً والباطل حقاً . وذلك محال" . والثاني : قولهم "ان النسخ يقتضي البدء ، وهو ان يكون قد ظهر لله – تعالى – من حال تلك الشريعة ماكان خافياً ، وذلك يخرجه عن كونه عالماً لذاته" . وقد رد القاضي الدليل الاول بقوله : "ان النسخ لم يتناول عين ماكان حقاً حتى يجب انقلاب الحق باطلاً والباطل حقاً ، وانما يتناول مثل ماكان حقاً ، ولايمتنع في المثلين ان يكون احدهما حقاً والآخر باطلاً ، فان دخول الدار قد يكون حقاً حسناً بان يكون عن اذن صاحب الدار وقد يكون باطلاً قبيحاً بأن يكون لاعن اذن ، مع ان الدخولين مثلان" [1] ، وهذا الرد عند القاضي يصلح ان يكون رداً على الدليل الثاني : "وعلى نحو هذه الطريقة يجري الكلام مع الذين

---

(١) القاضي عبد الجبار ، شرح الاصول الخمسة : ٥٧٧ .

انكروا النسخ لاقتضائه البدء"[1] ، الا انه يتوسع في الرد على الدليل الثاني موضحاً الفرق بين النسخ والبداء ، فيقول : "اما النسخ فهو في الاصل الازالة او النقل ... فأما في الشرع ، فهو ازالة مثل الحكم الثابت بدلالة شرعية بدليل آخر شرعي على وجه لولاه لثبت ولم يزل مع تراخيه عنه ، فأعتبرنا ان يكون ازالة مثل الحكم الثابت ، لانه لو زال عين ماكان ثابتاً من قبل لم يكن نسخاً بل كان نقضاً . واعتبرنا ان تكون الدلالتان شرعيتين، لانهما لو كانا عقليتين او احداهما عقلية والاخرى شرعية لم يعد نسخاً ... واما البداء : فانه لايكون بداء الا عند اعتبار امور ، نحو ان يكون المكلف واحداً والفعل واحداً والوقت واحداً والوجه واحداً ، ثم يرد الامر بعد النهي او النهي بعد الامر ... ولابد من اعتبار هذه الامور الاربعة التي ذكرناها ، حتى لو تغاير واحد من هذه الامور الاربعة خرج البداء عن ان يكون بداء"[2] .

ثم يرد على هذا الصنف رداً مجملاً فيقول : "ماقولكم في شريعة موسى ، هل نسخت ماقبلها من الشرائع ام لا؟ فان قالوا : لا... – وهو مذهب بعضهم – قلنا : كيف يمكنكم ذلك وقد علمتم ان آدم – عليه السلام – زوج بناته من بنيه وقد حظره موسى ، ... فان قالوا : نعم ، قد اتى موسى بنسخ شرائع من قبله من الانبياء ولابد لهم من ذلك – وهو مذهب جماعة منهم – قلنا : فهلا اقتضى انقلاب الحق باطلاً والباطل حقاً ، وهلا اقتضى ان يكون قد بدا لله وظهر له من حال تلك الشرائع ماكان خافياً عليه – تعالى عن ذلك –" .

الصنف الثاني : الذين انكروا النسخ لدليل نقلي ، وهم القائلون : "ان نسخ الشريعة جائز من جهة العقل ، الا ان السمع منع من ذلك ، وقد قال موسى – عليه السلام – : شريعتي لن تنسخ ابداً"[3] .

وقد رد القاضي استدلالهم هذا بقوله : "نطالبهم بتصحيح هذا الخبر عن موسى – عليه السلام – ولايجدون الى ذلك سبيلا ، ومتى قالوا : ان هذا من الاخبار المتواترة فلامعنى لانكاره ، قلنا : لو كان كذلك لعرفناه نحن على طول اختلاطنا بكم ومناظرتنا اياكم ، ونحن لانعرفه ، فكيف يمكنكم ادعاء التواتر فيها ، وقد انكره العنانية من اصحابكم ... ثم يقال لهم : لايخلو حال هذا الخبر من احد وجهين ، فاما ان يكون المراد به ان شريعتي لاتنسخ على يدي من معه معجز ، او على يدي من لامعجز له ، فان اردتم به ان شريعتي لاتنسخ على يدي من لامعجز معه فانا توافقكم ، وان اردتم به انها لاتنسخ على يدي من معه معجز فان ذلك مما لايجوز ان يكون قد اراده موسى – عليه السلام – لان ذلك يقدح في نبوته ، ويكون لامته ان يقولوا : فلم وجب اعتقاد نبوتك والانقياد لك ،

---

(١) المصد السابق : ٥٧٨ .

(٢) المصدر السابق : ٥٨٤ – ٥٨٥ .

(٣) المصدر السابق : ٥٧٦ .

وقد جوزنا ان يكون ههنا صاحب معجزة ، لايلزمنا متابعته" ثم يقول : "وتأويله هو : ان شريعتي لاتنسخ على يدي من لامعجز معه" [1] .

الصنف الثالث : وهولاء لم ينكروا اصل النسخ ولكنهم قالو : " ان نسخ الشرائع جائز من جهة العقل والشرع جميعا ، الا انا انما انكرنا نبوتهما [2] لانهما عدما المعجز الدال على صدقهما" [3] .

وقد رد القاضي هؤلاء بذكر معجزاته – صلى الله عليه وسلم – واولاها القران – وسنتناوله في المسألة الثانية ان شاء الله – ثم عرج بالحديث عن بقية المعجزات كاشباع العدد الكبير والجم الغفير من الطعام اليسير ، واجابة الشجرة له حين دعاها وعودها الى مكانها وحنين الجذع اليه – صلى الله عليه وسلم – وغيرها [4] .

المساله الثانية - اعجاز القران :

يجمل القاضي دليل الاعجاز بقوله : " انه تحدى بمعارضة العرب مع انهم كانوا الغاية في الفصاحة ، والمشار اليهم في الطلاقة والذلاقة ، وقرعهم بالعجز عن الاتيان بمثله ، فلم يعارضوه وعدلوا عنه ، لالوجه سوى عجزهم عن الاتيان بمثله " [5] .

وبعد هذا الاجمال يبدء في الرد على الشبه الموجهة الى هذه الجملة ، وهي شبه كثيرة نورد هنا اهمها :

الشبهة الاولى : " فان قيل : ومن اين انهم تركوا المعارضة ولم يعارضوه البتة ؟ قيل له انهم لو عارضوه لكان يجب ان ينقل الينا معارضتهم ، فانه لايجوز في حادثتين عظيمتين تحدثان معا ، وكان الداعي الى نقل احداهما كالداعي الى نقل الاخرى ان تخص احداهما بالنقل ، بل الواجب ان ينقلا جميعا او لاينقلا ، فاما ان ينقل احداهما دون الاخرى ، فلا... ولايمكن انكار ماقلناه من ان الداعي الى نقل احداهما كالداعي الى

(١) المصدر السابق : ٥٨٠ –٥٨١ .

(٢) وهما محمد وعيسى – عليهما الصلاة والسلام – .

(٣) القاضي عبد الجبار ، شرح الاصول الخمسه : ٥٧٦ .

(٤) المصدر السابق :٥٩٥ –٥٩٦ .

(٥) المصدر السابق : ٥٨٦ . ولا يفوتنا ان للمعتزلة كتابا رائعا في الاعجاز وهو الموسوم "النكت في اعجاز القران "للشيخ ابي الحسن علي ابن عيسى الرماني – رحمه الله – وقد اوصل وجوه الاعجاز الى سبعة ، "وجوه اعجاز القران تظهر من سبع جهات ، ترك المعارضة مع توفر الدواعي وشدة الحاجة ، والتحدي للكافة ، والصرفة ، والبلاغة ، والاخبار الصادقة عن الامور المستقبلة ، ونقض العادة ، وقياسه بكل معجزة " . النكت : ٦٩ . وهذه كلها مفصلة في كتابه ايما تفصيل ، لاسيما " البلاغه " التي اعتنى بها عناية خاصة ، والذي تنبغي الاشارة اليه هنا هو قوله بالصرفة ، بمعنى ان الله صرف همم الناس عن الاتيان بمثله ، وهذا قول النظام – كم سياتي – لكن الشيخ الرماني حاول الجمع بين هذا وبين الوجوه الاخرى ، اسمع اليه وهو يقول : " واما الصرفة : فهي صرف الهمم عن المعارضة ، وعلى ذلك كان يعتمد بعض اهل العلم في ان القران معجز من جهة صرف الهمم عن المعارضة ، وذلك خارج عن العادة كخروج سائر المعجزات التي دلت على النبوة ، وهذا عندنا احد وجوه الاعجاز التي يظهر منها للعقول " النكت : ١٠١ .

نقل الاخر ، بل لو قيل : ان الداعي الى نقل المعارضة اقوى لكان اولى ، اذ المعارضة مما ينقلها المخالف والموافق ، المخالف ينقله ليرى الناس ان فيه ابطال حجة محمد – صلى الله عليه وسلم – ، والموافق ينقله ليتكلم عليه ويبين ان ذلك ليس من المعارضة في شئ ، يزيد ماذكرناه وضوحا هو ان المعلوم انهم قد نقلوا من المعارضات الركيكة كمعارضه مسيلمة وغيره –عليه لعنة الله – [1] .

الشبهة الثانية : "فان قيل : انما ذكرتموه فينبني على ان العرب كانوا اهل حرص على ابطال امره وتوهين شانه ، ولم يمكنهم ذلك الا بالمعارضة ، ونحن لانسلم ذلك . قيل له ان ذلك معلوم بالاضطرار ، فمعلوم ان النبي – صلى الله عليه وسلم – ادعى منزلة رفيعة عليهم وهم كانوا في غايه الانفة والحمية والاباء ، فكيف لم يحرصوا والحال ماذكرناه على ابطال امره ورفع حجته ان لو قدروا " [2] .

الشبهة الثالثة : " فان قيل : انهم ارادوا استئصاله فلهذا عدلوا عن المعارضة الى المقاتلة ، لانهم عجزوا عن ذالك ولم يقدروا عليه " فيجيب : "ان هؤلاء الذين طولبوا بالمعارضة ، لو قدروا عليها لكان تكون المعارضة عليهم اسهل من استئصال محمد – عليه السلام – ومكانه في العرب المكان الذي كان ، ولايليق بالعاقل البالغ الكامل العقل العدول عن الامر السهل الى الامر الصعب الا اذا لم يرتفع غرضه بالامر السهل ، فحينئذ يعذر في العدول عنه الى ماهو اصعب منه ، والا فكيف اختاروا المقاتلة وهو صعب جدا على المعارضة التي كانت اسهل عليهم من كل شئ ؟ فلما اشتغلوا بالمقاتلة وابوا الا المحاربة التي كانت من المجوز ان لايرتفع غرضهم بها بان تكون الدائرة عليهم وتركوا المعارضة التي كانت عندهم بزعمهم بمنزلة الاكل والشرب والقيام والقعود ، تبينا عجزهم وقصورهم" [3] .

الشبهة الرابعة : "فان قيل : هب ان القرآن معجزة ، وان العرب علموا اعجازه لعلمهم بانه قد تناهى في الفصاحة جداً ، وانتم فبأي طريق علمتم معنا فيه يامعشر العجم ؟ قلنا : ان العلم بذلك على وجهين : احدهما علم تفصيل ، والآخر علم جملة ، والعرب علموا ذلك على سبيل التفصيل ، ونحن فقد علمناه على سبيل الجملة وطريقته هو : ان محمداً – صلى الله عليه وسلم – تحدى العرب بمعارضته فلم يمكنهم الاتيان بمثله ، فلولا كونه معجزاً دالاً على نبوته ، والا لما كان ذلك كذلك" [4]

---

(١) القاضي عبد الجبار ، شرح الاصول الخمسة : ٥٨٨-٥٨٩ .

(٢) المصدر السابق :٥٨٩ .

(٣) المصدر السابق : ٥٩٠ – ٥٩١ .

(٤) المصدر السابق : ٥٩٤ .

ويبدو من خلال كلامه ان اعجاز القرآن انما كان بالفصاحة والبيان [(١)] ، وهذا ما عليه جمهور كبير من العلماء .

المسالة الثالثة - عالمية القرآن وعموميته :

وجاءت هذه المسألة عنده رداً على بعض اليهود الذين اعترفوا بنبوته - صلى الله عليه وسلم - الا انهم قالوا : ان رسالته خاصة بالعرب ، ولم يشأ القاضي ان يطيل الجدل مع هؤلاء لان كلامهم واه لاقيمة له ، حيث انه اذا ثبت انه نبي فهو اذاً صادق ، فاذا اخبرنا الصادق انه جاء بالرسالة الى العالمين اجمعين فلامناص من التصديق به والا زال اعتقادنا انه نبي ، وهذا مقطع من كلامه : "واما الذين قالوا ان محمداً كان مبعوثاً الى العرب من دون سواهم فان الكلام عليهم هو ان نقول لهم : انه - صلى الله عليه وسلم - اذا ادعى انه مبعوث الى الكافة ثم صدقه الله - تعالى - بالاعلام المعجزة ، فانه لابد ان يكون مبعوثاً الى الاحمر والاسود" [(٢)] وادعاؤه - صلى الله عليه وسلم - هذا ورد في اكثر من موضع في القرآن : "وما ارسلناك الا كافة للناس بشيراً ونذيرا" [(٣)] و"وما ارسلناك الا رحمة للعالمين" [(٤)] و "تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا" [(٥)]

المسالة الرابعة : المحكم والمتشابه في القرآن الكريم :

ربما نستطيع ان نلخص منهجهم في هذ المسألة الخطيرة بثلاث نقاط :

الاولى : وهي دعامة مذهبهم هنا ، انه لايمكن ان يكون في القرآن كلام غير مفهوم ، بل القرآن نور وهدى وشفاء . يقول القاضي : "ومن الخلاف في القرآن ، خلاف من يقول : انه مما لايمكن معرفة المراد بظاهره البتة ، وانما تعبدنا بتلاوته لما لنا في ذلك من النفع ، وذلك مما لااشكال في فساده ، فالغرض بالكلام انما هو الافهام ، وماعداه من الاغراض يتبعه ، فأذا لم يتعلق به هذا الغرض كان معدوداً في العبث ، على ان المعلوم من دين الامة ضرورة خلافه ... ولعل شبهة هؤلاء الذين انكروا ان يعرف بظاهر القرآن شئ قوله - تعالى - : "وما يعلم تأويله الا الله" وظنهم ان قوله - تعالى - "والراسخون في العلم يقولون آمنا به" مبتدأ غير معطوف على الاول ، وذلك مما لاوجه

---

(١) هذا هو المشهور عن المعتزلة وقد خالف بعضهم ، فقد قال النظام : "الآية والاعجوبة في القرآن مافيه من الاخبار عن الغيوب ، فأما التأليف والنظم فقد كان يجوز أن يقدر عليه العباد لولا ان الله منعهم بمنع وعجز احدثهما فيهم" مقالات الاسلاميين : ١/ ٢٧١ . وقوله هذا جوزه الرماني - وهو من شيوخهم - وعده وجهاً من وجوه الاعجاز - وقد تقدم كلامه آنفاً .

(٢) القاضي عبد الجبار ، شرح الاصول الخمسة : ٥٨٣ .

(٣) سبأ : ٢٨ .

(٤) الانبياء : ١٠٧ .

(٥) الفرقان : ١ .

له ، لان قوله – تعالى – "والراسخون في العلم" معطوف على الله – تعالى – فتكون الآية بان تكون دلالة لنا اولى"[1] ورحم الله القاضي فلقد كان له متسع في فهم الآية على القرائتين الصحيحتين : قراءة الوقف او العطف[2] .

الثانية : في معنى المحكم والمتشابه ، ولاشك انه سيبنى عندهم على النقطة الاولى ، يقول القاضي : "ونذكر بعد ذلك حقيقة المحكم والمتشابه ، فالمحكم ماأحكم المراد بظاهره ، والمتشابه مالم يحكم المراد بظاهره بل يحتاج في ذلك الى قرينة ، والقرينة اما عقلية او سمعية ، والسمعية اما ان تكون في هذه الآية ، اما في اولها او آخرها ، او في آية اخرى من هذه السورة او من سورة اخرى ، او في سنة الرسول – صلى الله عليه وعلى آله وسلم – من قول او فعل ، او في اجماع من الامة ، فهذه حال القرينة التي نعرف بها المراد بالمتشابه ونحمله على المحكم"[3] ، وهكذا يكون المتشابه عندهم مما يمكن معرفته عن طريق الوحي نفسه او عن طريق العقل او الاجماع فليس في القرآن آية لايفهم مرادها .

الثالثة : ماالحكمة من وجود المتشابه في القرآن الكريم ؟ :

يجيب القاضي عن هذا التساؤل بثلاثة اوجه من الحكمة :

الوجه الاول : "انه – تعالى – لما كلفنا النظر وحثنا عليه ، ونهانا عن التقليد ومنعنا منه جعل القران بعضه محكما وبعضه متشابها ، ليكون ذلك داعيا لنا الى البحث والنظر ، وصارفا عن الجهل والتقليد" .

الوجه الثاني : "انه جعل القران على هذا الوجه ليكون تكليفنا به اشق ، ويكون في باب الثواب ادخل ، وذلك شائع ، فان القديم – تعالى – اذا كان غرضه بالتكليف ان يعرضنا به الى درجة لاتنال الا بالتكليف ، فكل ماكان ادخل في معناه كان احسن لامحاله" .

الوجه الثالث : "انه – تعالى – اراد ان يكون القران في اعلى طبقات الفصاحة ليكون علما دالا علي صدق النبي – عليه السلام – ، وعلم ان ذلك لايتم بالحقائق المجردة، وانه لابد من سلوك طريقة التجوز والاستعارة ، فسلك تلك الطريقة ليكون اشبه بطريقة العرب وادخل في الاعجاز"[4] .

---

(١) المصدر السابق : ٦٠٢ – ٦٠٣ .

(٢) وعلى العطف طائفة من العلماء ، منهم مجاهد وغيره ، وهو رواية عن ابن عباس – رضي الله عنهم – . وعلى الوقف الجمهور ، انظر : الاتقان للسيوطي : ٣/٢ . وتفسير النسفي : ١٤٦/١ – ١٤٧ . وقد وردت قراءة عن ابي وابن عباس وطاوس : "ويقول الراسخون" وهي قراءة تفسيرية كما يبدو تؤيد الوقف ، انظر الاتقان : ٣/٢ . وانظر معجم القراءات : ٧/٢ .

(٣) القاضي عبد الجبار ، شرح الاصول الخمسة : ٦٠٠ – ٦٠١ .

(٤) المصدر السابق : ٦٠٠ .

المسالة الخامسة - قضية خلق القران :

لاجد حاجة للتعريف بهذه القضية التي طالما ذهبت فيها جهود واوقات واستنزفت فيها طاقات وامكانيات واشتعلت بسببها فتن وفتن ، حتى رحم الله هذه الامة فاخمد هذه النار فذهب دخانها وقبر جمرها ، ولااريد هنا ان انبش التراب واستخرج الرفات ، وانما هي تجربة الماضي لابد ان ننظر اليها ولو من بعيد لاخذ الدرس والعبرة ، ومن هذا المنطلق سنعرض باختصار اصل فكرة المعتزلة حول هذه القضية :

يقول القاضي عبد الجبار : "ان القران يتقدم بعضه على بعض ، وماهذا سبيله لايجوز ان يكون قديما اذ القديم هو مالايتقدمه غيره ، يبين ذلك ان الهمزة في قوله : الحمد لله ، متقدمة على اللام ، واللام على الحاء ، وذلك مما لايثبت معه القدم ، وهكذا الحال في جميع القران ، ولانه سور مفصلة وايات مقطعة ، له اول وآخر ، ونصف وربع وسدس وسبع ، ومايكون بهذا الوصف كيف يجوز ان يكون قديما ، وقد دل الله على ذلك في محكم كتابه فقال : "وما ياتيهم من ذكر من ربهم محدث" [١] ، والذكر هو القرآن بدليل قوله : "انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون" [٢] ، فقد وصفه بأنه محدث ، ووصفه بأنه منزل ، والمنزل لايكون الا محدثاً ، وفيه دلالة على حدوثه من وجه آخر لانه قال : "وانا له لحافظون" فلوكان قديماً لما احتاج الى حافظ يحفظه" [٣] .

هذه خلاصة رأي المعتزلة في هذه المسألة وسنرى – ان شاء الله – رأي الآخرين .

الاشاعرة :

شبه كبير بين المعتزلة والاشاعرة من حيث المسائل التي اهتموا بها وركزوا عليها . هذا وقد رأيتهم في بعض المسائل لايخرج كلام بعضهم عن كلام البعض الآخر فلم ار وجهاً للتكرار ، ومن هذه المسائل : مسألة نسخ القرآن للشرائع السابقة ، فالذي وجدته عند الاشاعرة مطابق تماماً لما تقدم من اقوال المعتزلة ، فقد ذكر الاشاعرة ايضاً اصناف الذين يحيلون النسخ وشبههم وردوا عليها كما ردها المعتزلة [٤] . ونحو هذا ايضا مسألة عالمية القرآن التي شكك بها بعض الكتابيين [٥] . اما المسائل الاخرى فسنتناولها بقدر الحاجة – ان شاء الله – .

---

(١) الانبياء : ٢ .

(٢) الحجر : ٩ .

(٣) القاضي عبد الجبار ، شرح الاصول الخمسة : ٥٣٢ .

(٤) انظر : الباقلاني ، التمهيد : ١٨٧ – ٢١٧ .

(٥) انظر : الباقلاني ، التمهيد : ٢١٨ . والبغدادي ، اصول الدين : ١٦٤ .

مسالة اعجاز القرآن :

لا يختلف الاشاعرة هنا عن المعتزلة في شئ ، فكلاهما يعتقد ان القرآن معجز ببلاغته واسلوب نظمه ، وكلاهما دافع عن هذه العقيدة ورد شبه الطاعنين[1] ، غير اني اود ان اسجل الملاحظتين الآتيتين :

الاولى : ان الاشاعرة توسعوا قليلا في "وجوه الاعجاز القرآني" فذكروا وجوها اخرى يقول الباقلاني - رحمه الله - : "فان قال قائل : فهل في القرآن وجه من وجوه الاعجاز غير ماذكرتموه من بديع نظمه وعجيب رصفه وتأليفه ؟ قيل له : اجل فيه وجهان آخران من وجوه الاعجاز ، احدهما : ماانطوى عليه من اخبار الغيوب التي يعلم كل عاقل عجز الخلق عن معرفتها والتوصل الى ادراكها نحو قوله : "لتدخلن المسجد الحرام ان شاء الله آمنين محلقين رؤوسكم ومقصرين لاتخافون"[2] فدخلوه كما وعدهم واخبرهم ، ومن ذلك قوله - تعالى - "سيهزم الجمع ويولون الدبر"[3] فكان ذلك كما اخبر ... ومن اخبار الغيوب قوله - تعالى - : "الم . غلبت الروم في ادنى الارض وهم من بعد غلبهم سيغلبون"[4] فغلبت الروم فارس في بضع السنين كما اخبر - تعالى - في نظائر هذا مما يكثر تتبعه ، واتفاق الصواب في هذا اجمع على سبيل التخمين والظن ممتنع ، متعذر ، فدل ذلك على انه من اخبار علام الغيوب - سبحانه - . والوجه الاخر : ماعليه القرآن من قصص الاولين وسير الماضين واحاديث المتقدمين وذكر ماشجر بينهم وكان في اعصارهم مما لايجوز حصول علمه الا لمن كثر لقاؤه لاهل السير ودرسه لها وعنايته بها ومجالسته لاهلها وكان ممن يتلو الكتب ويستخرجها ، مع العلم بان النبي - صلى الله عليه وسلم - لم يكن يتلو كتابا ولايخطه بيمينه وانه لم يكن ممن يعرف بدراسة الكتب ومجالسة اهل السير والاخذ عنهم ولالقي الا من لقوه ، ولاعرف الا من عرفوه ، وانهم يعرفون دأبه وديدنه ، ومنشأه وتصرفه في حال اقامته بينهم وظعنه عنهم ، فدل ذلك على ان المخبر له عن هذه الامور هو الله - سبحانه - علام الغيوب"[5] . هذا وقد توسع الاشاعرة في شرح بلاغة القرآن وسيأتينا كلام الجرجاني - رحمه الله - .

---

(١) ومن الذين عرف عنهم الاهتمام بهذه المسألة الامام الباقلاني ، فبالاضافة الى ما كتبه في تمهيده نراه يفرد كتابا مستقلا لهذه المسألة اسماه "اعجاز القرآن" وقد الفه للرد على شبه الطاعنين المشككين ، فتراه يقول في مقدمته : "وسألنا سائل ان نذكر جملة من القول جامعة ، تسقط الشبهات ، وتزيل الشكوك التي تعرض للجهال وتنتهي الى ما يخطر لهم ويعرض لافهامهم من الطعن في وجه المعجزة فاجبناه الى ذلك" . اعجاز القرآن : ٦ .

(٢) الفتح : ٢٧ .

(٣) القمر : ٥٤ .

(٤) الروم : ١ - ٢ .

(٥) الباقلاني ، التمهيد : ١٨٥ - ١٨٧ . وانظر : الجويني ، الارشاد : ٣٥٢ .

الثانية : انه ورد عن بعض الاشاعرة مايشعر انهم يقولون بالصرفة بمعنى ان الله – تعالى – صرف العرب عن الاتيان بمثله ، فتكون المعجزة على هذا القول في ان العرب عجزوا ان يأتوا بما اعتادوه ولغير سبب الا ان الله منعهم وهذا المنع لايمكن ان يكون الا من الله فكان هذا دليل الصدق لمن جاء يخبر عن الله ، يقول الغزالي – رحمه الله – : "فان انصرافهم عن المعارضة لم يكن الا بصرف من الله – تعالى – والصرف عن المقدور المعتاد من اعظم المعجزات ، فلو قال نبي : آية صدقي اني في هذا اليوم احرك اصبعي ولايقدر احد من البشر على معارضتي ، فلم يعارضه احد في ذلك اليوم ، ثبت صدقه ، وكان فقد قدرتهم على الحركة مع سلامة الاعضاء من اعظم المعجزات" [1] .

جسد الغزالي هنا نظرية "الصرفة" التي قال بها بعض العلماء والتي اثارت بعض الجدل ابلغ تجسيد ، غير ان الحق ان الغزالي يعتبر الاعجاز بالبلاغة والنظم فتراه يقول : "فان قيل : ماوجه اعجاز القرآن ؟ قلنا الجزالة والفصاحة مع النظم العجيب والمنهاج الخارج عن مناهج كلام العرب" [2] . لكن كلامه عن الصرفة جاء ردا على من يقول : "لعل العرب اشتغلت بالمحاربة والقتال فلم تعرج على معارضة القرآن ولو قصدت لقدرت عليه ، او منعتها العوائق عن الاشتغال به" [3] وكأنه يريد ان يقول : انه لو كان الامر كذلك فهو ايضا معجزة !! – والله اعلم – .

الا انه ينبغي ان لايفوتنا ان نذكر انه برع عند الاشاعرة من لايجارى ولايبارى في هذا الميدان [4] ، وهو الامام عبد القاهر الجرجاني – رحمه الله – ويكفي ان نعلم انه هو صاحب "اسرار البلاغة" و "دلائل الاعجاز" و "الرسالة الشافية" .

هذه المؤلفات تعكس مدى اهتمام الجرجاني بمسألة "الاعجاز" هذا الاهتمام الذي يكشف سره هو فيقول : "فان قال منهم قائل : انك قد اغفلت فيما رتبت ، فان لنا طريقا الى اعجاز القرآن غير ماقلت ، وهو علمنا بعجز العرب عن ان يأتوا بمثله ، وتركهم ان يعارضوه مع تكرار التحدي عليهم ... قيل له : خبرنا عما اتفق عليه المسلمون من اختصاص نبينا – عليه السلام – بان كانت معجزته باقية على وجه الدهر ، اتعرف له معنى غير ان لايزال البرهان منه لائحا معرضا لكل من اراد العلم به وطلب الوصول اليه ، والحجة فيه وبه ظاهرة لمن ارادها ، والعلم بها ممكنا لمن التمسه ؟ فاذا كنت لاتشك في ان لامعنى لبقاء المعجزة بالقرآن الا ان الوصف الذي له كان معجزا قائم فيه ابدا ، وان الطريق الى العلم به موجود ، والوصول اليه ممكن ، فانظر اي رجل تكون اذا انت زهدت في ان تعرف حجة الله – تعالى – وآثرت فيه الجهل على العلم وعدم الاستبانة على

---

(١) الغزالي ، الاقتصاد : ١٠٣ .

(٢) المصدر السابق : ١٢٩ – ١٣٠ .

(٣) المصدر السابق : ١٣٠ .

(٤) انظر مقدمة كتاب "اسرار البلاغة" بقلم الشيخ محمد رشيد رضا – رحمه الله – .

وجودها ، وكان التقليد فيها احب اليك ، والتعويل على علم غيرك آثر لديك ، ونحّ الهوى عنك ، وارجع عقلك ، واصدق نفسك ، يبن لك فحش الغلط فيما رأيت ، وقبح الخطأ في الذي توهمت ، وهل رأيت رأيا اعجز ، واختيارا اقبح ممن كره ان تعرف حجة الله – تعالى – من الجهة التي اذا عرفت منها ، كانت انور وابهر ، واقوى واقهر ، وآثر ان لايقوى سلطانها على الشرك كل القوة ، ولاتعلو على الكفر كل العلو[1] .

ولذا قام الجرجاني بهذه الحملة الكبيرة لتفصيل الاعجاز القرآني ، ورد الشبه الموجهة نحوه ، انظر اليه مثلا وهو يرد على شبهة غريبة أثارها بعض الملحدين وخلاصتها قولهم : "قد جرت العادة بأن يبقى في الزمان من يفوت اهله حتى يسلموا له ، وحتى لايطمع احد في مداناته ، وحتى ليقع الاجماع فيه انه الفرد الذي لاينازع ، ثم يذكرون امرؤ القيس .. " فيرد الجرجاني : "وليت شعري من هذا الذي سلم لهم انه كان في وقت من الاوقات من بلغ امره في المزية وفي العلو على اهل زمانه هذا المبلغ ، وانتهى الى هذا الحد ، ان قيل امرؤ القيس : فقد كان في وقته من يباريه ويماتنه ، بل لايتحاشى من ان يدعي الفضل عليه ، فقد عرفنا حديث علقمة الفحل وانه لما قال امرؤ القيس – وقد تناشدا – اينا اشعر ؟ قال : انا غير مكترث ولامبال ... وتحاكما الى المرأة ففضلت علقمة"[2] ثم ساق من مثل هذا الكثير .

المحكم والمتشابه :

تكلم الاشاعرة بكثرة عن هذه المسألة لكني وجدت ان اوسع من تكلم فيها هو الامام الرازي – رحمه الله – فقد فصل القول فيها تفصيلاًواسعاً ، وسنقتصر على موقفه هو بأعتباره واحداً من ابرز علماء الاشاعرة في هذا الموضوع لعلاقته الحميمة بعلم التفسير ، ولتفرد ماجاء به من حيث الشمول و التفصيل :

بحث الرازي هذه المسألة وفرّع عليهاالكثير من المسائل ، وسنحاول اختصار ماجاء به في النقاط الآتية :

١– ينطلق الرازي اولاً من تبيان معنى المحكم والمتشابه واتصاف القرآن بهما ، فيقول : "اعلم ان كتاب الله – تعالى – دل على انه بكليته محكم ، ودل على انه بكليته متشابه ، ودل على ان بعضه محكم وبعضه متشابه" ثم ساق الآيات الدالة على كلامه هذا ، وشرع يبين المقصود فقال عن الاول : "والمراد من المحكم بهذا المعنى كونه حقاً في الفاظه ، وكونه حقاً في معانيه ، وكل كلام سوى القرآن فالقرآن افضل منه في لفظه ومعناه ، وان احداً من الخلق لايقدر على الاتيان بكلام يساوي القرآن" وقال عن الثاني : "والمعنى انه يشبه بعضه بعضاً في الحسن والفصاحة ، ويصدق بعضه بعضا" وقال عن

---

(١) الجرجاني ، دلائل الاعجاز : ٦٢ – ٦٣ .

(٢) الجرجاني ، الرسالة الشافية : ١١٧ – ١١٨ .

الثالث : "ان اللفظ اما ان يكون نصا او ظاهرا او مجملا او مؤولا ، فالنص والظاهر يشتركان في حصول الترجيح ، الا ان النص راجح مانع من النقيض ، والظاهر راجح غير مانع من النقيض ، فالنص والظاهر يشتركان في حصول الترجيح ، فهذا القدر هو المسمى بالمحكم ، واما المجمل والمؤول فهما يشتركان في ان دلالة اللفظ غير راجحة ، الا ان المجمل لارجحان فيه بالنسبة الى كل واحد من الطرفين ، والمؤول فيه رجحان بالنسبة الى الطرف المشترك ، وهو عدم الرجحان بالنسبة اليه ، وهو المسمى بالمتشابه ، لان عدم الفهم حاصل فيه" [1] وهل ياترى يقول الرازي بوجود مالايفهم في القرآن ؟ لنر :

٢- يعقد الرازي فصلا خاصا عنوانه "في انه هل يجوز ان يحصل في كتاب الله – تعالى – مالاسبيل لنا الى العلم به "يذكر فيه رأيين ضدين ولكل منهما حججه ، وسنختصرها كما يأتي :

الرأي الاول : القائل بعدم جواز ورود شيء في القرآن لاسبيل الى فهمه ، ذكر الرازي ان هذا هو قول المتكلمين ، وذكر لهم حججا كثيرة من اهمها :

١- امر الناس بتدبر القرآن ، دون استثناء :افلا يتدبرون القرآن" ولو كان القرآن غير مفهوم فكيف نتدبره ؟

٢- وصف القرآن نفسه بانه هدى وتبيان لكل شيء وهو بلسان عربي مبين ، ونحو هذا ، فلايمكن بعد هذا ان يأتي في القرآن مالايفهم .

٣- انه لو ورد في القرآن شيء لاسبيل لنا الى العلم به لكانت تلك المخاطبة تجري مجرى مخاطبة العربية بالزنجية ، وهو غير جائز .

٤- المقصود من الكلام الافهام ولو لم يكن مفهوما لكان عبثا .

٥- ان التحدي وقع بالقرآن ، ومالم يكن معلوما لم يجز التحدي به .

الرأي الثاني : الجواز ، ونسبه الرازي الى الكثير من الفقهاء والمحدثين والصوفية وذكر ادلتهم ، ومن ابرزها :

١- قوله – تعالى – : "وما يعلم تأويله الا الله" حيث اختاروا الوقف هنا .

٢- الحروف المقطعة في اوائل السور التي لاسبيل لاحد لمعرفتها .

٣- قياس الاقوال على الافعال ، فكما ان الله امرنا بافعال منها ماندرك الحكمة منه ومنها مالاندرك كافعال الحج ، فاذا كان الامر كذلك في الافعال فلم لايجوز الامر كذلك في الاقوال ؟ وهو ان الذي انزل الله عليناوامرنا بتعظيمه وقرآنه ينقسم الى قسمين : منه مايعرف معناه ، ومنه مالانعرف ويكون المقصود من قراءته وتعظيمه ظهور كمال العبودية والانقياد لاوامر الله – تعالى –" .

والرازي هنا ينقل الرأيين وادلتهما دون ترجيح ويكتفي ان يختم قوله هذا بقوله

---

(١) الرازي ، اساس التقديس : ١٧٨ – ١٨٠ .

"وهذا ماعندي من كلام الفريقين في هذا الباب ، وبالله التوفيق" [1] .

لكن الذي يظهر لي ان الرازي يختار الاول للاسباب الآتية :

السبب الاول : ان الرازي من المتكلمين وشهرته في الكلام اكثر من شهرته في العلوم الاخرى ، ونسبته الرأي الاول للمتكلمين دون استثناء مشعر بنسبته اليه نفسه .

السبب الثاني : تفسيره للمتشابه بانه المجمل والمؤول - والذي مرّ معنا آنفا - يرجح اختياره للرأي الاول ، لان المجمل والمؤول ليس مما لاسبيل الى ادراكه وفهمه .

السبب الثالث : ضربه لامثلة من المتشابه في القرآن الكريم يعضد هذا ايضا فالذي مثل به من القرآن قوله - تعالى - : "والمطلقات يتربصن بانفسهن ثلاثة قروء" [2] . فهل المقصود بالقرء : الطهر او الحيض ، فهذا ليس مما لاسبيل الى معرفته ومثل ايضا بقوله - تعالى - : "واذا اردنا ان نهلك قرية امرنا مترفيها ففسقوا فيها" [3] قال : "فظاهر هذا الكلام انهم يؤمرون بان يفسقوا ، ومحكمه قوله - تعالى - : "ان الله لايأمر بالفحشاء" [4] .

هذه كلها تؤكد ان الرازي لايميل الى وجود آيات في القرآن الكريم لايمكن فهمها ابدا - والله اعلم - .

٣- توسع الرازي في ذكر الاثر المترتب على الاختلاف في تعيين المحكم من المتشابه ، وقد اصاب كبد الحقيقة بحيادية وموضوعية فقال : ان كل واحد من اصحاب المذاهب يدعى ان الآيات الموافقة لمذهب الخصم متشابهة ، فالمعتزلي يقول : ان قوله "فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر" [5] محكمة ، وقوله : "وما تشاؤون الا ان يشاء الله" [6] متشابهة ، والسني يقلب القضية" [7] .

هذا تسجيل منصف ودقيق ، وقد مرت معنا بعض الامثلة ، فعند الامام احمد - رحمه الله - اصبح قوله - تعالى - : "ليس كمثله شيء" من المتشابه ، ان هذا واحد من اخطر الاسباب التي ادت الى تباين المتكلمين في آرائهم وبعد الشقة فيما بينهم ، فهل من معصم لهذا ؟ يجيبك الرازي ، وننقل نص جوابه بطوله للفائدة الكبيرة منه في النقطة الآتية :

٤- يقول الرازي : "لابد ههنا من قانون اصلي يرجع اليه في هذا الباب ، فنقول :

---

(١) الرازي : اساس التقديس : ١٧٣ - ١٧٧ .

(٢) البقرة : ٢٢٨ .

(٣) الاسراء : ١٦ .

(٤) الرازي : اساس التقديس : ١٨٠ . والآية : ٢٨ من سورة الاعراف .

(٥) الكهف : ٢٩ .

(٦) التكوير : ٢٩ .

(٧) الرازي ، اساس التقديس : ١٨١ .

اذا كان لفظ الآية والخبر ظاهرا في معنى فانما يجوز لنا ترك ذلك الظاهر بدليل منفصل ، والا لخرج الكلام عن ان يكون مفيدا ، ولخرج القرآن عن ان يكون حجة ثم ذلك الدليل المنفصل اما ان يكون لفظيا او عقليا ، اما الاول : فنقول : هذا انما يتم اذا حصل من ذينك الدليلين اللفظيين تعارض ، واذا وقع التعارض بينهما فليس ترك احدهما لابقاء الآخر اولى من العكس ، اللهم الا ان يقال : احد الدليلين قاطع والاخر ظاهر فالقاطع راجح على الظاهر . او يقال : كل واحد منهما وان كان ظاهرا الا ان احدهما اقوى . الا انا نقول : اما الاول فباطل ، لان الدلائل اللفظية لاتكون قطعية ، لانها موقوفة على نقل اللغات ، ونقل وجوه النحو والتصريف ، وعلى عدم الاشتراك والمجاز والتخصيص والاضمار وعدم المعارض النقلي والعقلي ، وكل واحد من هذه المقدمات مظنونة ، والوقوف على المظنون اولى ان يكون مظنونا ، فثبت ان شيئا من الدلائل اللفظية لايمكن ان يكون قطعيا .

واما الثاني : هو ان يقال :احد الظاهرين اقوى من الآخر الا ان على هذا التقدير يصير ترك احد الظاهرين لتقرير الظاهر الثاني مقدمة ظنية ، والظنون لايجوز التعويل عليها في المسائل العقلية القطعية ، فثبت بما ذكرنا ان صرف اللفظ عن ظاهره الى معناه المرجوح لايجوز الا عند قيام الدليل القاطع على ان ظاهره محال ممتنع ، فاذا حصل هذا المعنى فعند ذلك يجب على المكلف ان يقطع بان مراد الله – تعالى – من هذا اللفظ ليس ماشعر به ظاهره ، ثم عند هذا المقام من جوّز التأويل عدل اليه ، ومن لم يجوزه فوض علمه الى الله – تعالى – وبالله التوفيق" [1] .

هذا هو قانون الرازي ، لكن هذا القانون اثار مشاكل جديدة بينه وبين اهل الظاهر ، اذ كيف لايمكن ان يكون النقل قاطعا في الدلالة ؟ وهذايشعر بتقديم العقل على النقل اصلا . فماذا يقول اهل الظاهر عن هذا ؟ ثم الذين يتفقون مع الرازي في هذا الاصل وهم المعتزلة هل عصمهم هذا القانون عن الاختلاف فيما بينهم ؟ انكر المعتزلة الرؤية في الاخرة لقطع العقل عندهم باستحالتها واولوا النصوص الواردة فيها ، ولم يقل الرازي بقولهم بل لم يرها مستحيلة عقلا ، وقد مر معنا قول الاشاعرة عموما في هذه المسألة .

والذي يبدو ان مسألة تأصيل قانون يعصم من الخلاف هذا لايمكن ، الا ان الذي يمكن هو ان نجتهد في معرفة الحق ، ويعذر بعضنا البعض في النتيجة ، ولن ينبني كبير خطر على الخلاف اذا حسن الظن واتسعت الصدور ، ولايكلف الله نفسا الا وسعها – والله اعلم – .

---

(١) الرازي : اساس التقديس : ١٨١-١٨٢ .

مسالة خلق القرآن :

وملخص رأي الاشاعرة هنا يتمثل في نقطتين :

الاولى : انهم وافقوا المعتزلة في ان حروف القرآن المتتالية مكتوبة كانت ام مقروءة هي حادثة مخلوقة ، يقول الجويني : "كلام الله - تعالى - مكتوب في المصاحف ، محفوظ في الصدور ، وليس حالافي مصحف ، ولاقائما بقلب ، والكتابة قد يعبر بها عن حركات الكاتب ، وقد يعبر بها عن الحروف المرسومة والاسطر المرقومة وكلها حوادث " [1].

وهذه النقطة انشبت معركة بين الاشاعرة والحنابلة - كما سيأتي كلام ابن تيمية - رحمه الله - يقول الجويني : "ذهبت الحشوية المنتمون الى الظاهر الى ان كلام الله - تعالى - قديم ازلي ، ثم زعموا انه حروف واصوات ، وقطعوا بأن المسموع من اصوات القراء ونغماتهم عين كلام الله - تعالى - ... ثم قالوا : اذا كتب كلام الله- تعالى - بجسم من الاجسام وانتظمت تلك الاجسام رسوما ورقوما واسطرا وكلاما ، فهي بأعيانها كلام الله - تعالي - القديم ... واصلهم ان الاصوات على تقطعها وتواليها ، كانت ثابتة في الازل ، قائمة بذات الباري ، تعالى الله عن قولهم علوا كبيرا" [2] .

الثانية : انهم خالفوا المعتزلة ، حيث اثبتوا الكلام النفسي ، وهو عندهم صفة قائمة بذات الله قديمة بقدمه ، يقول الجويني : "والكلام الذي يقضي اهل الحق بقدمه هو الكلام القائم بالنفس والمخالفون ينكرون اصله" [3] وكل مادار من صراع بين الاشاعرة والمعتزلة في هذه المسألة فليس محله الا هذا والخلاف في غيره ليس حقيقيا ، فحينما نقرأ مثلا : ان المعتزلة يقولون : القرآن مخلوق والاشاعرة يقولون : القرآن غير مخلوق ، فالموضوع هنا ليس واحدا لان المعتزلة يعنون بالقرآن : الحروف والاصوات ، والاشاعرة يعنون به الكلام النفسي واما الحروف والاصوات فهم قائلون بحدوثها ، والمعتزلة انكروا الكلام النفسي جملة ، يقول القاضي عبدالجبار : "واما الكلام على من قال : ان كلام الله معنى قائم بذاته ، فهو ان نقول ان هذا دخول منكم في كل جهالة ، لان الكلام الذي اثبتموه مما لايعقل ولاطريق اليه ، واثبات مالاطريق اليه يفتح باب كل جهالة ، ويوجب عليكم تجويز المحالات" [4] .

والاشاعرة لايعدمون الطريق الى اثبات الكلام النفسي ، يقول الجويني : "وان رددنا الى اطلاق اهل اللسان ، عرفنا قطعا ان العرب تطلق كلام النفس والقول الدائر في الخلد ، وتقول : كان في نفسي كلام ، وزورت في نفسي قولا ، واشتهار ذلك يغني عن الاستشهاد عليه بنثر لناثر او شعر لشاعر ، وقد قال الاخطل :

---

(١) الجويني ، الارشاد : ١٣٢ .

(٢) المصدر السابق : ١٢٨-١٢٩ .

(٣) المصدر السابق : ١١٧ .

(٤) القاضي عبدالجبار ، شرح الصول الخمسة : ٥٣٢ .

ان الكلام لفي الفؤاد وانما جعل اللسان على الفؤاد دليلا"[1]

وانظر الى القضية حينما تدخل مجال الحساسية والانفعال ، فالمعتزلة يتهمون الاشاعرة بأنهم جاءوا بالمستحيل او بما لاطريق اليه ، بينما الاشاعرة يقولون انهم لايحتاجون الى الاستشهاد لفرط وضوح القضية وبيانها !!!

ثم انظر كيف دخلت هذه القضية الغيبية التي لايمكن ان يصل اليها العقل ، والتي لايمكن تحقيق اي نتيجة عملية نافعة ، كيف دخلت الى جسد الامة فمزقته مزقا متصارعة ، وماالحاجة – لعمري – الى كل هذا ؟! وانظر الى القرآن من اوله الى آخره هل تعرض لهذه القضية بكلمة ؟ !!

ابن حزم :

منهج ابن حزم هنا لايضيف جديدا على ماتقدم ، غير اننا نود أن نعرض مذهبه في مسائل الخلاف التي مرت وهي :

١– مسألة "خلق القرآن" . وابن حزم هنا لايبعد عن مذهب الحنابلة كما سيأتي من عرضنا لرأي ابن تيمية في الموضوع ، فقد رد ابن حزم قول المعتزلة كما رد قول الاشاعرة ولم يرد على الحنابلة بشيء الا على القائلين منهم بقدم الصوت والخط ، كما سيأتي :

صور ابن حزم حقيقة الخلاف في هذه المسألة تصويرا واضحا فقال : "واختلفوا في كلام الله – عزوجل – بعد ان اجمع اهل الاسلام كلهم ان لله –تعالى – كلاما ، وعلى ان الله – تعالى – كلم موسى – عليه السلام – وكذلك سائر الكتب المنزلة كالتوراة والانجيل والزبور والصحف ، فكل هذا لااختلاف فيه بين احد من اهل الاسلام ، ثم قالت المعتزلة ان كلام الله – تعالى – صفة فعل مخلوق ، وقالوا : ان الله – عز وجل – كلم موسى بكلام احدثه في الشجرة ، وقال اهل السنة : ان كلام الله – عز وجل – هو علمه لم يزل وانه غير مخلوق ، وهو قول الامام احمد بن حنبل وغيره –رحمهم الله – وقالت الاشعرية : كلام الله – تعالى – صفة ذات لم تزل غير مخلوقة ، وهو غير الله – تعالى – وخلاف الله – تعالى – وهو غير علم الله – تعالى – وانه ليس لله – تعالى – الا كلام واحد"[2] . ثم يقول : "وقال قوم في اللفظ بالقرآن . ونسبوا الى اهل السنة انهم يقولون : ان الصوت غير مخلوق ، والخط غير مخلوق"[3] .

هذا التصوير لطبيعة الخلاف فيه شيء من الانصاف وفيه شيء من الاجحاف ، فقد صور نقطة الاتفاق بين اهل الاسلام بأمانة ، ففعلا كلهم متفقون على ان الله كلم

---

(١) الجويني ، الارشاد : ١٠٨ .

(٢) ابن حزم ، الفصل : ٣/٤–٥ .

(٣) المصدر السابق : ٣/٧ .

موسى تكليما ، فالله اذاً له كلام ، وهذه الحقيقة لم اجد من ينكرها ، بل ولايعقل ان مسلما يشك فيها ، وهي صريحة في كتاب الله ، واما الاجحاف وعدم الدقة في التصوير فقد تمثل في النقطتين الآتيتين :

الاولى : لقد صور مذهب الامام احمد واتباعه على انهم يقولون : كلام الله هو علم الله ، والمعروف ان هذا ليس قول احمد ولااهل السنة ، ولم اجد مايثبت هذا لهم ، او من ينسبه اليهم غير ابن حزم . بل المشهور ان الكلام عندهم صفة قائمة بالله غير العلم قديمة بقدمه . وسيأتي كلام ابن تيمية – رحمه الله – .

الثانية : مانسبه الى الاشاعرة بانهم يقولون : ان كلام الله هو غير الله ، ثم تشنيعه عليهم وتكفيره لهم ، هذا الكلام كله ليس دقيقا ، فالمعروف ان الاشاعرة يقولون : ان كلام الله صفة ذات له ، وهو من الصفات المعنوية كالحياة والقدرة والعلم ، وهذه الصفات كلها ليست هي الله ، لان الصفة لايصح ان تكون هي الذات ، وليست هي غير الذات لان الذات لاتنفك عن صفاتها اللازمة ، وقد تقدم رأي الاشاعرة في هذه الصفات عموما وفي صفة الكلام بصورة خاصة .

وبعد هذا فلنتعرف على رأيه في الموضوع ، فلقد فصل ابن حزم رأيه ايما تفصيل واطال في الشرح والتعليل ، وهاك خلاصة مذهبه من خلال تبيانه هو لما يصح ان يطلق عليه لفظ "كلام الله" ورأيه في كل معنى من هذه المعاني ، فالذي عنده ان "كلام الله" قد يطلق ويراد به خمسة معان" ثم نقول : ان قولنا "القرآن" وقولنا "كلام الله" لفظمشترك يعبر به عن خمسة اشياء" [1] فماهي هذه الخمسة لنر :

اولا : الصوت المسموع الملفوظ به ، فهذا عنده قرآن "فنسمي المسموع الملفوظ به قرآنا ، ونقول : انه كلام الله – تعالى – على الحقيقة ، وبرهان ذلك هو قول الله – عزوجل – : "وان احد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله" [2] ... فصح ان المسموع وهو الصوت الملفوظ به هو القرآن" [3] .

ثانيا : المفهوم من الصوت : "ويسمى المفهوم من ذلك الصوت قرآنا وكلام الله على الحقيقة ، فاذا فسرنا الزكاة المذكورة في القرآن والصلاة والحج وغير ذلك قلنا في كل هذا كلام الله وهو القرآن" [4] .

ثالثا : المصحف المكتوب : "ونسمي المصحف كله قرآنا وكلام الله ، وبرهاننا على ذلك قول الله – عز وجل – : "انه لقرآن كريم في كتاب مكنون" [5] ... وكتاب الله – تعالى

---

(١) ابن حزم ، الفصل : ٧/٣ .

(٢) التوبة : ٦ .

(٣) ابن حزم ، الفصل : ٧/٣ .

(٤) المصدر السابق : ٧/٣ .

(٥) الواقعة : ٧٧-٧٨ .

– هو القرآن باجماع الامة ... والقرآن كلام الله – تعالى – باجماع الامة ، فالمصحف كلام الله – تعالى – حقيقة لامجازا"[1] .

رابعا : المحفوظ في الصدور : ونسمي المستقر في الصدور قرآنا ، ونقول : انه كلام الله – تعالى – ... قال الله – تعالى – : "بل هو آيات بينات في صدور الذين اوتوا العلم"[2] ، فالذي في الصدور هو القرآن ، وهو كلام الله على الحقيقة لامجازا"[3] .

خامسا : صفة الله التي هي علمه : "ونقول ايضا : ان القرآن هو كلام الله – تعالى – "وهو علمه وليس شيئاً غير الباري – تعالى –"[4] .

"فهذه خمسة معان يعبر عن كل معنى منها بانه قرآن ، وانه كلام الله ، ويخبر عن كل واحد منها اخبارا صحيحا بانه القرآن وانه كلام الله – تعالى – بنص القرآن والسنة"[5] .

ولكن ماعلاقة هذا التقسيم الخماسي بمسألة "خلق القرآن" ؟ يجيبك ابن حزم بأن هذه الخمسة واحد منها ليس مخلوقا والباقي مخلوق ، فيقول "اسم القرآن يقع على خمسة اشياء وقوعا مستويا صحيحا ، منها اربعة مخلوقة وواحد غير مخلوق"[6] . والمخلوقة هي : الصوت والمعنى المفهوم منه والمصحف المكتوب والمحفوظ ، فهذه كلها مخلوقة ، والخامس غير مخلوق : وهو علمه – تعالى – . ويفصل ابن حزم كل هذا بتفصيل طويل ، فتراه يقول مثلا عن المعنى الاول : "اما الصوت فهو هواء مندفع من الحلق والصدر والحنك واللسان والاسنان والشفتين الى اذان السامعين ، وهو حروف الهجاء والهواء ، وحروف الهجاء والهواء كل ذلك مخلوق"[7] وهكذا يفصل في الثاني والثالث والرابع حتى يصل الخامس فيقول : "المعنى الخامس غير مخلوق" و "ولكن يقال : علم الله غير مخلوق"[8] .

ان هذه الخمسة ينبغي ان نستذكرها دائما ونحن نقرأ اراء المتكلمين المتباينة في هذه المسألة ، وقد يطلق كل فريق على خصمه الفاظ التضليل والتكفير ، والحقيقة ان خلافهما ليس بعيدا ، اذ قد يطلق فريق القول بخلق القرآن ومقصوده : الصوت والحبر ، ويطلق آخر القول بقدم القرآن وقصده : صفة الله القائمة به سواء كانت هذه الصفة هي العلم ، او الكلام النفسي ، وربما يكون كثير من الخلاف على هذه الشاكلة فليتأمل ...

---

(١) ابن حزم ، الفصل : ٣/٧-٨ .

(٢) العنكبوت : ٤٩ .

(٣) ابن حزم ، الفصل : ٣/٨ .

(٤) المصدر السابق : ٣/٨ .

(٥) المصدر السابق : ٣/٨ .

(٦) المصدر السابق : ٣/٩-١٠ .

(٧) المصدر السابق : ٣/٨ -٩ .

(٨) المصدر السابق : ٣/١٠ .

٢- مسالة اعجاز القرآن :

يوافق ابن حزم الجمهور في كثير مما يتعلق بمسألة الاعجاز القرآني ، غير انه يخالف في اهم نقطة فيه وهي "وجه الاعجاز" فالذي يجزم به ابن حزم انه لاوجه للاعجاز الا بالصرفة ، ويشنع على القائلين بغيرها ، وهذه قطع من كلامه :

"والنحو الرابع : ماوجه اعجازه ؟ فقالت طائفة : وجه اعجازه كونه في اعلى مراتب البلاغة ، وقالت طوائف انما وجه اعجازه : ان الله منع الخلق من القدرة على معارضته فقط ، فاما الطائفة التي قالت : انما اعجازه لانه في اعلى درج البلاغة فانهم شغبوا في ذلك بان ذكروا آيات منه مثل قوله – تعالى – : "ولكم في القصاص حياة" [١] ونحوهذا" . ثم يقول : "واما ذكرهم" ولكم في القصاص حياة وماكان نحوها من الآيات فلاحجة لهم فيها . ويقال لهم : ان كان كما تقولون ، ومعاذ الله من ذلك ، فانما المعجز منه على قولكم هذه الآيات خاصة ، واما سائره فلا، وهذا كفر لايقوله مسلم . فان قالوا : جميع القرآن مثل هذه الآيات في الاعجاز ، قيل لهم : فلم خصصتم بالذكر هذه الآيات دون غيرها اذاً ؟ وهل هذا منكم الا ايهام لاهل الجهل ان من القرآن معجزا وغير معجز ، ثم نقول لهم : قول الله – تعالى – : "واوحينا الى ابراهيم واسماعيل واسحاق ويعقوب والاسباط وعيسى وايوب ويونس وهارون وسليمان وآتينا داود زبورا" [٢] . أمعجز هو على شروطكم في كونه في اعلى درج البلاغة ام ليس معجزاً ؟ فان قالوا : ليس معجزا كفروا ، وان قالوا: انه معجز صدقوا ، وسئلوا هل على شروطكم في اعلى درج البلاغة ؟ فان قالوا : نعم ، كابروا ، وكفوا مؤنتهم ،لانها اسماء رجال فقط ، ليس على شروطهم في البلاغة" [٣]

وذهب ابن حزم بعيدا يوم ان نفى عن القرآن البلاغة المعروفة عند الناس ، فقال : "وان كنتم تريدون هل هو في اعلى درج البلاغة في كلام المخلوقين ؟ فلا، لانه ليس من نوع كلام المخلوقين ... وبرهان هذا : ان انسانا لو ادخل في رسالة له ، او خطبة ، او تأليف او موعظة حروف الهجاء المقطعة لكان خارجا عن البلاغة المعهودة جملة بلاشك ، فصح انه ليس من نوع بلاغة الناس اصلا ، وان الله – تعالى – منع الخلق من مثله" [٤] .

وخلاف ابن حزم هذا للجمهور يبدو انه له علاقة بظاهر الآية : "قل لئن اجتمعت الانس والجن على ان يأتوا بمثل هذا القرآن لايأتون بمثله" [٥] . حيث يفهمها ابن حزم على انها تشمل اقل شيء من القرآن ، فلايمكن ان يأتي الناس بكلمة واحدة مثل القرآن !! وهذا قاده الى موقف غريب اذ الكلمة والكلمتان لايمكن ان تظهر فيهما شروط

---

(١) البقرة : ١٧٩ .

(٢) النساء : ١٦٣ .

(٣) ابن حزم ، الفصل : ٣/١٧-١٨ .

(٤) المصدر السابق : ٣/١٨-١٩ .

(٥) الاسراء : ٨٨ .

الدرجة العليا من البلاغة ، وعلى هذا لايمكن ان تكون البلاغة هي وجه الاعجاز ، والجمهور لم يلتزم هذا بل اعتبروا ان التحدي ورد في كل القرآن ثم في عشر سور منه ثم في سورة واحدة ، والسورة الواحدة تحوي نظما ومعنى متكاملا فيصح ان تأتي بأعلى درجات البلاغة ، ولم يتحد القرآن الناس بكلمة ولابآية وانما اقل التحدي في سورة كاملة ، وهذا يبطل الشبهة التي اثارها في بعض الآيات كما تقدم قوله في اسماء الانبياء ....

يصور ابن حزم هذا كله فيقول : "قالت الاشعرية ومن وافقهم :ان المعجز انما هو مقدار اقل سورة منه وهو : انا اعطيناك الكوثر ، فصاعدا ، وان مادون ذلك ليس معجزا ، واحتجوا في ذلك بقوله – تعالى – : "فأتوا بسورة من مثله" قالوا: ولم يتحد – تعالى – باقل من ذلك ، وذهب سائر اهل الاسلام الى ان القرآن كله قليله وكثيره معجز ، وهذا هو الحق الذي لايجوز خلافه ، ولاحجة لهم في قوله – تعالى – فأتوا بسورة من مثله ، لانه – تعالى – لم يقل : ان مادون السورة ليس معجزا ، بل قال – تعالى – : "على ان يأتوا بمثل هذا القرآن" ، ولايختلف اثنان في ان كل شيء من القرآن قرآن ، فكل شيء من القرآن معجز" [١] .

هذه اهم آرائه في مسألة "خلق القرآن" و "الاعجاز" وكنت اود ان اعثر له على رأي متكامل في المسألة الثالثة "المحكم والمتشابه" فلم اعثر له على شيء .

ابن تيمية :

لايخرج ابن تيمية – رحمه الله – في الكثير من المسائل المتعلقة بهذا الموضوع عمن قبله لذا سنقصر كلامنا ايضافي نقاط الخلاف الساخنة "خلق القرآن" و "المحكم والمتشابه" و "اعجاز القرآن" وكما يأتي :

ا – مسالة خلق القرآن :

تحدث ابن تيمية كثيرا عن هذه المسألة ، وغالب حديثه رد على الفلاسفة والمعتزلة والاشاعرة ونحوهم ، والذي يهمنا هنا ان نعرض رأيه باختصار ومن خلال النقاط الآتية :

أ – يرى ابن تيمية ان صفة الكلام صفة كمال فينبغي ان يتصف الله بها : "فمن المعلوم ان الكلام صفة كمال ، كما ان العلم والقدرة والسمع والبصر صفة كمال ، وان المتكلم اكمل ممن لايتكلم ، كما ان الحي اكمل من الجماد ، ولهذا عاب الله الجمادات المعبودة بانها لاتتكلم ، كما ورد في قوله – تعالى – "افلا يرون الا يرجع اليهم قولا" [٢] ، وكذلك قول الخليل : مالكم لاتنطقون" [٣] .

---

(١) ابن حزم ، الفصل : ٣/١٩–٢٠ .

(٢) طه : ٨٩ .

(٣) ابن تيمية ، الصفدية : ٢/٦٦ ، والآية : ٩٢ من سورة الصافات .

ب – يرى ابن تيمية ان صفة الكلام لابد ان تكون مرتبطة بالارادة والقدرة ، فهي من متعلقات الارادة والقدرة عنده ، والتأكيد على هذا مهم عند ابن تيمية ليفصل مذهبه عن مذهب الاشاعرة القائلين بصفة الكلام اللازمة لله ، اي : الكلام النفسي ، يقول ابن تيمية : "من المعلوم ان من يتكلم بقدرته ومشيئته فهو اكمل ممن لايتكلم بمشيئته وقدرته ، بل يكون الكلام المعين لازما لذاته" [1] ومعنى كلامه هذا ان الله اذا شاء ان يتكلم تكلم واذا شاء ان لايتكلم فلايتكلم ، وهذا ماذكره صراحة وفسّر به مذهب ابن حنبل – رحمه الله – فقال : "فعلم ان قدمه عنده : انه لم يزل اذا شاء تكلم ، واذا شاء سكت ، لم يتجدد له وصف القدرة على الكلام التي هي صفة كمال ... وان كان الكمال هو ان يتكلم اذا شاء ويسكت اذا شاء" [2] والذي يقرأ هذا يتوهم ان ابن تيمية يقول بأن كلام الله مخلوق ، حيث جوّز على الله الكلام والسكوت فيسكت اذا شاء ويتكلم اذا شاء ، والكلام بعد السكوت حادث ، لكن ابن تيمية يصر على ان كلام الله قديم غير مخلوق ولنقرأ النقطة الآتية :

جـ – يرى ابن تيمية ان كلام الله قديم وان القرآن ليس بمخلوق ، ويعتقد ان هذا هو قول السلف ، وهذه حقيقة ظاهرة ، يقول ابن تيمية : "وكلام السلف والائمة في هذا الباب متناسب ، يصدق بعضه بعضا ، وهم اطلقوا القول بأن القرآن كلام الله غير مخلوق لما حدثت الجهمية والمعتزلة الذين كانوا يقولون : هو مخلوق" [3] .

وهذه النقطة تتعارض تعارضا ظاهرا مع السابقة ، اذ كيف يكون الكلام بعد السكوت ، ويكون هذا الكلام قديما غير حادث ؟!

ابن تيمية يجيبك عن هذا السؤال الحرج في النقطة الآتية :

د – يرى ابن تيمية ان من كلام الله مايمكن ان يكون حادثا لكن قدرته على الكلام كما يشاء قديمة ، فيقول : "والاطلاقات قد توهم خلاف المقصود ، فيقال : ان اردت بقولك : محدث انه مخلوق منفصل عن الله كما يقول الجهمية والمعتزلة والنجارية فهذا باطل لانقوله ، وان اردت بقولك : انه كلام تكلم الله به بمشيئته بعد ان لم يتكلم به بعينه وان كان قد تكلم بغيره قبل ذلك ، مع انه لم يزل متكلما اذا شاء فانا نقول بذلك ، وهو الذي دل عليه الكتاب والسنة ، وهو قول السلف واهل الحديث وانما ابتدع القول الاخر الكلابية والاشعرية" [4] .

ونخلص من كل هذا الى ان ابن تيمية لايقول بقدم القرآن الذي هو صوت وحروف ، فهذه حادثة بعد ان لم تكن او حادثة بعد السكوت ، وان المقصود بقدم كلام الله هو قدرته – تعالى – على ان يتكلم متى ماشاء فانه – تعالى – ليس بابكم ، لكنه متكلم من القدم .

(١) المصدر السابق : ٢/٦٦ .

(٢) ابن تيمية ، مجموع الفتاوى : ٦/١٦٠ .

(٣) ابن تيمية ، الصفدية : ٢/٦٦-٦٧ .

(٤) ابن تيمية ، مجموع الفتاوي : ٦/١٦١ .

فابن تيمية اذاً لايخالف المعتزلة والاشاعرة وابن حزم وغيرهم في ان الاصوات والحروف كلها حادثة وان القديم هو شيء آخر فعند المعتزلة وابن حزم هو علم الله ، وعند الاشاعرة هو الكلام النفسي ، وعند ابن تيمية هو : قدرته – تعالى – على الكلام وارادته المطلقة القديمة في انه يتكلم اذا شاء ويسكت اذا شاء ، ويبدو من كل هذا ان الخلاف في قضية "خلق القرآن" ليس خلافا كبيراً وربما يكون خلافا لفظيا ، الا انه هنالك مسائل مرتبطة بهذه المسألة قد تكون اكثر تعقيدا من اصل المسألة ، ومن هذا : ماذا يقصد ابن تيمية بان الله يتكلم اذا شاء ؟ ايخلق كلاما في غيره ؟ ام انه يتكلم هو فيكون الكلام الحادث قائما بذاته – تعالى – ؟ هذه المسألة لانريد ان نسترسل معها ، لكن الذي يبدو ان ابن تيمية لايمنع من قيام الحوادث به – سبحانه – ولذا هو يثبت النزول والاتيان ، والصعود فالصوت من باب اولى ولذا يقول : "ان الله يتكلم بصوت وانه ينادي بصوت ، كما دلت عليه النصوص"[1] .

٢- المحكم والمتشابه :

قد نستطيع ان نلخص رأي ابن تيمية في هذه المسألة في النقطتين الآتيتين :

أ – ان القرآن كله ظاهر وليس فيه مايخفى او مالايمكن ان يعلم بل ذهب ابعد من هذا فقال : "والله – تعالى – قد امرنا ان نتدبر القرآن ، واخبر انه انزله لنعقله ، ولايكون التدبر والعقل الا لكلام بيّن المتكلم مراده به ، فاما من تكلم بلفظ يحتمل معاني كثيرة ولم يبين مراده منها فهذا لايمكن ان يتدبر كلامه ولايعقل ، ولهذا تجد عامة الذين يزعمون ان كلام الله يحتمل وجوها كثيرة ، وانه لم يبين مراده من ذلك فقد اشتمل كلامهم من الباطل على مالايعلمه الا الله بل في كلامهم من الكذب .."[2] واذا كان الامر كذلك فماذا يقول ابن تيمية عن المتشابهات ؟ لنر النقطة الثانية :

ب – يقول ابن تيمية : "ولهذا كان قول من قال : ان المتشابه لايعلم تأويله الا الله حقا ، وقول من قال : ان الراسخين في العلم يعلمون تأويله حقا ، وكلا القولين مأثور عن السلف من الصاحبة والتابعين لهم باحسان . فالذين قالوا : انهم يعلمون تأويله ، مرادهم بذلك انهم يعلمون تفسيره ومعناه ، والا فهل يحل لمسلم ان يقول : ان النبي – صلى الله عليه وسلم – ماكان يعرف معنى مايقوله ويبلغه من الآيات والاحاديث ؟ بل كان تكلم بألفاظ لايعرف معانيها ؟ ومن قال : انهم لايعرفون تأويله ، ارادوا به الكيفية الثابتة التي اختص الله بعلمها ، ولهذا كان السلف كربيعة ومالك بن أنس وغيرهما يقولون : الاستواء معلوم والكيف مجهول"[3] ويقول في موضع آخر : "والآيات التي ذكر الله فيها انها متشابهات

---

(١) ابن تيمية : الصفدية : ٢/٦٨ .

(٢) ابن تيمية ، درء تعارض العقل والنقل : ١/٢٧٨-٢٧٩ .

(٣) ابن تيمية ، شرح حديث النزول : ٢١ .

لايعلم تأويلها الا الله ، انما نفى عن غيره علم تأويلها، لاعلم تفسيرها ومعناها"[1] والتأويل عند ابن تيمية هنا هو كنه الشيء وحقيقته ، وهذا هو الذي لايعلمه الا الله ، يقول ابن تيمية : "واما التأويل الذي اختص الله به فحقيقة ذاته وصفاته كما قال مالك : والكيف مجهول ، فاذا قالوا : ماحقيقة علمه وقدرته وسمعه وبصره ؟ قيل : هذا هو التأويل الذي لايعلمه الا الله" . ويقول ايضا : "واما الاخبار فتأويله عين الامر المخبر به اذا وقع ، ليس تأويله فهم معناه"[2] .

وهكذا يخلص ابن تيمية الى ان المتشابه لاعلاقة له بفهم المعنى وانما الذين يوغلون في الغيب لمحاولة معرفة الغيب على ماهو عليه حقيقة وكيفية هم الذين يتبعون المتشابه .

٣- اعجاز القرآن :

ينطلق ابن تيمية من آيات التحدي في القرآن شارحا ومفسرا ليصل الى حقيقة الاعجاز القرآني فتراه يعقب على آيات التحدي فيقول : "فنفس اخبار الرسول بهذا في اول الامر ، وقطعه بذلك مع علمه بكثرة الخلق ، دليل على انه كان خارقا يعجز الثقلين عن معارضته ، وهذا لايكون لغير الانبياء ، ثم مع طول الزمان قد سمعه الموافق والمخالف والعرب والعجم ، وليس في الامم من اظهر كتابا يقرأه الناس وقال : انه مثله ، وهذا يعرفه كل احد ، ومامن كلام تكلم به الناس ، وان كان في اعلى طبقات الكلام لفظا ومعنى الا وقد قال الناس نظيره ، ومايشبهه ويقاربه سواء كان شعرا او خطابة او كلاما في العلوم والحكمة والاستدلال والوعظ والرسائل وغير ذلك ... والقرآن مما يعلم الناس عربهم وعجمهم انه لم يوجد له نظير مع حرص العرب وغير العرب على معارضته"[3] .

اذاً القرآن تحدى ، والعرب كانوا حريصين على الاستجابة والمعارضة لكنهم عجزوا وهذا هو الاعجاز القرآني ، لكن ماالذي اعجزهم من القرآن ؟ او ماهي وجوه الاعجاز ؟ يجيبك ابن تيمية : "فلفظه آية ، ونظمه آية ، واخباره بالغيوب آية ، وامره ونهيه آية ووعده ووعيده آية وجلالته وعظمته وسلطانه على القلوب آية ، واذا ترجم بغير العربي كانت معانيه آية ، كل ذلك لايوجد له نظير في العالم"[4] . وهكذا يتوسع ابن تيمية في وجوه الاعجاز ، واضافته هنا نافعة في تحديد وجوه الاعجاز المناسبة لغير العرب ، وهذه مسألة حرجة في الاعجاز ، اختلف فيها النظار ، ولقد رأينا كيف ذهب البعض الى ان اعجاز غير العرب بأعجاز العرب بطريق الاولى ، لكن الحقيقة ان الجمع بين هذا وهذا هو الاولى – والله اعلم – .

---

(١) ابن تيمية ، الاكليل : ٣٥ .

(٢) المصدر السابق : ١٠ .

(٣) ابن تيمية ، النبوات : ١٨٨ .

(٤) المصدر السابق : ١٨٩ .

وابن تيمية لايرى القرآن دليلا على صدق رسول الله محمد – صلى الله عليه وسلم – فحسب بل هو معجزة لغيره من الانبياء الذين ذكرهم القرآن : "وما أتى به محمد من الآيات فهو دليل على اثبات جنس الانبياء مطلقا ، وعلى نبوة كل من سمي في القرآن" [1] .

ولايفوتنا هنا ان نذكر ان ابن تيمية لما وسع دائرة الاعجاز رآها من الممكن ان تضم غير القرآن ، فتراه يقول : "واما كون التوراة معجزة من حيث المعاني لما فيها من الاخبار عن الغيوب او الامر والنهي ، فهذا لاريب فيه ، ومما يدل على ان كتب الانبياء معجزة ان فيها الاخبار بنبوة محمد – صلى الله عليه وسلم – قبل ان يبعث بمدة طويلة" .

(١) المصدر السابق : ١٩٠ .

الباب الرابع

السّمعيات

الفصل الأول: اليوم الآخر

الفصل الثاني: العوالم الغيبية

الفصل الاول

المبحث الاول: اليوم الآخر في القرآن الكريم

المبحث الثاني: اليوم الآخر عند المتكلمين

المبحث الاول
اليوم الآخر في القرآن الكريم

الايمان باليوم الآخر هو حجر الزاوية في العقيدة الاسلامية ، ذاك لان الانسان بطبعه لايلزم نفسه بالطاعة الا ان تكون من ورائها دفع مفسدة ، او جلب مصلحة ، فالايمان بالله وبرسالاته لايؤدي ثمرته الا اذا كان هناك جزاء ينتظره الانسان ، ومن ثم كان الايمان باليوم الآخر له دور كبير في الزام الانسان بمنهج الله[1] ، ومن هنا جاء اهتمام القرآن باليوم الآخر اهتماما لايقل عن الاهتمام بالركنين السابقين "الالهيات" و "النبوات" ، ولنأخذ امثلة على هذا الاهتمام :

١- ذكر القرآن اليوم الآخر بما يصعب حصره ، فلقد جاء ذكر "الآخرة" في القرآن بنحو : "١١٤" مرة . واليوم الآخر بنحو "٢٦" مرة . اما اسماء اليوم الآخر الاخرى فهي كثيرة جدا وربما تأتينا شواهد منها بعد .

٢- في الغالب يأتي ذكر الايمان باليوم الاخر عقيب الايمان بالله دون فاصل ولنقرأ هذه الامثلة :

"ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر"[2] .

"ذلك يوعظ به من كان يؤمن بالله واليوم الآخر"[3] .

"انما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر"[4] .

"لايستأذنك الذين يؤمنون بالله واليوم الاخر ان يجاهدوا باموالهم وانفسهم والله عليم بالمتقين . انما يستأذنك الذين لايؤمنون بالله واليوم الاخر "[5] .

٣- الشمولية الواسعة التي حظي بها اليوم الآخر في القرآن الكريم ، فلقد بحث القرآن الموت والبعث والحشر والحساب والميزان والصحف والصراط والجنة والنار ، وكل

---

(١) وهذا يعني ان الايمان باليوم الاخر ضروري لسعادة الانسان في الحياة الدنيا ، لان الذي لا يؤمن بيوم الحساب والجزاء اي شئ سيمنعه من الظلم والافساد ؟ بل كيف سينظر الى حياته القصيرة هذه ولو ملأها بأسباب النعيم وهو يرى ان المسألة مسألة وقت ثم يتخطفه المجهول ؟!! يقول الدكتور عمر سليمان الاشقر : ان بعض الذين يرفضون فكرة الرجعة الى الحياة يبدءون بالنواح الحزين على حياتهم التي تتلاشى وتتناقص في كل لحظة تمضي ، وقد يسلمهم هذا الى العزلة والالم حتى يوافيهم الموت ، وان كانوا كتابا او شعراء فانهم يسجلون مشاعرهم الحزينة التي يندبون بها حياتهم في مقالات او كتب او اشعار تجسم شقوتهم وحيرتهم والمهم ..... وبعض الذين يكفرون بالبعث والنشور يسارعون الى اقتناص الملذات والشهوات كأنما هم في صراع مع الزمن يخشون ان تمضي ايامهم ولما يشبعوا من مباهج الحياة" اليوم الآخر : ٦/١ .

(٢) البقرة : ١١٧ .

(٣) البقرة : ٢٣٢ .

(٤) التوبة : ١٨ .

(٥) التوبة : ٤٤-٤٥ .

هذا بتفصيل دقيق لاسيما اذا كان الغرض الترغيب والترهيب ، وكل هذا سنمر عليه – ان شاء الله – .

هذا وسنعرض عقيدة اليوم اللاخر في القرآن الكريم بنقاط مختصرة لكنها جامعة –ان شاء الله – لاهم ماينبغي ان يعرفه المسلم في هذا الموضوع – وكما يأتي :

أ- ادلة وجود اليوم الاخر و مناقشة المنكرين :

يبدو ان القرآن استخدم دليل "الخلق" في اثبات اليوم الاخر ، فالله خلق الكون من العدم فماالمانع من ان يخلقه مرة ثانية والاعادة في عادة البشر اهون من الابتداء ، واذا كان الامر ممكنا ، والقران اخبر بوقوعه ، والقران هو المعجزة الظاهرة ، فعلام التكذيب ؟! استطيع ان اقول ان هذا هو الدليل الوحيد الذي استخدمه القرآن في اقناع منكري اليوم الاخر ، ولنقرأ بعض الامثلة من القرآن الكريم :

"وقالوا أإذا كنا عظاما ورفاتا أإنا لمبعوثون خلقا جديدا . قل كونوا حجارة او حديدا . او خلقا مما يكبر في صدوركم فسيقولون من يعيدنا قل الذي فطركم اول مرة فسينغضون اليك رؤوسهم ويقولون متى هو قل عسى ان يكون قريبا . يوم يدعوكم فتستجيبون بحمده وتظنون ان لبثتم الا قليلا" (١) .

"اولم ير الانسان انا خلقناه من نطفة فاذا هو خصيم مبين . وضرب لنا مثلا ونسي خلقه قال من يحيي العظام وهي رميم . قل يحييها الذي انشأها اول مرة وهو بكل خلق عليم . الذي جعل لكم من الشجر الاخضر ناراً فاذا انتم منه توقدون . أوليس الذي خلق السموات والارض بقادر على ان يخلق مثلهم بلى وهو الخلاق العليم . انما امره اذا اراد شيئا ان يقول له كن فيكون . فسبحان الذي بيده ملكوت كل شيء واليه ترجعون" (٢) .

ماذا يقول الانسان وهو يقرأ هذه الآيات ؟ واي ملجأ سيبقى لشاك او معاند ؟! لقد اخذ القرآن بيد الانسان وجعله يتلمس بنفسه الواقع المحسوس الذي يشهد ان الله على كل شيء قدير . وانه سيعيدنا كما بدأنا اول مرة – اللهم فاحسن عودتنا اليك – .

وربما استخدم القرآن دليلا قريبا من الاول ونستطيع ان نسميه "دليل الملك" فمن هو مالك السموات والارض والانسان ؟ فالمالك هو الذي يتصرف في ملكه كيف يشاء ، ولنقرأ هذا النص فقط :

"بل قالوا مثل ماقال الاولون . قالوا أإذا متنا وكنا ترابا وعظاما أإنا لمبعوثون . لقد وعدنا نحن وآباؤنا هذا من قبل ان هذا الا اساطير الاولين . قل لمن الارض ومن فيها ان كنتم تعلمون . سيقولون لله قل افلا تذكرون . قل من رب السموات السبع ورب العرش العظيم . سيقولون لله قل افلا تتقون . قل من بيده ملكوت كل شيء وهو يجير ولايجار عليه

---

(١) الاسراء : ٤٩-٥٢ .

(٢) يس : ٧٧-٨٣ .

ان كنتم تعلمون . سيقولون لله قل فانى تسحرون . بل آتيناهم بالحق وانهم لكاذبون" [(١)]

نعم فمن يقرأ هذا البيان ثم يصر على عناده انه لكاذب . وهؤلاء الكاذبون قد لاينفع معهم دليل ولابرهان ، انهم بحاجة الى من يهزهم من داخلهم فينفض عنهم غبار العناد والكذب[(٢)] ، وقد استخدم القرآن هذا كحلقة مكملة للدليل ، ذلك لان الله – تعالى – يعلم ان الدليل لوحده قد لايكفي لاخراج المكذّب من دائرته ، فجاء القرآن ليهزه بقوة ويجعله يفكر مع نفسه ، ولنقف عند هذا النص :

"وقالوا ان هذا الا سحر مبين . أإذا متنا وكنا ترابا وعظاما أإنا لمبعوثون . او آباؤنا الاولون . قل نعم وانتم داخرون . فانما هي زجرة واحدة فاذا هم ينظرون . وقالوا ياويلنا هذا يوم الدين . هذا يوم الفصل الذي كنتم به تكذبون . احشروا الذين ظلموا وازواجهم وماكانوا يعبدون . من دون الله فاهدوهم الى صراط الجحيم . وقفوهم انهم مسؤولون . مالكم لاتناصرون . بل هم اليوم مستسلمون" [(٣)] .

ب – **وصف اليوم الآخر بصورة اجمالية** : وسنأخذ هذا من خلال الاسماء التي منحها القرآن لليوم الآخر ، وهذه ابرز تلك الاسماء فلننظر فيها :

١– يوم الدين : "الحمد لله رب العالمين . الرحمن الرحيم . مالك يوم الدين" [(٤)] .

٢– يوم القيامة : "ويوم القيامة يردون الى اشد العذاب وماالله بغافل عما تعملون" [(٥)] .

---

(١) المؤمنون : ٨١–٩٠ .

(٢) والانسان لو قلب اوراقه من داخله لوجد الايمان باليوم الآخر في اعماق ضميره ، انظر كيف يصور الاستاذ سيد قطب – رحمه الله – تلك الحقيقة ، حيث كتب تحت عنوان "العالم الآخر في الضمير البشري" جاء فيه : "عمر الفرد على هذا الكوكب الارضي قصير ، وأيامه في هذا العالم الفاني محدودة ، ورغبة الفرد في ان يعيش رغبة فطرية ، وحاجاته على الارض لاتنقضي وآماله غير محدودة ، ولكنه يموت! يموت وفي نفسه حاجات ، ويترك على الارض آماله ، كما يترك من خلفه اعزاء يفجعه ان يفارقهم ، ويفجعهم ان يغيب ، فهلا كان لقاء بعد ذلك المغيب ؟! هذه واحدة . وينظر الانسان فيرى الخير والشر يصطرعان ، ويشهد معركة الرذيلة والفضيلة .. والشرعارم ، والرذيلة متبجحة ، وكثيرا ما ينتصر الشر على الخير وتعلو الرذيلة على الفضيلة ، والفرد – في عمره المحدود – لايشهد رد الفعل ، ولا يرى عواقب الخير والشر . فاما حين كان هذا الانسان طفلا ، او حين كان يحيا على شريعة الغاب ، فلا ضير في ذلك ولا ضرار ، انما الامر قوة ، والحياة للاغلب ! واما حين اخذ ضميره يستيقظ ، فقد عز عليه أن لاتكون للخير كرة . وان لايلقي الشر جزاءه ... وهذه ثانية . ثم ايكون مصير هذا الجنس الانساني الذي عمر الارض وصنع فيها ما صنع كمصير اية حشرة او دابة او زاحفة ؟! حياة قصيرة محدودة ، لايتم فيها شيء كامل ابدا ، ثم ينتهي كل شيء الى الابد ؟! لقد عزّ عليه ان يكون مصيره هو هذا المصير البائس المهين ..." مشاهد القيامة في القرآن /١١–١٢ .
فالانسان هنا لايحتاج حقيقة الى ادلة كثيرة ومتعاضدة لاثبات اليوم الآخر لان الحاجة الى الشيء تنبئ عن وجوده ، وهل هناك حاجة اكثر من هذه الحاجة التي صورها صاحب الظلال .

(٣) الصافات : ١٥–٢٦ .

(٤) الفاتحة : ١–٣ .

(٥) البقرة : ٨٥ .

٣- يوم الحسرة : "وانذرهم يوم الحسرة اذ قضي الامر" [١] .

٤- يوم البعث : "فهذا يوم البعث ولكنكم كنتم لاتعلمون" [٢] .

٥- يوم الفصل : "هذا يوم الفصل الذي كنتم به تكذبون" [٣] .

٦- يوم التلاق : "يلقى الروح من امره على من يشاء من عباده لينذر يوم التلاق" [٤] .

٧- يوم الآزفة : "وانذرهم يوم الآزفة اذ القلوب لدى الحناجر كاظمين ماللظالمين من حميم ولاشفيع يطاع" [٥] .

٨- يوم الحساب : "وقال موسى اني عذت بربي وربكم من كل متكبر لايؤمن بيوم الحساب" [٦] .

٩- يوم التناد : "وياقوم اني اخاف عليكم يوم التناد" [٧] .

١٠- يوم الجمع : "وتنذر يوم الجمع لاريب فيه فريق في الجنة وفريق في السعير" [٨]

١١- يوم الوعيد : "ونفخ في الصور ذلك يوم الوعيد" [٩] .

١٢- يوم الخلود : ادخلوها بسلام ذلك يوم الخلود" [١٠] .

١٣- يوم الخروج : "يوم يسمعون الصيحة بالحق ذلك يوم الخروج" [١١] .

١٤- الدار الآخرة :"قل ان كانت لكم الدار الآخرة عند الله خالصة من دون الناس فتمنوا الموت ان كنتم صادقين" [١٢] .

١٥- الآخرة : "وبالآخرة هم يوقنون" [١٣] .

١٦- الساعة : "حتى اذا جاءتهم الساعة بغتة قالوا ياحسرتنا على مافرطنا فيها" [١٤] .

---

(١) مريم : ٣٩ .

(٢) الروم : ٥٦ .

(٣) الصافات : ٢١ .

(٤) غافر : ١٥ .

(٥) غافر : ١٨ .

(٦) غافر : ٢٧ .

(٧) غافر : ٣٢ .

(٨) الشورى : ٧ .

(٩) ق : ٢٠ .

(١٠)ق : ٣٤ .

(١١)ق : ٤٢ .

(١٢)البقرة : ٩٤ .

(١٣)البقرة : ٤ .

(١٤)الانعام : ٣١ .

١٧- يوم التغابن : "يوم يجمعكم ليوم الجمع ذلك يوم التغابن" [١] .

١٨- الواقعة : "اذا وقعت الواقعة ليس لوقعتها كاذبة" [٢] .

١٩- الحاقة : "الحاقة ، ماالحاقة . ومماادراك ماالحاقة" [٣] .

٢٠- القارعة : "كذبت ثمود وعاد بالقارعة" [٤] و "القارعة . ماالقارعة . ومماادراك ماالقارعة . يوم يكون الناس كالفراش المبثوث" [٥] .

٢١- الطامة الكبرى : "فاذا جاءت الطامة الكبرى . يوم يتذكر الانسان ماسعى . وبرزت الجحيم لمن يرى" [٦] .

٢٢- الصاخة : "فاذا جاءت الصاخة . يوم يفر المرء من اخيه . وامه وابيه . وصاحبته وبنيه" [٧] .

٢٣- الغاشية : "هل اتاك حديث الغاشية . وجوه يومئذ خاشعة . عاملة ناصبة . تصلى نارا حامية" [٨] .

ماذا يريد القرآن من كل هذه الاسماء ؟ ان هذاالحشد ليس عبثا [٩] ان كل اسم من هذه الاسماء يفتح لنا نافذة على ذلك اليوم الآتي ، انها لقطات مصورة ، وكل لقطة تفعل فعلها في نفس هذا الكائن الضعيف "الانسان" ، انها تأخذه من تلابيبه لتوقفه على الصراط المستقيم صراط الله .

هذا في الاجمال !! فماذا لو تمعنّا في بعض التفاصيل ؟! لندخل في النقطة الآتية ولنر :

جـ - تفاصيل احداث اليوم الآخر :

يبدأ اليوم الآخر بالنسبة للانسان بالموت . اما الكون بما فيه ومن فيه فبقيام

---

(١) التغابن : ٩ .

(٢) الواقعة : ١-٢ .

(٣) الحاقة : ١-٣ .

(٤) الحاقة : ٤ .

(٥) القارعة : ١-٤ .

(٦) النازعات : ٣٤-٣٦ .

(٧) عبس : ٣٣-٣٦ .

(٨) الغاشية : ١-٤

(٩) ذكر الحافظ ابن حجر - رحمه الله - : ان بعض العلماء جمعوا اسماء اليوم الاخر فبلغت ثمانين اسما ، ثم يعقب ابن حجر بقوله : "ولو تتبع مثل هذا من القرآن زاد على ما ذكر" فتح الباري : ٣٩٦/١١ . ويقول القرطبي - رحمه الله - : "كل ما عظم شأنه تعددت صفاته وكثرت اسماؤه ، وهذا جميع كلام العرب ، الا ترى ان السيف لما عظم عندهم موضعه ، وتأكد نفعه لديهم وموقعه ، جمعوا له خمسمائة اسم ، وله نظائر ، فالقيامة لما عظم امرها ، وكثرت اهوالها ، سماها الله - تعالى - في كتابه باسماء عديدة ، ووصفها بأوصاف كثيرة" التذكرة :٢٤٣-٢٤٤ .

الساعة ، ثم تستمر الاحداث متتالية حتى الخلود الابدي في نعيم الجنة او في عذاب النار ، فلنتسلسل مع احداث اليوم الآخر :

ا - الموت : الموت ليس غيبا ، وانما هو حقيقة مشاهدة محسوسة ، وكل انسان يوقن انه سيموت ، والموت لايحتاج الى تفسير وبيان ، ولاينبغي ان نذهب عميقا في الفلسفات العميقة ، فنسأل ماالموت ؟ وماحقيقته ؟ فهذا يبعدنا عن الحقيقة ، فالحقيقة ان هذا الانسان الذي يتحرك ويكد ويلهج ويبني ويهدم ويأكل ويشرب تأتي عليه لحظة ينقلب الى قطعة هامدة فلاحركة ولاكلمة ولااي شيء ، ثم يتأذى اقرب الناس اليه بجثته الهامدة ، لقد اصبحت نتنا وجيفة لاتطاق ، فيتخلص اهله منه بأي طريق !! هذا هو الموت ، فهل يشك فيه انسان ؟ وهل الانسان بحاجة الى اكثر من هذا ؟ .

ذكر القرآن الموت ذكرا كثيرا ، ويكفي ان نعلم انه كرر لفظ "الموت" وماأشتق منها بنحو "١٦٥" مرة .

ومجرد تذكير الانسان بالموت مغزى يهدف اليه القرآن ، فالانسان ينسى وهو بحاجة الى من يذكره ، ينسى الموت فيشقى ويطغى ، لكنه اذاذكر الموت ربما اتعظ وادكر ، ولكن القرآن قد يذكر الموت لا للتذكير فحسب بل ربما يقرن معه غايات اخرى ولنأخذ هذه الامثلة :

"انا نحن نحيي ونميت والينا المصير" [١] "لا اله الا هو يحيي ويميت ربكم ورب ابائكم الاولين" [٢] وهنا جاء للتذكير بقدرة الله الفعال لما يريد .

"فلولا اذا بلغت الحلقوم . وانتم حينئذ تنظرون . ونحن اقرب اليه منكم ولكن لاتبصرون . فلولا ان كنتم غير مدينين . ترجعونها ان كنتم صادقين" [٣] "قل فادرءوا عن انفسكم الموت ان كنتم صادقين" [٤] . وهنا جاء لتقرير ضعف الانسان .

"ولو ترى اذ الظالمون في غمرات الموت والملئكة باسطوا ايديهم اخرجوا انفسكم اليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تقولون على الله غير الحق وكنتم عن آياته تستكبرون" [٥] . وهنا جاء نذيرا للطغاة والظالمين .

"حتى اذا حضر احدهم الموت قال اني تبت الان" [٦] . "حتى اذا جاء احدهم الموت قال رب ارجعون . لعلي اعمل صالحا فيما تركت" [٧] . وهنا جاء لبيان ندم الانسان

---

(١) ق : ٤٣ .
(٢) الدخان : ٨ .
(٣) الواقعة : ٨٣-٨٧ .
(٤) آل عمران : ١٦٨ .
(٥) الانعام : ٩٣ .
(٦) النساء : ١٨ .
(٧) المؤمنون : ٩٩ .

العاصي الغافل ساعة الموت .

"وما كان لنفس ان تموت الا بإذن الله كتابا مؤجلا" [1] . وهنا جاء ليثبت ان الموت مقدّر وله اجل محتوم . وتصور كم ستلقي هذه العقيدة في نفوس اتباعها من جلد وشجاعة واقدام ، حتى قال قائلهم :

اي يومين من الموت افر	يوم لايقدر ام يوم قـــدر
يوم لايقدر لاارهبـــه	ومن المقدور لاينجو الحذر

"كل نفس ذائقة الموت" [2] القرار العام الحاسم الذي لااستثناء فيه ، الانبياء ، الطغاة ، الملائكة والشياطين ، الاولين والآخرين ، يا له من قرار !!

لقد رأيت كيف ان القرآن لايتحدث عن الموت الا لما فيه خير الحياة !! ان كل الذي سمعناه ليقودنا الى الاداء الافضل في مهمتنا الكبيرة على هذه الارض .

٢- **القبر والبرزخ** : وهي المرحلة التي تأتي بعد الموت مباشرة وفيها يحجب جسد الميت ويحال بينه وبين الدنيا ، وهذا الحائل هو الذي يسمى "البرزخ" .

ولم يقف القرآن طويلا عند هذه المرحلة ، فكل ماذكره عن البرزخ "حتى اذا جاء احدهم الموت قال رب ارجعون . لعلي اعمل صالحا فيما تركت كلا انها كلمة هو قائلها ومن ورائهم برزخ الى يوم يبعثون" [3] . والآية توضح حقيقتين : الاولى : وجود مرحلة يقول فيها الانسان : رب ارجعون ، هي بعد الموت قبل البعث . والثانية ان بين هذه المرحلة والمرحلة الاولى برزخ "حاجز" [4] ومن اراد ان يكسر هذا الحاجز يقال له : كلا .

واما القبر ، فمع ان القرآن ذكره ثماني مرات بمشتقاته ، الا ان القرآن لم يذكر عنه لذاته شيئا جديدا ، فمثلا يقول القرآن : "ثم السبيل يسره ثم اماته فاقبره" [5] ، وهذا معلوم فالميت يقبر ، لكن الله اراد التذكير بقدرته – سبحانه – وضعف عبده . ويقول ايضا : "وان الله يبعث من في القبور" [6] ، فهذا الكلام عن البعث اكثر مما هو عن القبر ، ونحو هذا قوله – تعالى – "واذا القبور بعثرت . علمت نفس ماقدمت واخرت" [7] . و "افلا يعلم اذا بعثر مافي القبور وحصل مافي الصدور" [8] .

(١) آل عمران : ١٤٥ .

(٢) آل عمران : ١٨٥ .

(٣) المؤمنون : ٩٩-١٠٠ .

(٤) جاء في مختار الصحاح : "البرزخ : الحاجز بين الشيئين ، وهو ايضا مابين الدنيا والآخرة ، من وقت الموت الى البعث فمن مات فقد دخل البرزخ" مختار الصحاح : ٤٨ .

(٥) عبس : ٢١ .

(٦) الحج : ٧ .

(٧) الانفطار : ٤ .

(٨) العاديات ٩-١٠ .

والمقصود ان القرآن لم يحدثنا عن تلك المرحلة ، طبيعتها وطبيعة الانسان فيها ، وعمرها ، لم اجد في القرآن من هذا شيئا ، نعم ربما هناك اشارات كما في قوله – تعالى – : "النار يعرضون عليها غدوا وعشيا ويوم تقوم الساعة ادخلوا آل فرعون اشد العذاب"[١] فالعرض اذا كان قبل قيام الساعة فهو في عالم البرزخ – والله اعلم – لكن تبقى الحقيقة ان الله لم يفصل لنا تلك المرحلة ، ولم يطلعنا على جوانبها ، فلماذا ؟! الله وحده هو الذي يعلم . ولكن اذا كان المقصود بذكر اليوم الآخر اساسا هو الاعداد ليوم الحساب ترغيبا وترهيبا فان تفصيل القرآن للجنة وما فيها والنار وما فيها مع التأكيد بأن الانسان بعد موته لايمكن ان يرجع الى الدنيا فبينه وبينها برزخ ، هذا يكفي لمن كان له لب – والله اعلم – .

٣- **اشراط الساعة** : الساعة حكم الله عليها بان لاتأتي الا بغتة فقال : "يسألونك عن الساعة ايان مرساها قل انما علمها عند ربي لايجليها لوقتها الا هو ثقلت في السموات والارض لاتأتيكم الا بغتة"[٢] ومع هذا فان الله – تعالى – برحمته قد جعل لها شرائط وعلامات ، قال – سبحانه – : "فهل ينظرون الا الساعة ان تأتيهم بغتة فقد جاء اشراطها"[٣] ، فماهي اشراط الساعة ؟ ابرز ماذكره القرآن من شرائط للساعة مايأتي :[٤]

اولا : ظهور عيسى بن مريم – عليه السلام – لقوله – تعالى – : "وانه لعلم للساعة فلاتمترن بها واتبعون"[٥] و "وان من اهل الكتاب الا ليؤمنن به قبل موته ويوم القيامة يكون عليهم شهيدا"[٦] .

ثانيا : خروج يأجوج ومأجوج ، قال – تعالى – : "حتى اذا فتحت يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون . واقترب الوعد الحق فاذا هي شاخصة ابصار الذين كفروا"[٧] .

---

(١) غافر : ٤٦ .

(٢) الاعراف : ١٨٧ .

(٣) محمد : ١٨ .

(٤) ولقد فصلت السنة المطهرة اشراط الساعة اكثر ، ولنأخذ هذا الحديث فقط : عن حذيفة بن اسيد الغفاري قال اطلع النبي – صلى الله عليه وسلم – علينا ونحن نتذاكر ، فقال : ما تذاكرون ؟ قالوا : نذكر الساعة ، قال : انها لن تقوم حتى ترون قبلها عشر آيات ، فذكر الدخان ، والدجال ، والدابة ، وطلوع الشمس من مغربها ، ونزول عيسى بن مريم – صلى الله عليه وسلم – ويأجوج ومأجوج ، وثلاثة خسوف خسف بالمشرق ، وخسف بالمغرب ، وخسف بجزيرة العرب ، وآخر ذلك نار تخرج من اليمن تطرد الناس الى محشرهم" صحيح مسلم بشرح النووي : ١٨/٢٧-٢٨ .

(٥) الزخرف : ٦١ .

(٦) النساء : ١٥٩ .

(٧) الانبياء : ٩٦ –٩٧ .

ثالثا : ظهور دابة الارض تكلم الناس : و "اذا وقع القول عليهم اخرجنا لهم دابة من الارض تكلمهم ان الناس كانوا بآياتنا لايوقنون" [١] .

رابعا : يشير القرآن في معرض تشبيهه للحياة الدنيا الى علامة من علامات خرابها فيقول : "انما مثل الحياة الدنيا كماء انزلناه من السماء فاختلط به نبات الارض مما يأكل الناس والانعام حتى اذا اخذت الارض زخرفها وازينت وظن اهلها انهم قادرون عليها اتاها امرنا ليلا او نهارا فجعلناها حصيدا كأن لم تغن بالامس كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون" [٢] .

هذه العلامات يمر عليها القرآن سريعا ، لكنها تكفي اولي الالباب ، فالاولى واضحة في ان عيسى – عليه السلام – هو من اشراط الساعة ، لكن اين هو الان ، وماذا يفعل ، وكيف سيأتي ، وماذا سيفعل بعد مجيئه ، كل هذا لم يفصله القرآن ، الا اللهم ماجاء في نفي قتله وصلبه وان الله رفعه اليه : "وماقتلوه يقينا . بل رفعه الله اليه" [٣] .

الا ان السنة فصلت بعض الشيء ، ومن هذا قوله – عليه الصلاة والسلام – : "والذي نفسي بيده ليوشكن ان ينزل فيكم ابن مريم – صلى الله عليه وسلم – حكما مقسطا فيكسر الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية ويفيض المال حتى لايقبله احد" [٤] ، والحديث مصرح بنزوله ، وانه سيكون خليفة للمسلمين يحكم بينهم بالقسط ، اللهم فعجل فرجنا به .

واما الثانية فالقرآن لم يصف لنا هؤلاء القوم الا في قوله – تعالى – : "حتى اذا بلغ بين السدين وجد من دونهما قوما لايكادون يفقهون قولا . قالوا ياذا القرنين ان يأجوج ومأجوج مفسدون في الارض فهل نجعل لك خرجا على ان تجعل بيننا وبينهم سدا . قال مامكني فيه ربي خير فاعينوني بقوة اجعل بينكم وبينهم ردما . آتوني زبر الحديد حتى اذا ساوى بين الصدفين قال انفخوا حتى اذا جعله نارا قال اتوني افرغ عليه قطرا . فمااسطاعوا ان يظهروه ومااستطاعوا له نقبا . قال هذا رحمة من ربي فاذا جاء وعد ربي جعله دكاء وكان وعد ربي حقا . وتركنا بعضهم يومئذ يموج في بعض ونفخ في الصور فجمعناهم جمعا" [٥] هذه الايات تشير الى حقائق كثيرة ، فيأجوج ومأجوج اقوام عريقة ، وهم جاهلون مفسدون ، وان ذا القرنين جعل امامهم سدا ، وان هذا السد سيدك يوما ما ليموج البعض في البعض ايذانا بقرب الوعد الحق ، وهذا يغني ، ولكن يبقى التساؤل الطبيعي :اين هم الآن ؟ واي شعب يمثلون ؟ وهل هناك سد

---

(١) النمل : ٨٢ .

(٢) يونس : ٢٤ .

(٣) النساء : ١٥٧–١٥٨ .

(٤) مسلم ، صحيح مسلم بشرح النووي : ٢/١٨٩–١٩٠ .

(٥) الكهف : ٩٣–٩٩ .

الآن يحول دون شعب من شعوب الارض ؟ هذه الاسئلة لايمكن الاجابة عنها ابدا لانه غيب محض ، والغيب لايعلمه الا الله ، ولم يأت عن الله مايجيب ، والسكوت اسلم واحكم .

واما الثالثة : فلم اجد القرآن يحدثنا بشيء اكثر من الأية التي مرت ، ولم اجد في الصحاح مايضيف على مافي القرآن ، الا ان الطبري وابن كثير قد اخرجا عددا كبيرا من الروايات في وصف هذه الدابة نختار منها هاتين الروايتين : الاولى : قال ابن جرير : "حدثنا عصام بن رواد بن الجراح ، قال : ثنا ابي ، قال ثنا سفيان بن سعيد الثوري ، قال : ثنا منصور بن المعتمر ، عن ربعي بن حراش ، قال سمعت حذيفة بن اليمان يقول : قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : "يقول – وذكر الدابة – فقال حذيفة : قلت يارسول الله ، من اين تخرج ؟ قال : من اعظم المساجد حرمة على الله ، بينما عيسى يطوف بالبيت ومعه المسلمون ، اذ تضطرب الارض تحتهم ، تحرك القنديل ، وينشق الصفا مما يلي المسعى ، وتخرج الدابة من الصفا ، اول مايبدو رأسها ملمعة ذات وبر وريش ، لم يدركها طالب ، ولن يفوتها هارب ، تسم الناس مؤمن وكافر ، اما المؤمن فتترك وجهه كانه كوكب دري ، وتكتب بين عينيه مؤمن ، واما الكافر فتنكت بين عينيه نكتة سوداء كافر" [1] والثانية قال ابن كثير : قال ابو داود الطيالسي : حدثنا حماد بن سلمة عن علي إبن زيد ، عن اويس بن خالد ، عن ابي هريرة –رضي الله عنه – قال : قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – تخرج دابة الارض ومعها عصا موسى ، وخاتم سليمان – عليهما السلام – فتخطم انف الكافر بالعصا ، وتجلي وجه المؤمن بالخاتم ، حتى يجتمع الناس على الخوان ، يعرف المؤمن من الكافر" [2] .

واما الرابعة : فهي وان كانت اشارة الا انها اشارة واضحة بينة ، لاتحتاج الى شرح او بيان ، وكأن الواقع الان يسقط تماما على هذه الآية او الآية تسقط عليه ، فلقد اخذت الارض زخرفها وازينت وظن اهلها انهم قادرون عليها !! – نسأل الله السلامة – ولقد جاء عن السنة مايؤكد هذه الاشارة ، فقد صح عن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – انه قال : "لاتقوم الساعة حتى يكثر المال ويفيض ، حتى يخرج الرجل بزكاة ماله فلايجد احدا يقبلها ، وحتى تعود ارض العرب مروجا وانهارا" [3] . ومنه ايضا حديث جبريل المعروف وفيه : "وان ترى الحفاة العراة العالة رعاء الشاء يتطاولون في البنيان" [4]

وينبغي ان لاننسى ان الحديث عن اشراط الساعة لاتنحصر فائدته في معرفة قرب وقوعها ، وانما في صدق الرسالة الخاتمة اذ ستضيف دليلا جديداً الى الادلة

(١) ابن جرير الطبري ، التفسير : ١٥/٢٠ . وقد ذكر روايات كثيرة عن الصحابة – رضي الله عنهم – تؤكد خروج الدابة من الصفا .

(٢) ابن كثير ، التفسير : ٣٦٣/٣ .

(٣) رواه مسلم ، صحيح مسلم بشرح النووي : ٩٧/٧ .

(٤) رواه مسلم ، صحيح مسلم بشرح النووي : ١٥٨/١ . ورواه البخاري وغيره بألفاظ متقاربة انظر : المعجم المفهرس لالفاظ الحديث النبوي : ٢٧٤/٢ .

المتقدمة ، ربما يكون الناس بحاجته اكثر يوم ان تموج الفتن ، وتضطرب العقول ، وينسى اهل البيان بيانهم ، فلايعودون يدركون اعجاز القرآن البياني - والله اعلم - .

٤ - **الساعة** : هي نهاية الدنيا ، هي الانقلاب الكبير الذي لايفلت منه اي كائن ، هي الخراب الهائل الذي سيعم الكون . وقد تحدّث القرآن عن هذا اليوم من جوانب مهمة وكالآتي :

الجانب الاول : التأكيد على حتمية وقوعها وانه لايفلت منها احد ايا كان الا ماشاء الله - ولنقرأ :

"ان الساعة لآتية لاريب فيها ولكن اكثر الناس لايؤمنون" [١]

"ليعلموا ان وعدالله حق وان الساعة لاريب فيها" [٢]

"الله الذي انزل الكتاب بالحق والميزان ومايدريك لعل الساعة قريب . يستعجل بها الذين لايؤمنون بها والذين آمنوا مشفقون منها ويعلمون انها الحق الا ان الذين يمارون في الساعة لفي ضلال بعيد" [٣] .

"وقال الذين كفروا لاتأتينا الساعة قل بلى وربي لتأتينكم" [٤] .

"ونفخ في الصور فصعق من في السموات ومن في الارض الا من شاء الله" [٥] .

الجانب الثاني : التأكيد على انها لايعلم بوقتها الا الله وانها لاتأتي الا بغتة :

"يسألك الناس عن الساعة قل انما علمها عند الله" [٦] .

"يسألونك عن الساعة ايان مرساها قل انما علمها عند ربي لايجليها لوقتها الا هو ثقلت في السموات والارض لاتأتيكم الا بغتة يسألونك كأنك حفي عنها قل انما علمها عند الله ولكن اكثر الناس لايعلمون" [٧] .

"حتى اذا جاءتهم الساعة بغتة قالوا ياحسرتنا على مافرطنا فيها" [٨] .

---

(١) غافر : ٥٩ .

(٢) الكهف : ٢١ .

(٣) الشورى : ١٧-١٨ . وفي هذه الآية اشارة الى قرب وقوع الساعة ، ولا شك ان هذا المعنى مقصود لذاته من السياق ، والحكمة منه واضحة ، لكن مامعنى هذا القرب ؟ الذي يؤكده القرآن اكثر من مرة :"اقترب للناس حسابهم" الانبياء /١ . و : "اقتربت الساعة" القمر/١ . يقول صاحب الظلال : والزمان في الحساب الالهي غيره في حساب البشر ، فقد تمر بين اقتراب الساعة ووقوعها ملايين السنين او القرون ، يراها البشر طويلة مديدة ، وهي عند الله ومضة قصيرة" في ظلال القرآن : ٢٢٩٤/٤ .

(٤) سبأ : ٣ .

(٥) الزمر : ٦٨ .

(٦) الاحزاب : ٦٣ .

(٧) الاعراف ١٨٧ .

(٨) الانعام : ٣١ .

نلاحظ في هذين الجانبين التكامل المقصود الذي يدفع الانسان نحو العمل الافضل ، واعمار الارض بمنهج الله ، فالاعلان عن حتمية وقوع القيامة وقربها يدفع الانسان للخوف من المجهول او من الحساب ، لكن هذا الخوف قد يتأجل اذا علم الانسان بيوم وقوع القيامة ، ولذا فجهالة الانسان بالموعد ، مع علمه بحتمية الوقوع كلاهما – اي الجهل والعلم – يقودان الانسان الى الخوف المستمر للاداء الاحسن . وهذا يؤكد حقيقة ان عقيدة القرآن عقيدة عملية هادفة .

الجانب الثالث : انها تبدأ بالنفخة ، ولنقرأ ماقال القرآن عن نفخة الساعة :

"فاذا نفخ في الصور نفخة واحدة وحملت الارض والجبال فدكتا دكة واحدة فيومئذ وقعت الواقعة وانشقت السماء فهي يومئذ واهية" [١]

"ونفخ في الصور فصعق من في السموات ومن في الارض الا من شاء الله" [٢]

ولكن القرآن لايعطينا تفصيلا عن هذا الصور وذاك النفخ لكن الظاهر انه صوت الدمار او جرس النهاية ، وحسبه في النفس واضح وان لم يتخيله الدماغ !!

الجانب الرابع : وصف اليوم الذي هو نهاية الايام : وقد اكثر القرآن من هذا وحشد المئات من آياته لتكوّن صورة رهيبة لذلك اليوم ، وحسبنا ان نضع اكفنا على قلوبنا ونرتل في خشوع :

"انما توعدون لواقع ، فاذا النجوم طمست . واذا السماء فرجت . واذا الجبال نسفت" [٣] .

"اذا الشمس كورت . واذا النجوم انكدرت . واذا الجبال سيرت . واذا العشار عطلت . واذا الوحوش حشرت . واذا البحار سجّرت" [٤] .

"اذا السماء انفطرت . واذا الكواكب انتثرت. واذا البحار فجرت" [٥] .

"اذا وقعت الواقعة . ليس لوقعتها كاذبة . خافضة رافعة . اذا رجت الارض رجا . وبست الجبال بسا . فكانت هباء منبثا" [٦] .

"انا جعلنا ماعلى الارض زينة لها لنبلوهم ايهم احسن عملا . وانا لجاعلون ما عليها صعيدا جرزا" [٧] .

"يا ايها الناس اتقو ربكم ان زلزلة الساعة شيء عظيم . يوم ترونها تذهل كل

---

(١) الحاقة : ١٣-١٦ .

(٢) الزمر : ٦٨ .

(٣) المرسلات : ٧-١٠ .

(٤) التكوير : ١-٦ .

(٥) الانفطار : ١-٣ .

(٦) الواقعة : ١-٦ .

(٧) الكهف : ٧-٨ .

مرضعة عما ارضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وماهم بسكارى ولكن عذاب الله شديد"[1] .

"ويقولون متى هذا الوعد ان كنتم صادقين . ماينظرون الا صيحة واحدة تأخذهم وهم يخصمون . فلا يستطيعون توصية ولا الى اهلهم يرجعون"[2] .

هذه الصور لاتحتاج الى تفسير وتبيين ، انها شاخصة واضحة ، انها لاتحتاج الا الى التأمل والتدبر لتفعل فعلها في النفس والضمير ، فماذا يحس من تأمل هذه المقاطع وهذه الآيات ؟! لقد تأملها صاحب الظلال فماذا وجد ؟ لنستمع اليه وهو يحدثنا اولا عن آيات الحاقة : "الآن وقد استعد الحس البشري المحدود لتصور هول الحاقة غير المحدود، الان وقد تهيأ الحس باستعراض هذه الصور المروعة الطاغية الرابية الغامرة ، فقد آن الاوان لاستكمال العروض وتهيأ للوثبة الكبرى : "فاذا نفخ في الصور ... "فماذا نرى ؟! نرى نوعا من التناسق الفني العجيب بين الحاقة والقارعة والطاغية والعاتية والرابية والدكة الواحدة والواقعة ، تناسق اللفظ والجرس ، وتناسق المناظر التي تخيل للحس انها جميعا ثائرة طاغية غامرة ، تذرع الحس طولا وعرضا ، وتملؤه هولا وروعا ، وتهزه من اعماقه هزا ، ولن يجد مصور بارع اتساقا اعظم من اتساق الصيحة العالية الطاغية والريح الصرصر العاتية والاخذة القوية الرابية ... والنفخة الهائلة الواحدة ، والدكة المحطمة المفردة ، وبين الواقعة والسماء المنشقة الواهية ، انها كلها من لون واحد ، وحجم واحد ، ونغمة واحدة ، وكلها تؤلف اللوحة الكبرى ، وترسم الجو العام الذي اراده القرآن"[3] .

ثم لننتقل معه الى لوحة ثانية يرسمها وهو يتأمل الآيات الاول من سورة الانفطار : "عودة الى مشاهد الطبيعة الهائلة المنقلبة في اليوم العظيم ، السماء منفطرة منشقة ، والكواكب مبعثرة منتثرة ، والبحار فائضة متفجرة ، والقبور منبوشة مبعثرة ، هول في السماء والارض ، وحركة عنيفة في الطبيعة ، فاذا افعم الحس ، وتفتحت منافذ النفس ، اخذ السياق في ايقاظ الوجدان للاتعاظ والاعتبار : يا ايها الانسان ماغرك بربك الكريم"[4] .

٥- **البعث** : وهو الاحياء بعد الموت : وقد مر معنا كيف ناقش القرآن منكري البعث ، ولذا يكفي هنا ان نعلم ان عدد المرات التي كرر فيها القرآن لفظ "البعث" الذي هو الاحياء للحساب ومشتقاته هو "٣١" مرة ، عدا بقية الآيات التي جاءت باسم "يوم الخروج" مثلا او غيره . ولنتمعن الآن في بعض تلك الآيات :"زعم الذين كفروا ان لن

---

(١) الحج : ١-٢ .

(٢) يس : ٤٩-٥٠ .

(٣) سيد قطب ، مشاهد القيامة في القرآن : ١٨٢ .

(٤) المصدر السابق : ١٩٤ .

يبعثوا قل بلى وربي لتبعثن ثم لتنبؤن بما علمتم وذلك على الله يسير" [١] .

"والموتى يبعثم الله ثم اليه يرجعون" [٢] .

"وان الساعة آتية لاريب فيها وان الله يبعث من في القبور" [٣] .

"ما خلقكم ولابعثكم الا كنفس واحدة" [٤] .

غير ان الذي ينبغي التنبيه عليه هو ان البعث ايضا يكون بالنفخ ، فالنفخ اعلان الموت الجماعي والنفخ اعلان الحياة الجماعية من جديد ، فهناك اذاً نفختان . ولنقرأ :

"ونفخ في الصور فصعق من في السموات ومن في الارض الا من شاء الله ثم نفخ فيه اخرى فاذا هم قيام ينظرون" [٥] .

"ماينظرون الا صيحة واحدة تأخذهم وهم يخصمون . فلايستطيعون توصية ولاالى اهلهم يرجعون . ونفخ في الصور فاذا هم من الاجداث الى ربهم ينسلون . قالوا ياويلنا من بعثنا من مرقدنا هذا ماوعد الرحمن وصدق المرسلون" [٦] .

وهكذا ربما يكون الفزع في البعث اشد من الفزع الاول لانه يوم الحسرة والندم العريض وانظر كيف صور القرآن حالة الانسان الخائف الوجل في تلك اللحظات "يوم يخرجون من الاجداث سراعا كأنهم الى نصب يوفضون . خاشعة ابصارهم ترهقهم ذلة ذلك اليوم الذي كانوا يوعدون" [٧] .

٦- **الحشر والجمع** : فبعد البعث تحشر الخلائق وتجمع في مكان واحد ، وهو موقف ارهب من الرهب واشد من الشدة ، ولننظر في هذه الآيات الكاشفة عما يجري في ذلك اليوم :

"ويوم نسير الجبال وترى الارض بارزة وحشرناهم فلم نغادر منهم احدا . وعرضوا على ربك صفا لقد جئتمونا كما خلقناكم اول مرة بل زعمتم ان لن نجعل لكم موعدا" [٨] .

"وبرزوا لله جميعا فقال الضعفاء للذين استكبروا انا كنا لكم تبعا فهل انتم مغنون عنا من عذاب الله من شيء قالوا لو هدانا الله لهديناكم سواء علينا اجزعنا ام صبرنا

---

(١) التغابن : ٧ .

(٢) الانعام : ٣٦ .

(٣) الحج : ٧ .

(٤) لقمان : ٢٨ .

(٥) الزمر : ٦٨ .

(٦) يس : ٤٩-٥٢ .

(٧) المعارج : ٤٣-٤٤ .

(٨) الكهف : ٤٧-٤٨ .

مالنا من محيص"[1] .

"فوربك لنحشرنهم والشياطين ثم لنحضرنهم حول جهنم جثيا" [2] .

"يوم نحشر المتقين الى الرحمن وفدا" [3] .

"ربنا انك جامع الناس ليوم لاريب فيه ان الله لايخلف الميعاد" [4] .

٧- **الحساب والميزان والصحف** ، وكلها تعبر عن قضية واحدة : هي الحساب العادل بوزن اعمال الانسان التي ارتكبها في الدنيا والمسجلة عليه في الصحف ، ولنقرأ وصف القرآن لهذه الحقيقة الرهيبة :

"يوم تجد كل نفس ماعملت من خير محضرا وماعملت من سوء تود لو ان بينها وبينه امدا بعيدا ويحذركم الله نفسه والله رؤوف بالعباد" [5] .

"فلنسألن الذين ارسل اليهم ولنسألن المرسلين . فلنقصن عليهم بعلم وماكنا غائبين . والوزن يومئذ الحق فمن ثقلت موازينه فاولئك هم المفلحون . ومن خفت موازينه فاولئك الذين خسروا انفسهم بما كانوا بآياتنا يظلمون" [6] .

"وكل انسان الزمناه طائره في عنقه ونخرج له يوم القيامة كتابا يلقاه منشورا . اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا" [7] .

"ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلاتظلم نفس شيئا وان كان مثقال حبة من خردل اتينا بها وكفى بنا حاسبين" [8] .

"واذا الصحف نشرت . واذا السماء كشطت . واذا الجحيم سعّرت . واذا الجنة ازلفت . علمت نفس مااحضرت" [9] .

وربما يشهد مع الصحف جسد الانسان نفسه ، اعضاؤه التي بها عصى الله :

"اليوم نختم على افواههم وتكلمنا ايديهم وتشهد ارجلهم بما كانوا يكسبون" [10] .

---

(١) ابراهيم : ٢١ .
(٢) مريم : ٦٨ .
(٣) مريم : ٨٥ .
(٤) آل عمران : ٩ .
(٥) آل عمران : ٣٠ .
(٦) الاعراف : ٦ - ٩ .
(٧) الاسراء : ١٣ - ١٤ .
(٨) الانبياء : ٤٧ .
(٩) التكوير : ١٠ -١٤ .
(١٠)يس : ٦٥ .

٨- الجزاء : فمابعد الحساب الا الجزاء : "وان ليس للانسان الا ماسعى . وان سعيه سوف يرى . ثم يجزاه الجزاء الاوفى" [١] .

وسيكون الناس اصنافا كثيرة فمنهم السابقون ومنهم اهل اليمين . ومنهم العصاة ، ومنهم الكافرون . ولكن هؤلاء جميعا من حيث النتيجة هم اما في الجنة واما في النار . فلنمتع اسماعنا وارواحنا اولاً بذكر الجنة واوصافها :

الجنة : تحدث القرآن عن الجنة كثيرا كثيرا ، وهذا بعض من حديثه :

"اولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم وجنات تجري من تحتها الانهار خالدين فيهاونعم اجر العاملين" [٢] .

"ان اصحاب الجنة اليوم في شغل فاكهون . هم وازواجهم في ظلال على الارائك متكئون . لهم فيها فاكهة ولهم مايدعون . سلام قولا من رب رحيم" [٣] .

"وسيق الذين اتقوا ربهم الى الجنة زمرا حتى اذا جاءوها وفتحت ابوابها وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين . وقالوا الحمد لله الذي صدقنا وعده واورثنا الارض نتبوأ من الجنة حيث نشاء فنعم اجر العاملين" [٤] .

"ان المتقين في مقام امين . في جنات وعيون . يلبسون من سندس واستبرق متقابلين . كذلك وزوجناهم بحور عين . يدعون فيها بكل فاكهة آمنين . لايذوقون فيها الموت الا الموتة الاولى ووقاهم عذاب الجحيم" [٥] .

"وجزاهم بما صبروا جنة وحريرا . متكئين فيها على الارائك لايرون فيها شمسا ولازمهريرا . ودانية عليهم ظلالها وذللت قطوفها تذليلا . ويطاف عليهم بآنية من فضة واكواب كانت قواريرا . قوارير من فضة قدروها تقديرا . ويسقون فيها كأسا كان مزاجها زنجبيلا. عينا فيها تسمى سلسبيلا . ويطوف عليهم ولدان مخلدون اذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤا منثورا . واذا رأيت ثم رأيت نعيما وملكا كبيرا . عاليهم ثياب سندس خضر واستبرق وحلوا اساور من فضة وسقاهم ربهم شرابا طهورا . ان هذا كان لكم جزاء وكان سعيكم مشكورا" [٦] .

وبعد هذا العرض الشيق الشهي لنعيم الجنة ، يعرض القرآن لنوع آخر من انوا ع النعيم ، انه نعيم السمر مع الاخوان والاحباب وذكريات الماضي - يا لها من لحظات -

---

(١) النجم : ٣٩-٤١ .

(٢) آل عمران : ١٣٦ .

(٣) يس : ٥٥-٥٨ .

(٤) الزمر : ٧٣-٧٤ .

(٥) الدخان : ٥١-٥٦ .

(٦) الدهر : ١٢-٢٢ .

يقول القرآن متمما صورة النعيم الابدي : "فاقبل بعضهم على بعض يتساءلون . قال قائل منهم اني كان لي قرين . يقول ائنك لمن المصدقين ؟ ائذا متنا وكنا ترابا وعظاما ائنا لمدينون ؟ قال هل انتم مطلعون ؟ فاطلع فرآه في سواء الجحيم . قال تالله ان كدت لتردين ولولا نعمة ربي لكنت من المحضرين . افما نحن بميتين الا موتتنا الاولى ومانحن بمعذبين ؟ ان هذا لهو الفوز العظيم . لمثل هذا فليعمل العاملون "[1] . يقول سيد قطب – رحمه الله – معلقا على هذه الآيات : "فنرئ عباد الله المخلصين هؤلاء بعد مايسرت لهم كل هذه المتع ، ينعمون بسمر هادئ ، يتذاكرون فيه الماضي والحاضر .... وهاهو ذا احدهم يستعيد ماضيه ، ويقص على اخوانه طرفا مما وقع له ، لقد كان له صاحب يكذب باليوم الآخر ، وكان يحاوره ويسائله ... وبينما هو ماض في قصته يخطر له ان يتفقد صاحبه هذا ليعرف مصيره .... فهو يقف ليتطلع ويوجه نظر اخوانه الى حيث يتطلع ... عندئذ يترك اخوانه ، ويتوجه الى صاحبه الذي وجده في وسط الجحيم ، يتوجه اليه ليقول : ياهذا لقد كدت توردني موارد الردى بوسوساتك لولا ان الله قد انعم علي فلم استمع اليك"[2] .

ثم تكتمل الصورة اكثر بمشهد له اكثر من معنى ومغزى : "فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون . على الارائك ينظرون"[3] .

– اللهم لاتحرمنا الجنة ولاتحرمنا فيها من النظر الى وجهك الكريم .

النار : وتحدث القرآن عن النار كثيرا كحديثه عن الجنة ، وهذا بعض حديثه :

"وسيق الذين كفروا الى جهنم زمرا حتى اذا جاءوها فتحت ابوابها وقال لهم خزنتها الم يأتكم رسل منكم يتلون عليكم آيات ربكم وينذرونكم لقاء يومكم هذا قالوا بلي ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين . قيل ادخلوا ابواب جهنم خالدين فيها فبئس مثوى المتكبرين"[4] .

"والذين كفروا لهم نار جهنم لايقضى عليهم فيموتوا ولايخفف عنهم من عذابها كذلك نجزي كل كفور . وهم يصطرخون فيها ربنا اخرجنا نعمل صالحا غير الذي كنا نعمل . اولم نعمركم مايتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير فذوقوا فماللظالمين من نصير"[5] .

"الذين كذبوا بالكتاب وبما ارسلنا به رسلنا فسوف يعلمون . اذ الاغلال في

---

(١) الصافات : ٥٠–٦١ .

(٢) سيد قطب : مشاهد القيامة في القرآن : ١٣٤–١٣٥ .

(٣) المطففين : ٣٤–٣٥ .

(٤) الزمر : ٧١–٧٢ .

(٥) فاطر : ٣٦–٣٧ .

اعناقهم والسلاسل يسحبون . في الحميم ثم في النار يسجرون . ثم قيل لهم اين ماكنتم تشركون" (١)

"وللذين كفروا بربهم عذاب جهنم وبئس المصير . اذا القوا فيها سمعوا لها شهيقا وهي تفور . تكاد تميز من الغيظ كلما القي فيها فوج سألهم خزنتها الم يأتكم نذير" (٢)

يالطيف من هذه الصور القاتمة البائسة : زمر الى جهنم ، وتأنيب وتقريع ، وصراخ وحسرة وندم ، واغلال وسلاسل ، وسحب وسجر ، ثم ماذا جهنم كأنها مخلوقة حية تحس وتشعر ، وتغتاظ وتحقد على هؤلاء المساكين التعساء !! "تكظم غيظها فترتفع انفاسها في شهيق وتفور ، ويملأ جوانحها الغيظ فتكاد تتمزق من الغيظ الكظيم ، وهي تنطوي على بغض وكره يبلغ الى حد الغيظ والحنق على الكافرين" (٣) .

ولا تكفي هذه الصور (٤) حتى يعرض القرآن صورة اخرى ، صورة واخزة مؤلمة :
"ولو ترى اذ الظالمون موقوفون عند ربهم ، يرجع بعضهم الى بعض القول . يقول الذين استضعفوا للذين استكبروا : لولا انتم لكنا مؤمنين . قال الذين استكبروا للذين استضعفوا : انحن صددناكم عن الهدى بعد اذ جاءكم بل كنتم مجرمين . وقال الذين استضعفوا للذين استكبروا : بل مكر الليل والنهار اذ تأمروننا ان نكفر بالله ونجعل له اندادا . واسروا الندامة لما رأوا العذاب" (٥) .

ولما لم ينفعهم هذا الخصام والجدال توجه الضعفاء الى ربهم بما يشبه الاعتذار :
"ربنا انا اطعنا سادتنا وكبراءنا فاضلونا السبيلا . ربنا آتهم ضعفين من العذاب والعنهم لعنا كبيرا" (٦) وقالوا له : "ربنا غلبت علينا شقوتنا وكناقوما ضالين . ربنا اخرجنا منها فان عدنافانا ظالمون" (٧) فيأتي الرد حاسما سريعا : "قال اخسئوا فيها ولاتكلمون" (٨) ، الله اكبر ، اي عذاب هذا ؟!! فرحمتك يارب . ثم ، ثم ماذا ؟ يأس لامثيل له ، يأس يدفعهم الى طلب الموت ، انهم هنا يشتاقون اليه !! يا للهول !! "ونادوا يا مالك ليقض علينا ربك . قال انكم ماكثون" (٩) .

– اللهم اعذنا من عذابك وحجابك وغضبك .

---

(١) غافر : ٧٠-٧٣ .
(٢) الملك : ٦-٨ .
(٣) سيد قطب ، في ظلال القرآن : ٣٦٣٤/٦ .
(٤) لقد اهتم كثير من الكتاب بعرض الصور وترتيبها بحسب تسلسلها في النصوص القرآنية والاحاديث الصحيحة وممن اجاد في هذا : عبدالملك علي كليب ، انظر كتابه :"اهوال القيامة" : ١٠٧-١٢٠ .
(٥) سبأ : ٣١-٣٣ .
(٦) الاحزاب : ٦٧-٦٨ .
(٧) المؤمنون : ١٠٦ – ١٠٧ .
(٨) المؤمنون : ١٠٨ .
(٩) الزخرف : ٧٧ .

وبعد ذكر الجنة والنار لابأس بالتعريج على موضع في الآخرة بين الجنة والنار وتحدث عنه القرآن في سورة واحدة وسميت السورة باسمه "الاعراف" ، يقول القرآن - بعد ذكره لاهل الجنة والنار - : "وبينهما حجاب وعلى الاعراف رجال يعرفون كلا بسيماهم ونادوا اصحاب الجنة ان سلام عليكم لم يدخلوها وهم يطمعون . واذا صرفت ابصارهم تلقاء اصحاب النار قالوا ربنا لاتجعلنا مع القوم الظالمين" [(١)] . والنص واضح في التعريف بالمكان ، انه مشرف على الجنة والنار ، وان عليه رجالا يعرفون الفريقين ، لكن من هؤلاء الرجال ؟! لم يحدد القرآن هويتهم . ولم اجد من السنة حديثا يرقى الى درجة الصحيح يبين حال هؤلاء ، الا ان ابن كثير - رحمه الله - مع ماجمع من الاحاديث الغريبة ونحوها قال : "واختلفت عبارات المفسرين في اصحاب الاعراف : من هم ؟ وكلها قريبة ترجع الى معنى واحد ، وهو : انهم قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم ، نص عليه حذيفة وابن عباس وابن مسعود وغير واحد من السلف والخلف - رحمهم الله -" [(٢)] وقصد ابن كثير هنا : الاغلب ، اذ اورد نفسه بعد هذا اقوالا لمفسرين من السلف والخلف تخالف هذا القول - والله اعلم - . ولو كان في تحديد هويتهم نفع لنا لجاء في القرآن ، وربما يكون الابهام مقصودا ، وذكرهم هنا لاليطلعنا الله على هويتهم ، وانما ذكرهم لاستكمال صورة النعيم والعذاب ، والحوار الدائر بين اهل الجنة واهل النار [(٣)] .

٩- الشفاعة :

يجدر بنا ان ندخل هذه المسألة ضمن هذا البحث ، لاسيمابعد ورود الخلاف فيها بين المتكلمين ، فماحقيقة الشفاعة في القرآن ؟ ومامدى اهتمام القرآن بها ؟ وماموقعها في عقيدة المسلمين ؟ سنحاول الاجابة على كل هذامن خلال النقاط التالية :

١- تحدث القرآن عن "الشفاعة" التي كانت قرينة الشرك ، او بالاجدر مستند الشرك ، حيث كانت فلسفة الشرك قائمة على اساس "الوسطاء والشفعاء" "مانعبدهم الا ليقربونا الى الله زلفى" [(٤)] . تحدث القرآن عن ابطال هذه الشفاعة بهذه الآيات :

"ام اتخذوا من دون الله شفعاء قل اولو كانوا لايملكون شيئا ولايعقلون" [(٥)] .

"ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم اول مرة وتركتم ماخولناكم وراء ظهوركم

---

(١) الاعراف : ٤٦-٤٧ .

(٢) ابن كثير: التفسير : ٢/٢٠٧ .

(٣) يقول سيد قطب - رحمه الله - : "ثم نحن اولاء اما الاعراف - الفاصلة بين الجنة والنار - وعليها رجال يعرفون هؤلاء وهؤلاء ، فهم يتوجهون الى اصحاب الجنة بالترحيب والسلام ، ويتوجهون الى اصحاب النار بالتبكيت والايلام ... تلك من صور القيامة ، ومن صور الحوار فيها والخصام ومن صور النعيم فيها والعذاب :التصوير الفني في القرآن : ٥٥ .

(٤) الزمر : ٣ .

(٥) الزمر : ٤٣ .

ومانرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم انهم فيكم شركاء لقد تقطع بينكم وضل عنكم ماكنتم تزعمون" [١] .

"ويعبدون من دون الله مالايضرهم ولاينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله قل اتنبئون الله بما لايعلم في السموات ولافي الارض سبحانه وتعالى عما يشركون" [٢] .

وبعد هذا حكم القرآن على هذه الشفاعة بانها لاتنفع : "أأتخذ من دونه آلهة ان يردن الرحمن بضر لاتغن عني شفاعتهم شيئا ولاينقذون" [٣] .

ويصف القرآن حال المشركين واضطرابهم ، فهم هناك يسقط بأيديهم ، فيبحثون عن شفعاء يشفعون لهم ، وانظر كيف يصور القرآن حالتهم : "هل ينظرون الا تأويله يوم يأتي تأويله يقول الذين نسوه من قبل قد جاءت رسل ربنا بالحق فهل لنا من شفعاء فيشفعوا لنا او نرد فنعمل غير الذي كنا نعمل قد خسروا انفسهم وضل عنهم ماكانوا يفترون" [٤] .

٢- نفى القرآن الكريم بنحو "١٠" آيات وجود الشفاعة في اليوم الاخر ،وهذه بعضها :

"واتقوا يوما لاتجزى نفس عن نفس شيئا ولايقبل منها شفاعة" [٥] .

"واتقوا يوما لاتجزى نفس عن نفس شيئا ولايقبل منه عدل ولاتنفعها شفاعة" [٦] .

"يا ايها الذين آمنوا انفقوا مما رزقناكم من قبل ان يأتي يوم لابيع فيه ولاخلة ولاشفاعة" [٧] .

"وانذر به الذين يخافون ان يحشروا الى ربهم ليس لهم من دونه ولي ولاشفيع" [٨] .

"وذكر به ان تبسل نفس بما كسبت ليس لها من دون الله ولي ولاشفيع" [٩] .

"وما اضلنا الا المجرمون . فمالنا من شافعين" [١٠] .

٣- اثبت القرآن الشفاعة لبعض خلقه بنطاق ضيق ومحدود وعلى سبيل الاستثناء في نحو "٨" آيات ، وهذه امثلة منها :

"وقالوا اتخذ الرحمن ولدا سبحانه بل عباد مكرمون . لايسبقونه بالقول وهم بأمره

---

(١) الانعام : ٩٤ .
(٢) يونس : ١٨ .
(٣) يس : ٢٣ .
(٤) الاعراف : ٥٣ .
(٥) البقرة : ٤٨ .
(٦) البقرة : ١٢٣ .
(٧) البقرة : ٢٥٤ .
(٨) الانعام : ٥١ .
(٩) الانعام : ٧٠ .
(١٠) الشعراء : ٩٩-١٠٠ .

يعملون . يعلم مابين ايديهم وماخلفهم ولايشفعون الا لمن ارتضى"[1] .

"لا يملكون الشفاعة الا من اتخذ عند الرحمن عهدا"[2] .

"يومئذ لاتنفع الشفاعة الا من اذن له الرحمن ورضي له قولا"[3] .

"وكم من ملك في السموات لاتغني شفاعتهم شيئا الا من بعد ان يأذن الله لمن يشاء ويرضى"[4] .

لايبدو غموض كبير في هذا التعارض الظاهري بين هذه النصوص ، فليس في آيات اثبات الشفاعة آية الا وهي مرتبطة بالنفي المتقدم والاستثناء العقيب ، والاستثناء تخصيص ، ومعنى هذا ان النفي هو الاصل وهو الغالب ، والاثبات استثناء وتخصيص .

لكن القرآن لم يبين لنا اصناف الشفعاء ، ولااصناف المشفع لهم الا بطريق الاجمال ، ولذا فمن الممكن ان يسأل الانسان وهو اكثر شيء جدلا : ماهي الذنوب التي من الممكن ان يشفع فيها الشفعاء ؟ او : هل الشفاعة لاهل الحساب للاسراع في حسابهم ، ام لاهل النار لاخراجهم ، ام لاهل الجنة لاعلاء منازلهم ؟

الذي يظهر ان القرآن هدف الى قضية عملية ، فقد اراد من عبدة الاحجار ان يفكروا ان هذه الاحجار لن تنفعهم في الدنيا ، ولن تنفعهم في الآخرة ، واراد من المؤمنين ان يعملوا ويجدوا فالاصل : ان لاشفاعة ، بل "وان ليس للانسان الا ماسعى"[5] ، ثم يتلطف القرآن بهم ليدفعهم الى العمل والجد ايضا ، ولكن بطريق الترغيب فيأتي الاستثناء بتحفظ ليحافظ المؤمن على الموازنة المطلوبة .

ثم لايغيب عن المتأمل ذلك الود الذي يعقده القرآن بين المؤمنين وبين اولئك الصفوة ، انه ود يقود الى الحياء من مخالفتهم او التنحي عن ركبهم ، ان محمدا – صلى الله عليه وسلم – الذي سينادى غدا : يارب امتي"[6] . ستحبه انت الان من اعماق قلبك ، وسيقودك هذا الحب الى الاتباع حتما .

من كل هذا يتبين ان موضوع الشفاعة جاء في القرآن بقدر مايثمر عملا صالحا – والله اعلم .

---

(١) الانبياء : ٢٦-٢٨ .

(٢) مريم : ٨٧ .

(٣) طه : ١٠٩ .

(٤) النجم : ٢٦ .

(٥) النجم : ٣٩ .

(٦) اورد البخاري في صحيحه عن النبي – صلى الله عليه وسلم – انه قال – من حديث طويل – : "فاستأذن على ربي فيؤذن لي ، ويلهمني محامد احمده بها ، لاتحضرني الآن ، فاحمده بتلك المحامد ، واخر له ساجدا ، فيقال : يامحمد ، ارفع رأسك ، وقل يسمع لك ، وسل تعط ، واشفع تشفع ، فاقول : يارب : امتي امتي ، فيقال : انطلق فاخرج منها من كان في قلبه مثقال شعيرة من الايمان ، فانطلق فافعل ...." فتح الباري : ١٣/٤٧٣ . – اللهم فشفع فينا نبينا ، وادخلنا معه جنتك – .

المبحث الثاني
اليوم الآخر عند المتكلمين

في بداية بحثنا السابق ، ذكرنا اننا كلما ابتعدنا عن العقليات واقتربنا من السمعيات كلما كبرت مساحة الوفاق وضاقت مسائل الخلاف ، واليوم الآخر هو من صميم السمعيات ، ولذا فلن نحتاج فيه الى وقوف طويل او جدل عريض ، فماجمعناه عن اليوم الآخر في القرآن الكريم يعد المساحة الاوسع من مناهج المتكلمين في هذا الموضوع ، ولكن قد نحتاج الى عرض بعض الخصوصيات المذهبية الجزئية فسنعرضها بمقدار الحاجة - ان شاء الله - .

المعتزلة :

من خلال النقاط الآتية سنستطيع - ان شاء الله - ان نرسم معالم المذهب الاعتزالي في موضوع اليوم الآخر :

١- مع ان الاعتزال يطغى عليه الجانب العقلي ، نجد المعتزلة هنا يأخذون بظواهر نصوص اليوم الآخر دون تأويل ، يقول القاضي عبدالجبار : "وقد اتصل بهذه الجملة الكلام في احوال القيامة ومايجري هناك من وضع الموازين والمسألة والمحاسبة وانطاق الجوارح ونشر الصحف ، وماجرى هذا المجرى ، وجملة ذلك ان كل هذه الامور حق يجب اعتقاده والاقرار به ، اما وضع الموازين ، فقد صرح الله - تعالى - في محكم كتابه ، قال الله - تعالى - : "ونضع الموازين القسط ليوم القيامة" [١] وقوله : "فمن ثقلت موازينه فاولئك" الاية [٢] الى غير ذلك من الايات التي تتضمن هذا المعنى ، ولم يرد الله - تعالى - بالميزان الا المعقول منه المتعارف فيما بيننا دون العدل وغيره ، على مايقوله بعض الناس ، لان الميزان وان ورد بمعنى العدل في قوله : "وانزلنا معهم الكتاب والميزان" [٣] فذلك على طريق التوسع والمجاز ، وكلام الله - تعالى - مهما امكن حمله على الحقيقة لايجوز ان يعدل به عنه الى المجاز" [٤] وعلى هذا فلم اجدهم اختلفوا مع غيرهم في تفاصيل اليوم الآخر الا فيما يتعلق بالاعراف ، وستأتينا في "الوعد والوعيد" - ان شاء الله - .

---

(١) الانبياء : ٤٧ .

(٢) المؤمنون : ١٠٢ .

(٣) الحديد : ٢٥ .

(٤) القاضي عبدالجبار ، شرح الاصول الخمسة : ٧٣٤-٧٣٥ .

٢- مع عدم وجود نص قاطع في عذاب القبر في القرآن الكريم ، ولاهو من المسائل العقلية جزم المعتزلة بوجوده ، وتوسعوا في الاستدلال له ، وذكر فائدة الاخبار عنه ، ونحو هذا ، ويردون على من يتهمهم بانكاره ، يقول القاضي : "فصل في عذاب القبر ، وجملة ذلك انه لاخلاف فيه بين الامة ، الا شيء يحكى عن ضرار بن عمرو ، وكان من اصحاب المعتزلة ثم التحق بالمجبرة ، ولهذا نرى ابن الراوندي يشنع علينا ويقول : ان المعتزلة ينكرون عذاب القبر ولايقرون به ..... اما ثبوته ، فالذي يدل عليه قوله - تعالى - : "مما خطيئاتهم اغرقوا فادخلوا نارا فلم يجدوا" [١] فالفاء للتعقيب من غير مهلة ، وادخال النار لاوجه الا التعذيب ، ويدل عليه ايضا قوله - تعالى - : "النار يعرضون عليها غدوا وعشيا" [٢] ووجه دلالته على عذاب القبر ظاهر ، غير انه يختص بآل فرعون ولايعم جميع المكلفين" [٣] .

٣- الوعد والوعيد :

لم يدم وفاق المعتزلة مع المتكلمين الاخرين في هذا الموضوع طويلا ، حيث ظهرت مشكلة خطيرة كبيرة وهي "الوعد والوعيد" والوعد هو : اخبار القرآن بجزاء المؤمنين المتقين في اليوم الاخر بالجنة ، والوعيد اخبار القرآن بجزاء الكافرين والعصاة في اليوم الآخر بالنار ، فهذه الاخبار أتقع حتما ؟ ام يكون فيها استثناء لعطف الهي ، او شفاعة مقبولة ؟ هذه أججت نار الصراع الكلامي في اهدأ مباحث علم العقيدة :اليوم الآخر" ولنر الان مايقوله المعتزلة مختصرا في الآتي :

أ - اهتم المعتزلة بمسألة "الوعد والوعيد" حتى عدوها من اصول الدين الخمسة ، التي لزم المكلف معرفتها [٤] ، ولهذا كان الخلاف فيها على درجة عالية من الخطورة .

ب - فرّع المعتزلة مسائل كثيرة على هذا الاصل ، وغالبها فلسفية معقدة ، لذا استغرق هذا الاصل مثلا مايزيد على "٨٠" صفحة من كتاب شرح الاصول الخمسة للقاضي - رحمه الله - ، ولسنا هنا بصدد عرض المسائل تلك ، وانما غايتنا كشف المعالم البارزة لاصل هذه المسألة عندهم لاغير ، وسنحاول كشفها تباعا .

جـ ان وعد الله ووعيده واقع لامحالة وانه واجب عليه - تعالى - يقول القاضي : "فهو انه - تعالى - وعد المطيعين بالثواب ، وتوعد العصاة بالعقاب ، فلو لم يجب لكان لايحسن الوعد والوعيد بهما" [٥] .

د- ان الانسان في الآخرة اما مستحق للثواب ابدا ، واما مستحق للعقاب ابدا ،

---

(١) نوح : ٢٥ .

(٢) غافر : ٤٦ .

(٣) القاضي عبدالجبار ، شرح الاصول الخمسة : ٧٣٠ .

(٤) المصدر السابق : ١٢٣ .

(٥) المصدر السابق : ٦٢٢ .

ولاثالث لهما ، ومعنى هذا : ان الانسان : اما مطيع فيستحق ماوعده الله به ، واما عاص بكفر او ذنب فيستحق ماتوعده الله به ، طيب ، فمايقول المعتزلة في من عمل عملا صالحا وآخر سيئا ، فهو مستحق الثواب من جهة ، مستحق للعقاب من جهة اخرى ؟! يقول القاضي : "ان المكلف لايخلو اما ان يستحق الثواب ، او ان يستحق العقاب من كل واحد منهما قدر ا واحدا ، او يستحق من احدهما اكثر مما يستحقه من الآخر ، لايجوز ان يستحق من كل واحد منهما قدرا واحدا ... واذا استحق من احدهما اكثر من الآخر فان الاقل لابد من ان يسقط بالاكثر ويزول ، وهذا القول بالاحباط والتكفير على ماقاله المشايخ" [1] ، ولكن لماذا لاتصح الموازنة ؟ او لايصح ان يستحق الانسان من الثواب والعقاب قدرا واحدا ؟ يجيبنا القاضي في النقطة التالية :

هـ - "فان قيل فماقولكم فيمن استويا في حقه ، اكان يجب ان يثاب ويعاقب دفعة واحدة ؟ قيل له : انهما لايستويان .... فان الامة اجمعت على ان لادار غير الجنة والنار ، فلو تساوت طاعات المكلف ومعاصيه لكان لا يخلو حاله من احد الامرين : فاما ان يدخل النار وذلك ظلم ، واما ان يدخل الجنة ، ثم لايخلو حاله وقد دخل الجنة ، اما ان يثاب وذلك لايجوز ، لان اثابة من لايستحق الثواب قبيح ، والله - تعالى - لايفعل القبيح ، واما ان يتفضل الله عليه كما تفضل على الاطفال والمجانين ، وذلك مما لايصح ايضا وقد اتفقت الامة على ان المكلف اذا دخل الجنة فلابد من ان يميز حاله من حال الولدان المخلدين وعن حال الاطفال والمجانين ، فليس الا ان نقطع انه لاتتساوى طاعات المكلف ومعاصيه ، وقد خالف في هذه الجملة الصوفية وبعض السادات ، وقالوا ان بين الجنة والنار مواضع يقال لها : الاعراف ، وعلى هذا قال - تعالى - : "ونادى اصحاب الاعراف رجالا يعرفونهم بسيماهم" [2] وذلك مما لاوجه له لانه خرق الاجماع ، واما الاعراف المذكورة في القرآن فانهامواضع في الجنة مرتفعة سميت بذلك لارتفاعها كما في عرف الديك والدابة وغيرهما" [3] .

و- لاحظنا مما تقدم ان المعاصي قد تسقط اذا غلبت الطاعات ، وان الطاعات قد تسقط اذا غلبت المعاصي وكل هذا لكي يكون الانسان على احدى حالين لاثالث لهما : اما مثاب ابدا او معاقب ابدا !! وفلسفة الاسقاط هذه لابد ان نقف عندها ، ونتساءل : متى يسقط الثواب ؟ ومتى يسقط العقاب ؟ في حالة غلبة احدهما على الآخر فحسب ، ام

---

(١) القاضي عبدالجبار ، شرح الاصول الخمسة : ٦٢٤ .

(٢) الاعراف : ٤٨ .

(٣) القاضي عبدالجبار ، شرح الاصول الخمسة : ٦٢٣-٦٢٤ ، والذي عليه اغلب السلف والخلف ان الاعراف مكان لمن استوت حسناته وسيئاته ، انظر ص :٢٩١ ، من هذا البحث . ولا ادري لم ذا التكلف في التأويل ، فاذا كانت الاعراف مواضع مرتفعة في الجنة ، فلماذا قال الله عن اهل الاعراف : "لم يدخلوها وهم يطمعون: الاعراف : ٤٦ ، انهم لم يدخلوا الجنة وهم يطمعون بدخولها بنص القرآن ، فوا عجبي !!! .

هناك حالات اخرى ؟ يقول القاضي مجيبا : "اعلم ان الثواب يسقط بوجهين : احدهما : بالندم على ماأتى به من الطاعات ، والثاني : بمعصية هي اعظم منه ، وانما قلنا : ان الثواب يسقط بالندم على الطاعة ، لان الحال في ذلك كالحال فيمن احسن الى غيره ثم ندم على مافعله من الاحسان ، فان ندمه على ذلك يسقط ماكان يستحقه ، كذلك هنا ، واما سقوطه بمعصية هي اعظم من ذلك ، فالظاهر ايضا ، لان ذلك بمنزلة ان يحسن الى غيره قدرا من الاحسان ثم يسيء اليه اساءة هي اعظم من ذلك بكثير ، ومعلوم انه والحال هذه لايستحقه مدحا ولاشكرا ... واما العقاب المستحق من جهة الله – تعالى – فانه يسقط بالندم على مافعله من المعصية ، او بطاعة هي اعظم منه ... ومعلوم ان احدنا اذا اساء الى غيره ثم اعتذر اليه اعتذارا صحيحا ، فانه يسقط ماكان يستحقه من الذم حتى لايحسن من المساء اليه ان يذمه بعد ذلك ، فكذلك الحال في التوبة مع العقاب ، واما الطاعة التي هي اعظم منه فانما تؤثر في اسقاط العقوبة المستحقة لان الحال في ذلك كالحال في من اساء الى غيره بأن كسر له رأس قلم ، ثم اعطاه في مقابلته من الاموال السنية ما لاتسمح نفس بها" [1] .

واذا كان الامر كذلك ، فماهو قولهم في الشفاعة ؟ لنأخذها على حدة ثم لننظر رأيهم فيها .

٤– لاريب ان موضوع "الشفاعة" من المواضيع التي تحرج المعتزلة فهي تصطدم مع اصلين عظيمين عندهم : العدل ، والوعد والوعيد ، فماذا يقول المعتزلة بعد ، لنر :

أ– اثبت المعتزلة الشفاعة ، يقول القاضي : "وجملة القول في ذلك ، هو انه لاخلاف بين الامة في ان شفاعة النبي – صلى الله عليه وسلم – ثابتة للامة" [2] .

ب – لكنهم لايثبتونها الا في نطاق ضيق ولصنف محدد ، يقول القاضي : "فعندنا ان الشفاعة للتائبين من المؤمنين[3] فالشفاعة اذاً لايستحقها من استحق العقاب ، لانه"دلت الدلالة على ان العقوبة تستحق على طريق الدوام ، فكيف يخرج الفاسق من النار بشفاعة النبي – عليه السلام – والحال ماتقدم ؟ ومما يدل على ذلك قوله – تعالى – : "واتقوا يوما لا تجزى نفس عن نفس شيئا" [4] وقوله – تعالى : "ما للظالمين من حميم ولاشفيع يطاع" [5] ، فالله – تعالى – نفى ان يكون للظالمين شفيع البتة" [6] .

---

(١) المصدر السابق: ٦٤٣–٦٤٤ .

(٢) المصدر السابق :٦٨٧–٦٨٨ .

(٣) المصدر السابق : ٦٨٨ .

(٤) البقرة : ٤٨ .

(٥) غافر : ١٨ .

(٦) القاضي عبدالجبار، شرح الاصول الخمسة : ٦٨٩ .

الاشاعرة :

من خلال النقاط الآتية سنتعرف على معالم المذهب الاشعري في هذا الموضوع :

١- توسع الاشاعرة في مباحث اليوم الآخر ، حتى ذكروا مسائل لاعلاقة لها بالنصوص الا من بعيد ، ولانريد هنا ان نتوسع في توسعهم ، وانما قد ينتفع القاريء الكريم بعرض فهرست المسائل الاخروية عند الاشاعرة ، ثم نفصل في المسائل المهمة ، لاسيما تلك المتعلقة بالمدارس الكلامية الاخرى ، وهذا فهرست المسائل الاخروية في كتاب واحد للاشاعرة وهو اصول الدين لعبدالقاهر البغدادي - رحمه الله - :

المسألة الاولى : في جواز فناء الحوادث .

المسألة الثانية : كيفية فناء مايفنى .

المسألة الثالثة : جواز اعادة مايفنى .

المسألة الرابعة : في نفس مايصح اعادته .

المسألة الخامسة : في بيان مايعاد من الاجسام والارواح .

المسألة السادسة : في بيان مايعاد من الحيوانات .

المسألة السابعة : في ان الاعادة هل هي واجبة ام لا.

المسألة الثامنة : في خلق الجنة والنار .

المسألة التاسعة : في دوام الجنة والنار .

المسألة العاشرة: في ان الله خالق نعيم اهل الجنة وعذاب اهل النار .

المسألة الحادية عشرة : في ان الله قادر على ان يزيد في نعيم اهل الجنة وفي عذاب اهل النار .

المسألة الثانية عشرة : في تعويض البهائم في الآخرة .

المسألة الثالثة عشرة : في بيان اهل الوعيد .

المسألة الرابعة عشرة : في اثبات الشفاعة .

المسألة الخامسة عشرة : في اثبات الحوض والصراط والميزان وسؤال الملكين في القبر [1] .

لاشك ان هذا مثال جيد على توسع الاشاعرة في هذا الموضوع وهو شاهد ايضا على مدى التوسع الذي حصل في علوم العقيدة بصورة عامة .

٢- لم يختلف الاشاعرة مع المعتزلة في اثبات الوصف القرآني لليوم الآخر ، وحتى في مسألة عذاب القبر ، ولاارى حاجة في التفصيل بل ان تقليب اي كتاب من كتبهم يكفي ، ولاغرابة فهم اقرب الى النقل من المعتزلة .

٣- احتلف الاشاعرة اختلافا كبيرا مع المعتزلة في مسألة "الوعد والوعيد" ،

---

(١) عبدالقاهر البغدادي ، اصول الدين : الفهرست . وانظر نحو هذا ايضا في المواقف للجرجاني، حيث توسع في الرد على طروحات الفلاسفة ، والمعتزلة ، انظر من ص ٣٧١ الى ٣٨٤ .

وكتبهم طافحة بالرد على آراء المعتزلة في هذه المسألة ، ويكفي هنا ان نتعرف على بعض آرائهم :

أ – يرى الاشاعرة ان العفو عن المسيء حتى بعد توعده ليس قبيحا بل على العكس ، يقول الباقلاني – رحمه الله – : "ان العقاب حق له يجوز له اخذه وتركه ... وقد اتفق المسلمون وغيرهم ايضا على حسن العفو والصفح عن عقوبة الذنب ، وعلى مدح من لايتم مايتوعد به ، وتعظيمه ومدحه بالعفو عن فعله ، قال كعب بن زهير :

نبئت ان رسول الله اوعدني   والعفو عند رسول الله مأمول[1]

.... وكيف لايحسن من الله العفو عن الذنب ، وقد امرنا به وحضنا عليه ومدح من هو من شأنه وقد اجمع الكل على ان مامر به وحض عليه فاعله فليس بقبيح "[2] .

وقد لخص الجويني – رحمه الله – هذابقوله : "الثواب عند اهل الحق ليس بحق محتوم ولاجزاء مجزوم ، وانما هو فضل من الله – تعالى – والعقاب لايجب ايضا ، والواقع منه هو عدل من الله[3] .

وواضح ظهور الاشاعرة في هذه المسألة ، فالعقل جازم بها ، والنص مؤيد لها ، يقول الله – تعالى – : "ان الله لايغفر ان يشرك به ويغفر مادون ذلك لمن يشاء"[4] .

ب – ان النقطة السابقة تشمل من حيث الاصل حتى الكفار ولكن ماورد من السمع يمنع ، يقول الباقلاني : "فان قال فمايؤمنكم ان يغفر الله لسائر الكفرة او لبعضهم ، وان كان قد قدم وعيده لهم بالنار ؟ قيل له : يؤمن من ذلك توقيف النبي – صلى الله عليه وآله وسلم – واجماع المسلمين الذين لايجوز عليهم الخطأ ان الله لايغفر لهم ... ولولا هذا الاجماع والتوقيف الذي اضطررنا اليه لجاز العفو عما سألت عنه"[5] ، ولعل الآية التي مرت آنفا تكفي في الاستشهاد لصحة رأي الاشاعرة .

٤– وبناء على الاختلاف في مسألة "الوعد والوعيد" ظهر اختلافهم في مسألة "الشفاعة" حيث لم يلتزم الاشاعرة بما يقيدهم في الموضوع هذا ، بل على العكس فهم آمنوا اصلا بان الثواب لايجب على الله ، وانما هو فضله – تبارك وتعالى – واذا كان الامر كذلك فاعفاء المذنبين من العقوبة هو فضل ايضا "والله ذو الفضل العظيم" وعلى هذا وسع الاشاعرة دائرة الشفاعة – وسع الله عليهم – لتشمل اصحاب الكبائر ، بل يبدو انهم هم المقصودون بالشفاعة قبل غيرهم في رأي الاشاعرة ، يقول الباقلاني : "ومما يدل على جواز الغفران لعصاة اهل الملة ماورد من الاخبار الثابتة المتظاهرة في اثبات

---

(١) انظر الاصابة في تمييز الصحابة لابن حجر – رحمه الله – : ٢٩٦/٣ .

(٢) الباقلاني ، التمهيد : ٤٠٠–٤٠٢ .

(٣) الجويني : الارشاد : ٣٨١ .

(٤) النساء : ٤٨ .

(٥) الباقلاني ، التمهيد : ٤٠٢ .

شفاعة الرسول – صلى الله عليه وسلم – في اهل الكبائر ، نحو قوله – عليه السلام – :
"ادخرت شفاعتي لاهل الكبائر من امتي"[1] .

ويقول الجويني : "وفيما ذكرناه رد على فئة صاروا الى ان الشفاعة ترفع الدرجات ولاتحط السيئات ، فان الاخبار المأثورة شاهدة بتعلق الشفاعة بأصحاب الكبائر ، وكذلك الرغبات في التشفيع لم تزل تصدر من المتقين ومن الخاطئين ، ولايبدو نكير على مبتهل الى الله – تعالى– في تشفيع نبي فيه"[2] اللهم فشفع فينا نبينا – صلى الله عليه وسلم – آمين .

ويقول الايجي – رحمه الله – : "اجمع الامة على اصل الشفاعة ، وهي عندنا لاهل الكبائر من الامة" لقوله – عليه السلام – : "شفاعتي لاهل الكبائر من امتي"[3] .

ويتبين من كل ماتقدم ان هنالك مسألتين من مسائل اليوم الآخر ، كثر النزاع فيها بين المعتزلة والاشاعرة ، غير ان الذي ينبغي ان لايفوتنا ان نذكر ان الاشاعرة لاتمثل في هاتين المسألتين موقف الضد من المعتزلة ، بل هناك مذهب يقف بالطرف المقابل تماما للمعتزلة وهو مذهب "الارجاء" بحيث بدا الاشاعرة وكأنهم الواقفون في الوسط ، ومن هنا كان لابد من الوقفة السريعة على مذهب المرجئة لتكتمل الخارطة قبل التطرق الى مذهبي ابن حزم وابن تيمية – عليهما الرحمة – .

المرجئة[4] :

يبدو ان جوهر فكر المرجئة قائم على رأي خاص في مسألة "الوعد والوعيد" وتكاد تجمع كتب الفرق على تسجيل موحد لمذهب المرجئة في هذه المسألة ولذا سنكتفي بعرضه موجزا من خلال اقوال ائمتهم :

يقول يونس السمري وهو الذي ينتسب اليه اليونسية ، وهم فرقة من المرجئة :

"ان الايمان هو المعرفة بالله والخضوع له وترك الاستكبار عليه والمحبة بالقلب ، فمن اجتمعت فيه هذه الخصال فهو مؤمن ، وماسوى المعرفة من الطاعة فليس من الايمان ، ولايضر تركها حقيقة الايمان ، ولايعذّب على ذلك"[5] .

ويقول عبيد المكتب الذي تنتسب اليه "العبيدية" : "مادون الشرك مغفور لامحالة وان العبد اذا مات على توحيده لم يضره ماقترف من الآثام واجترح من السيئات"[6] .

---

(١) الباقلاني : التمهيد : ٤١٦ . والحديث رواه ابو داود دون قوله "ادخرت" : ٢٣٦/٤ ، وكذلك الترمذي من طريقين ، تعقب الاولى بقوله "هذا حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه" . وتعقب الثانية بقوله: "هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه" الجامع الصحيح : ٥٤٠/٤ .

(٢) الجويني ، الارشاد : ٣٩٥ .

(٣) الايجي ، المواقف : ٣٨٠ .

(٤) انظر ترجمتهم في الملحق .

(٥) الشهرستاني ، الملل والنحل ، المطبوع بهامش الفصل : ١٨٧/١ .

(٦) المصدر السابق : ١٨٧/١ . وانظر المواقف للايجي : ٤٢٧ .

ويبدو ان اصل مقالة هؤلا هو تغليب ادلة الرجاء ، يقول ابن حزم حاكيا مذهبهم في معرض رده على المعتزلة : "ثم يقال لهم : ماتقولون ان عارضتكم المرجئة بكلامكم نفسه ، فقالوا من المحال ان يكون الانسان واحدا محمودا مذموما ، محسنا مسيئا عدوا لله وليا له معا ، ثم ارادوا تغليب الحمد والاحسان والولاية واسقاط الذم والاساءة والعداوة ، كما اردتم انتم بهذه القضية نفسها تغليب الذم والاساءة والعدوان واسقاط الحمد والاحسان والولاية بما ينفصلون عنهم ، فان قالت المعتزلة : ان الشرط في حمده واحسانه وولايته ان تجتنب الكبائر ، قلنا لهم : فان عارضتكم المرجئة فقالت ان الشرط في ذمه واسائته ولعنه وعداوته ترك شهادة التوحيد ، فان قالت المعتزلة : ان الله قد ذم المعاصي ، وتوعد عليها ، قيل لهم : فان المرجئة تقول لكم : ان الله – تعالى – قد حمد الحسنات ووعد عليها ، واراد بذلك تغليب الحمد كما اردتم تغليب الذم ، فاذا ذكرتم آيات الوعيد ، ذكروا آيات الرحمة"[1] .

لقد صور ابن حزم حقيقة الخلاف بين الضدين : المعتزلة والمرجئة ، ورأينا قبل موقف الاشاعرة الذي يمثل الوسطية هنا ، فأين سيقف ابن حزم وابن تيمية ؟

ابن حزم :

نحاول التعرف على مذهبه في مسائل اليوم الآخر في النقاط الآتية :

١– من المفارقات الغريبة ان المعتزلة وهم الذين يغلبون جانب العقل في الغالب ، قد اقروا بظواهر النصوص الاخروية في القرآن الكريم ، حتى قال القاضي : "ولم يرد الله – تعالى – بالميزان الا المعقول منه المتعارف فيما بيننا"[2] ، نجد ابن حزم صاحب المنهج الظاهري يؤمن بهذه الظواهر لكن لاعلى المتبادر منها ، فنراه يقول مثلا : "وامور الآخرة لاتعلم الابما جاء في القرآن او بما جاء عن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ولم يأت عنه – عليه السلام – شيء يصح في صفة الميزان ، ولو صح عنه – عليه السلام – في ذلك شيء لقلنا به ، فاذا لايصح عنه – عليه السلام – في ذلك شيء فلايحل لاحد ان يقول على الله – عزوجل – مالم يخبرنا به"[3] ثم يقول : "واما من قال بما لايدري ان ذلك الميزان ذو كفتين فانما قاله قياسا على موازين الدنيا وقد اخطأ في قياسه"[4] ومع هذا فالخلاف يبدو طفيفا ، اذ الكل متفقون على الاقرار بما جاء في النصوص الاخروية وعدم تأويلها – الا ماشاء الله – ولذا يتسلسل ابن حزم في اثبات عذاب القبر ونعيمه والحوض والصراط والميزان ثم الجنة والنار .

---

(١) ابن حزم ، الفصل : ٢٣٢/٣ .

(٢) القاضي عبدالجبار ، شرح الأصول الخمسة : ٧٣٤ .

(٣) ابن حزم ، الفصل : ٦٥/٤ .

(٤) المصدر السابق : ٦٦/٤ .

٢- في مسألة الوعد والوعيد ، نرى ابن حزم قريبا جدامن الاشاعرة فهو هنا وسطي مهمته الجمع بين النصوص التي يبدو التعارض بينها في الظاهر ، وقد مر معنا آنفا تصويره لطبيعة الخلاف بين المعتزلة والمرجئة وانه يدور اما في تغليب نصوص الوعيد واما في تغليب نصوص الرحمة والرجاء ، ويعقب ابن حزم بعدُ بقوله : "وهذا مالا مخلص للمعتزلة منه ، ولا للمرجئة ايضا فوضح بهذا ان كلا الطائفتين مخطئة وان الحق هو جمع كل ماتعلقت به كلتا الطائفتين من النصوص التي في القرآن والسنن ويكفي من هذا كله قول الله – عز وجل – : "اني لااضيع عمل عامل منكم من ذكر او انثى" [1] وقوله – تعالى – : "اليوم تجزى كل نفس بما كسبت" [2] وقوله – تعالى – : "فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره" [3] .... فصح بهذا كله انه لايخرجه عن اسم الايمان الا الكفر ، ولايخرجه عن اسم الكفر الا الايمان ، وان الاعمال حسنها حسن ايمان ، وقبيحها قبيح ليس ايمانا ، والموازنة تقضي على كل ذلك ، ولايحبط الاعمال الا الشرك ، قال – تعالى – : "لئن اشركت ليحبطن عملك" [4] .

ثم يقول : "ان كل من كفر فهو فاسق ظالم عاص ، وليس كل فاسق ظالم عاص كافرا ، بل قد يكون مؤمنا وبالله – تعالى – التوفيق ، وقد قال – تعالى – : "وان ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم" [5] ، فبعض الظلم مغفور بنص القرآن" [6] .

٣- واقر ابن حزم بالشفاعة كالاشاعرة ، وحاول ايضا الجمع بين النصوص التي يشعر ظاهرها بالتعارض ، فتراه يقول : "فقد صحّت الشفاعة بنص القرآن الذي لايأتيه الباطل من يديه ولامن خلفه ، فصح يقينا ان الشفاعة التي ابطلها الله – عز وجل – هي غير الشفاعة التي اثبتها – عز وجل – واذ لاشك في ذلك فالشفاعة التي ابطلها الله – عز وجل – هي الشفاعة للكفار الذين هم مخلدون في النار ، قال – تعالى – : "لايخفف عنهم من عذابها ولايقضى عليهم فيموتوا" [7] ، – نعوذ بالله منها – فاذ لاشك فيه فقد صح يقينا ان الشفاعة التي اوجب الله – عز وجل – لمن اذن له واتخذ عنده عهدا ورضى قوله ، فانما هي لمذنبي اهل الاسلام وهكذا جاء الخبر الثابت" [8] ورد ابن حزمٍ على

---

(١) آل عمران :١٩٥ .

(٢) غافر : ١٧ .

(٣) الزلزلة : ٧-٨ .

(٤) ابن حزم ، الفصل : ٢٣٢-٢٣٣ والآية ، الزمر : ٦٥ .

(٥) الرعد : ٦

(٦) ابن حزم ، الفصل : ٢٣٤/٣ .

(٧) هكذا ، لكن الآية هذانصها : "والذين كفروا لهم نار جهنم لايقضى عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها" فاطر : ٣٦ .

(٨) ابن حزم ، الفصل : ٦٤/٤ .

المعتزلة فقال : "وقال بعض منكري الشفاعة : ان الشفاعة ليست الا في المحسنين فقط واحتجوا بقوله – تعالى – : "ولا يشفعون الا لمن ارتضى" [1] ، وهذا لاحجة لهم فيه لان من اذن الله في اخراجه من النار وادخله الجنة واذن للشافع في الشفاعة له في ذلك فقد ارتضاه" [2] ، ثم يقول مصرحا بالشفاعة لاهل الكبائر : "وانما الفقير الى الشفاعة من غلبت كبائره حسناته فادخل النار ولم يأذن – تعالى – باخراجه منها الا بالشفاعة" [3] .

ابن تيمية :

توسع ابن تيمية – رحمه الله – في مسائل اليوم الآخر توسعا كبيرا حتى كاد ان لايشاركه فيه احد بالرغم من ان المشهور عنه انه كان يهاجم المتكلمين الذين خاضوا فيما لم يخض فيه السلف – رضوان الله عليهم – ، ولنشر الى بعض المواضيع التي بحثها من هذه المسائل :

أ– هل يفتن الانبياء والصبيان والمجانين في القبور ؟

ب– من المقصود بالاستثناء الواقع بعد النفخ ؟

جـ– هل الصعقة المذكورة في القيامة تعد رابعة وهل دخل موسى في هذه الصعقة ؟

د– هل عذاب القبر على النفس فقط ام على النفس والبدن ؟

هـ– بقاء النفس بعد فراق البدن .

و– هل يتكلم الميت في قبره ؟

ز– عود روح الميت الى بدنه في قبره .

ح– امتحان الصغار في الآخرة .

ط– ارواح المؤمنين في الجنة .

ي– اطفال الكفار هل هم خدم لاهل الجنة ؟

ك– هل يخاطب الله الناس يوم البعث بلسان العرب ؟ !!!

ل– هل يتناسل اهل الجنة ؟

م– بماذا يعرف الزمن في الجنة وليس فيها شمس ؟ !!!

ن– هل تبعث هذه الاجساد بعينها ؟

س– كيف صلى موسى في قبره ؟ !!! [4]

غالب هذه المباحث اسئلة وجهت الى الشيخ فأجاب عنها ، ولايعنينا هذا بقدر

---

(١) الانبياء : ٢٨ .

(٢) ابن حزم ، الفصل : ٦٤/٤ .

(٣) المصدر السابق : ٦٥/٤ .

(٤) ابن تيمية ، مجموع الفتاوي : ٤/الفهرست .

مايعنينا النتيجة ، فالمدارس الكلامية الاخرى كلها تعتذر عن زيادة المباحث الاعتقادية عندها بكثرة الاسئلة او وجود المشككين ونحو هذا .

والذي يهمنا هنا ذكر المسائل المهمة في منهجه ، لاسيما تلك التي تقدمت عند المتكلمين ، وربما نستطيع ان نتعرف على منهجه في النقاط التالية :

١-يثبت ابن تيمية ظواهر الاخبار الاخروية كبقية المتكلمين ، ويعتبر هذه من مسائل الاتفاق بين المسلمين ، فيقول : "مذهب سائر المسلمين بل وسائر اهل الملل اثبات "القيامة الكبرى" وقيام الناس من قبورهم ، والثواب والعقاب هناك ، واثبات الثواب والعقاب في البرزخ – مابين الموت الى يوم القيامة – هذا قول السلف قاطبة واهل السنة والجماعة ، وانما انكر ذلك في البرزخ قليل من اهل البدع" [١] ويقول في مسألة "الميزان" : "ان الاعمال توزن بموازين تبين بها رجحان الحسنات على السيئات وبالعكس ، فهو مابه تبين العدل ، والمقصود بالوزن العدل : كموازين الدنيا" [٢] .

٢- وفي الوعد والوعيد لايختلف ابن تيمية عن الاشاعرة وابن حزم ، فتراه يقول : "ولا يبقى في النار احد في قلبه مثقال ذرة من ايمان ، بل كلهم يخرجون من النار ويدخلون الجنة" [٣] وفي هذا رد للوعيدية "المعتزلة" . ثم يلتفت الى المرجئة فيرد عليهم بقوله : "ان تاب عن ذنوبه توبة نصوحا فان الله يغفر له ، ولايحرمه ماكان وعده ، بل يعطيه ذلك ، وان لم يتب وُزنت حسناته وسيئاته فان رجحت حسناته على سيئاته كان من اهل الثواب وان رجحت سيئاته على حسناته كان من اهل العذاب ، وماعد له من الثواب يحبط حينئذ بالسيئات التي زادت على حسناته ، كما انه اذا عمل سيئات استحق بها النار ، ثم عمل بعدها حسنات ، تذهب السيئات – والله اعلم –" [٤] .

٣- وفي الشفاعة ايضا يختار وقفة الاشاعرة وابن حزم مخالفا بذلك المعتزلة ، فيقول : "ان احاديث الشفاعة في اهل الكبائر ثابتة متواترة عن النبي – صلى الله عليه وسلم – وقد اتفق عليها السلف من الصحابة وتابعيهم باحسان وائمة المسلمين ، وانما نازع في ذلك اهل البدع من الخوارج والمعتزلة ونحوهم" [٥] .

تعقيب :

في ختام هذه المسألة من الممكن ان نستخلص بعض النقاط التي قد تنفعنا في تقييمنا لما قرأناه :

---

(١) المصدر السابق : ٢٦٢/٤ .

(٢) المصدر السابق : ٣٠٢/٤ .

(٣) المصدر السابق : ٣٠٩/٤ .

(٤) المصدر السابق : ٣٠٨/٤ .

(٥) المصدر السابق : ٣٠٩/٤ .

١- لاحظنا ان مسألة اليوم الآخر مع النصوص الكثيرة والواضحة التي وردت فيها ، الا ان الجدل الكلامي استطاع ان يصنع طرفين متناقضين او ضدين - بالاصح - تنتابهما رعدة ردود الافعال المؤذية في ميادين الفكر والتصور ، فلقد ظهرت المرجئة وظهرت المعتزلة على طرفي الطريق ، وبيد كل طرف مجموعة من النصوص تسلح بها . ولو جلس الفريقان وقدم كل واحد ماعنده ، فانهم قد يلتقون ، لكن هذا لم يحدث - ومع الاسى والاسف - في تاريخنا الفكري الا نادرا . فعلينا ان نعي الدرس .

٢- انه في كل صراع لابد ان يكون هناك اناس متصارعون وآخرون متفرجون ، ولاشك ان المتفرج اقدر على النقد والملاحظة ، وغالبا مايخرج المتفرجون وفي حقيبتهم انتقادات للفريقين ، وهذه الانتقادات قد تشكل قاعدة رصينة لبناء فريق ثالث ، وهكذا رأينا هذا واضحا في منهج الاشاعرة ومن وافقهم ، وفي الغالب ايضا يكون هؤلاء اقدر على تجاوز الاخطاء واتخاذ الموقف الصحيح ، وهذا درس آخر .

٣- ان هذا الفريق الثالث الذي استطاع ان يبني كيانه من بعد نظرات فاحصة هادئة الى الطرفين المتنازعين سيكون في الغالب اقدر على البقاء ، لانه يملك تجربة ناضجة خالية من ردود الافعال ، انها تجربة مقنعة ، ولذا لم يبق الآن من يعتقد عقيدة المعتزلة او المرجئة في مسألتي "الوعد والوعيد" و "الشفاعة" الا ماشاء الله ، وبقي الفريق الوسطي دون منازع !! وهذا يعطينا درسا آخر يهمنا كثيرا ونحن نسعى الى لم شمل الامة والنهوض بها بعيدا عن النزاع والشقاق ، ان النظرة الفاحصة المتأنية هي الباقية ، وانما المسألة مسألة وقت لاغير فلاعبرة بكثرة المشجعين لفريق يلعب الآن في الساحة ، علينا كيف نبني فريقنا الهادئ القادر على البقاء .

٤- ان نمط التفكير الانساني لابد ان يترك بصماته في اي مذهب او موقف ، ولذلك لايمكن ان يرقى اي مذهب الى مستوى الكمال المطلق ، ولو كان معتمدا على الوحي ، ان للصياغة وحدها صبغة خاصة فمابالك بالموازنة والترجيح والتفسير ونحو هذا ، ولذا نرى انصع المذاهب الكلامية في المسائل الاخروية لم ينج من الصبغة البشرية ، واني له ؟! وان شككت فاقرأ اي كتاب يعجبك في المسائل الاخروية تيميا او اشعريا او ظاهريا او اي كتاب آخر ، ثم انظر في نفسك هل اقشعر جلدك ؟ هل سالت دمعتك ؟ وبعد ان قرأت حتى تعبت وتثاءبت افتح القرآن واقرأ سورة "ق" وانظر ماترى ؟

ان مرادي من هذه النقطة بالذات ان عقيدة اليوم الآخر ينبغي ان تأخذ وظيفتها الحقيقية في تربية الروح وتزكية النفس ، انها اقوى سلاح في هذا الميدان ، وهيهات هيهات ان يكون لنا ذلك الا بعد ان نأخذها من الله بالصيغة التي انزلها هو -سبحانه - ، واما ماموجود في كتب الكلام فانه سلاح آخر ربما ينفعنا في معارك اخرى مع الفلاسفة او المبتدعين ، اما الذي نقدمه اصلا لانفسنا وللآخرين فلتكن الآيات البينات .

الفصل الثاني

المبحث الأول: الملائكة في القرآن الكريم

المبحث الثاني: الجن في القرآن الكريم

المبحث الاول
الملائكة في القرآن الكريم

الملائكة عالم آخر غير العالم البشري ، فلماذا يحدثنا عنهم القرآن الكريم ؟ بهذا السؤال يقدّم هذا المبحث لقارئه ، ذاك لاننا اكدنا دائما على ان العقيدة القرآنية عقيدة عملية ، لاينتج عن فهمها والايمان بها الا ماينفع المسلم في دنياه وآخرته ، ولذا فمن خلال العرض الموجز للموضوع هذا في القرآن الكريم ، سيتبين ان القرآن لم يخرج عن منهجه العام في العقيدة ، ولنر هذا المنهج من خلال النقاط الآتية :

١- ذكر القرآن "الملائكة" بهذا اللفظ ، او بالمفرد ، او المثنى نحو "٨٨" مرة . وحينما نرى الايات التي وردت فيها هذه الالفاظ نتأكد ان القرآن لم يحدثنا عن الملائكة سدى ولاللترف الفكري ، فلنتسلسل مع النقاط .

٢- تحدث القرآن عن الايمان بالملائكة "٣" مرات فقط كما في قوله تعالى : "ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة" (١) .

٣- تحدث القرآن عن قضية الخلق الاولى ، اي خلق آدم ، يوم ان لم يكن مع آدم الا الملائكة ، تحدث عنهم القرآن بنحو "١١" مرة . وكلها جاءت لتكريم الانسان ، والايذان بخطورة مهمته على هذه الارض . ولنقرأ هذه الاية فقط :

"واذ قال ربك للملائكة اني جاعل في الارض خليفة . قالوا اتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال اني اعلم مالاتعلمون . وعلم آدم الاسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال انبئوني باسماء هؤلاء ان كنتم صادقين . قالوا سبحانك لاعلم لنا الا ماعلمتنا انك انت العليم الحكيم . قال ياآدم انبئهم باسمائهم فلما انبأهم باسمائهم قال الم اقل لكم اني اعلم غيب السموات والارض واعلم ماتبدون وماكنتم تكتمون . واذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم" (٢) .

٤- وتحدث القرآن عن ان الملائكة ليسوا آلهة بل هم يؤمنون بالله ويسجدون له ويعبدونه ، فلاتجوز عبادتهم ابدا . وجاء ذكر الملائكة في هذا الموضوع بنح "٩" مرات ، وهذه بعض الامثلة :

"ولا يأمركم ان تتخذوا الملائكة والنبيين اربابا ايامركم بالكفر بعد اذ انتم مسلمون" (٣) .

---

(١) البقرة : ١٧٧ .

(٢) البقرة : ٣٠ - ٣٤ .

(٣) آل عمران : ٨٠ .

"شهد الله انه لا اله الا هو والملائكة واولوا العلم" [1] .

"ويسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته" [2] .

"ولله يسجد مافي السموات ومافي الارض من دابة والملائكة وهم لايستكبرون" [3] .

"ويوم يحشرهم جميعا ثم يقول للملائكة اهؤلاء اياكم كانوا يعبدون . قالوا سبحانك انت ولينا من دونهم" [4] .

٥- رد القرآن على تصورات المشركين ومواقفهم الخاطئة المتعلقة بالملائكة ، وقد اخذ هذا الموضوع من احصائية عدد "الملائكة" في القرآن حصة الاسد ، حيث تكرر لفظ الملائكة هذا بنحو "٢١" مرة .

ومن اقوالهم التي ردها القرآن : قولهم ان النبي لابد ان يكون ملكا او يأتي معه ملك ، وقد رد القرآن هذا بنحو "١٧" مرة ولنقرأ مثلا :

"وقالوا مالهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الاسواق لولا انزل اليه ملك فيكون معه نذيرا" [5] .

"فقال الملأ الذين كفروا من قومه ماهذا الا بشر مثلكم يريد ان يتفضل عليكم ولو شاء الله لانزل ملائكة ماسمعنا بهذا في آبائنا الاولين" [6] .

"وقالوا لولا انزل عليه ملك ولو انزلنا ملكا لقضي الامر ثم لاينظرون . ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلا وللبسنا عليهم مايلبسون" [7] .

ومن تصوراتهم الخاطئة قولهم : ان الملائكة اناث ، وهذا رجم بالغيب وجاء القرآن ليبين كذبهم وتخبطهم لاليشرح حقيقة جنس الملائكة ، ولهذا لم يستغرق الرد عليهم الا بهذا المقدار - مقدار تبيين كذبهم وتخبطهم - وفي هذا تحطيم للفكر الوثني الذي كان يقف بوجه الدعوة المباركة . وجاء الرد في "٤" مواضع منها :

"وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن اناثا اشهدوا خلقهم ستكتب شهادتهم ويسألون" [8] .

"ام خلقنا الملائكة اناثا وهم شاهدون" [9] .

---

(١) آل عمران : ١٨ .

(٢) الرعد : ١٣ .

(٣) النحل : ٤٩ .

(٤) سبأ : ٤٠ - ٤١ .

(٥) الفرقان : ٧ .

(٦) المؤمنون : ٢٤ .

(٧) الانعام : ٨ - ٩ .

(٨) الزخرف : ١٩ .

(٩) الصافات : ١٥٠ .

٦- تأييد الملائكة للمؤمنين ، فهم وان كانوا عالما غيبيا الا ان الله كما امرهم بالسجود لآدم - عليه السلام - يأمرهم ان يمدوا المؤمنين ويساندوهم ، وفي هذا من النفع والخير للمؤمن وهو يحمل دعوة الله ويجاهد اعداءه مالايحصى ، فاذا ضاقت الارض عليه وكان الطغاة اكثر نفيرا فان المؤمن معه اصدقاء اشداء لايعصون الله ماامرهم ، وقد ذكر القرآن الملائكة لهذا الغرض بنحو "٧" مرات ولنقرأ هذه الامثلة :

"اذ تقول للمؤمنين الن يكفيكم ان يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين . بلى ان تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين . وماجعله الله الا بشرى لكم ولتطمئن قلوبكم به وماالنصر الا من عند الله العزيز الحكيم" (١) .

ليس هذا فقط بل هم يدعون للمؤمنين ويصلون عليهم ويستغفرون لهم ولنقرأ :

"هو الذي يصلي عليكم وملائكته ليخرجكم من الظلمات الى النور" (٢) .

"الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا ربنا وسعت كل شئ رحمة وعلما فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم . ربنا وادخلهم جنات عدن التي وعدتهم ومن صلح من آبائهم وازواجهم وذرياتهم انك انت العزيز الحكيم . وقهم السيئات ومن تق السيئات يومئذ فقد رحمته وذلك هو الفوز العظيم" (٣) .

٧- ذكر بعض الاعمال التي يقوم بها الملائكة في الدنيا والتي لها علاقة بالانسان ومهمته ، وجاء ذكر الملائكة لهذا الغرض بنحو "١٥" مرة ومنه :

أ- الوحي عن طريق الملك : "ينزل الملائكة بالروح من امره على من يشاء من عباده ان انذروا انه لا اله الا انا فاتقون" (٤) .

ب- تسجيل الاعمال التي يقوم بها الانسان خيرا او شرا : "ولقد خلقنا الانسان ونعلم ماتوسوس به نفسه ونحن اقرب اليه من حبل الوريد . اذ يتلقى المتلقيان عن اليمين وعن الشمال قعيد . مايلفظ من قول الا لديه رقيب عتيد" (٥) .

جـ- قبض الارواح عند الموت : "قل يتوفاكم ملك الموت الذي وكل بكم ثم الى ربكم ترجعون" (٦) و "ولو ترى اذ الظالمون في غمرات الموت والملائكة باسطوا ايديهم اخرجوا انفسكم اليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تقولون على الله غير الحق وكنتم عن آياته

---

(١) آل عمران : ١٢٤ - ١٢٦ .

(٢) الاحزاب : ٤٣ .

(٣) غافر : ٧- ٩ .

(٤) النحل : ٢ .

(٥) ق : ١٦ - ١٨ .

(٦) السجدة : ١١ .

تستكبرون"[١] .

٨- ذكر دورهم في الاخرة ، وقد جاء ذكر لفظ "الملائكة" لهذا الغرض بنحو "١٣" مرة ، وللقرآن غاية واضحة من اخبارنا بذلك ، ولننظر في هذه النماذج الثلاث التي يقدمها القرآن الكريم عن دور الملائكة في ذلك اليوم :

النموذج الاول : دور عام من شأنه ان يلقي في النفوس الهيبة والرهبة ولنقرأ :

"فيومئذ وقعت الواقعة . وانشقت السماء فهي يومئذ واهية . والملك على ارجائها ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية . يومئذ تعرضون لاتخفى منكم خافية"[٢] .

"كلا اذا دكت الارض دكا دكا . وجاء ربك والملك صفا صفا"[٣] .

النموذج الثاني : دور خاص بالمؤمنين يزيدهم الله فيه انسا وحبورا ، ولنقرأ :

"لا يحزنهم الفزع الاكبر وتتلقاهم الملائكة هذا يومكم الذي كنتم توعدون"[٤] .

"جنات عدن يدخلونها ومن صلح من آبائهم وازواجهم وذرياتهم والملائكة يدخلون عليهم من كل باب . سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار"[٥] .

النموذج الثالث : دور خاص بالكافرين والظالمين يزيدهم الله فيه بؤسا وحسرة ، ولنقرأ :

"عليها ملائكة غلاظ شداد لايعصون الله ماامرهم ويفعلون مايؤمرون"[٦] .

"وسيق الذين كفروا الى جهنم زمراً حتى اذا جاؤها فتحت ابوابها وقال لهم خزنتها الم يأتكم رسل منكم يتلون عليكم آيات ربكم وينذرونكم لقاء يومكم هذا قالوا بلى ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين . قيل ادخلوا ابواب جهنم خالدين فيها فبئس مثوى المتكبرين"[٧] .

هذه النقاط تشكل الصورة المتكاملة التي اراد ان يقدمها القرآن لهذا الانسان ، انها صورة لاتحكي الكنه الغيبي ، ولاتجيب على اسئلة الباحثين في عالم الفلسفة ، وماوراء الطبيعة ، وانما صورة لكل مايحتاجه الانسان من معرفة عن ذاك العالم الغيبي في اداء وظيفته الكبرى على هذه الارض . ولهذا حدثنا القرآن كثيرا عن الملائكة ولكن ليس في حديثه هذا كله آية واحدة عن جنس الملائكة من حيث حقيقتهم الخلقية او الاجتماعية ، ولم يقل لنا : هل الملائكة يتناسلون ؟ وهل يأكلون ويشربون ؟ وهل ينامون ؟

---

(١) الانعام : ٩٣ .

(٢) الحاقة : ١٥ - ١٨ .

(٣) الفجر : ٢١ - ٢٢ .

(٤) الانبياء : ١٠٣ .

(٥) الرعد : ٢٣ - ٢٤ .

(٦) التحريم : ٦ .

(٧) الزمر : ٧١ - ٧٢ .

ولانحو هذا [١] ، بل ولم يرد في القرآن الاستدلال على وجود الملائكة ومناقشة المنكرين ونحو هذا ، ربما لانه لايوجد في المجتمع الذي نزل فيه القرآن من ينكر الملائكة ، فالمشركون يؤمنون بالملائكة ويصفونهم بانهم بنات الله !! واهل الكتاب عامة يؤمنون بالملائكة [٢] ، ولكن قد يكون منهج القرآن ذا مدى ابعد ، اذ من الممكن القول : ان الايمان بوجود الملائكة لاقيمة له ان لم يسبقه ايمان بالله ورسوله وكتابه ، واذا صح الايمان بالله والرسول والكتاب فان الايمان بالملائكة تحصيل حاصل ، ولذا كرس القرآن ادلته لاثبات تلك الاصول ، لقد رأينا اسهاب القرآن في اثبات وحدانية الله وصدق رسوله واعجاز كتابه ، فهذه هي القنطرة فمن آمن بهذا آمن بكل ماورد في كتاب الله بالضرورة ، ومن لم يؤمن بهذا فلاداعي لمحاولة اقناعه باخبار وردت في الكتاب ، اذ لاقيمة لاقناع هؤلاء بالملائكة ولابعفريت سليمان ولابعصا موسى .. الخ وهذا المنهج ينبغي ملاحظته ونحن نواجه الفلسفات الحديثة .

---

(١) الا اللهم في قوله - تعالى - : "الحمد لله فاطر السموات والارض جاعل الملائكة رسلا اولي اجنحة مثنى وثلاث ورباع يزيد في الخلق ما يشاء ان الله على كل شئ قدير" فاطر/١ . هذه الاية الوحيدة في القرآن التي تحدثت عن صفة خلقية للملائكة ، ومع هذا فقد عرضت عرضا سريعا لغاية واضحة وهي الاشارة الى قدرة الله - تعالى - ولم يفصل لنا القرآن عن هذه الاجنحة اي شئ .

(٢) بل يذهب الشيخ سعيد النورسي - رحمه الله - الى ابعد من هذا ، فيقرر الاجماع على وجود الملائكة ، فيقول تحت عنوان "الاجماع الضمني على حقيقة الملائكة" : "يمكن القول بان هناك اجماعا ضمنيا - مع تباين التعبير - على وجود حقيقة الملائكة ... فلم ينكر معنى الملائكة حتى المشاؤون من الفلاسفة الاشراقيين الذين اوغلوا في الماديات اذ عبروا عن معنى الملائكة بقولهم : ان هناك ماهية مجردة روحية لكل نوع . والآخرون من الاشراقيين عندما اضطروا لقبول معنى الملائكة اطلقوا عليهم - خطأ - : العقول العشرة وارباب الانواع" . الملائكة : ٢٠ .

المبحث الثاني
الجن في القرآن الكريم

الجن عالم غيبي آخر وربما يستدعي الاخبار عنهم السؤال نفسه الذي واجهنا عند حديثنا عن الملائكة ، لماذا يخبرنا القرآن عن الجن ؟ وماوجه الحاجة الى هذا وعقيدتنا عقيدة عملية ميدانية ؟!!

وقبل الاجابة يحسن بنا تقسيم هذا المبحث الى قسمين وكالآتي :

القسم الاول : الحديث عن الجن بصورة عامة ، والقرآن هنا يتحدث عن قوم خلقهم الله كما خلقنا ، وفيهم كثير من الطباع التي في الانسان ، وانهم مكلفون ايضاً بماكلف به الانسان من عبادة ودعوة .. الخ وسيحاسبون كما سنحاسب لان منهم الصالحين ومنهم الطالحين ، وان بعض الناس يتصورون عنهم تصورات خاطئة وقد ردها القرآن ، هذا تقريباً مجمل حديث القرآن عن الجن الذي تكرر فيه لفظ الجن او الجان ونحوها "٣٤" مرة . ولنفصل الآن هذا الاجمال وبأختصار :

١- تحدث القرآن عن خلق الجن ، وقد تكرر لفظ الجن لهذا المعنى مرتين فقط وهما : "ولقد خلقنا الانسان من صلصال من حمأ مسنون ، والجان خلقناه من قبل من نار السموم" [١] و "خلق الانسان من صلصال كالفخار . وخلق الجان من مارج من نار" [٢] .

٢- وتحدث عن اوجه الشبه والمشاركة المتعددة بين الانس والجن في الكثير من القضايا ، وهذه النقطة قد اخذت من احصائية لفظ "الجن" حصة الاسد حيث بلغت اكثر من "٢٠" مرة . ولنأخذ اوجه الشبه والمشاركة هذه :

أ- انهم خلقوا لعبادة الله : "وماخلقت الجن والانس الا ليعبدون" [٣] .

ب- انهم لايعلمون الغيب : "فلما خر تبينت الجن ان لو كانوا يعلمون الغيب مالبثوا في العذاب المهين" [٤]

جـ- ان منهم الصالحين والطالحين : "وانا منا الصالحون ومنا دون ذلك كنا طرائق قددا" [٥] و "وانا منا المسلمون ومنا القاسطون" [٦]

د- ان منهم الدعاة الى الله : "واذ صرفنا اليك نفراً من الجن يستمعون القرآن

---

(١) الحجر : ٢٦ - ٢٧ .
(٢) الرحمن : ١٤ - ١٥ .
(٣) الذاريات : ٥٦ .
(٤) سبأ : ١٤ .
(٥) الجن : ١١ .
(٦) الجن : ١٤ .

فلما حضروه قالوا انصتوا فلما قضى ولوا الى قومهم منذرين . قالوا ياقومنا انا سمعنا كتاباً انزل من بعد موسى مصدقاً لما بين يديه يهدي الى الحق والى طريق مستقيم . ياقومنا اجيبوا داعي الله" (١) .

هـ- ان منهم دعاة الى الشر والرذيلة والكفر - وهم شياطين الجن : "وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً شياطين الانس والجن يوحي بعضهم الى بعض زخرف القول غروراً ولو شاء ربك مافعلوه فذرهم ومايفترون . ولتصغي اليه افئدة الذين لايؤمنون بالآخرة وليرضوه وليقترفوا ماهم مقترفون" (٢) . هذا وسنفصل الحديث عن الشياطين بالقسم الآتي - ان شاء الله - .

و- انهم مشمولون بالتحدي مع الانس على ان يأتوا بمثل القرآن : "قل لئن اجتمعت الانس والجن على ان يأتوا بمثل هذا القرآن لايأتون بمثله ولو كانوا بعضهم لبعض ظهيرا" (٣) .

ز- انهم لايستطيعون ان ينفذوا من اقطار السموات والارض الا بسلطان : "يامعشر الجن والانس ان استطعتم ان تنفذوا من اقطار السموات والارض فأنفذوا لاتنفذون الا بسلطان" (٤) .

ح- ان لهم القدرة على الصناعات ونحوها : "ومن الجن من يعمل بين يديه بأذن ربه ومن يزغ منهم عن امرنا نذقه من عذاب السعير . يعملون له مايشاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب وقدور راسيات" (٥) .

ط-ان لهم شهوة كالانس:"فيهن قاصرات الطرف لم يطمثهن انس قبلهم ولاجان" (٦)

ي- انهم سيحاسبون يوم القيامة كالانس فاما الجنة واما النار : "ويوم يحشرهم جميعاً يامعشر الجن قد استكثرتم من الانس وقال اولياؤهم من الانس ربنا استمتع بعضنا ببعض وبلغنا اجلنا الذي اجلت لنا قال النار مثواكم خالدين فيها الا ماشاء الله ان ربك حكيم عليم . وكذلك نولي بعض الظالمين بعضاً بما كانوا يكسبون . يامعشر الجن والانس ألم يأتكم رسل منكم يقصون عليكم آياتي وينذرونكم لقاء يومكم هذا قالوا شهدنا على انفسنا وغرتهم الحياة الدنيا وشهدوا على انفسهم انهم كانوا كافرين . ذلك ان لم يكن ربك مهلك القرى بظلم واهلها غافلون . ولكل درجات مماعملوا وماربك بغافل عما يعملون" (٧) .

---

(١) الاحقاف : ٢٩ - ٣١ .
(٢) الانعام : ١١٢ - ١١٣ .
(٣) الاسراء : ٨٨ .
(٤) الرحمن : ٣٣ .
(٥) سبأ : ١٢ - ١٣ .
(٦) الرحمن : ٥٦ .
(٧) الانعام : ١٢٨ - ١٣٢ .

٣- وردّ عل بعض تصورات المشركين الخاطئة عن الجن ، ومنها :

أ- الاستعاذة بهم لأعتقاد انهم يفعلون مايشاءون : " وانه كان رجال من الانس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقا" (١)

ب- عبادتهم من دون الله ، وهذه تابعة للاولى : "قالوا سبحانك انت ولينا من دونهم بل كانوا يعبدون الجن اكثرهم بهم مؤمنون . فاليوم لايملك بعضكم لبعض نفعاً ولاضراً ونقول للذين ظلموا ذوقوا عذاب النار التي كنتم بها تكذبون" (٢)

جـ- انهم جعلوا بين الله وبين الجنة نسباً : "الا انهم من افكهم ليقولون . ولد الله وانهم لكاذبون . اصطفى البنات على البنين . مالكم كيف تحكمون : افلا تذكرون . ام لكم سلطان مبين . فأتوا بكتابكم ان كنتم صادقين . وجعلوا بينه وبين الجنة نسباً ولقد علمت الجنة انهم لمحضرون . سبحان الله عما يصفون" (٣) .

وهكذا يتحدث القرآن عن شعب غيبي يحمل كثيرا من طبائع الانس ، وانه يخوض تجارب كثيرة في ميادين الصراع بين الحق والباطل ، وان المسلم من الممكن ان يتعظ من هؤلاء وان يستفيد من تجاربهم ، طالما ان الساحة هي الساحة ، والواجب هو الواجب ، والصراع هوالصراع ، !! وكما ان القرآن يخبرنا عن اقوام سالفين لسنا نراهم : عاد وثمود وفرعون ، وبمقابلتهم المؤمنون ، ليكون لنا في قصصهم عبرة ، فما المانع ان يحدثنا القرآن عن هؤلاء ، وهم اقدم في الخلق واكثر في العدد ؟!! وعلى هذا جاء حديث القرآن عنهم بهذا المنظار ولهذه الغاية - والله اعلم - (٤) .

القسم الثاني : ابليس والشياطين :

ولنبدأ بأبليس ، فقد ورد ذكره في القرآن الكريم "١١" مرة ، تسعة منها تذكره عند الحديث عن قصته مع آدم - عليه السلام - والاثنتان عن اتباع ابليس ومصيرهم . هذه كل المسألة ، ولو اردنا ان نقف بعض الشئ على قصته مع ابينا ، فأنا سنجد القرآن يعرض حقائق كبيرة لايمكن لابن آدم الا ان يقف عليها ويتأملها ، وهذه اولا القصة ، ومن موضع واحد في القرآن الكريم : "ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا الا ابليس لم يكن من الساجدين . قال مامنعك الا تسجد اذا امرتك قال انا

---

(١) الجن : ٦ .

(٢) سبأ : ٤١ - ٤٢ .

(٣) الصافات : ١٥١ - ١٥٩ . واختلف المفسرون في معنى النسب هنا ، فقال بعضهم : ان المشركين زعموا ان الملائكة بنات الله وان امهات الملائكة من الجن !! وروى عن ابن عباس في تفسيره للآية انه قال :"زعم اعداء الله انه - تبارك وتعالى - هو وابليس اخوان !!! تفسير ابن كثير : ٤/ ٢٤ .

(٤) بأسهاب تحدث الاستاذ محمد عزة دروزة عن حاجة الانسان لاسيما في ذلك الزمان الى فهم الجن ، وتصحيح كثير من المفاهيم التي كانت سائدة في هذا المضمار . انظر القرآن والملحدون : ٢٠٣ - ٢١٠ .

خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين . قال فأهبط منها فمايكون لك ان تتكبر فيها فأخرج انك من الصاغرين . قال انظرني الى يوم يبعثون . قال انك من المنظرين . قال فبما اغويتني لاقعدن لهم صراطك المستقيم . ثم لآتينهم من بين ايديهم ومن خلفهم وعن ايمانهم وعن شمائلهم ولاتجد اكثرهم شاكرين . قال اخرج منها مذءوماً مدحوراً لمن تبعك منهم لاملأن جهنم منكم اجمعين"[١] .

هذه القصة المتكررة هي التي تكرر معها ذكر ابليس "٩" مرات من اصل "١١" مرة يذكر اسمه في القرآن . ولعل المرتين الباقيتين لاتبتعدان عن هذه القصة ، فالعهد الذي قطعه ابليس على نفسه في غوايته بني آدم نفذه قال الله عنه : "ولقد صدّق عليهم ابليس ظنه فأتبعوه الا فريقاً من المؤمنين"[٢] .

ووفى الله – تعالى – بوعيده ايضاً فقال : "فكبكبوا فيها هم والغاوون . وجنود ابليس اجمعون"[٣] .

وفي غير هذه المواضع لم يذكر القرآن اسم "ابليس" . فأبليس اذا يمثل حقيقة هائلة بالنسبة للانسان ، انه مشعل فتيل الحرب التي كتب الله علينا ان نخوضها على هذه الارض ، وانه سيكسب في معركته هذه جنوداً ، وان المعركة ستزداد حدة وضراوة ، لهذه الحقيقة جاء ذكر "ابليس" . انه لم يتحدث عنه لشئ آخر ، وهكذا تتأكد جدية العقيدة القرآنية في الواقع الميداني .

والقرآن يشير الى اصل الفتنة انه "التكبر" وكأنه يريد ان يحذر بني آدم مرتين : الاولى : ان لايتكبروا فهذه خطورة الكبرياء الباطل . والثانية : ان الطغاة المتكبرين هم تلاميذ ابليس وجنوده .

ويشير ايضاً الى ان الطبيعة التي انتجت الكبر والخطيئة هي ليست طبيعة ملائكية وانما هي طبيعة كثيرة الشبه بطبيعة الانسان ، ان ابليس من الجن[٤] ، قال القرآن في هذا الموضع : "خلقتني من نار" وقال في موضع آخر : "كان من الجن ففسق عن امر ربه"[٥] . وقد مر معنا اوجه الشبه بين الجان والانسان فليحذر الانسان !! .

واما الشياطين فقد ذكرهم القرآن الكريم "٨٨" مرة . ومن الملفت للنظر ان يتطابق

---

(١) الاعراف : ١١ – ١٨ .

(٢) سبأ : ٢٠ .

(٣) الشعراء : ٩٤ – ٩٥ .

(٤) انظر القرآن والملحدون : ٢٠٨ مع الهامش .

(٥) الكهف : ٥٠ .

ففي هذه المسألة مؤشر واضح على جنوح العقل الاسلامي في مرحلة تأريخية حرجة الى البحث فيما لايمكن ان يدرك ، ولو ادرك فرضا فانه لامساس له بالواقع والميدان التكليفي ، فاذا علمت ان المعتزلة والاشاعرة يؤمنون جميعا بأن الله ارسل رسلا وختم هؤلاء الرسل برسالة محمد – صلى الله عليه وسلم – وان طاعته واجبة يثاب عليها ومخالفته معصية يعاقب عليها ، فماذا سيؤثر بعد هذا ان نبحث في هؤلاء الرسل الذين ارسلهم الله يقينا أأرسلهم الله لان ارسالهم كان واجبا عليه – تعالى – ام لا؟!! بحث لاطائل من ورائه – والله – .

المسألة الثانية - تعريف النبي والرسول :

يتفق الاشاعرة مع المعتزلة في التعريف اللغوي لهاتين الكلمتين ، الا انهم يخالفونهم في جوهر الموضوع ، فبينما يرى المعتزلة انه من حيث الاصطلاح لافرق بين النبي والرسول فكل نبي رسول وكل رسول نبي ، يرى الاشاعرة غير هذا ، يقول البغدادي – رحمه الله – : "وكل رسول لله – عز وجل – نبي وليس كل نبي رسولا ، والفرق بينهما ان النبي من اتاه الوحي من الله – عز وجل – ونزل عليه الملك بالوحي ، والرسول من يأتي بشرع على الابتداء او ينسخ بعض احكام شريعة قبله" (1) . ولكني في الحقيقة لم اجد مايقطع بترجيح احد الرأيين من القرآن الكريم ، ومعنى هذا ان القرآن لم يهتم بها ربما لعدم جدواها من الناحية العملية كما هو دأب القرآن – والله اعلم – .

المسألة الثالثة - دليل صدق الرسول :

ربما لايختلف الاشاعرة مع المعتزلة في هذه المسألة اطلاقا ، ولذا سنعرض شواهد الوفاق :

يقول الجويني – رحمه الله – : "اعلموا ان المعجزة لها اوصاف تتعين الاحاطة بها ، منها ان تكون فعلا لله – تعالى – فلايجوز ان تكون المعجزة صفة قديمة ، اذ لااختصاص للصفة القديمة ببعض المتحدين دون بعض" (2) .

ويقول ايضا : " ومن شرائطها ان تكون خارقة للعادة ، اذ لو كانت عامة معتادة يستوي فيها البار والفاجر والصالح والطالح ومدعي النبوة المحق بها والمفتري بدعواه ، لما أفاد مايقدر معجزا تمييزا وتنصيصا على الصادق ولاخفاء بذلك" (3) .

ويقول ايضا "والشريطة الثالثة للمعجزة ان تتعلق بتصديق دعوى من ظهرت على

---

(1) البغدادي ، اصول الدين : ١٥٤ .

(2) الجويني ، الارشاد : ٣٠٨ .

(3) المصدر السابق : ٣٠٩ .

"من بعد ان نزغ الشيطان بيني وبين اخوتي" [١] .

"ان الذين ارتدوا على ادبارهم من بعد ماتبين لهم الهدى الشيطان سول لهم" [٢] .

"انما النجوى من الشيطان ليحزن الذين آمنوا" [٣] .

٥- وان الشيطان قد يستعين على عمله هذا بالنسيان ، فحينما ينسى الانسان ربه او ينسى حقيقة المعركة التي يخوضها قد يقع في فخ الشيطان ، ولذا جاءت آيات كثيرة تنسب النسيان الى الشيطان ولنقرأ مثلاً :

"واما ينسينك الشيطان فلاتقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين" [٤] .

"فأنساه الشيطان ذكر ربه فلبث في السجن بضع سنين" [٥] .

"فأني نسيت الحوت وما انسانيه الا الشيطان" [٦] .

٦- وان الشيطان له حزب وله اولياء ، وان واجبنا استشعار عداوتهم وقتالهم :

"اولئك حزب الشيطان الا ان حزب الشيطان هم الخاسرون" [٧] .

"فقاتلوا اولياء الشيطان ان كيد الشيطان كان ضعيفا" [٨] .

٧- الامر بالاستعاذة بالله من الشيطان :

"واما ينزغنك من الشيطان نزغ فأستعذ بالله" [٩] .

"فاذا قرأت القرآن فأستعذ بالله من الشيطان الرجيم" [١٠]

"اني اعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم" [١١] .

٨- وان الشيطان قد يعمل عمل الانسان في الصناعات وغيرها :

"ومن الشياطين من يغوصون له ويعملون عملاً دون ذلك" [١٢] .

"فسخرنا له الريح تجري بأمره رخاء حيث اصاب . والشياطين كل بناء وغواص . وآخرين مقرنين في الاصفاد" [١٣] .

---

(١) يوسف : ١٠٠ .

(٢) محمد : ٢٥ .

(٣) المجادلة : ١٠ .

(٤) الانعام : ٦٨ .

(٥) يوسف : ٤٢ .

(٦) الكهف : ٦٣ .

(٧) المجادلة : ١٩ .

(٨) النساء : ٧٦ .

(٩) فصلت : ٣٦ .

(١٠) النحل : ٩٨ .

(١١) آل عمران : ٣٦ .

(١٢) الانبياء : ٨٢

(١٣) ص : ٣٦ - ٣٨ .

٩- وان الشيطان قد يمس الانسان ويتركه دون وعي :
"الذين يأكلون الربا لايقومون الا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس" [١] .
لكن القرآن لم يبين حقيقة المس ، ربما لانه معروف - والله اعلم - .
١٠-واخيراً فالقرآن يرسم النتيجة الطبيعية للشيطان وحزبه :
"وقال الشيطان لما قضي الامر ان الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم وماكان لي عليكم من سلطان الا ان دعوتكم فأستجبتم لي فلاتلوموني ولوموا انفسكم ما انا بمصرخكم ومانتم بمصرخي اني كفرت بما اشركتمون من قبل ان الظالمين لهم عذاب اليم" [٢] . اللهم اعذنا من الشيطان ولاتخزنا يوم يبعثون .

هذا وقد رأيت الاكتفاء في هذا الموضوع بما ورد في القرآن الكريم لاني حينما فتشت في كتب المتكلمين لم اجد مايستحق ان افرده ببحث خاص ، فالمتكلمون عموماً لم يرد عنهم مايمكن اعتباره مذاهب مستقلة "في العلوم الغيبية" ، وكأنهم اكتفوا بما جاء في القرآن "وكفى الله المؤمنين القتال" غير اني اود التنبيه الى ان اهتماماً غير معتاد طرأ حديثاً حول مسألة "الجن" وعلاقتهم بالانسان ، ولاادري بالضبط الدوافع الحقيقية ، ولكني ادعو الى دراسة هذه الظاهرة الواسعة ، دراسة جادة لاسيما اني رأيت كثيراً من اهل العلم قد انجروا وراءها . وخذ مثلاً على هذا عشرات الكتب التي الفت في هذا الموضوع مثل كتاب "حوار صحفي مع جني مسلم" يدعي فيه المؤلف انه قابل واحداً من الجن وانه اجرى معه حوراً طويلاً واستطاع من خلال الحوار ان يكتشف حقائق هامة منها مثلاً اسرار مثلث برمودا الذي حير الناس حيث اكتشف هذا ان المثلث عبارة عن عرش ابليس الاكبر [٣] !!! ثم يطالعنا آخر بعنوان "العلاج الرحماني للسحر والمس الشيطاني" ثم يصدر الشيخ عبد العزيز القحطاني كتابه الموسوم "طريق الهداية في درء مخاطر الجن والشياطين" ثم الشيخ عبد السلام عبد الواحد في كتابه "عالم الجن والشيطان" وغير هذا كثير [٤] ، هذا بالاضافة الى اشرطة التسجيل التي تتحدث عن هذا الموضوع بل منها مايسجل حواراً بين احد الشيوخ والجني الداخل في جسد انسان آخر ، ولقد سمعت شريطاً تتحدث فيه امرأة تدعي انها من الجن واسمها "مرجانة" وفتحت كثير من عيادات الاستطباب من المس ..

ان هذا الموضوع جدير بالدراسة ولست اريد هنا الا الاشارة الى ان هذه المساحة من الاهتمام لاتتناسب مع المنهج القرآني ، فالقرآن لم يتحدث عن الجن من هذا المنظار الا اللهم في آية واحدة جاءت في معرض التشبيه "الذين يأكلون الربا لايقومون الا كما

---

(١) البقرة : ٢٧٥ .
(٢) ابراهيم : ٢٢ .
(٣) حوار صحفي مع جني مسلم : ٧٨ .
(٤) واغلب هذه الكتب صدر خلال هذا العقد !

يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس"[1] ، ثم امامنا سيرة السلف الصالح - رضي الله عنهم - والتابعين لهم بأحسان ، نعم قد ترد حادثة واحدة في الجيل الواحد او اكثر قليلاً اما بهذا الكم الملفت للنظر فهذا غير طبيعي ، ولاريب ان هذا يتعارض مع قول الله - تعالى - "ان كيد الشيطان كان ضعيفا"[2] ، فاذا كان الشيطان بأستطاعته ان يدخل في اجساد الآلاف من المسلمين ويغير نمط تفكيرهم ويخلط الاوراق عليهم فأي قوي يستطيع ذلك ؟!!! ثم انظر الى قوله - تعالى - حاكياً مقولة الشيطان يوم القيامة : "وماكان لي عليكم من سلطان الا ان دعوتكم فأستجبتم لي"[3] والا بعد ماتفيد الحصر فالشيطان يملك الدعوة والتزيين والوسوسة اما انه يملك ان يتصرف بأرادة الآلاف من البشر فهذا بعيد عن حكمة الله ، وليس معنى هذا انكار المس ولكن لو وقع فأنه ليس بهذه الكثرة المريبة ، وان القضية مازالت دعوة للدراسة لاغير - والله اعلم - .

---

(١) البقرة : ٢٧٥ .

(٢) النساء : ٧٦ .

(٣) ابراهيم : ٢٢ .

الخاتمـــة

وفي ختام هذا المجهود ، بودي ان اقدم هذه الخاتمة التي تتضمن خلاصة مختصرة مع اهم الاستنتجات ومن خلال ثلاثة محاور ، وكما ياتي :

المحور الاول - العقيدة من حيث مدلولها ، وعلاقتها بعلم الكلام :

اولا : تمثل العقيدة الاسلامية اجابة الاسلام على الاسئلة الثلاثة الخطيرة التي حيرت الفلاسفة من القدم[1] من أوجد الانسان ؟ وماالغاية من وجوده ؟ والى اين المصير؟ فجاءت أجوبة الاسلام واضحة جلية : الله خالق الانسان والكون أجمع . : "الله خالق كل شئ"[2] . والغاية من الخلق هي عبادة الله وحده ، "وماخلقت الجن والانس الا ليعبدون"[3] . فهذه وظيفة الانسان على الارض . والمصير : هو الحياة الاخرى بعد الموت : "كيف تكفرون بالله وكنتم امواتا فاحياكم ثم يميتكم ثم يحيكم ثم اليه ترجعون"[4] .

هذه الاجوبة فصلها القرآن الكريم وفصل مايتعلق بها ممايحتاجها الانسان ، ونشأ عن هذا التفصيل أبواب العقيدة المعروفة ، فالقرآن تحدث عن الخالق – سبحانه وتعالى – من حيث وجوده ، وتوحيده ، واسماؤه وصفاته ، وافعاله . وتحدث عن العبادة من حيث انها طاعة لله ، لامره ونهيه ، وان هذه الاوامر والنواهي يعرفها الانسان عن طريق رسل الله – عليهم الصلاة والسلام – فبحث القرآن مايتعلق بهؤلاء الرسل من حيث : أسماؤهم وصفاتهم ، ودليل صدقهم ، ونحو هذا ثم تحدث القرآن عن اليوم الآخر من الموت الى يوم الحساب والجزاء . هذه هي عقيدة القرآن .

ثانيا : لقد جاءت عقيدة القرآن واضحة ليفهمها كل الناس ، مفصلة لكي لايحتاج الانسان لغير وحي الله ، متناسبة مع وظيفة الانسان وامكانياته العقلية والنفسية ، فلم تحدث الانسان الا بما يصلحه وينفعه في دنياه واخراه .

ثالثا : ولقد اثمرت عقيدة القرآن انسانا سويا ، تفجرت فيه الطاقات الكامنة ، فكانت حضارة الاسلام ودولته الكبيرة العظيمة .

رابعا : الا ان حديث القرآن عن الغيب كان لابد ان يكون بلغة الانسان التي يتعامل معها في عالم الشهادة لكي يفهمها ، لكن هل وضعت هذه اللغة لتعبر عن عالم الغيب ؟! بمعنى هل ستعبر لغة الشهادة عن حقائق الغيب التعبير الصادق المستقيم الذي لايثير اي اشكال او اشتباه ؟! لنأخذ مثالا واحدا :

---

(١) انظر قصة الايمان لنديم الجسر : ٢٠-٢١ . وكيف صور ان الشيخ لما قرأ هذه الاسئلة وشبهها في الورقة الصغيرة "ترنح مغشيا عليه" .

(٢) الزمر :٦٢ .

(٣) الذاريات :٥٦ .

(٤) البقرة : ٢٨ .

قوله – تعالى – عن الجنة : "واصحاب اليمين مااصحاب اليمين . في سدر مخضود . وطلح منضود . وظل ممدود . وماء مسكوب . وفاكهة كثيرة . لامقطوعة ولا ممنوعة" [1] فهل هذا كله حقيقة ؟ اي هل هذا مانعرفه في الدنيا ؟ لقد ورد عن ابن عباس – رضي الله عنهما – انه كان يقول : "ليس في الدنيا شئ مما في الجنة الا الاسماء" [2] !!! اذاً فالسدر ليس هو هذا السدر الذي نعرفه ، ولكن لماذا يسميه الله سدرا اذ ا لم يكن هو هو ؟ ان الله لو سماه لنا باسم آخر فهل سيحصل الترغيب بالجنة وثمارها [3] ؟! ان الانسان لايرغب الا ماالفه من النعيم واللذة ، ولهذا جاءت آيات الترغيب كلها مألوفة لديه ، اذا فالانسان لايفهم الا لغته ، وحديث القرآن عن جوانب العقيدة كلها جاء بلغته المألوفة لكن لتعبر عن حقائق غيبية ليست مألوفة ولامعروفة .. فكان لابد ان يحدث الاشكال في الفهم والتفسير ..

الا ان القرآن عصم الجيل الاول من الانزلاق في هذه المتاهة بمنهج القرآن العملي الذي قاد ذالك الجيل الى ميادين الجهاد والبذل والعطاء ، فكانت التربية القرانية تدفع الانسان لاداء وظيفتة بالصورة الاجد والاكمل ، آخذا من نصوص العقيدة المعنى المتعلق بالغاية والوظيفة ، مبتعدا عن معاني الغيب المطلق الذي لاعلاقة له بميادين العمل ، لكن الى اين ستستمر هذه الموازنة ؟! .

خامسا : ومع مرور الزمن ظهرت هذه الاشكالات بطريقة متنامية مع الزمن ، ساعد على ذالك ضعف الجانب العملي عند المسلمين ، واحتكاك الدائرة الاسلامية بالدوائر الحضارية الكبيرة العريقة ، فأشغلت هذه التسؤلات الامة ، وانشغلت الامة بها ، فولد هذا كله فرقا ومذاهب مختلفة متباينة ، مازلنا نعيش اثارها الى اليوم .

سادسا : ومجموع مادار بين هذه الفرق من كلام وجدال واخذ ورد مزج مع عقيدة الوحي ، وكون مااصطلح على تسميته "بعلم الكلام" فكان هذا العلم يضم عقيدة الوحي بالاضافة الى نتاج العقول الكبيرة التي خاضت هذا الغمار دفاعا او هجوما ، تبويبا او ترتيبا ، شرحا او تفسيرا ، فاختلف الناس في نظرتهم الى هذا العلم تبعا لاختلاف ماوقعت عليه عيونهم منه ، فمن نظر الى عقيدة الوحي فيه ، او مايناسب نمط تفكيره هو مدحه ودعا اليه ، ومن نظر الى مافيه من نتاج عقلي وجدل فلسفي بعيدا عن نمطه هو في التفكير والتربية ذمه وحذر منه .

سابعا : والخطوة الاولى في الطريق الصحيح ينبغي ان تبدأ في التفريق بين عقيدة الوحي وبين مااختلط بها او جاورها من اجتهاد انساني ونظر عقلي ، والالتقاء على الاولى بلا تكلف ، وأخضاع الثانية الى النقد والتمحيص

---

(١) الواقعة : ٢٧-٣٣ .

(٢) مجموع الفتاوي : ٣/٢٨ .

(٣) واذا كانت هذه الاشكالات تحصل عند الحديث عن الجنة بلغة الدنيا ، وكلاهما مخلوقتان ، فكيف اذا كان الحديث بلغة الانسان المخلوق عن الله الخالق العظيم ؟!

ثامنا : ومن خلال هذا المبحث الذي هدف – أول ماهدف اليه – الى هذه الخطوة وجدت انه ليس من الصعب فصل عقيدة القرآن عما اختلط بها ، ثم تبين لي انه ليس من الصعب ايضا فهم عقيدة القرآن من غير الرجوع الى كلام المتكلمين ، بل اني وجدت عقيدة القرآن اوضح بكثير من كتب اهل الكلام ، واي نظرة في اي فصل من فصول هذه الرسالة تكفي لادراك هذه الحقيقة .

تاسعا : وليس معنى ماتقدم حذف جهود المئات من علمائنا الكبارالذين لهم الدور الكبير في صد الفلسفات الغازية والدعوات الباطنية الاثيمة ، ان هذه التجارب ينبغي ان تصان في عقول اهل الاختصاص وعدها سلاحا من الممكن ان نحتاج اليه في كل حين.. الا ان العقيدة التي يجب ان نقدمها للناس عامتهم هي عقيدة القرآن المجردة ، لانها محل الاتفاق اولا وثانيا لاننا لانحتاج غيرها ، وثالثا لان الله لن يحاسبنا هنالك الا على ماجاء فيها ..

المحور الثاني – خلاصة العقيدة التي جاء بها القرآن :

ربما نستطيع ان نلخص عقيدة القرآن الكريم بالنقاط الاتية :

اولا – في موضوع "الالهيات" بحث القرآن المسائل الاتية :

١– اثبات وجود الله ، ولم يتحدث القرآن عن هذه المسألة بصورة مباشرة ، ولم يقف عندها طويلا ، اذ الايمان بوجود خالق لهذا الخلق ضرورة عقلية ، وغالب ادلة القرآن هنا جاءت لاثبات مسائل اخرى الا انها تتضمن اثبات الخالق – سبحانه – ويمكن اعتبار ابرز الادلة التي ساقها القرآن هو : دليل الاختراع والعناية ، الذي كرره القرآن كثيرا ولخصه القرآن بقوله : "ام خلقوا من غير شئ ام هم الخالقون ، ام خلقوا السموات والارض بل لايوقنون" [١] . وقد نجح القرآن في تحريك الفطرة الكامنة في داخل الانسان ، ثم في اظهار عجز المشركين ومعبوداتهم عن ان يخلقوا كخلق الله ولو اجتمعوا له ، ثم في عجزهم عن مجاراة معجزة الرسول – صلى الله عليه وسلم – وهذه وان سيقت لاثبات صدق الرسول الا انها تحمل دليل وجود المرسل ، ومن باب اولى .

٢– اثبات وحدانيته – تعالى – ، والوحدانية التي جاء بها القرآن يمكن ترتيبها على النحو الآتي :

أ– اثبات وحدانيته – تعالى – في الخلق : "الله خالق كل شئ" [٢] .

ب– اثبات وحدانيته – تعالى – في الملك : "ولم يكن له شريك في الملك" [٣]

جـ– اثبات وحدانيته – تعالى – في الحكم والتشريع والامر والنهي : "مالهم من

---

(١) الطور :٣٥–٣٦ .

(٢) الزمر : ٦٢ .

(٣) الفرقان : ٢ .

دونه من ولي ولايشرك في حكمه احداً"[1] "ومن لم يحكم بماانزل الله فأولئك هم الكافرون"[2]

د- اثبات وحدانيته - تعالى- في العبادة والطاعة المطلقة ، وهذه متعلقة بما قبلها ، بل هي ثمرتها الحقيقية ، "وماأمروا الا ليعبدوا الهاً واحداً" [3] وعد القرآن هذه هي غاية الخلق "وماخلقت الجن والانس الا ليعبدون" [4] .

هـ- اثبات وحدانيته - تعالى - في اسمائه وصفاته وافعاله . فلاشريك له في كل ذلك : "هل تعلم سمياً" [5] "ولايحيطون بشئ من علمه" [6] "فعال لمايريد" [7] .

وقد استخدم القرآن الادلة المقنعة لاثبات وحدانيته - تعالى - بكل جوانبها ، فأستخدم دليل الاختراع والعناية الذي لايستطيع احد ان ينازع الله فيه ، واستخدم دليل النظام الموحد او "عدم فساد الكون" اذ "لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا" [8] ونجح فعلاً في تحريك الفطرة الكامنة الشاهدة بالوحدانية ، "واذا مسكم الضر في البحر ضل من تدعون الا اياه" [9] ثم اثبت فقدان اهل الشرك للدليل "قل أرأيتم ماتدعون من دون الله اروني ماذا خلقوا من الارض ام لهم شرك في السموات ائتوني بكتاب من قبل هذا او اثارة من علم ان كنتم صادقين" [10] .

٣- اسماؤه - تعالى - وصفاته ، فقد وصف الله نفسه بصفات وسمى نفسه بأسماء ، وكل اسمائه - تعالى - تحمل معاني يستفيد منها الانسان في اداء مهمته ووظيفته ، فمن اسمائه - تعالى - مايدل على الوحدانية ومنها مايدل على عظمته -تعالى- وكبريائه ، ومنها مايدل على رحمته ورأفته بخلقه ، ومنها مايدل على علمه الشامل المطلق ، وهكذا ، صفاته - تعالى - الا ان القرآن وردت به بعض الاضافات البعيدة عن هذه المعاني والبعيدة عن اسمائه - تعالى - كالوجه واليدين ، وقد اشكل معناها على المتكلمين ، الا ان المقصود منها جليّ في الغالب لايحتاج الى تكلف ومابعد المقصود لاينفع الانسان ولو علم الله انه ينفعه لفصله - والله اعلم - .

---

(١) الكهف : ٢٦ .

(٢) المائدة : ٤٤ .

(٣) التوبة : ٣١ .

(٤) الذاريات : ٥٦ .

(٥) مريم : ٦٥ .

(٦) البقرة : ٢٥٥ .

(٧) البروج : ١٦ .

(٨) الانبياء : ٢٢ .

(٩) الاسراء : ٦٧ .

(١٠) الاحقاف : ٤ .

٤- عقيدة القدر ، ويمكن متابعتها في القرآن على النحو الآتي :
أ- اثبت القرآن لله - تعالى - الارادة المطلقة "فعال لما يريد" .
ب- ومع الارادة المطلقة ، اثبت القرآن العدل الالهي و "ان الله لايظلم مثقال ذرة"[1]
جـ- وانه - تعالى - جعل الدنيا دار ابتلاء لادار عدل وجزاء ، فقد يبتلى انساناً بالمرض وآخر يبتليه بالصحة !! ويبتلي انساناً بالفقر وآخر بالغنى !! وهكذا "ونبلوكم بالشر والخير فتنة"[2] .
د- وعلى هذا حث القرآن على الصبر والشكر ، الصبر على المصيبة والشكر على النعمة ، اذ الصبر والشكر ثمرتا الابتلاء المتقدم : "ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين"[3] و "اشكروا نعمة الله"[4] .
هـ- وطالب المسلم ان لايخشى المستقبل المجهول ، فكل شئ بقدر ، وهو مستعد للابتلاء المستمر بالشر والخير ، وان الحذر لايقي من القدر ، وان الهرب لاينجي من الموت "قل لو كنتم في بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل الى مضاجعهم"[5] ، وان هذه العقيدة هي التي فعلت الاعاجيب في ميادين الوغى وسوق الاستشهاد !!

هذه عقيدة واضحة جلية ، ويقابلها عقيدة الامر وهي ايضاً واضحة فالله يأمر عباده بما يشاء ويثبت القرآن ارادة الانسان الحرة التي قام على اساسها تكليفه بالامر ، "ونفس وماسواها فألهمها فجورها وتقواها قد افلح من زكاها وقد خاب من دساها"[6] ، والقرآن يثبت افعال الطاعة للانسان وافعال المعصية كذلك ، ولم يتطرق القرآن الى تلك الاسئلة الحرجة التي تريد ان تكشف وجه العلاقة بين ارادة الله المطلقة وارادة الانسان في تنفيذ الامر ، لان هذا - لو صدق الانسان مع نفسه - لاقيمة له في ميدان العمل !!

ثانياً : في موضوع "النبوات" بحث القرآن المسائل الآتية :
١- اهمية وجود الانبياء والرسل - عليهم الصلاة والسلام - وبين القرآن اهميتهم من خلال مؤشرات كثيرة ، منها ربط الايمان بهم بالايمان بالله - تبارك وتعالى - ومنها كبر المساحة التي اقتطعها مبحث النبوات من مجمل آيات القرآن الكريم ، ومنها انذار المكذبين لهم بالعقاب الشديد في الدنيا والآخرة .
٢- فصل القرآن صفاتهم المتعلقة بوظيفتهم الرئيسية ، كالصدق والتبليغ والامانة والحكمة وحسن القيادة ولين الجانب والشجاعة ، ولكي لايذهب المغالون بهذه الصفات

---

(١) النساء : ٤٠ .
(٢) الانبياء : ٣٥ .
(٣) محمد : ٣١ .
(٤) النحل : ١١٤ .
(٥) آل عمران : ١٥٤ .
(٦) الشمس : ٧ - ١٠ .

بعيداً فيخلطوا بين مقام العبد ومقام المعبود سجل القرآن مؤشرات بشريتهم كالمرض والجوع والتعب ، ثم بين بعض الزلات التي وقعوا بها ، وكل هذا ليحدث القرآن الموازنة المطلوبة في التصور الصحيح عن مقام النبوة .

٣- وبين القرآن مهمتهم الاساسية وهي "التبليغ" "ان عليك الا البلاغ" (١) وبين مايتعلق بها كالجهاد والامر بالمعروف والنهي عن المنكر .

٤- وذكر القرآن بعضاً من اسماء الرسل - عليهم الصلاة والسلام - وسكت عن آخرين "منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك" (٢) ، وقد اهتم القرآن بقصص بعضهم اكثر من الآخرين ، وابرز قصة رعاها القرآن واهتم بها هي قصة موسى - عليه السلام - فقد تحدث عنه حملاً ورضيعاً وصغيراً وكبيراً ، وتحدث عنه ابناً واخاً وزوجاً ونبياً ، وتحدث عنه ضعيفاً وقوياً وطريداً وقائداً ، وتحدث عنه وهو يحاجج فرعون وقومه ، وهو يتحدى السحرة ، وهو يقود بني اسرائيل ويعاني منهم مايعاني ، ولكن هذا كله مقصود - لاشك - فالشخصية الفرعونية شخصية مكررة في التاريخ ، ومشاكل بني اسرائيل مشاكل متكررة ايضاً ، بل ان عرض النفسية الاسرائيلية من خلال تأريخها الطويل نافع للامة الاسلامية في صراعها الطويل مع اولئك .

٥- وتحدث القرآن عن دليل صدق الانبياء ، فذكر مع اغلب الانبياء معجزات يعجز البشر عن ان يأتوا بمثلها ، فذكر عن نار ابراهيم وعصا موسى واحياء عيسى للاموات ، ومعجزة القرآن الخالدة .

٦- وتحدث القرآن عن الوحي بمقدار مايحتاجه الانسان ، فبين ان لاطريق لسماع كلام الله ، الا عن طريق الالهام ، او من وراء حجاب ، او يرسل ملكاً مكلفاً بأيصال الرسالة الى الرسول البشري ، ولم يشأ القرآن ان يخوض بنا في غمار الغيب المطلق .

٧- وتحدث القرآن عن الرسالات السابقة فذكر التوراة ، والانجيل ، والزبور ، والصحف ، واكثر الحديث عن التوراة ثم عن الانجيل واختصر حديثه عن الزبور والصحف ، والغاية من كل هذا واضحة ومعروفة .

٨- وتحدث القرآن عن القرآن وبين انه معجز وتحدى الانس والجن : "قل لئن اجتمعت الانس والجن على ان يأتوا بمثل هذا القرآن لايأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا" (٣) وبين انه عام لكل الناس "تبارك الذي نزّل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا" (٤) وبين انه بيان وتفصيل لكل شئ ، وانه محفوظ لايأتيه الباطل من بين يديه ولامن خلفه ، وانه الرسالة الخاتمة التي جاء بها خاتم المرسلين - عليه افضل الصلاة واتم التسليم - .

---

(١) الشورى : ٤٨ .
(٢) غافر : ٧٨ .
(٣) الاسراء : ٨٨ .
(٤) الفرقان : ١ .

ثالثا : وفي موضوع "السمعيات" تحدث القرآن باسهاب عن اليوم الآخر ، ذاكرا حتميته ، ودليل ثبوته ، وناقش المشركين في ذلك : "وضرب لنا مثلا ونسي خلقه قال من يحيي العظام وهي رميم . قل يحييها الذي انشأها اول مرة" [1] وفصل القول فيه فتحدث عن الموت والبرزخ ، وتحدث عن الساعة واشراطها ، وتحدث عن البعث والحشر والحساب والجنة والنار ، وتحدث عن الشفاعة مبطلا شفاعة الاوثان وشفاعة من لم يأذن له الله . وتحدث عن تفاصيل النعيم الآخروي بأساليب متنوعة تجعل القارئ كأنه يلمسها ويتنوقها ، وتحدث عن العذاب وصوره بالطريقة التي تجعل الانسان يهرب من التفكير بمعصية الله ، وكان لكل هذا الدور الكبير في تقويم الانسان وتطهير المجتمع .

وتحدث القرآن في باب السمعيات عن بعض العوالم الغيبية فتحدث عن الملائكة ، وكان حديثه عنهم منصبا على الجوانب المسيسة بميداننا التكليفي ، مبتعدا عما لا يمسنا نحن ، فتراه يحدثنا عن وظائفهم المتعلقة بنا كأيصال الرسالة وقبض الارواح ونصر المؤمنين والاستغفار لهم ، وتسجيل الحسنات والسيئات ونحو هذا ، بينما لم يحدثنا القرآن عن طبيعة حياتهم واعمارهم وعلاقة بعضهم ببعض ونحو هذا .

وحدثنا القرآن عن الجن مما يمس واقعنا ايضا فقسمهم الى صالحين وطالحين وحذرنا من اتباع وساوس شياطنيهم ، وضرب لنا مثلا عن غواية ابي الشياطين "ابليس" لابينا "آدم" - عليه السلام - ولم يحدثنا القرآن عن الجن من حيث حياتهم واعمارهم ومعيشتهم ونحو هذا ، وكل هذا يؤكد قضية كبيرة وهي ان عقيدة القرآن عقيدة عملية تهتم بالجانب العملي النافع مبتعدة عن الجانب النظري المجرد .

هذه هي خلاصة العقيدة القرآنية وقد رأيتها كاملة من غير نقص ، سهلة من غير غموض ، متناسبة مع كل الناس على اختلاف مستوياتهم العقلية والنفسية ، قادرة على اقناع رائد الفضاء ، وراكب الجمل !! .

المحور الثالث : خلاصة ماينبغي التنبه له في مناهج المتكلمين :

لقد تبين لي من خلال هذه المسيرة ان هناك جملة ملاحظات ينبغي ان يلاحظها من يقرأ الكتب الكلامية ، من اهمها :

اولا : لقد كانت وظيفة "علم الكلام" حراسة عقيدة الوحي والدفاع عنها بوجه المشككين الطاعنين ، فينبغي على هذا ملاحظة الآتي :

١- لاينبغي مطالبة كتب الكلام بذكر كل شئ عن العقيدة ، او بالارتقاء الى مستوى الدقة والشمولية التي جاءت بها عقيدة القرآن ، فليست مهمة المتكلمين تأصيل العقيدة وانما الدفاع عنها ، ولم يأت "علم الكلام" ليكون بديلا عن عقيدة القرآن .

٢- وعلى هذا لايصح - ايضا -الاكتفاء بما ورد في كتب الكلام عن عقيدة القرآن،

---

(١) يس : ٧٨ - ٧٩ .

بل ينبغي اعتبار عقيدة القرآن هي العقيدة التي ينبغي ان يتعلمها الناس على اختلاف ازمنتهم وامكنتهم ، وان يبقى "علم الكلام" بحدود وظيفته لاهل الاختصاص فقط ، للرد على الشبه التي لايردها الا "علم الكلام" .

٣- ولما كانت وظيفة الكلام هذه ، فان الشبه لا تنقطع ، ولا تجمد ، فينبغي على علماء الكلام مراعاة ذلك ، وتطوير علم الكلام بما يتناسب مع كل مرحلة وحجم الشبه التي تثار وطبيعتها ، فليس من الصحيح ان يبقى علماء الكلام يبحثون الجوهر الفرد والهيولي تاركين موجات التشكيك الالحادية او المادية او غيرها ، ان هذا معناه تحويل علم الكلام الى تاريخ مجرد لا علاقة له بالعقيدة الخالدة الباقية .

ثانيا : لقد ظهرت في "علم الكلام" الصبغة البشرية ، فالنقص والخلل وربما التضاد داخل المدرسة الواحدة بل عند المتكلم الواحد ، وتضخيم جانب على حساب جانب ، والخلاف الكبير بين المدارس الكلامية الذي اتخذ طابعا حادا صارخا فتنابز المتكلمون بالقاب التضليل والتبديع بل التشريك والتكفير ، وكل هذا ينبغي ملاحظته عند الدراسة المقارنة لمناهج المتكلمين وعدم اعتبار احدهم حكما مطلقا على غيره ، وانما لابد من الدراسة الموضوعية الحيادية مع اعمار القلب بحسن الظن لهؤلاء جميعا ، واحترامهم على ما بذلوا واجتهدوا .

ثالثا : مع ان علم الكلام مهمته حراسة العقيدة وحمايتها من الغزو الخارجي نجد ان الواقع يثبت ان هذا العلم قد اهتم بالمسائل الداخلية اكثر من اهتمامه بالمسائل الخارجية ، فمسائله المعقدة كمسألة خلق القرآن والرؤية والصفات الخبرية ونحوها كلها مشاكل داخلية ، ولم نجد في الواقع اهتماما لعلم الكلام بمسائل الحضارات والديانات الاخرى يتناسب مع وظيفته المعلنة ، وهذا مما يساعد في تكبير المشاكل الداخلية ، والصحيح ان نعيد لعلم الكلام دوره الحقيقي في حراسة العقيدة من الخطر الخارجي الذي قد لا يندفع الا بالنظر العقلي والجدل الكلامي . اما مشاكلنا الداخلية فان الاحتكام فيها الى النص واللغة اقرب للحل ، وعلى اقل تقدير ينبغي احداث الموازنة المطلوبة .

هذه هي باختصار جملة ماخطر ببالي من ملاحظات وانا اقلب الصفحة الاخيرة من هذا البحث ، وربما يستطيع قارئ البحث ان يسجل استنتاجات او ملاحظات اخرى ، ونسأل الله في الختام حسن الختام ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

سبحانك اللهم وبحمدك ، اشهد ان لا اله الا انت ، استغفرك واتوب اليك ..

الملحـــق
تعريف باهم الفرق والاعلام الواردة في البحث

قبل البدء بترجمة الاعلام بودي ان اقدم تعريفاً سريعاً لاهم الفرق الكلامية التي وردت في البحث ، وباختصار شديد - ان شاء الله - .

ا - المعتزلة : المشهور ان المعتزلة هم اتباع واصل بن عطاء وعمرو بن عبيد ، وكانا من تلامذة الحسن البصري ، ثم اعتزلا مجلسه لاختلافهما معه ، فاطلق الناس عليهما واتباعهما هذا الاسم ، والمعتزلة لا يضيقون ذرعًا بهذا الاسم ، بل يحتجون لفضله بقوله - تعالى - على لسان ابراهيم - عليه السلام - : "واعتزلكم"[1] التي اطلقها بوجه المشركين[2] !!

والمعتزلة ينسبون فرقتهم الى ابعد من واصل وعمرو ، بل ان ابن المرتضى لم يعدّهما الا في الطبقة الرابعة ، فالطبقة الاولى عندهم : الخلفاء الراشدون وبعض الصحابة - رضي الله عنهم - والثاني : الحسن والحسين ومحمد بن الحنفية ، وسعيد بن المسيب وغيرهم - رضي الله عنهم - والثالثة : الحسن بن الحسن والحسن البصري ومحمد بن سيرين وغيرهم[3] . ولانريد ان نفتح باب جدل في هذا الموضوع ، وانما بودنا ان ننتقل الى اهم مايميز الفكر الاعتزالي :

يلتقي المعتزلة على نقاط معينة اهمها :

أ- نفي زيادة الصفات على الذات .

ب- استحالة رؤية الله في الآخرة .

جـ- ان كلام الله ليس صفة له ، وانما يخلقه الله ، فالقرآن عندهم مخلوق .

د- يقولون ان الناس قادرون على افعالهم ، وهم الفاعلون لها حقيقة .

هـ- ان الفاسق او مرتكب الكبيرة هو بمنزلة بين المنزلتين : الايمان والكفر .

و- ان الله ينفذ ماتوعد به ، ولايجوز عليه ان يخرج من النار من استحق الدخول فيها .

ز- ان الله يجب عليه فعل الاصلح[4] .

واصول الدين عند المعتزلة خمسة وهي : التوحيد والعدل والوعد والوعيد والمنزلة بين

---

(١) مريم : ٤٨ .

(٢) طبقات المعتزلة : ٢ - ٣ .

(٣) المصدر السابق : ٩ - ٢٣ .

(٤) انظر مقالات الاسلاميين : ٢١٦/١ . والفرق بين الفرق : ٧٨ - ٧٩ . واعتقادات فرق المسلمين والمشركين للرازي : ٢٨ - ٢٩ . والخطط للمقريزي : ٣٤٦/٢ .

المنزلتين والامر بالمعروف والنهي عن المنكر . ومنهم من يعدّها اربعة ، ومنهم من يعدّها اثنين ، وذلك بادخال بعضها في بعض [1] .

وقد برز عند المعتزلة علماء كبار اوصلوا لنا حقيقة ماعليه المعتزلة ، وابرز من وقعت كتبه بأيدينا القاضي عبد الجبار وكتابه شرح الاصول الخمسة ، الذي يعد شرحا وافيا لفكر المعتزلة ، ومن قبله الخياط وكتابه الانتصار الذي دافع فيه عن فكر المعتزلة ، والزمخشري صاحب الكشاف والرماني صاحب النكت ، وكل هذه الكتب قد استفدنا منها في بحثنا هذا ، وترجمنا لاصحابها – والحمد لله – .

٣- **الاشاعرة** : ولدت الاشاعرة في اليوم الذي انقلب في قطب كبير من اقطاب المعتزلة على المعتزلة ، وبدأ بتأسيس علم كلام جديد هدفه الحد من سطوة العقل عند المعتزلة لصالح الاتجاه النصي الذي نادى به اهل السنة والحديث ، لقد كان ذلك الرجل ابا الحسن الاشعري ، وكان اتباعه الى اليوم "الاشاعرة" .

لقد لبث الاشعري اربعين عاما في احضان المعتزلة ، ثم انقلب عليهم فهالهم انقلابه ، وكاد ان يمحى به الصراع السني الاعتزالي الطويل ، فلقد التقى الناس على هذا المذهب بجمهورهم الكبير ، وبقي يضم العلماء من شتى الوجهات والاختصاصات والى اليوم .

ونستطيع ان نصف الاشاعرة باختصار فنقول : انه المذهب الذي جمع بين الاتجاهين الضدين : الاتجاه العقلي المتمثل بالمعتزلة ونحوهم ، والاتجاه النصي المتمثل بأهل الحديث .

والحقيقة ان الاشعرية تمثل مدرسة كبيرة تحوي اتجاهات متعددة ، فأن من يقرأ في "مقالات الاسلاميين" و "اللمع" للاشعري ، و "التمهيد" للباقلاني ، لايجد الروح نفسها والسمة التي يجدها حينما يقرأ "الشامل" للجويني و "الاربعين" للرازي . لذلك يميل بعض الباحثين الى تقسيم علم الكلام السني على مرحلتين : الاولى طريقة المتقدمين والثانية طريقة المتأخرين [2] . بل هناك اتجاه آخر اكثر التصاقاً بالنص والاثر ، وهذا مانجده عند النووي والبيهقي ، اللذين مالا الى الاشتغال بالحديث اكثر من اسلافهم وممن جاء بعدهم من متكلمي الاشاعرة .

لكل ماتقدم فانك ببساطة واجد في المدرسة الاشعرية اختلافا قد يصل الى حد التضاد في كثير من المسائل وحتى المهمة منها ، ولكن دون اثارة حساسية او ردة فعل .

وقد يكون هذا السبب ومعه جملة اسباب اخرى دعت الناس للاقتناع بهذا المذهب حتى اصبح يمثل جمهور اهل السنة والجماعة .

---

(١) القاضي عبد الجبار ، شرح الاصول الخمسة : ١٢٢ – ١٢٣ .

(٢) دراسات في الفرق : ١٣٨ و ١٤٧ .

واذا كان الامر كذلك فان اهل السنة لم يبدأ تاريخهم بالاشعري ولذا تجد الاشاعرة حينما يتحدثون عن الفرقة الناجية لايجعلون بدايتها من الاشعري وانما هي الجمهور من زمن المصطفى - صلى الله عليه وسلم - ثم الصحابة والتابعين ، وهكذا . ويبدو لي ان الاشاعرة يعدون انفسهم متكلمي اهل السنة ، فيكون عند اهل السنة متكلمون وهم الاشعري ونحوه ، وعندهم محدثون كالبخاري ونحوه وعندهم فقهاء كأبي حنيفة ونحوه ، فحينما يذكر اهل السنة في مقابلة الفرق الكلامية فالمقصود الاشاعرة ، انظر ماذا يقول امام من ائمة الاشاعرة : "ان اهل السنة والجماعة ثمانية اصناف من الناس : صنف منهم احاطوا العلم بابواب التوحيد والنبوة ... من المتكلمين الذين تبرأوا من التشبيه والتعطيل ومن بدع الرافضة والخوارج الجهمية والنجارية وسائر اهل الاهواء الضالة ، والصنف الثاني : ائمة الفقه من فريقي الرأي والحديث ، من الذين اعتقدوا في اصول الدين مذاهب الصفاتية في الله ... ويدخل في هذه الجماعة اصحاب مالك والشافعي والاوزاعي والثوري ، وابي حنيفة" [1] .

بل يذهب الى ان الاشعري ماهو الا مجدد للكلام السني الا انه ظهر فيه ظهورا كبيرا فنسبت السنة اليه ، فتراه يقول : "اول متكلمي اهل السنة من الصحابة علي بن ابي طالب ... ثم عبد الله بن عمر" ثم بعد سلسلة طويلة يقول : "ثم بعدهم شيخ النظر وامام الافاق في الجدل والتحقيق ابو الحسن علي بن اسماعيل الاشعري ، الذي صار شجا في حلوق القدرية والنجارية والجهمية والجسمية والروافض والخوارج ، وقد ملأ الدنيا كتبه ، ومارزق احد من المتكلمين من التبع ماقد رزق لان جميع اهل الحديث وكل من لم يتمعزل من اهل الرأي على مذهبه" [2] .

لقد رأينا ايضاً المعتزلة يحاولون ان يلقوا بطرف سلسلتهم في احضان الجيل الاول ، وربما يثير هذا ريبة بالنسبة للاشاعرة ، الا ان الحق ان هنالك فارقاً جوهرياً بين الاشاعرة وغيرهم ، فضم الاشاعرة لجمهور المسلمين على اختلاف علومهم واتجاهاتهم يهيئهم لمكان الوراثة الحقيقية لذلك الجيل اكثر من غيرهم - والله اعلم - اذ من المستبعد ان تنسى الامة اصلها في العقيدة والتفسير والحديث والفقه ، وتنساق اختياراً وراء فكر دخيل .

ان هذه حقيقة شهد بها خصوم الاشاعرة ، فالشيخ سفر الحوالي مثلاً يقول : "فتمكن الاشاعرة في الامة ، ثم في النهاية استطاعوا على اولئك وأستأثروا بهذا الاسم (اي اسم اهل السنة والجماعة) دون اهله " [3] ويقول الدكتور رضا نعسان : "ان جماهير

---

(١) الفرق بين الفرق : ٣٠٠ - ٣٠١ .

(٢) اصول الدين : ٣٠٧ - ٣١٠ .

(٣) منهج الاشاعرة في العقيدة : ٣٠ .

المسلمين اليوم ينتسبون في العقيدة الى الامام ابي حسن الاشعري" [1] وانظر "المفسرون بين التأويل والاثبات في آيات الصفات" الذي تهجم فيه مؤلفه على جمهور المفسرين لانهم اشاعرة وقد مر كلامه معنا في البحث ونعيده هنا لموضع الشاهد ، يقول - سامحه الله-: "والمفسرون الاشعريون الذين يضمهم هذا الباب هم القرطبي ، الثعلبي ، ابن عطية ، ابن الجوزي ، الرازي ، البيضاوي ، النسفي ، الخازن ، ابو حيان ، الثعالبي ، الجلالين ، الخطيب الشربيني ، ابو السعود ، الشوكاني ، الآلوسي ، اسماعيل حقي ، السيد قطب ، المراغي ، فريد وجدي ، محمود حجازي ، الصابوني ، وهذا على سبيل المثال لاعلى سبيل الحصر والاستقراء" [2] !!

واذا كان هذا هو الواقع او مايقرب منه فانه من الصعوبة تحديد معالم تميز الفكر الاشعري عن غيره وتعد جامعة مانعة ، الا انه من الممكن القول ولو على وجه التغليب : ان النقاط التي يلتقي عليها الاشاعرة هي النقاط نفسها التي يلتقي عليها اهل السنة والجماعة وهذه ابرزها :

أ- اتفاقهم على اثبات صفات لله - تعالى - وردت في النصوص الصحيحة ولذلك يسمون "الصفاتية" .

ب- اتفاقهم على ان كلام الله صفة لله وهو غير مخلوق .

جـ اتفاقهم على صحة رؤية المؤمنين لربهم يوم القيامة .

د- اتفاقهم على عدم التكفير بالذنب ، وجواز خروج الفاسق من النار بعد ان استحق الدخول فيها .

هـ- اتفاقهم على ان الله لايجب عليه شئ .

و- اتفاقهم على وجود الشفاعة للرسول - صلى الله عليه وسلم - .

ز- اتفاقهم على حب الصحابة وآل البيت اجمعين ، وتعديلهم ، والاقرار بأمامة ابي بكر ثم عمر ثم عثمان ثم علي - رضي الله عنهم - [3] .

٣- المرجئة : الارجاء في اللغة : التأخير [4] ، وسميت هذه الطائفة بهذا الاسم لقولهم بتأخير الاعمال عن الايمان ، بمعنى انهم قد بالغوا بأثبات الوعد وغلبوا نصوصه

---

(١) علاقة الاثبات والتفويض بصفات رب العالمين : ٨ . وقدم لهذا الكتاب الشيخ عبد العزيز بن باز فليتأمل .

(٢) المفسرون بين التأويل والاثبات في آيات الصفات : ١/ ١٣ .

(٣) انظر مقالات الاسلاميين : ١/ ٣٢٠ - ٣٢٤ . والتبصير في الدين : ١٥٣ - ١٨٧ . والفرق بين الفرق : ٣٤٨ . والعقيدة الواسطية : ١٦١ - ١٨١ . وانظر أصول الدين الاسلامي ، د. رشدي عليان و د. قحطان الدوري : ٥٥ - ٦٠ .

(٤) انظر مختار الصحاح : ٢٣٦ .

على نصوص الوعيد بخلاف الخوارج المبالغين في الوعيد [1] ، وجوّز المقريزي ان تكون هذه التسمية آتية من الرجاء لانهم يرجون لاصحاب المعاصي الثواب من الله – تعالى – فيقولون : لايضر مع الايمان معصية كما انه لاينفع مع الكفر طاعة . وهم ثلاث طوائف رئيسية :•

أ– مرجئة جبرية : وهؤلاء الذين اضافوا مع قولهم بالارجاء القول بالجبر ، وهو عقيدة الجهم بن صفوان – الآتية ترجمته – وهو انكار الاستطاعات كلها بحيث ان الانسان عندهم ليست له ارادة واختيار .

ب– مرجئة قدرية : وهذه على الضد من الاولى ، حيث اضافوا الى قولهم بالارجاء قولهم بنفي القدر ، وهذا مذهب القدرية كغيلان وابي شمر ومحمد شبيب البصري ، وقد نسب المعتزلة الى القدرية مع خلافهم الجوهري مع المرجئة ، وهذا يدل على ان القدرية ليست طائفة محددة وانما هي مذهب او رأي في مسألة معينة من الممكن ان يتبناه الاضداد ولذا لاأرى داعياً لافرادهم بالترجمة ، ونحوهم الجبرية .

جـ – مرجئة خالصة : وهؤلاء جمعهم القول بالارجاء دون سواه ، فلم يتعرضوا لعقيدة القدر لا نفيا ولا اثباتا ، وهؤلاء على خمس فرق : اليونسية : اتباع يونس بن عون. والغسانية اتباع غسان المرجئ ، والتومنية اتباع ابي معاذ التومني ، والثوبانية اتباع ابي ثوبان المرجئ ، والمريسية اتباع بشر بن غياث المريسي الذي كان في الفقه على مذهب ابي حنيفة غير انه كان يقول بخلق القرآن ، فهجره ابو يوسف ، ورد عليه الصفاتية كالدارمي في كتابه "الرد على المريسي" لكنه وافق الصفاتية في بعض المسائل فهجره قومه فاصبح مهجور الفريقين !! [2] .

هذه اهم الفرق الحقيقية التي دعتني الحاجة الى التعريف بها في هذا الملحق، فلننظر الآن في ترجمة من تدعو الحاجة الى ترجمتهم من الاعلام الواردة في ثنايا البحث والله المستعان :

١– ابن تيمية : هو ابو العباس احمد بن عبدالحليم بن عبدالسلام بن عبدالله بن تيمية الحراني ، ولد بحران يوم الاثنين عاشر ربيع الاول سنة احدى وستين وستمائة ، وقدم به ابوه عند استيلاء التتار على البلاد الى دمشق ، فأخذ من علمائها ، وتعلم من صغره الفقه والاصول والتفسير والعربية ، وبرع في الكلام والفلسفة ، وافتى دون العشرين من عمره ، وامده الله بكثرة الكتب وسرعة الحفظ ، قال عنه الذهبي : " شيخنا وشيخ الاسلام ، وفريد العصر علما ومعرفة وشجاعة وذكاء وتنويرا الهيا وكرما ونصحا للامة ، وأمرا بالمعروف ونهيا عن المنكر ... وهو اكبر من ان ينبه على سيرته مثلي ، فلو

---

(١) انظر التبصير في الدين : ٩٧ .

(٢) انظر الفرق بين الفرق : ١٥١-١٥٣ . والتبصير في الدين : ٩٧-٩٩ .

حلفت بين الركن والمقام لحلفت اني ما رأيت بعيني مثله وانه ما رأى مثل نفسه" وقال عنه ابن دقيق العيد : "رأيت رجلا سائر العلوم بين عينيه ، يأخذ ما شاء منها ويترك ما شاء" وهذا يكفي وكانت وفاته في سحر ليلة الاثنين عشرين ذي القعدة سنة ٧٢٨ هـ" [١] .

٢- ابن حزم ، هو ابو محمد علي بن سعيد بن حزم الاندلسي الظاهري ، كان شافعي المذهب ثم انتقل الى مذهب اهل الظاهر ، قال عنه ابن صاعد "كان ابن حزم اجمع اهل الاندلس قاطبة لعلوم الاسلام واوسعهم ، مع توسعه في علم اللسان والبلاغة والشعر والسير والاخبار" وكان متفننا في علوم جمّة عاملا بعلمه ، زاهدا في الدنيا بعد الرياسة التي كانت له ولابيه من قبله في الوزارة وتدبير الملك ، متواضعا ذا فضائل وتآليف كثيرة ، الا انه كان - غفر الله لنا وله - كثير الوقوع في العلماء المتقدمين ، حتى قيل "كان لسان ابن حزم وسيف الحجاج شقيقين" توفي - رحمه الله - سنة : ٤٥٦ هـ [٢] .

٣- ابن خزيمة ، هو ابو بكر محمد ابن اسحاق بن خزيمة السلمي النيسابوري ، تفقه على المزني والربيع ، من مصنفاته : التوحيد واثبات صفات الرب ، وهو من غلاة المثبتة لظواهر نصوص الصفات ، كذا قال الذهبي ، توفي سنة :٣١١ هـ [٣] .

٤- ابن قتيبة : هو عبدالله بن مسلم بن قتيبة الدينوري ، ولّي قضاء الدينور مدة فنسب اليها ، كان لغويا ، عارفا بالاخبار ، ثقة مكثرا من التصانيف ، له تأويل مختلف الحديث ومشكل القرآن ، مات بالكوفة سنة : ٢٧٦ هـ [٤] .

٥- ابن منده : هو ابو عبدالله محمد بن اسحاق الاصبهاني ، الحافظ ، العلم ، صاحب التصانيف ، له كتاب "الايمان" المعروف ، قال عنه شيخ الاسلام الانصاري : سيد اهل زمانه ، توفي سنة : ٣٩٥ هـ [٥] .

٦- الاسفرائيني : هو ابو اسحاق ابراهيم بن محمد بن ابراهيم بن مهران ، المتكلم الاصولي الفقيه ، شيخ اهل خراسان ، اخذ عنه الكلام والاصول عامة شيوخ نيسابور ، وهو من اصحاب ابي الحسن الاشعري الكبار ، توفي سنة ٤١٨ هـ بنيسابور ، ونقل الى "اسفرايين" فدفن فيها ، ويبدو ان نسبته اليها [٦] .

٧- الاشعري : هو ابو الحسن علي بن اسماعيل ، الامام المتكلم ، واليه تنسب الاشعرية ، وقد كان معتزليا اخذ الجدل عن ابي علي الجبائي المعتزلي ، ثم رد على

---

(١) شذرات الذهب : ٦/٨٠-٨٦ . وانظر ايضا : الكواكب الدرية في مناقب المجتهد ابن تيمية للامام مرعي بن يوسف الحنبلي وابن تيمية وموقفه من اهم الفرق والديانات في عصره ، د. محمد حربي.

(٢) شذرات الذهب : ٣/٢٩٩-٣٠٠ . وانظر : ابن حزم حياته وعصره ، اراؤه وفقهه ، محمد ابو زهرة.

(٣) مختصر العلو : ٢٢٦ ، وشذرات الذهب : ٢/٢٦٢ . وانظر المنتظم لابن الجوزي : ٦/١٨٤ .

(٤) بغية الوعاة : ٢/٦٣ . وفيات الاعيان : ٢/٢٥٩ . والمنتظم ٥/١٠٢ .

(٥) شذرات الذهب : ٣/١٤٦

(٦) طبقات الشافعية ، ابن قاضي شهبة : ١/١٧٣-١٧٤ .

المعتزلة ، ونصر الله به السنة ، وقد ذكر انه صنف خمسة وخمسين مصنفا ، ومن اشهر ما وصلنا عنه : مقالات الاسلاميين ، ولقد اثنى عليه ودافع عنه غير واحد من اهل العلم ، ويكفي ان تتصفح كتاب "تبيين كذب المفتري لما نسب الى الامام ابي الحسن الاشعري" توفي - رحمه الله سنة : ٣٢٤ هـ وقيل : ٣٣٠ [١] .

٨- الايجي : هو عضد الدين عبدالرحمن بن احمد بن عبدالغفار ، قاضي قضاة الشرق ، كان اماما في علوم كثيرة ، محققا مدققا ، له المواقف والجواهر وشرح مختصر ابن الحاجب ، وهو من ائمة الاشعرية الكبار ، ونسبته الى "ايج" - بلدة في اقصى بلاد فارس - توفي سنة : ٧٥٦ هـ [٢] .

٩- الباقلاني : هو ابو بكر محمد بن الطيب بن محمد بن جعفر البصري ، المالكي ، الاصولي ، المتكلم ، صاحب المصنفات ، اخذ علم النظر عن ابي عبدالله بن مجاهد صاحب ابي الحسن الاشعري ، قال عنه ابن الاهدل : "سيف السنة ، القاضي ابو بكر ... الاصولي الاشعري المالكي ، مجدّد الدين على رأس المائة الرابعة ، على الصحيح" ، توفي سنة : ٤٠٣ هـ [٣] .

١٠- البغدادي : هو ابو منصور عبدالقاهر بن محمد التميمي ، البغدادي ، اخذ العلم من الاسفرائييني وغيره ، وقد برع في الاصول والكلام وغيرهما ، وله مصنفات كثيرة ، وهو من ائمة الاشاعرة المعروفين ، وقد اخذ عنه امام الحرمين وغيره . توفي في "اسفرايين" ودفن الى جانب استاذه ، وذلك سنة : ٤٢٩ هـ وقيل سنة : ٤٢٧ هـ [٤]

١١- البيهقي : هو ابو بكر احمد بن الحسين بن علي بن موسى ، الامام الحافظ الكبير ، سمع الكثير ورحل وحصل وصنف ، وكان كثير التحقيق والانصاف ، قال عنه امام الحرمين : "ما من شافعي الا وللشافعي عليه منة الا البيهقي ، فان له على الشافعي منة لتصانيفه في نصرة مذهبه ، ومن تصانيفه : السنن الكبير والسنن الصغير ، وكتاب الخلاف ، والاسماء والصفات ، والاعتقاد ، وغيرها . توفي بنيسابور سنة : ٤٥٨ هـ [٥] .

١٢- التفتازاني : هو سعدالدين مسعود بن عمر بن عبدالله ، ونسبته الى تفتازان من بلاد خراسان ، عالم بالاصلين والنحو والتصريف ، والمعاني والبيان ، اشتهر ذكره وطارت صيته ، ومن تصانيفه : شرح العضد ، وشرح التلخيص ، والمقاصد وشرحه ، وشرح الشمسية في المنطق . مات بسمرقند سنة : ٧٩١ هـ [٦] .

---

(١) شذرات الذهب : ٢/٣٠٣-٣٠٥ . وانظر تبيين كذب المفتري لابن عساكر .

(٢) طبقات الشافعية ، ابن قاضي شهبة : ٣/١٧٩ .

(٣) شذرات الذهب : ٣/١٦٨-١٧٠ . وانظر : المنتظم : ٧/٢٦٥ . والباقلاني وآراؤه الكلامية ، د. محمد رمضان .

(٤) طبقات الشافعية ، ابن قاضي شهبة : ١/١٧٢-١٧٣ .

(٥) المصدر السابق : ١/٢٢٥-٢٢٦ .

(٦) معجم المؤلفين : ١٢/٢٢٨ والاعلام : ٨/١١٤ .

١٣- الجرجاني : هو ابو بكر عبدالقاهر بن عبدالرحمن ، شافعي ، متكلم اشعري ، اخذ العلم في "جرجان" واليها نسبته ، وله فضيلة تامة في النحو ، وله مصنفات كثيرة غالبها في العربية والاعجاز القرآني ، توفي سنة : ٤٧١ هـ وقيل : ٤٧٤ هـ [١] .

١٤- الجعد بن درهم : اختلف الرواة في نسبه ، الا انهم لم يختلفوا في دوره الخطير في التاريخ الاسلامي ، وقد انتدب الجعد لتأديب مروان بن محمد الذي تولى الخلافة بعد . اشتهر الجعد بنفي الصفات الالهية ، وتأثر به بعض المفكرين الخطرين منهم الجهم بن صفوان ، وله آراء في القدر جعلت العلماء يعدّونه من مؤسسي القدرية ، وينسب اليه القول بنفي ان يكون ابراهيم - عليه السلام - خليلا لله . وقد كانت نهايته تعيسة ففي عيد الاضحى سنة : ١٢٠ هـ جلب خالد القسري الجعد معه الى مسجد واسط ، وخطب خطبة العيد ، ومما قاله : الحمد لله الذي اتخذ ابراهيم خليلا ، وموسى كليما ، ايها الناس ضحوا قبل الله ضحاياكم ، فاني مضح بالجعد بن درهم ثم نزل وذبحه اسفل المنبر [٢] .

١٥- الجهم بن صفوان ويكنى "ابا محرز" وهو مولى لبني راسب من الازد ، واصله من بلخ ، ولعب جهم دورا خطيرا في الحياة الفكرية الاسلامية ، واليه تنسب "الجهمية" التي تعد المعين الثر للآراء المنبثة في كثير من الطوائف الكلامية المخالفة لاهل السنة، وقد اشتهر عنه نفي الصفات ، وانكار رؤية الله في الجنة ، والقول بخلق القرآن ، والجبر ولذا دارت بينه وبين اهل السنة معارك كلامية ، ويذكر المؤرخون مناقشة طويلة بينه وبين الامام ابي حنيفة - رحمه الله - ورد عليه الامام احمد في كتابه "الرد على الزنادقة والجهمية" وكذلك الدارمي في كتابه "الرد على الجهمية" وقد قتل جهم ايضا سنة ١٢٨ هـ [٣] .

١٦- الجويني : هو امام الحرمين ابو المعالي عبدالملك بن عبدالله بن يوسف ، ونسبته الى "جوين" وهي ناحية كبيرة من نواحي نيسابور ، وقد ولد فيها سنة ٤١٩ هـ . ثم رحل الى بغداد ثم الى مكة ثم الى المدينة ، وافتى في المدينة ودرّس ، ثم عاد الى نيسابور ، وهو من كبار علماء الاشاعرة . قال عنه ابن السمعاني : "كان امام الائمة على الاطلاق ، المجمع على امامته شرقا وغربا ، لم تر العيون مثله" له البرهان في اصول الفقه ، و "الشامل" و "الارشاد" في علم الكلام ، وكتاب "غنية المسترشدين" في الخلاف . توفي سنة ٤٧٨ هـ ودفن في داره ثم نقل بعد سنين فدفن الى جانب والده [٤] .

---

(١) طبقات الشافعية : ١/٢١٥-٢١٦ . وشذرات الذهب : ٣/٣٤٠ .

(٢) جهم بن صفوان ومكانته في الفكر الاسلامي ، خالد العلي ، رسالة ماجستير وقد تحدث الباحث عن الجعد باعتباره شيخا للجهم : ٤٧-٥٦ . وانظر الفرق بين الفرق :٢٦٢ .

(٣) المصدر السابق : ٦١-١١١ . وانظر الفرق بين الفرق : ١٩٩ .

(٤) طبقات الشافعية الكبرى : ٥/١٦٥ . وطبقات الشافعية ، ابن قاضي شهبة : ١/٢٦٢-٢٦٤ . وانظر طبقات الشافعية ، هداية الله الحسيني: ١٧٤-١٧٦ . ووفيات الاعيان : ٢/٣٥١ . وانظر ترجمته في اعلام العرب : ٤٠ "الجويني امام الحرمين" د. فوقية حسين محمود .

١٧- الخطابي : هو ابو سليمان حمد بن محمد بن ابراهيم البستي : قيل انه من ذرية زيد بن الخطاب اخي عمر - رضي الله عنهم - كان رأسا في العربية والفقه والادب ، وغير ذلك ، له "معالم السنن" و "اعلام البخارى" و "شرح اسماء الله الحسنى" و "الغنية عن الكلام واهله" وغيرها ، توفي في "بست" من "كابل" سنة : ٣٨٨ هـ [١] .

١٨- الخياط : هو ابو الحسين عبدالرحيم بن محمد بن عثمان المعتزلي ، وهو من ائمة المعتزلة المعدودين ، قال عنه القاضي : "كان الخياط عالما فاضلا" ، وهو استاذ ابي قاسم البلخي ، وكان واسع الحفظ لمذاهب المتكلمين ، ورده على ابن الراوندي في كتابه "الانتصار" شاهد على هذا . وقد عده ابن المرتضى من الطبقة الثامنة . توفي سنة : ٣٠٠ هـ [٢] .

١٩- الدارمي : عثمان بن سعيد الحافظ ، صاحب التصانيف ، وهو غير الدارمي صاحب المسند ، اخذ الحديث عن يحيى بن معين وابن المديني ، والفقه عن البويطي ، والادب عن ابن الاعرابي ، فتقدم في هذه العلوم ، له "الرد على الجهمية" ، و "الرد على المريسي" وغالبهما في الصفات ، وقد بالغ في اثبات الظواهر - كذا قال الذهبي - توفى سنة : ٢٨٠ هـ [٣] .

٢٠- الرازي : فخرالدين ، محمد بن عمر بن الحسين ، سلطان المتكلمين في زمانه ، صاحب المصنفات المشهورة كالتفسير الكبير والاربعين واساس التقديس وغيرها ، هو اشعري بل من ائمة الاشاعرة ، وقيل " انه كان يحفظ "الشامل" لامام الحرمين ، وكان له باع طويل في الوعظ وكان يبكي كثيرا في وعظه ، توفي سنة : ٦٠٦ هـ [٤] .

٢١- الرماني : وهو ابو الحسن علي بن عيسئ ، وهو من ائمة المعتزلة ، ذكره المرتضى في الطبقة العاشرة وقال عنه : "صاحب التفسير والعلم الكثير وكان يقال له : علي الجامع لانه جمع بين علوم الكلام والفقه والقرآن والنحو واللغة ، ... وله تصانيف كثيرة في كل فن ، وشرح كتاب سيبويه" [٥] ، وله "النكت في اعجاز القرآن" وقال عنه ابن العماد : " هو احد الائمة المشاهير ، جمع بين علم الكلام والعربية ، وله قريب من مائة مصنف ... وكان متقنا لعلوم كثيرة ... على مذهب المعتزلة" توفى سنة : ٣٨٤ هـ [٦] .

---

(١) تذكرة الحفاظ :١٠١٨/٣ ، وطبقات الشافعية للسبكي : ٢٨٢/٣ . وطبقات الشافعية لابن قاضي شهبة : ١٥٩/١-١٦٠ . وشذرات الذهب : ١٢٧/٣-١٢٨ .

(٢) طبقات المعتزلة لاحمد بن يحيى المرتضى : ٨٥-٨٨ . وانظر ثورة العقل : ١٧١ .

(٣) مختصر العلو : ٢١٣-٢١٤ . وشذرات الذهب : ١٧٦/٢ .

(٤) طبقات الشافعية : ابن قاضي شهبة : ٣٩٦/١ . وشذرات الذهب : ٢١/٥-٢٢ .

(٥) طبقات المعتزلة : ١١٠ .

(٦) شذرات الذهب : ١٠٩/٣ .

٢٢- الزمخشري : وهو ابو القسم محمود بن عمر بن محمد الخوارزمي ، قال عنه ابن خلكان : "الامام الكبير في التفسير والحديث والنحو واللغة وعلم البيان ، كان امام عصره من غير مدافع ، تشد اليه الرحال في فنونه ... وصنف التصانيف البديعة منها الكشاف في تفسير القرآن العظيم ، لم يصنف قبله مثله ، والفائق في الحديث ، واساس البلاغة في اللغة ، ..." وقال عنه ابن العماد : كان داعية الاعتزال كثير الفضائل . ونسبته الى "زمخشر" بلدته التي ولد فيها وتوفي ليلة عرفة بجرجانية خوارزم ، سنة : ٥٣٨ هـ (١) .

٢٣- الشهرستاني : هو محمد بن عبدالكريم بن احمد ، الشافعي ، المتكلم ، صاحب التصانيف ، كان اماما مبرزا ، فقيها متكلما واعظا . له : نهاية الاقدام في علم الكلام ، والملل والنحل . توفي سنة : ٥٤٨ هـ (٢) .

٢٤- عبدالجبار القاضي : هو عبدالجبار بن احمد الهمذاني الاستراباذي ، كان شافعي المذهب ، وهو مع ذلك شيخ الاعتزال ، له مصنفات عديدة منها "دلائل النبوة" الذي قال عنه ابن كثير : "من اجلّ مصنفاته واعظمها" (٣) . ذكره ابن المرتضى في الطبقة الحادية عشرة وقال عنه : "كان في ابتداء حاله يذهب في الاصول مذهب الاشعرية وفي الفروع مذهب الشافعي فلما حضر مجلس العلماء ونظر وناظر عرف الحق فانقاد له ... قال الحاكم : وليس تحضرني عبارة تحيط بقدر محله في العلم والفضل ، فانه الذي فتق علم الكلام ونشر بروده ووضع فيه الكتب الجليلة .. واليه انتهت الرياسة في المعتزلة" (٤) توفي سنة : ٤١٥ هـ .

٢٥- عياض القاضي : هو عياض بن موسى اليحصبي السبتي ، عالم المغرب ، وامام اهل الحديث في وقته ، ولي قضاء "سبتة" ثم قضاء "غرناطة" ، ومن تصانيفه الشفا بتعريف حقوق المصطفى ، وشرح صحيح مسلم - وقد اكثر النووي في نقل آرائه في شرحه . توفي بمراكش سنة : ٥٤٤ هـ (٥) .

٢٦- الغزالي : هو محمد بن محمد بن محمد ، الامام حجة الاسلام ، ابو حامد الطوسي ، الغزالي ، ولد في "طوس" سنة : ٤٥٠ هـ . واخذ عن امام الحرمين الجويني وغيره ، وجلس للاقراء في حياة امامه ، وولي نظامية بغداد ، فدرّس فيها مدة ، ورحل الى دمشق واقام فيها عشر سنين ، وصنف فيها كتبا . يقال ان "الاحياء" منها . ثم عاد الى

---

(١) شذرات الذهب : ٤/١١٨-١٢١ .

(٢) المصدر السابق : ٤/١٤٩ ، وذكر ابن العماد هنا : ان "شهرستان" اسم لثلاث مدن : الاولى بين نيسابور وخوارزم ، والثانية قصبة ناحية نيسابور ، والثالثة مدينة تبعد ميلين عن اصبهان .

(٣) شذرات الذهب : ٣/٢٠٢-٢٠٣ .

(٤) طبقات المعتزلة : ١١٢ .

(٥) تذكرة الحفاظ : ٤/١٣٠٤ . وتاريخ قضاة الاندلس: ١٠١ .

وطنه في طوس مقبلا على التصنيف والعبادة ، ونشر العلم ، وبني خانقاه للصوفية ، ومدرسة للمشتغلين ، واقبل على النظر في الاحاديث ، خصوصا البخاري ، وله مؤلفات كثيرة اشهرها : الاحياء والمستصفى ، والمنقذ من الضلال ، وتهافت الفلاسفة ، وشرح الاسماء الحسنى ، والجام العوام ، والرد على الباطنية . توفي سنة : ٥٠٥ هـ [(١)] .

٢٧- غيلان الدمشقي : هو غيلان بن مسلم . يعده المعتزلة من اسلافهم ، وجعله ابن المرتضى في الطبقة الرابعة ، وقال عنه : كان واحد دهره في العلم والزهد والدعاء الى الله وتوحيده وعدله ، وذكر ان عمر بن عبدالعزيز ولاه بيع الخزائن ورد المظالم . وعزا حقد هشام بن عبدالملك الذي قتله فيما بعد الى ولايته تلك التي كان يعاب فيها هشاما واجداده [(٢)] !! ويعد غيلان مؤسس القدرية في نظر الكثير من كتاب الفرق ، يقول ابن قتيبة : "غيلان الدمشقي كان قبطيا لم يتكلم احد قبله في القدر ودعا اليه الا معبد الجهني" [(٣)] .

٢٨- المحاسيبي : هو الحارث بن اسد البصري ، زاهد مشهور . سمي بالمحاسيبي لانه كان يحاسب نفسه ، وقد هجره الامام احمد بن حنبل لنظره في علم الكلام ، توفي سنة : ٢٣٤ هـ [(٤)] .

٢٩- معبد الجهني : هو معبد بن خالد الجهني ، المؤسس الحقيقي للقدرية ، فهو اول من تكلم بالقدر ، وهو تابعي صدوق - كما يقول الذهبي - وكان صاحب عطاء ابن يسار ، وكان يجلس الى الحسن البصري في مجلسه في البصرة ، وقد اشترك في ثورة عبدالرحمن بن الاشعث ، وقد قتله الحجاج بامر عبدالملك بن مروان سنة : ٨٠ هـ [(٥)] .

٣٠- النووي : هو يحيى بن شرف بن مري بن حسن ، ونسبته الى "نوى" قرية من قرى دمشق ، حافظ ، زاهد ، احد الاعلام ، اشعري ، شافعي ، عرف بالنصح للمسلمين والحرص على الخروج من خلاف العلماء ، وكانت له مجاهدات ومحاسبات لنفسه ، وعرف بكثرة التصانيف وتنوعها ومن اشهرها : شرح صحيح مسلم ، ورياض الصالحين في الحديث ، والمجموع والمنهاج في الفقه ، والمقاصد السبعة في الكلام والفقه والتصوف ، وكتاب التبيان في آداب حملة القرآن ، وغيرها ، وقد ولي دار الحديث الاشرفيه ، وتوفي في بلده "نوى" سنة ٦٧٧ [(٦)] .

---

(١) طبقات الشافعية ، ابن قاضي شهبة : ١/٣٠٠-٣٠١ .

(٢) طبقات المعتزلة : ٢٥-٢٦ .

(٣) دراسات في الفرق : د. عرفان عبدالحميد ونقله عن كتاب "المعارف" .

(٤) وفيات الاعيان : ٢/٥٧ . وتهذيب التهذيب : ٢/١٣٤ .

(٥) ميزان الاعتدال : ٣/١٨٣ . وانظر دراسات في الفرق : ٢٥٧-٢٥٨ . وثورة العقل : ٢٥ .

(٦) طبقات الشافعية ، ابن قاضي شهبة : ٢/٩-١٣ .

المصـــادر

١- الابانة عن اصول الديانة ، المنسوب الى الامام ابي الحسن الاشعري ، بغداد / مكتب تعز للنشر ، ١٩٨٩ م .

٢- ابن تيمية وموقفه من اهم الفرق والديانات في عصره ، د. محمد حربي ، بيروت / عالم الكتب ، ط ١ ، ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م .

٣- ابن حزم : حياته وعصره ، اراؤه وفقهه ، محمد ابو زهرة ، دار الفكر العربي ، ١٩٧٧ م .

٤- الاتقان في علوم القرآن ، جلال الدين السيوطي ، بيروت / المكتبة الثقافية ، ١٩٧٣ م .

٥- احياء علوم الدين ، حجة الاسلام الغزالي ، مصر / دار احياء الكتب العربية ، عيسى البابي الحلبي وشركاه ، د. ت.

٦- الاربعين في اصول الدين ، فخرالدين الرازي ، حيدر آباد الدكن /دائرة المعارف العثمانية ، ط ١ ، ١٣٥٣ هـ .

٧- الارشاد الى قواطع الادلة في اصول الاعتقاد ، امام الحرمين ابو المعالي الجويني ، تحقيق محمد يوسف وعلي عبدالمنعم ، مصر / مكتبة الخانجي ، ١٣٦٩هـ - ١٩٥٠ .

٨- اساس التقديس ، فخرالدين الرازي ، مصر / مصطفى البابي الحلبي واولاده ، ١٣٥٤ هـ - ١٩٣٥ م .

٩- الاستخلاف والتركيب الاجتماعي في الاسلام ، د. عبدالجبار السبهاني ، وهي رسالة ماجستير نوقشت في جامعة بغداد / كلية الادارة والاقتصاد ، ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥ م .

١٠- اسرار البلاغة ، عبدالقاهر الجرجاني ، بيروت / دار المعرفة ، ١٣٩٨ هـ ١٩٧٨ م.

١١- الاسماء والصفات ، البيهقي ، المطبوع مع كتاب : فرقان القرآن ، بيروت / دار احياء التراث العربي ، د. ت.

١٢- الاصابة في تمييز الصحابة ، ابن حجر العسقلاني ، دار العلوم الحديثة ط ١ ، ١٣٢٨ هـ.

١٣- اصول الدعوة ، د. عبدالكريم زيدان ، بيروت / مؤسسة الرسالة ، ط ٣ ، ١٤٠٨ هـ -١٩٨٧ .

١٤- اصول الدين . عبدالقاهر البغدادي ، بيروت / دار الكتب العلمية ، ط ٣ ، ١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م .

١٥- اصول الدين الاسلامي ، د. رشدي عليان و د. قحطان الدوري ، جامعة بغداد ، ط٣ ، ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م .
١٦- اعتقادات فرق المسلمين والمشركين ، فخرالدين الرازي ، القاهرة / لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ١٩٣٨ م .
١٧- الاعتقاد والهداية الى سبيل الرشاد على مذهب السلف واصحاب الحديث ، ابو بكر البيهقي ، بيروت / دار الافاق الجديدة ، ط ١ ، ١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م .
١٨- الاعجاز الطبي في القرآن ، د. السيد الجميلي ، بغداد / مكتبة التحرير ، د ت .
١٩- اعجاز القرآن ، ابو بكر الباقلاني ، المطبوع بهامش الاتقان ، بيروت / المكتبة الثقافية ، ١٩٧٣ م .
٢٠- الاعجاز القرآني، بحوث المؤتمر الاول للاعجار القرآني المنعقد في بغداد ، ١٤١٠ هـ - ١٩٩٠ م ، وزارة الاوقاف والشؤون الدينية .
٢١- الاعلام ، خير الدين الزركلي ، بيروت ، ط ٣ ، ١٩٦٩ م .
٢٢- الاقتصاد في الاعتقاد ، حجة الاسلام الغزالي ، بغداد / مكتبة الشرق الجديد ، د ت .
٢٣- الاكليل ، ابن تيمية ، المطبوع ضمن مجموعة الرسائل الكبرى ، المجلد الثاني ، محمد صبيح واولاده ، د ت .
٢٤- الجام العوام عن علم الكلام ، حجة الاسلام الغزالي ، بيروت / دار الكتاب العربي ، ط ١ ، ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٥ م .
٢٥- القام الحجر للمتطاول على الاشاعرة من البشر ، حسن بن علي السقاف ، عمّان / مكتبة الامام النووي ، ط ٢ ١٤١٢ هـ - ١٩٩٢ م .
٢٦- الله يتجلى في عصر العلم ، نخبة من العلماء الامريكيين ، القاهرة / مؤسسة الحلبي وشركاه ، ط ٣ ، د ت .
٢٧- الانتصار والرد على ابن الروندي الملحد ، ابو الحسين الخياط ، بيروت / المطبعة الكاثوليكية ، ١٩٥٧ م .
٢٨- انجيل متي ، المطبوع ضمن "العهد الجديد" ولم اجد عليه اسم المطبعة ولاالتاريخ .
٢٩- اهوال القيامة ، عبدالملك الكليب ، دار الانبار للطباعة والنشر ، ط ٤ ، ١٤١٠ هـ .
٣٠- الايمان ، الحافظ محمد بن اسحاق بن يحيى بن منده ، بيروت / مؤسسة الرسالة ، ط٣ ، ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م .
٣١- الايمان الحق : شهادة وعقيدة وعبادة ، علي جريشة ، جدّة / دار المجتمع ، ط ١ ، ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م .
٣٢- الباقلاني وآراؤه الكلامية ، د. محمد رمضان عبدالله ، العراق / وزارة الاوقاف والشؤون الدينية ، ١٩٨٦ م .

٣٣- البرهان في معرفة عقائد اهل الاديان ، ابو الفضل عباس بن منصور التريني ، السكسكي الحنبلي ، الاردن / مكتبة المنار ، ط ١ ، ١٤٠٨ هـ ، ١٩٨٨ م .
٣٤- بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة ، جلال الدين السيوطي ، القاهرة / عيسى البابي الحلبي ، ١٩٦٥ .
٣٥- تاريخ قضاة الاندلس : ابو الحسن بن عبدالله النباهي ، القاهرة / دار الكتاب العربي ، ١٩٤٨ م .
٣٦- تأويل مختلف الحديث ، ابن قتيبة الدينوري ، بيروت / مؤسسة الكتب الثقافية ، ط١ ، ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م .
٣٧- التبصير في الدين ، ابو مظفر الاسفرائيني ، بيروت / عالم الكتب ، ط١ ، ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ م .
٣٨- تبيين كذب المفترى فيما نسب الى الامام ابي الحسن الاشعري ، ابن عساكر الدمشقي ، بيروت / دار الكتاب العربي ، ١٣٩٩ هـ - ١٩٧٩ م .
٣٩- التذكرة ، القرطبي ، القاهرة / دار الريان ، ط ٢ ، ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م .
٤٠- تذكرة الحفاظ ، شمس الدين الذهبي ، بيروت / دار احياء التراث العربي ، ١٩٥٨ .
٤١- التصوير الفني في القرآن ، سيد قطب ، دار الشروق ، د ت .
٤٢- التعبير القرآني ، د. فاضل السامرائي ، جامعة بغداد / بيت الحكمة د ت .
٤٣- تعريف عام بدين الاسلام ، علي الطنطاوي ، ط ٧ ، ١٣٩٨ هـ - ١٩٧٨ م . ولم اجد في الكتاب دار الطبع .
٤٤- تفسير آيات الصفات ، د. محسن عبالحميد ، لم ينشر بعد .
٤٥- تفسير ابن كثير ، المسمى "تفسير القرآن العظيم" الامام ابن كثير الدمشقي ، بيروت / دار الجيل ، ط ٢ ، ١٤١٠ هـ - ١٩٩٠ م .
٤٦- تفسير الرازي ، المسمى " التفسير الكبير" فخرالدين الرازي ، مصر / المطبعة البهية ، د ت .
٤٧- تفسير الزمخشري ، المسمى "الكشاف" محمود بن عمر الزمخشري ، بيروت / دار الكتاب العربي ، ط ٣ ، ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م .
٤٨- تفسير الطبري ، المسمى "جامع البيان" ابن جرير الطبري ، بيروت / دار الفكر ، ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م .
٤٩- تفسير النسفي ، ابو البركات عبدالله بن احمد بن محمود النسفي ، مصر / عيسى البابي الحلبي وشركاه ، د ت .
٥٠- التمهيد ، ابو بكر الباقلاني ، بيروت / مؤسسة الكتب الثقافية ، ط ١ ، ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م .
٥١- تهافت الفلاسفة ، حجة الاسلام الغزالي ، تحقيق د. سليمان دنيا ، القاهرة / دار

المعارف ، ١٩٦٦ م .

٥٢- تهذيب التهذيب ، ابن حجر العسقلاني / دار صادر ، عن طبعة حيدر آباد الدكن ، ١٣٢٦ هـ .

٥٣- التوحيد ، محمد عبدالوهاب ، المطبوع مع شرحه "فتح المجيد" ، بيروت / دار احياء التراث العربي ، ط ٧ ، ١٣٧٧ هـ - ١٩٥٧ م .

٥٤- التوحيد ، محمد عبده ، بيروت / دار احياء العلوم ، ط ٦ ، ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م .

٥٥- التوحيد واثبات صفات الرب ، ابن خزيمة ، المطبعة المنيرية ، ١٣٥٤ هـ .

٥٦- التوحيد والفرق المعاصرة ، كمال الدين الطائي، العراق / رئاسة ديوان الاوقاف ، ١٣٩٢ هـ - ١٩٧٢ م .

٥٧- ثورة العقل ، د. عبدالستار الراوي ، العراق / وزارة الثقافة والاعلام ، ١٩٨٢ م .

٥٨- جهم بن صفوان ومكانته في الفكر الاسلامي ، خالد العلي ، بغداد / المكتبة الاهلية ، ١٩٦٥ م .

٥٩- الجويني امام الحرمين ، د. فوقية حسين محمود ، المؤسسة المصرية العامة ، د ت .

٦٠- الحق الدامغ ، احمد بن محمد الخليلي ، المفتي العام لسلطنة عمان ، مسقط / النهضة ، ١٤٠٩ هـ .

٦١- حوار صحفي مع جني مسلم ، محمد عيسى داود ، ط١ ، ١٤١٣ هـ - ١٩٩٢ م ، ولم اجد دار الطبع في الكتاب .

٦٢- الخطط ، المسمى "المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والاثار" تقي الدين احمد بن علي المقريزي ، مصر / بولاق ، ١٢٩٤ هـ . واعادت طبعه بالاوفست مكتبة المثنى / بغداد .

٦٣- خلق افعال العباد ، الامام البخاري ، المطبوع ضمن مجموعة "عقائد السلف" ، مكتبة الآثار السلفية ، ١٩٧١ م .

٦٤- درء تعارض العقل والنقل ، ابن تيمية ، المملكة السعودية / جامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية ، ط ١ ، ١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م .

٦٥- دراسات في الفرق والعقائد الاسلامية ، د. عرفان عبدالحميد ، بغداد / مطبعة الارشاد ، ط ١ ، ١٣٨٧ هـ - ١٩٦٧ م .

٦٦- دفاع عن العقيدة والشريعة ضد مطاعن المستشرقين ، محمد الغزالي ، دار الكتب الاسلامية ، ط ٥ ، ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م .

٦٧- دفع شبه التشبيه باكف التنزيه ، ابو الفرج ، ابن الجوزي ، الاردن / دار الامام النووي ، ط ١ ، ١٤١٢ هـ ١٩٩١ م .

٦٨- دلائل الاعجاز ، عبدالقاهر الجرجاني ، دمشق / مكتب سعدالدين ، ط ٢ ،

١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م.
٦٩- دلائل التوحيد ، جمال الدين القاسمي ، القاهرة / مكتبة الثقافة الدينية ، ط ١ ، ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م .
٧٠- الرد على الجهمية ، ابو سعيد الدارمي ، المطبوع ضمن مجموعة "عقائد السلف" مكتبة الآثار السلفية ، ١٩٧١ م .
٧١- الرد على الزنادقة والجهمية ، الامام احمد بن حنبل ، المطبوع ضمن المجموعة السابقة .
٧٢- الرد على المريسي ، ابو سعيد الدارمي ، المطبوع ضمن المجموعة السابقة .
٧٣- الرد على المنطقيين ، ابن تيمية ، بيروت / دار المعرفة د ت.
٧٤- الرسالة الشافية ، عبدالقاهر الجرجاني ، المطبوع ضمن مجموعة "ثلاث رسائل في اعجاز القرآن" مصر / دار المعارف ، د ت .
٧٥- الرسالة التدمرية ، ابن تيمية ، القاهرة / مكتبة التراث الاسلامية ، د ت .
٧٦- سنن ابي داود ، القاهرة / دار الحديث ، ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م .
٧٧- سنن الترمذي ، المسمى "الجامع الصحيح" بتحقيق وشرح احمد محمد شاكر ، بيروت / دار الكتب العلمية ، د ت .
٧٨- السنن الكبرى ، ابو بكر البيهقي ، بيروت / دار صادر ، د ت .
٧٩- السيرة النبوية ، الحافظ ابن كثير الدمشقي ، بيروت / دار الكتب العلمية ، د ت .
٨٠- الشامل في اصول الدين ، امام الحرمين الجويني ، الاسكندرية / منشأة المعارف ، د ت .
٨١- شذرات الذهب في اخبار من ذهب ، ابن العماد الحنبلي ، بيروت ، المكتب التجاري ، د ت .
٨٢- شرح الاصول الخمسة ، القاضي عبدالجبار ، القاهرة / مكتبة وهبة ، ط ١ ، ١٣٨٤ هـ - ١٩٦٥ م .
٨٣- شرح جوهرة التوحيد ، الشيخ عبدالسلام اللقاني المالكي ، بتحقيق محمد محي الدين عبدالحميد ، مصر / المكتبة التجارية ، ط ٢ ، ١٣٧٥هـ - ١٩٥٥ م.
٨٤- شرح جوهرة التوحيد ، محمد اديب الكيلاني و عبدالكريم تنان ، حماة / مكتبة الغزالي ، ١٣٩٢ هـ - ١٩٧٢ م .
٨٥- شرح حديث النزول ، ابن تيمية ، المكتب الاسلامي ، ط ٣ ، ١٩٦١ م .
٨٦- شرح العقائد النسفية ، سعد الدين التفتازاني ، قريمي يوسف ضيا ، در سعادت ، شركةصحافية عثمانية اعادت طبعه بالاوفست مكتبة المثنى / بغداد .
٨٧- شرح العقيدة الطحاوية ، القاضي ابن ابي العز الدمشقي ، مؤسسة الرسالة ، د ت .

٨٨- شرح العقيدة الواسطية لابن تيمية ، محمد خليل هراس ، المملكة العربية السعودية ، الرئاسة العامة لادارات البحوث العلمية والافتاء والدعوة والارشاد ، ١٤٠٧ هـ .
٨٩- شرح المقاصد ، سعدالدين التفتازاني ، بيروت / عالم الكتب ، ط ١ ، ١٤٠٩ هـ - ١٩٨٩ م .
٩٠- صحيح البخاري ، بيروت / دار الفكر ، توزيع دار التربية / بغداد ، ١٩٨٦ م .
٩١- صحيح مسلم بشرح النووي ، بيروت / دار احياء التراث العربي ، د ت .
٩٢- الصفات الخبرية عند اهل السنة والجماعة ، رسالة للباحث ، نوقشت في جامعة بغداد / كلية العلوم الاسلامية ، ١٩٩٢ م .
٩٣- الصفدية ، ابن تيمية ، المملكة العربية السعودية ، مكتبة ابن تيمية ، ١٣٩٦ هـ - ١٩٧٦ م .
٩٤- صون المنطق والكلام عن فن المنطق والكلام ، جلال الدين السيوطي ، مصر / مكتبة الخانجي ، ط ١ ، د ت .
٩٥- طبقات الشافعية ، ابو بكر هداية الله الحسيني ، بيروت / دار الافاق الجديدة ، ط ٢ ، ١٩٧٩ م .
٩٦- طبقات الشافعية ، ابن قاضي شهبة ، بيروت / دار الندوة الجديدة ، ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م .
٩٧- طبقات الشافعية الكبرى ، تاج الدين السبكي ، القاهرة / عيسى البابي ، ١٩٦٦ م .
٩٨- طبقات المعتزلة ، احمد بن يحيى بن المرتضى ، بيروت / دار مكتبة الحياة ، د ت .
٩٩- طريق الهداية في درء مخاطر الجن والشياطين ، عبدالعزيز علي القحطاني ، الكويت / مكتبة دار العلم ، ط ٢ ، ١٤٠٩ هـ .
١٠٠- عالم الجن والشيطان ، عبدالسلام عبدالواحد ، لبنان / طرابلس ، دار الايمان ، ط ١ ، ١٤١٢ هـ - ١٩٩٢ م .
١٠١- العالم والمتعلم ، الامام ابو حنيفة ، تحقيق محمد رواش قلعه جي وعبدالوهاب الهندي ، حلب / مكتبة الهدى ، ط ١ ، ١٣٩٢ هـ - ١٩٧٢ م .
١٠٢- العقيدة الاسلامية واسسها ، عبدالرحمن حسن حبنكة الميداني ، دار القلم ، ط ٢ ، ١٣٩٩ هـ - ١٩٧٩ م .
١٠٣- عقيدة التوحيد في القرآن الكريم ، د. محمد احمد ملكاوي ، وهي رسالة ماجستير طبعت في المملكة العربية السعودية / دار ابن تيمية ، ط ١ ، ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م .
١٠٤- العقيدة واثرها في بناء الجيل ، د. عبدالله عزام ، عمّان / مكتبة الاقصى ، ط ٣ ،

١٤٠٠ هـ - ١٩٨٠ م .

١٠٥- العقيدة والفطرة في الاسلام ، صابر طعيمة ، بيروت / دار الجيل ، ط ١، ١٣٩٨ هـ - ١٩٧٨ م .

١٠٦ - العلم يدعو للايمان ، كريسي موريسون ، ترجمة محمود صالح الفلكي ، ط ٥ ، ١٩٦٥ م .

١٠٧- الغنية في اصول الدين ، ابو سعيد عبدالرحمن النيسابوري المعروف بالمتولي الشافعي (ت ٤٧٨ هـ) ، بيروت / مؤسسة الكتب الثقافية ، ط ١ ، ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٧ م .

١٠٨- فتح الباري شرح صحيح البخاري ، ابن حجر العسقلاني . بيروت / دار الفكر ، د ت .

١٠٩- فتح المجيد شرح كتاب التوحيد ، عبدالرحمن بن حسن آل الشيخ ، بيروت / دار احياء التراث العربي ، ط ٧ ، ١٣٧٧ هـ - ١٩٥٧ م .

١١٠- الفرقان بين الحق والباطل ، ابن تيمية ، المطبوع ضمن مجموعة "الرسائل الكبرى" بيروت / داراحياء التراث العربي ، ط ٢ ، ١٣٩٢ هـ - ١٩٧٢ م .

١١١- الفرق بين الفرق ، عبدالقاهر البغدادي ، بيروت / دار الجيل ودار الافاق الجديدة ، ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٧ م .

١١٢- الفصل في الملل والاهواء والنحل ، ابن حزم الاندلسي ، بيروت / دار الندوة الجديدة ، د ت .

١١٣- الفقه الاكبر ، الامام ابو حنيفة ، بغداد / مطبعة اسعد ، ١٩٩٠ م .

١١٤- فيصل التفرقة ، حجة الاسلام الغزالي ، المطبوع ضمن مجموعة "القصور العوالي" مصر / مكتبة الجندي . د ت .

١١٥- في ظلال القرآن ، سيد قطب ، دار الشروق ، ط ١١، ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م . .

١١٦- القرآن والملحدون ، محمد عزة دروزة ، دمشق / المكتب الاسلامي ، ط ١ ، ١٣٩٣ هـ - ١٩٧٣ م .

١١٧- قرة عيون الموحدين ، عبدالرحمن بن حسن آل الشيخ ، المملكة العربية السعودية / الرئاسة العامة لادارات البحوث العلمية والافتاء والدعوة والارشاد ، ١٤٠٤ هـ .

١١٨- قصة الايمان بين الفلسفة والعلم والقرآن ، نديم الجسر ، بغداد / دار التربية ، د ت .

١١٩- قواعد العقائد ، حجة الاسلام الغزالي ، بيروت / عالم الكتب ، ط ٢ ، ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م .

١٢٠- كشف الظنون عن اسامي الكتب والفنون ، مصطفى بن عبدالله الشهير بحاجي خليفة، بيروت ، دار الفكر .

١٢١- الكواكب الدرية في مناقب المجتهد ابن تيمية ، مرعي بن يوسف الكرمي الحنبلي ، بيروت / دار الغرب الاسلامي ، ط ١ ، ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م .
١٢٢- اللمع في الرد على اهل الزيغ والبدع ، ابو الحسن الاشعري ، مصر / مكتبة الخانجي ، ١٩٥٥ م .
١٢٣- متن السنوسية ، ابو عبدالله محمد بن محمد بن يوسف السنوسي (ت ٨٩٥ هـ) ، المطبوع مع حاشية الباجوري ، مصر / عيسى البابي الحلبي وشركاه ، د ت .
١٢٤- مثل الذين حملوا التوراة ، د. ليلى حسن سعدالدين ، عمان / دار الفكر ، ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٤ م .
١٢٥- مجمل اصول اهل السنة في العقيدة ، د. ناصر بن عبدالكريم العقل ، الرياض / دار الوطن ، د ت .
١٢٦- مجموع فتاوي شيخ الاسلام احمد بن تيمية ، جمع عبدالرحمن محمد العاصمي النجدي الحنبلي ، مكتبة ابن تيمية ، د ت.
١٢٧- مختار الصحاح ، محمد بن ابي بكر الرازي ، الكويت / دار الرسالة ، ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ م .
١٢٨- مختصر الصواعق المرسلة لابن القيم ، محمد بن الموصلي ، بيروت / دار الندوة الجديدة ، ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٤ م .
١٢٩- مختصر العلو للذهبي ، محمد ناصر الدين الالباني ، المكتب الاسلامي ، ط ١ ، ١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م .
١٣٠- المختصر في اصول الدين ، القاضي عبدالجبار ، المطبوع ضمن "رسائل العدل والتوحيد" ، دار الشروق ، ط ٢ ، ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م .
١٣١- المسامرة بشرح المسايرة ، كمال الدين محمد بن محمد المعروف بابن ابي الشريف القدسي ، الشافعي ، مصر / المكتبة التجارية الكبرى ، د ت .
١٣٢- مشاهد القيامة في القرآن ، سيد قطب ، ايران / دار الكتاب الاسلامي ، د ت .
١٣٣- مشكل الحديث ، ابن فورك ابو بكر محمد بن الحسن الاصبهاني (ت ٤٠٦ هـ) ، حيدر آباد الدكن/ دائرة المعارف العثمانية ، ط٢ ، ١٣٩١ هـ - ١٩٧٠ م .
١٣٤- المضنون به على غير اهله ، حجة الاسلام الغزالي ، المطبوع ضمن مجموعة "القصور العوالي" ، مصر / مكتبة الجندي ، د ت .
١٣٥- مطابقة علم الاجنة لما في القرآن والسنة ، د. ناطق النعيمي ، جامعة الموصل ، ١٩٩١ م .
١٣٦- مع الانبياء في القرآن الكريم ، عفيف عبدالفتاح طبارة ، بيروت / دار العلم للملايين ، ط ١٥ ، ١٩٨٥م .
١٣٧- المعتزلة بين الفكر والعمل ، علي الشابي وابو لبابة حسن وعبدالمجيد النجار ،

تونس / الشركة التونسية ، ط ٢ ، ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م .
١٣٨- معجم القراءات القرآنية ، د. عبدالعال سالم مكرم و د. احمد مختار عمر ، جامعة الكويت ، ط ٢ ، ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م .
١٣٩- معجم المؤلفين ، عمر رضا كحالة ، دمشق / الترقي ، ١٩٦٠ م .
١٤٠- المغني عن حمل الاسفار في الاسفار في تخريج ما في الاحياء من الاخبار ، العراقي ،المطبوع بهامش الاحياء ، عيسى البابي الحلبي وشركاه ، د ت .
١٤١- مفتاح السعادة ومصباح السيادة ، احمد بن مصطفى الشهير بطاش كبرى زادة ، بيروت / دار الكتب العلمية ، ط١ ، ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م .
١٤٢- المفسرون بين التأويل والاثبات في آيات الصفات ، محمد عبدالرحمن المغراوي ، الرياض / دار طيبة ، ط ١ ، ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م .
١٤٣- المقاصد النووية السبعة ، الامام النووي ، بغداد / مطبعة العاني ، ط ٢ ، د ت .
١٤٤- مقالات الاسلاميين ،ابو الحسن الاشعري ، دار الحداثة ، ط ٢ ، ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م .
١٤٥- مقدمة ابن خلدون ، بيروت / دار الجيل ، د ت .
١٤٦- الملائكة ، سعيد النورسي ، ترجمة احسان قاسم الصالحي ، الموصل / مطبعة الزهراء الحديثة ، ط ١ ، ١٤٠٤ هـ - ١٩٨٤ م .
١٤٧- الملل والنحل ، عبدالكريم الشهرستاني ، المطبوع بهامش كتاب الفصل لابن حزم ، بيروت / دار الندوة الجديدة ، د ت .
١٤٨- المنتظم في تاريخ الملوك والامم ، ابو الفرج ابن الجوزي ، بغداد / الدار الوطنية ، ١٩٩٠ م .
١٤٩- المنقذ من الضلال ، حجة الاسلام الغزالي ، الجامعة السورية ، ط ٥ ، ١٣٧٦ هـ - ١٩٥٦ م .
١٥٠- المواقف ، عضد الدين الايجي ، بيروت / عالم الكتب ، د ت .
١٥١- ميزان الاعتدال في نقد الرجال ، الذهبي ، القاهرة : ١٣٨٢ هـ - ١٩٦٢ م .
١٥٢- النبوات ، ابن تيمية ، تحقيق محمد عبدالرحمن عوض ، بيروت / دار الكتاب العربي ، ط ١ ، ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م .
١٥٣- النزول ، الحافظ ابو الحسن الدارقطني ، تحقيق د. علي الفقيهي ، ط١ ، ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ م ، ولم اجد دار الطبع .
١٥٤- النكت في اعجاز القرآن ، علي بن عيسى الرماني ، المطبوع ضمن مجموعة "ثلاث رسائل في الاعجاز" ، مصر / دار المعارف ، د ت .
١٥٥- نهاية الاقدام في علم الكلام ، محمد عبدالكريم الشهرستاني ، تحقيق الفرد جيوم الموجودة في المكتبة المركزية لجامعة بغداد ولم اجد عليها دار الطبع ولا التاريخ .

١٥٦- النورسي الرائد الاسلامي الكبير ، د. محسن عبدالحميد ، موصل / مطبعة الزهراء ، ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٧ م .

١٥٧- هكذا علّم الانبياء لا اله الا الله ، سلمان بن فهد العودة ، الرياض / دار الوطن ، ط ١ ، ١٤١٣ هـ .

١٥٨- الهدى والبيان في اسماء القرآن ، صالح بن ابراهيم البليهي ، الرياض / المطابع الاهلية ، ط ١ ، ١٣٩٧ هـ .

١٥٩- وفيات الاعيان واخبار الزمان ، ابو العباس بن خلكان ، تحقيق محمد محي الدين عبدالحميد ، مطبعة السعادة ، ط ١ ، ١٩٤٨ م .

١٦٠- اليوم الآخر ، د. عمر سليمان الاشقر ، الكويت / مطبعة الفلاح ، ط ٢ ، ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ .

الفهرست

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة